تراجم رجال القرنين

السادس والسابع

«المعروف بالذيل على الروضتين»

للحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل
المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي

دار الجيل

بيروت

تراجم رجال القرنين

السادس والسابع

« المعروف بالذيل على الروضتين »

للحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل
المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي
المتوفى سنة ٦٦٥ هـ

عرف الكتاب، وترجم للمؤلف، وصححه

مولانا الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة

محمد زاهد بن الحسن الكوثري

وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

عني بنشره، وراجع أصله، ووقف على طبعه

السيد عزت العطار الحسيني

مؤسس ومدير مكتب نشر الثقافة الإسلامية
من أقدم عصورها إلى الآن

« روجع على النسخة الفوتوغرافية المحفوظة »
« بدار الكتب الملكية بالقاهرة »

دار الجيل

بيروت

اهداء الكتاب

« الى الروح الطاهرة الكبيرة التى كانت تهيم بفعل الخير وتتفانى فى »
« اسداء المبرات والخيرات ، الى من ظل طول حياته مثالا لكرم »
« النفس واليد ، وعفة اللسان وطهارة الخلق . الى من نفع العالم »
« الإسلامى وبلاده بعلمه وجاهه ، الى من أحببته وأحبه كل من »
« عرفه لبقاء قلبه ، ودماثة خلقه ، الى المغفور له المبرور ساكن »
« الجنان المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ »
« الأزهر السابق اهدى هذا الكتاب إحياء لذكره ووفاء بحقه بعد »
« موته . واعترافا بفضله وفضل بيته الرفيع العماد الخالد الآثار . »

المخلص الحزين

السيد عزة العطار الحسينى الدمشقى

الطبعة الاولى ١٩٤٧

الطبعة الثانية ١٩٧٤

كلمة عن « ذيل الروضتين »
ومؤلفه أبي شامة

لا يخفى انه اذا انقرضت دولة كبيرة في قرن من القرون يشعر الباحث بفراغ كبير في وسائل معرفة تاريخ ذلك القرن فلا يهتدي الى تراجم رجاله ولا الى جلية أنبائه بسهولة من غير أن يكد ويتعب ، وذلك لفقد انتاج أهل العلم في أثناء الفتن الشاغلة ، والتهام نار الكوارث لغالب منتجات العلماء اذ ذاك على قلتها

فدونك القرن السابع الذي انقرضت في أواسطه الدولة العباسية ببغداد تجد فيه الفراغ ظاهراً جداً من تلك الناحية ومن هنا تتضاعف أهمية كتاب « ذيل الروضتين » لابي شامة لانه ليس تكملة فقط لاخبار الدولتين النورية والصلاحية اللتين هما أنشط الدول الاسلامية في الذب عن حوزة الاسلام في تلك القرون ، وأحرصها على الاحتفاظ بالطابع الاسلامي في شؤون الحكم كلها بكل اخلاص : بل فيه ما يسد أجل حاجة الباحث في أنباء القرن المذكور وفي تراجم رجاله ، فالعلم لا يعرف التحيز فشكراً باسم العلم لناشره - السيد عزت العطار الحسيني الدمشقي - في هذه الفترة

<u>اسم المؤلف ، ومولده ، وشيوخه ، وتلاميذه</u> : هو الامام الحافظ المؤرخ الثقة ، الفقيه البارع ، اللغوي المقرىء أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الاصل الدمشقي ، ولد في احد الربيعين من سنة ٥٩٩ وتلقى العلم من أمثال : العلم السخاوي ، والعز بن عبد السلام ، والموفق المقدسي ، وأبي اسحاق بن الخشوعي ، وداود بن ملاعب ، وكريمة . وأخذ عنه أمثال : الشرف الفزاري والشهاب الكفري ، وابراهيم بن فلاح الاسكندري .

لقب بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الايسر .

<u>براعته في العلوم</u> : كان بارعا في علوم الحديث ، والقراءة ، والفقه ، والتاريخ ، والعربية اماما فيها . يترجم له في طبقات الحفاظ ، والفقهاء ، والقراء ، واللغويين بالثناء البالغ عليه في تلك العلوم وكان التاج الفزاري الفقيه الشافعي المشهور يقول : عجبت من أبي شامة كيف قلد الشافعي . يريد أنه بلغ رتبة الاجتهاد ومع ذلك استمر على الانتساب للامام الشافعي وكان له ميل الى كتب ابن حزم

<u>مؤلفاته</u> : مؤلفاته في العلوم ممتعة كثيرة منها : المحقق في الاصول ، والمرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، وضوء الساري الى معرفة الباري ، والحديث المقتفي في مبعث المصطفى ، والمؤمل في الرد الى الامر الاول ، والباعث على انكار البدع والحوادث ، وكتاب السواك ، وكتاب الاسراء الكبير والصغير ، وشرح الشاطبية الكبير والصغير ، ومفردات القراء ، ونور المسرى في تفسير آية الاسرا ، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر في خمسة عشر مجلداً ، وآخر في خمسة مجلدات ، وكشف حال بني عبيد « الفاطمية » والروضتين في أخبار الدولتين ، وذيل الروضتين هذا ، ونظم المفصل للزمخشري ، وشرح

المفصل، ومقدمة في النحو، وأرجوزة في العروض والقوافي، وغير ذلك. وولي مشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية ومشيخة الحديث بدار الحديث الأشرفية بدمشق.

أقوال المؤرخين فيه ووفاته: قال الذهبي: كان مع براعته في العلوم متواضعا، تاركا للتكلف، ثقة اهـ

وقال ابن ناصر الدين: كان شيخ الإقراء، وحافظ العلماء، حافظا ثقة، علامة مجتهدا، وقال الإسنوي: جرت له محنة في سابع جمادى الآخرة سنة خمس وستين وستمائة في داره بطواحين الأشنان إذ دخل عليه رجلان جبليان في صورة مستفتيين ثم ضرباه ضربا مبرحا. ولم يزل عليلا من هذا الضرب إلى أن توفي في ١٩ رمضان سنة ٦٦٥ - وما في تذكرة الحفاظ سهو من الطابع - ودفن خارج باب الفراديس بدمشق، ضاعف الله أجوره، وأسكنه في أعلى غرف الجنة، وغفر لنا وله ونفعنا بعلومه.

وترجمته مستوفاة في طبقات «الحفاظ للذهبي» و«مرآة الجنان لليافعي» و«طبقات الشافعية» للتاج السبكي و«طبقات القراء» للجزري و«بغية الوعاة للسيوطي» و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي وغيرها.

محمد زاهد الكوثري

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

الحمد لله الذى انفرد بالبقاء وكتب على غيره الزوال ، وجعل الدنيا متنقلة لاتدوم على حال ، وقضى على أهلها بالإدبار والإقبال . فكم ممن يؤمل الآمال فتحرمه دونها الآجال . وكم ممن تفجأه النوال ولم يكن يخطر له ببال . وصلى الله على خير خلقه من الملائكة والنبيين ، وآلهم الطاهرين ، وكرم نبينا خاتم الأنبياء وصحبه وآله سادة الأولياء .نعم الصحب وحبذا الآل

أما بعد فان فى مطالعة كتب التواريخ معتبرا ، وفى ذكرها عن الغرور مزدجرا . لاسيما إذا ذكر بعض من مات فى كل عام من المعارف والإخوان ، والأقارب والجيران . وذوى الثروة والسلطان ، فان ذلك مما يزهد ذوى البصائر فى الدنيا . ويرغبهم فى العمل للحياة العليا . والاستعداد لما هم ملاقوه ، والاقلاع عما هم عن قليل مفارقوه .

وكان قد سهل الله تعالى على ، وحبب إلى إلى أن جمعت فى كتاب الروضتين ، كثيرا من الحوادث الواقعة فى زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما وأصلح مابعدهما وانتهى ذلك إلى السنة التى توفى فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى وهى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وذكرت تبعا لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم ،

ثم خطر لى أن أجمع كتابا يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ماتدركه حياتى ختمها الله بالعمل الصالح والفضل الراجح ، وكان فيما حملنى على ذلك كثرة موت المعارف فأردت اثباتهم لعلى بمطالعتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف .

ولقد بلغنى أن بعض الوعاظ ببلاد العرب وعظ فقال كلاما معناه : ايها الناس كيف حالكم لو أن السلطان نادى فيكم أنه عازم على أن يقتل كل يوم منكم جماعة أما كانت الأرض عليكم تضيق؟ وحسب كل أحد أنه فى غد من ذلك الفريق ، فكيف لا تعقلون . وهذا الموت يأخذ منكم كل يوم ما تشاهدون وأنتم فى غفلة أفلا تعقلون .

قال : فأكثر الناس من البكاء . ثم ما أغنى ذلك شيئا . فيالها موعظة لو صادفت قلبا حيا ،

فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التى تتلو سنة وفاة صلاح الدين فذكرت فيها وفيما بعدها مافاتنى ذكره فى كتاب الروضتين سنة بعد سنة .

ونسأل الله الكريم بفضله محو السيئة وتضعيف الحسنة وسميته (الذيل على الروضتين) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين .

سنه ٥٩٠ هـ :

ففيها استعادت الفرنج خذلهم الله حصن جبيل بمعاملة من كردى فقيه كان فيه فى مستهل صفر . وفيها وصل العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر فى صفر لأخذ الشام وأقام يحاصرها عشرة أشهر وقطع الماء عنها .

ووصل العادل من الشرق فاجتاز بحلب وصعد إلى قلعتها وبات بها واستخلاص ولديه وبنى عمه كبراء البارزقية من اعتقال الظاهر صاحبها . ثم سار إلى دمشق معينا لاخيه الأفضل فأصلح بينهما على أن للعزيز من بيسان إلى إلى أسوان . وقدم الظاهر من حلب أيضاً ثم عاد كل إلى بلاده . وتزوج العزيز بابنة عمه العادل .

وأخذ الملك الأفضل من الفرنج فى هذه السنة جبلة واللاذقية وفيها كانت محنة الشيخ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الواعظ . وشى به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضىء بأمر الله اختلفوا فيه وكان الزمان صيفاً . فبينا هو جالس فى السرداب يكتب جاءه من اسمعه غليظ الكلام وختم على كتبه وداره وشتت عياله . فلما كان أول الليل حملوه فى سفينة وحدروه إلى واسط خمسة أيام ما أكل طعاما إلى واسط ، وكان قدقارب ثمانين سنة فأقام فى دار درب الديوان وعلى بابه بواب فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ، ويطبخ ويستقى الماء من البئر ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط . ولما عاد إلى بغداد كان يقول قرأت بواسط مدة مقامى كل يوم ختمة ماقرأت فيها سورة يوسف من حزنى على ولدى يوسف . وكان يكتب إلى بغداد أشعارا كثيرة .

وفيها : توفى القزوينى الواعظ واسمه أحمد بن اسماعيل بن يوسف وكنيته أبو الخير الشافعى . تفقه بنيسابور على محمد بن يحيى صاحب الغزالى وسمع بها وبغيرها الحديث من أبى عبد الله الفراوى ، وأبى القاسم الشحامى ، وأبى محمد البيهقى وغيرهم ، وكان عالما بالتفسير والفقه متعبداً وكان يختم القرآن كل يوم مرة . ولد بقزوين سنة اثنى عشرة وخمسمائة . وقدم بغدادحاجا سنة خمس وخمسين وخمسمائة فوعظ بالنظامية ومال إلى مذهب الأشعرى رحمه الله وجلس يوم عاشوراء فقيل له العن يزيد بن معاوية . فقال ذاك إمام مجتهد ففجأه أحدهم فكاد يقتل . فسقط عن المنبر فأدخل بيتا من النظامية . ثم أخرجوه إلى قزوين فمات بها فى المحرم .

وفيها :قتل السلطان طغريل شاه بن ارسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه وهو آخر الملوك السلجوقية سوى صاحب الروم وهو الذى كان عسكر الخليفة على همذان وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشاً مقدمه وزيره ابن يونس فكسرهم طغريل ومزقهم كل ممزق ، وأخذ ابن يونس وكان محلوق الرأس فأحضروه بين يدى السلطان وألبسوه طرطورا أحمر فيه جلاجل وجعل يضحك عليه وذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة فهابه الملوك ثم إن خوارزم شاه سار إليه فى عساكره والتقيا على الرى فقتل وقطع رأسه وبعث إلى بغداد فدخلوا به فى جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشققة وسنجقه وراءه مكسور منكس وكان من أحسن الناس صورة ثم رد إلى خزانة الرؤس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنيه وبقى الرأس إلى سنة إحدى وستمائة فوقع حريق فى خزانة الرؤس فاحترق الجميع . وكان عدة الملوك السلجوقية نيفا وعشرين ملكا أولهم طغريل الذى أعاد الغنائم إلى بغداد وآخرهم هذا . ومدة ملكهم مائة وستون سنة .

وفيها : فى جمادى الآخرة توفى بالقاهرة الشيخ الشاطبى العالم الزاهد ناظم القصيدة فى القراءات السبع رحمه الله ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية بسارية . وقد زرت قبره . وشاطبة المنسوب هو إليها مدينة بالمغرب شرق الأندلس . أخبرنى شيخنا أبو الحسن على بن محمد (١) رحمه الله أن سبب انتقاله من بلاده إلى الديار المصرية أنه أريد على أن يتولى الخطابة بها فاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليه فتركها ولم يرجع إليها تورعا مما كان يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها سائغة شرعا . وصبر على فقر شديد وسمع بالاسكندرية على الحافظ أبى طاهر السلفى، ثم قدم القاهرة فطلبه القاضى الفاضل للاقراء بمدرسته فأجاب بعد شروط اشترطها عليه على ما كان فيه من الفقر . وقدم بيت المقدس زائراً قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان واعتكف . قال لى الشيخ أبو الحسن : سمعته وقد جاءه رجل يودعه والرجل عازم على المسير إلى القدس فقال: ذكر الله عنا ذلك الموضع بخير . وقال لا أعلم موضعا أقرب إلى السماء منه بعد مكة والمدينة قال الشيخ : فعلمت أنه رزق ثم قبولاً وقال : اقطع بأنه كان مكاشفا وأنه سأل الله تعالى كتمان حاله ما كان أحد يعلم أى شيء هو. قلت : وقد ذكرت طرفا صالحا من أخباره وأوصافه فى أول شرحى الكبير لقصيدته الكبرى وأخبرنى عنه جماعة من أصحابه رحمهم الله تعالى .

سنة ٥٩١ هـ :

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وفيها قدم العزيز بن صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية نزل على الفوار فى شهر رمضان ثم رحل إلى مصر لما سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل وأخيه الأفضل فرحل عائداً إلى مصر وتبعاه إلى القاهرة وخرج الفاضل فأصلح الحال فدخل العادل مصر مع العزيز دون الأفضل إلى الشام . وفيها : حج بالناس من بغداد سنجر الناصرى ، ومن الشام سراسنقر، وايبك فطيس الصلاحيان ، ومن مصر الشريف اسماعيل بن تغلب الجعفرى من ولد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه .

وفيها : كانت بالمغرب وقعة الزلاقة وكانت وقعة عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنس (٢) ملك طليطلة ، وكان الفنس قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولاتها ، وكان يعقوب بير العدوة مشغولا عن نصرتهم بالخوارج الخارجين عليه وبينه وبين الأندلس زقاق سبتة وعرضه ثلاثة فراسخ ويحتاج فى عبوره إلى مشقة عظيمة ، وطمع الفنس فى المسلمين بهذا السبب وكتب إلى يعقوب ينحيه عن العبور إليه فسار إلى زقاق سبتة فنزل عليه ، وجمع الشوانى ، والمراكب وعرض جيشه فكانوا مائتى ألف مقاتل :مائة ألف يأكلون من الديوان ، ومائة الف مطوعة وعبر الزقاق إلى مكان يقال له الزلاقة وجاءه الفنس فى مائتى ألف وأربعين ألفاً من أعيان الفرنج والمقاتلة والتقوا فنصر الله المسلمين وهرب الفنس فى نفر يسير إلى طليطلة ، وغنم المسلمون ما كان فى عسكره فكان عدة من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألفا ، وعدة الاسارى ثلاثين ألفا ، ومن الخيام مائة ألف

(١) هو العلم السخاوى .ز.

(٢) ولعل هذا هو الصواب وان قيده بعضهم بلفظ اذوفنش .ز.

خيمة وخمسون ألفا ، ومن الخيل ثمانون ألفا ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير اربعمائة ألف حمار يحمل أثقالهم لأنهم لاجمال عندهم ، ومن الأموال والجواهر والثياب مالا يحد ولا يحصى ، و بيع الأسير بدرهم . والسيف بنصف درهم ، والحصان بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم . وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة فاستغنوا إلى الأبد . ووصل الفنس إلى طليطلة على أقبح حال وحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وآلى أن لاينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثار وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعد . وقيل أنها كانت هذه الواقعة فى سنة تسعين وخمسمائة والله أعلم .

سنة ٥٩٢ هـ :

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وفيها : نقل تابوت صلاح الدين رحمه الله من القلعة إلى التربة المستجدة له شمالى الجامع . وفيها : قدم العزيز إلى الشام مرة ثالثة مع العادل ونزلا على جسر الخشب وانفصل الحال على أن خرج الأفضل منها إلى صرخد وتسلمها العزيز وسلمها إلى عمه العادل وأسقط مكوسها والخطبة والسكة باسم العزيز . وأخذت قلعة بصرى من الظافر خضر بن صلاح الدين . ورجع العزيز إلى مصر . وفيها : حج من مصر الشريف بن تغلب فى جماعة من الأعيان وأنفق أموالا كثيرة

وفيها : بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا ووقع على الناس رمل أحمر ووقع من الركن اليمانى قطعة وتجرد البيت الحرام مرارا .

وفيها : فى غرة شعبان كسر عسكر الخوارزم شاه الأحول والد علاء الدين بن محمد وكان مقدمه مملوكا له عسكر الخليفة فى عشرين ألفا مقدمه ابن القصاب وزير الخليفة فكسروا أشنع من كسرة ابن يونس . عادوا إلى بغداد عرايا جياعا ، وقطع رأس الوزير وبعث به وباعلام الخليفة والخزائن وكانت الكسرة على باب همذان وكان خوارزم شاه قد قطع جيحون فى خمسين ألفا ثم وصل همذان وشحن على البلاد إلى باب بغداد وبعث إلى الخليفة يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت ويجىء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت السلجوقية فانزعج الخليفة وأهله ، وغلب الأمصار وقيل أن خوارزم شاه توفى فى هذه السنة . وقيل فى سنة ست وتسعين كما سيأتى .

وفيها : كانت وقعة أخرى ليعقوب بن يوسف مع الفنس ، وكان الفنس قد جند وجمع جمعا أكثر من الأول والتقوا فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة وضربها بالمجانيق وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والدة الفنس وبناته ونساؤه وأهله وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن به ووهب لهن المال والجواهر وردهن مكرمات بعد القدرة ، ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس . وعاد إلى قرطبة فأقام شهراً يقسم الغنائم وجاءته رسل الفنس تسأله الصلح فصالحه مدة وأمن أهل الأندلس . وقيل أن هذه الوقعة كانت سنة إحدى وتسعين .

وفيها : توفى عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء ويلقب بالاثير هبة الله هو : الوزير الذى قتلته الباطنية وهو خارج الى الحج فى أيام المستضىء ، وكان عبيد الله فاضلا عاقلا ومن شعره :

إن حاول الدهر اخفائى فان له ... فى حبسى الآن سراً سوف يبديه
أعدنى للعلا ذخراً وعزنى ذخرت ... يداه فى الدهر شيئا فهو يخفيه

وفيها: توفى محمد بن أحمد بن يحيى أبو منصور ويعرف بابن باقة ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسمائة، وأشتغل بالادب . ومات ببغداد وحمل الى الكوفة ، وكان أبوه فاضلا أيضا فمن شعره :

وكم شامت بى ان هلكت بزعمه وجاذب سيف عند ذكر وفاتى
ولو علم المسكين ماذا يصيبه من الذل بعدى مات قبل مماتى

وفيها: قتل الوزيرابن القصاب المقدم ذكره وهو :أبو الفضل محمد بن على بن أحمد ولقبه مؤيد الدين أصله من شيراز وقدم بغداد سنة أربع وثمانين واستخدم فى ديوان الانشاء ثم ترقى الى الوزارة وقرأ الأدب على ابى السعادات ابن الشجرى . وكان داهية له خبرة بامور الحرب وفتح البلاد ، وكان الناصر الخليفة يثنى عليه ويقول : لوقبلوا من رأيه ماجرى ماجرى.ولقداتعب الوزراء بعده وكان الخليفة قد سلم اليه ابن يونس استاذ الدار لما قبض عليه فسلمه ابن القصاب الى ولده احمد . ولما خرج عن بغداد كتب الوزير الى ابنه احمد وهى له :

يا خازن النار خذ إليك ابا السائب حلف الفضول والحمق
ولا تكله الى زبانية يأخذهم بالخداع والملق
فلست تدرى اى ابن زانية عندك ملق فى القد والحلق

وقيل إن رأس المؤيد ابن القصاب دفن بالرى بعد أن طافوا به البلاد . ومن العجائب انه وصل خبره مع الركابية يوم الجمعة رابع عشر شعبان وقد اجتمع على باب ولده شمس الدين احمد ارباب الدولة ليعبروا فى خدمته الى تربة الخلاطية نيابة عن ابيه فجاء خادم من عند الخليفة فرد بابه وصرف ارباب الدولة عن بابه ونقل ابنه من دار الوزارة التى تتابل باب المتولى واسكنها ناصر بن مهدى .

وفيها: توفى ابوشجاع محمد بن على بن شعيب بن الدهان الفرضى الحاسب البغدادى ، وكان فاضلا وصنف تاريخا من سنة عشر وخمسمائة الى هذه السنة ، وكانت وفاته بالحلة السيفية ، وكان قدم الشام ومدح الشيخ تاج الدين الكندى واسمه زيد بن الحسن رحمهما الله تعالى بأبيات حسنة فقال :

لا بدل الله حالا قد حباك بها ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو انت احق العالمين به أليس باسمك فيه يضرب المثل

وفيها : فى رجب توفى ابن المعلم الشاعر واسمه ابو الغنائم محمد بن على بن فارس الهرثى (والهرث بضم الهاء وسكون الراء وآخره ثاء مثلثة قرية تحت واسط فى نهر جعفر بينها وبين واسط عشر فراسخ)توفى ابن المعلم بها واصله منها وكان رقيق الشعر ، مليح المعانى اكثر فى الغزل ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب اليه . ومولده سنة احدى وخمسمائة . ومدح الامراء والرؤساء والاعيان وديوانه مشهور ومن شعره :

يانازلين الحمى رفقا بقلب فتى إن صاح للبين داع باح مضمره
لا تحسبوا الصد عن عهدى يغيرنى غيرى ملازمة البلوى تغيره
وما ذكرتكم إلا وهمت جوى وآفة المبتلى فيكم تذكره
يزداد فى مسمعى تكرار ذكركم طيبا ويحسن فى عينى تفكره (١)

(١) وفى نسخة تكرره .ز.

وقال ابن المعلم : اجتزت ببغداد بباب بدر تحت منظرة الخليفة وقد ازدحم الناس فقلت ماهذا ؟ قالوا : الشيخ ابو الفرج ابن الجوزي جالس فزاحمت الناس حتى شاهدته وهو يعظ فاستشهد بهذا البيت :

يزداد في مسمعي تكرار ذكركم

ثم قال : لقد احسن ابن المعلم حيث يقول هذا البيت قال فتعجبت حيث اتفق حضوري وانشاد الشيخ هذا الشعر ولم يعرفني هو ولا احد من الحاضرين .

وفيها: في ثالث صفر توفي الفخر النوقاني الشافعي واسمه محمد بن ابي علي ولد سنة عشر وخمسمائة ، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي ، وقدم بغداد فاستوطنها وولي التدريس بمدرسة ام الخليفة المجاورة لتربتها عند قبر معروف ، وكان فاضلا مناظرا ، وله تصانيف وجدل . خرج حاجا وعاد الى الكوفه وهو مريض فتوفي بها ودفن بمشهد امير المؤمنين .

وفيها: توفي الصدر ابن الخجندي واسمه محمد بن عبد اللطيف بن محمد ابو بكر رئيس اصبهان وابن رئيسها وبيته مشهور بالرئاسة والتقدم والجاه العظيم . قدم بغداد في سنة ثمان وثمانين فانعم عليه الخليفة انعاما كثيراً وقربه وخلع عليه واحترمه وولاه تدريس النظامية واوقافها . فلما خرج الوزير ابن القصاب الى همذان خرج معه ودخل معهم الى اصبهان ، وولى ابن القصاب سنقر الطويل اصبهان . وكان ابن الخجندي ليس على يده يد لحسده سنقر الطويل على مكانته لجرت بينهما منافرة . وقيل اتهموه بمكاتبة خوارزم شاه فذبحوه .

وفيها :توفي المجير مدرس النظامية واسمه محمود بن المبارك بن علي بن المبارك ابو القاسم ولد في رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة واشتغل بالاصولين والمذهب وعلم النظر ، والحساب وبرع فيها وقرا على ابي الفتوح الاسفرايني وغيره وسمع الحديث وكان تفقه اولا على مذهب أحمد بن حنبل ثم انتقل الى مذهب الشافعي ، واعطى تدريس النظامية وخرج الى همذان فتوفي بها في ذي القعدة وسمع قاضي المارستان ، وابا القاسم ابن السمرقندي ،والانماطي وغيرهم وكان صالحا ديناً ثقة .

وفيها : توفي زعيم الدين ابن الناقد واسمه نصر بن علي بن محمد ابو طالب ولي حجبة الباب ثم ولي صاحب ديوان ، ثم ولي المخزن وهو الملقب بقنبر وانما لقب بقنبر لانه صاد ولده قنبرا وخبأه الى جانب مسنده فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر فلقب به ، وكان اذا بلغه ان احداً لقبه قنبر يسعى في هلاكه وقيل انه كان يميل الى التشيع ، وكانت عمامته طويلة فلقبه اهل باب الازج قنبر (وهو ذكر العصافير)وكان اذا ركب صاحوا : قنبر قنبر . وقرب العيد فأمره الخليفة بالركوب في صدر الموكب فجمع العوام قنابر كثيرة وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب وقيل للخليفة ان وقع هذا بقي الموكب هتكة فعزله وولى ابا سعيد بن المعوج

وفيها : في جمادى الآخرة من نقل الخبر بوفاة سابق الدين عثمان صاحب شيزر بها الى دمشق ، وعمل عزاه بالكلاسة وهو احد اولاد الداية الاربعة وامهم داية نور الدين ابن زنكي رحمه الله تعالى .

سـنة ٥٩٣ هـ :

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين فيها : فتح الملك العادل يافا في شوال بالسيف واستولى على من فيها قتلا ونهبا وسلبا ثم أمر بهدمها فرميت حجارتها في البحر في مينائها . ومن عجيب مابلغني انه كان في قلعتها من الخيالة اربعون فارسا من الفرنج العزب البحرية ، فلما تحققوا نقب القلعة واخذها دخلوا الى

كنيستها واغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض الى ان هلكوا جميعا وكسر المسلمون الباب وهم يرون الفرنج ممتنعين فألفوهم قتلى عن آخرهم فتعجبوا من حالهم .

وفيها : عاد الاسطول المصرى الى القاهرة غانما بسبعين فارسا بذل احدهم فى فدائه ثمانين الف دينار .

وفيها : استعادت الفرنج خذلهم الله قلعة بيروت من نواب أسامة .

وفيها : قدم حسام الدين ابو الهيجاء السمين بغداد وخرج الموكب للقائه فى زى عظيم رتب الاطلاب على ترتيب الشام ، وكان فى خدمته عدة من الامراء وكان معه ولد اخيه عز الدين كور الفرس ، وكان رأسه صغيرا وبطنه كبيرا جدا بحيث كان على رقبة البغلة وكان قد رآه عند الخربية رجل كواز فعمل فى ساعته كوزا على شكله وسبقه فعلقه فى السوق فلما اجتاز به ضحك ، وعمل بعد ذاك اهل بغداد كيزانا وسموها ابا الهيجاء السمين على صورته ، وأنزله الخليفة بدار العميد غربى بغداد بعد أن عبر الى الجانب الشرقى وقبل عتبة باب النوبى واكرمه الخليفة وقام له بالضيافات ثم امره ان يجرد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة الى همذان فجرد جماعة ، فلما بعدوا عن بغداد نهبوا خزانة الخليفة وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا الى الموصل والجزيرة وعاد عسكر الخليفة الى بغداد وقد خرجوا فنقله الخليفة الى الجانب الشرقى الى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق قبل نور الدين ابن زنكى. وهو: مجير الدين ابق ووكل به ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية والعمامة السوداء والقباء الاسود وبين يديه الخيل بمراكب الذهب وسار الى همذان .

وفى عاشر محرم : توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن ايوب اخت عز الدين فرخشاه وهى التى تنسب اليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر وفيها دفنت . وفى تاسع عشر شوال : توفى عمها سيف الاسلام طغتكين بن ايوب بموضع يعرف بالحمراء باليمن وولى اليمن بعده ابنه اسماعيل فسفك الدماء ثم ادعى الخلافة وانتسب الى بنى امية فقتل . وفى ثانى عشر ذى الحجة : توفيت والدة الملك العادل بدارها من دمشق المجاورة لدار أسد الدين شيركوه .

وفيها : حج عز الدين سامة من الشام وله آثار بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم من القناة وعمارة القبة على قبر امير المؤمنين عثمان رضى الله عنه . وفيها : توفى احمد بن عيسى الهاشمى والد الواثق بالله ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الظاهرى وكان شاعرا فاضلا فمن شعره ما اعتذر به عن الاكتحال يوم عاشوراء :

لم اكتحل فى صباح يوم أريق فيه دم الحسين
إلا لحزنى وذاك أنى سودت حتى بياض عينى

وكانت وفاته فى ذى القعدة عن ثمانين سنة ودفن بباب حرب .

وفيها : توفى الحسن بن على بن حمزة ابو محمد بن الاقساسى النقيب الطاهر نقيب العلويين ببغداد كان فاضلا أديبا وقال نمت ليلة عن صلاتى فرأيت أمير المؤمنين عليا عليه السلام فى جامع الكوفة وحوله جماعة فسلمت عليه فلم يرد على ودفعنى بيده فخطر لى أنه بسبب نومى عن الصلاة .

وفيها : توفى صندل بن عبد الله الخادم المقتفوى ويلقب عماد الدين كان اكبر الخدم واعقلهم ارسله الخليفة الناصر الى صلاح الدين مرارا . وكان كثير الصدقات والخير وولى ناظرا بواسط ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد ودفن بالتربة التى انشأها عند الجامع غربى بغداد .

وفيها : توفى ابن الباقلانى، واسمه عبد الله بن منصور بن عمر بن أبى بكر ولد سنة خمسمائة وقرأ بواسط على أبى العز محمد بن الحسين بن بندار القلانسى وغيره وانفرد بالرواية فى القراءات العشر عن القلانسى ، وقدم بغداد فقرأ على أبى محمد عبد الله بن على سبط أبى منصور الخياط وغيره . وكان حسن التلاوة ، وكان قدومه إلى بغداد فى سنة عشرين وخمسمائة وبعدها ، وآخر ما قدمها سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وكانت وفاته بواسط سلخ ربيع الآخر ودفن عند أبيه بمقبرة المصلى ، وكان يوماً مشهوداً ورآه بعض الأعيان فى المنام فقال له مافعل الله بك ؟ فقال : قد صلى على سبعون ألفا من الأبدال . سمع أبا القاسم ابن الحصين ، وابن السمرقندى ، وقاضى المارستان وغيرهم .

وفيها : توفى : عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلى ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتفقه ، ووعظ . وكان ذكياً ولاه الخليفة المظالم وتربة الخلاطية . وكانت مجالس وعظه تمضى فى الهزل والمجون قيل له يوماً ماتقول فى أهل البيت ؟ فقال : اعمونى . وكان أعمش والسائل انما سأل عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاب عن أهل بيت نفسه ، وقيل له بأى شىء تفرق بين المحق والمبطل ؟ قال: بليمونة . أراد من تخضب بزول خضابه بليمونة ، وكانت وفاته فى شوال ودفن فى الحلبة ، سمع أباه ، وأبا القاسم ابن الحصين ، وابن السمرقندى وأبا الوقت وغيرهم .

وفيها : توفى الوزير أبو المظفر عبد الله بن يونس بن أحمد الجيلى ولقبه جلال الدين كان فى بدء أمره أحد العدول ببغداد ، ثم خدم فى ديوان الأبنية . ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة ، ثم ولى صاحب ديوان ثم استوزره الخليفه وبعثه إلى طغريل فكسر على ماذكر وعاد إلى بغداد فولاه الخليفة الديوان والمخزن ، ثم ولاه أستاذ دار ثم عزله . وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره ، وتفقه على أبى حكيم النهروانى ، وسمع أبا الوقت وغيره . ولما سافر إلى همذان سمع من أبى العلا الحافظ الهمذانى وكان فاضلا فى الأصولين ، والحساب ، والهندسة . وله تصنيف فى الأصول غير أنه شان فضله بمقاصده السيئة ، ورأيه الفاسد ، وحقده وحسده ، ولجاجه وكسر عسكر الخليفة بلجاجه ومخالفته للأمراء وكونه استعجل على لقاء طغريل ، وأخرب بيت الشيخ عبد القادر وشتت أولاده ويقال أنه بعث فى الليل من نبش الشيخ عبد القادر ورمى عظامه فى اللجة ، وقال هذا وقف مايحل أن يدفن فيه أحد. ولما اعتقله الخليفة كتب فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة . وذكروا أشياء أخر فافتوا باباحة دمه . فسلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب فبقى فى داره . فلما مات ابن القصاب اعتقل فى التاج وأخرج فى سابع عشر صفر ميتاً ودفن بالسرداب .

وأما صدقة بن الحداد الذى قرأ عليه بن يونس القرآن فهو صدقة ابن الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلى يعرف بابن الحداد حفظ القرآن ، وتفقه ، وافتى وناظر لكنه قرأ الشفا لابن سينا ، وكتب الفلاسفة فغير اعتقاده . وكان يبدر من فلتات لسانه مايدل على سوء عقيدته ، وتارة يشفق من حبس ابن الراوندى . وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد ، وتارة يعترض على القضاء والقدر . وله أشعار تتضمن شيئاً من ذلك . توفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

وفيها : توفى يحيى بن أسعد بن يحيى بن بوش أبو القاسم الخباز البغدادى سمع الكثير وكان قد افتقر فى

آخر عمره فكان يأخذ على التسميع أجرة . جلس ليلة الأربعاء ثالث ذى القعدة يأكل خبزاً فغص به بلقمة فمات لجأة . سمع قاضى المارستان، وأبا العز ابن كادش، وابن الطيورى، وأبا طالب بن يوسف وهو آخر من روى عن أبى طالب . وكان ثقة .

سنة ٥٩٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة ففيها : نزل الفرنج على تبنين وانفذ العادل محى الدين بن الزكى إلى العزيز بمصر مستصرخا فأرسل العساكر وقدم بنفسه فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة العسكر الإسلامى بعد أن أقاموا عليها شهرين وسبعة أيام واطمعتهم أنفسهم بأخذها ورجع العزيز إلى مصر والعادل إلى دمشق بعد أن تقررت الهدنة مع الفرنج لمدة خمس سنين وثمانية أشهر أولها رابع عشر شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفيها : عاد الأسطول المصرى من الغزو بعد أن اجتاز ببلاد لاون ووصل معه إلى مصر من السبي اربعمائة وخمسون أسيرا .

وفيها : حج بالناس من الشام تقى الدين قراجا مملوك صلاح الدين .

وفيها : توفى جرديك النورى . وكان من أكابر امراء نور الدين . وخدم صلاح الدين فى جميع غزواته وهو الذى قتل شاور بمصر وابن الخشاب بحلب وكان شجاعا جوادا وولاه صلاح الدين القدس.

وفيها : توفى الشيخ أبو على الحسن بن مسلم الزاهد القادسى من قرية بنهر عيسى يقال لها القادسية، كان من الأبدال لازماً لطريق السلف أقام أربعين سنة لم يكلم أحدا من الناس وكان صائم الدهر قائم الليل يقرأ كل يوم وليلة ختمة ذكره أبو الفرج ابن الجوزى فى صفوة الصفوة . وكان زاهد زمانه . وكانت السباع تأوى إلى زاويته . وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته . وكانت وفاته يوم عاشوراء ودفن فى رباطه بالقادسية .

وحكى عنه جماعة من مشايخ القرية أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته وإذا خرج أحد من القرية فى الليل إلى نهر عيسى لم يتعرض له . وأن فقيراً نام فى الزاوية فى ليلة باردة فاحتلم فنزل ليغتسل فجاء السبع فنام على جبته فكاد الفقير يموت من البرد والخوف فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكمه وقال يامبارك قد قلنا لك لاتتعرض أضيافنا فقام السبع يهرول .سمع قاضى المارستان، وابن الحصين، وابن الطيورى وغيرهم

وفيها : توفى فى المحرم بسنجار صاحبها عماد الدين زنكى ابن مودود بن زنكى ابن أخى نور الدين وختنه على ابنته وكان عاقلا جوادا ولم يزل مع صلاح الدين فى غزواته مجاهدا وكان ميموناً . وكان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة . ولما توفى صلاح الدين خرج مع أخيه عز الدين إلى لقاء العادل . فلما عاد عز الدين إلى الموصل صالح عماد الدين العادل . ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد ويلقب بالمنصور .

وفيها : توفى أبو الحسن على ابن زهير قاضى البطائح ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة . وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبى الوقت وابن ناصر وابن الجواليق وغيرهم وخرج إلى رحبة مالك بن طوق فقرأ الفقه والأدب على أبى عبد الله ابن المتقنة وعاد إلى البطائح فولى القضاء بالعراق ثم عاد إلى

بغداد فأقام بها ثم انحدر إلى البطائح فتوفى بطريق واسط وكان ثقة صالحاً . وقال أنشدنى القاسم بن على صاحب المقامات لنفسه :

لاتخطون إلى خـط ولا خطأ — من بعد ما الشيب فى فوديك قدوخطا
فأى عذر لمن شابت ذوائبه — إذا سعى فى ميـادين الصبا وخطا

وفيها : توفى أبو المجد على بن على بن ناصر السيد العلوى مدرس الحنفية ببغداد ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وتفقه وافتى وناظر وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبه بمال فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال له : يا يوسف استوص بولدى خيرا فهو وديعتى عندك . فانتبه الخليفة مرعوباً واحضره وخاطبه وقال اجعلنى فى حل فقد شفع فيك من لا يمكننى رده واحسن إليه وكانت وفاته فى ربيع الأول ودفن عند مشهد عبيد الله شرقى بغداد وكان صالحاً شريفاً على الحقيقة . سمع ابن الحصين وقاضى المارستان، وابن السمرقندى وغيرهم .

وفيها : توفى مجاهد الدين قايماز الخادم الرومى الحاكم على الموصل الذى بنى الجامع المجاهدى والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة ووقف عليها الأوقاف وكانت رواتب كثيرة بحيث لم يدع فى الموصل بيتا فقيرا إلا واغنى أهله . وكان دينا صالحا عادلا كريما يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار وله حكايات مشهورة . ولما مات عز الدين مسعود وولى ابنه ارسلان شاه حبسه وضيق عليه وآذاه فتوفى فى الحبس فأخرج ملفوفاً فى كساء فلما وصل إلى باب البلد قال البوابون. قفوا حتى نستأذن له فألقى على قارعة الطريق حتى أذن له . وكان لعز الدين مسعود جارية يقال لها اقصرا أولدها الجهة الاتابكية التى تزوجها الملك الاشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب . وبنت فى جبل قاسيون التربة ، والمدرسة والمأذنة المنسوبات إليها . وكان عز الدين قد زوج مجاهد الدين هذا أم الإتابكية اقصرا المذكورة

وفيها : توفى أبو طالب يحى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة الواسطى . ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع فى الانشاء ، والكتابة وانتهت إليه الرياسة فيهما مع تخصصه بفنون كالفقه ، وعلم الكلام ، والأصول ، والحساب ، والشعر جالس أبا منصور الجواليقى وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره ، وولى للخليفة عدة خدم : حجبة الباب ثم استاذية الدار، ثم كتابة الانشاء فى آخر أمره . وكانت وفاته فى ذى الحجة . ودفن فى مقابر قريش . ومن شعره .

قد سلوت الدنيـا ولم يسلهـا — من علقت فى آماله والاراجـى(١)
وإذا ما صرفت وجهى عنها — قذفونى فى بحرها العجـاج
يستضيئون بى وأهلك وحـدى — فكأنى ذبـالة فى سراج

وفيها : توفى أبو الهيجاء السمين الكردى ولقبه حسام الدين وقد تقدم أنه قدم بغداد وبعثه الخليفة إلى همذان فلم يتم له أمر ، واختلف الأمر عليه ، وتفرق عنه أصحابه فخاف من الخوارزمى واستحيا

---

(١) هكذا فى الأصول الثلاثة وفيه خلل عروضى .

أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياما فتوفى . وبلغنى أنه كان نازلا على تل فقال : ادفنونى فيه فحفروا له قبرا على رأس التل فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه . وقيل كانت وفاته فى آخر السنة الثالثة والتسعين .

سنة ٥٩٥ هـ:

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ففيها : استدعى الخليفة ضياء الدين ابن الشهرزورى إلى بغداد وولاه القضاء بها ، وحج بالناس مظفر الدين وجه السبع . وفيها . أفرج عن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى فقدم بغداد فى شعبان . وخلع عليه ، وجلس عند تربة أم الخليفة وكانت تتعصب له ، وساعدت فى خلاصه. وأنشد بيت الرضى الموسوى :

إن كان لى ذنب ولم آته فاستأنف العفو وهب ما مضى

وأنشد أيضا:

شقينا بالنوى زمنا فلما تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا بعد ما جنت الليالى فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصل وكم سقينا بكاسات الصدود وكم ضنينا
فمن لم يحي بعد الموت يوما فانا بعد ما متنا حيينا

وفيها : توفى القاضى العباسى وهو : أبو جعفر محمد بن جعفر بن أحمد وقيل أبو الحسين . ويلقب فخر الدين وعماد الدين . ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة . تفقه على أبى الحسن ابن الخل . وسمع الحديث الكبير ، وولى قضاء بغداد سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وولى قضاء مكة والخطابة . ثم عزل فى جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين بحضرة الوزير عبد الله بن يونس بسبب أنه حكم بكتاب مزور . وكانت وفاته فى جمادى الآخرة. ودفن بمقبرة العطافية عند جده النقيب أبى جعفر العباسى . سمع أبا الوقت وغيره . وابنه جعفر بن محمد العباسى قدم دمشق وسمع بها كثيرا وببغداد من مشايخهما ، ومولده سنة سبعين وخمسمائة وتوفى بحماة فى ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وفيها : فى ذى الحجة توفى تقى الدين طرخان بن ماضى بن جوشن بن على بن معا فى الضرير الشاغورى الشافعى ، وكان إماما للملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمهما الله مدة طويله . ودفن خارج باب الصغير ، ومولده بدمشق سنة ثمانى عشرة وخمسمائة .

وفيها : توفى ابن فضلان مدرس النظامية ، وهو : أبو القاسم يحيى بن على بن الفضل . ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة. وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالى بنيسابور ، وقدم بغداد فناظر وافتى ودرس وكان مقطوع اليد وقع من الجمل فاعتلت يده فخيف عليه فقطعت وانتفع به خلق كثير ببغداد وغيرها وكانت وفاته فى شعبان . وحمل الفقهاء جنازته إلى الوردية . سمع بنيسابور من محمد بن يحيى ، وببغداد من محمد بن ناصر ، وأبا الوقت وغيرهما وسمع منه ينشد :

وإذا أردت منازل الاشراف فعليك بالاسعاف والانصاف
وإذا بغى باغ عليك تخله للدهر فهو له مكاف كاف

وفيها : توفى خليفة المغرب أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذى كسر الفنش عام الزلاقة . وكان قام بالملك بعد أبيه أحسن قيام . نشر كلمة التوحيد . ورفع راية الجهاد . وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على عشيرته وغيرهم . وكان جوادا ، سمحا ، عادلا ، يكرم العلماء ، متمسكا بالشرع ، يصلى بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق ، حافظا للسانه . وأوصى فى مرض موته إلى ولده أبى عبد الله محمد . وأن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به . وتوفى فى ربيع الأول . فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة . وهو الذى كتب إليه سلطان بلادنا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة سبع وثمانين يستنجده على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة ، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين . فلم يجبه إلى ما طلب وقد ذكرنا من أخباره فى كتاب الروضتين فى سنة سبع وثمانين . وبايع الناس بعده ولده محمداً واستمر على سيرة أبيه ، ثم اختلفت الأهواء وحصل النقض على البيت بموت يعقوب رحمه الله

وفيها : كانت فتنة عبد الغنى الحافظ الحنبلى وذلك يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى القعدة . ذكر العز تاج الأمناء أنه اجتمع الشافعية ، والحنفية ، والمالكية عند المعظم عيسى ، والصارم بزغش والى القلعة وكانا يجلسان بدار العدل للنظر فى المظالم فكان ما اشتهر من احضار اعتقاد الحنابلة ، وموافقة أولاد القزويه النجم بن الحنبلى الجماعة ، واصرار عبد الغنى المقدسى على لزوم ما ظاهر من اعتقاده وهو الجهة ، والاستواء ، والحرف ، واجماع العلماء على الفتيا بكفره ، وأنه مبتدع لا يجوز أن يترك بين المسلمين ، ولا يحل لولى الأمر أن يمكنه من المقام معهم . فسأل أن يمهل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب . ورفعت جميع الخزائن والصناديق من الجامع ، وبطلت صلاة الحنابلة من الجامع الطهر ومنعوا منها ، ثم أذن لهم فصلوا العصر من ذلك اليوم قلت : وسيأتى ذكر هذه الفتنة ايضا فى أخبار سنة ستمائة إن شاء الله تعالى .

سنة ٥٩٦ هـ :

ثم دخلت سنة ستة وتسعين . وفيها : توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب الديار المصرية وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام . وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر فدخل القاهرة ، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكه وخرجا إلى الشام بالعساكر لحصر دمشق وأحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق ، والحوانيت ، وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار ، وانحرقت غلة ، حرستا ، فى بيادرها

وفيها : ظهر العجمى الداعى بدمشق المدعى أنه عيسى بن مريم وافسد جمعا من العوام فقبض عليه صارم الدين بزغش العادلى ، وصلب بعد استفتاء الفقهاء فى أمره ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العماد الكاتب ، وقد خرب الحمام وما يجاوره من العمران فى هذا الزمان . وكان غربى جسر الصيق مقابل الطاحونة المستجدة خارج باب الفرج من البابين .

وفيها : كان قيام العامة على الشيعة وخروجهم إلى باب الصغير ونبشهم وثابا المرحل من قبره وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين ثالث عشر ربيع الآخر بعد صلب العجمى بيومين .

وفيها : توفى الأمير أبو الحسين أحمد بن حيوس الشاعر ثامن عشر ذى القعدة .

وفيها : توفى خوارزم شاه واسمه تكش بن أرسلان شاه بن آتسز من ولد طاهر بن الحسن . كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين ، والهند ، وما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد ، وكان نوابه فى حلوان . وكان فى ديوانه مائة ألف مقاتل ؛ وهو الذى كسر مملوكه عسكر الخليفة وأزال دولة بنى سلجوق ، وكان حاذقا بعلم الموسيقى يقال لم يكن فى زمانه ألعب منه بالعود . وحكى أن الباطنية جهزوا رجلا ليقتله وكان محترس كثيراً لجلس ليلة يلعب بالعود ، وشرع الخيمة فاتفق أنه غنى بيتا بالعجمية وفيه ما معناه : قد أبصرتك ، وفهم الباطنى فخاف منه وارتعد فهرب فأخذ وحمل اليه فقرره فأقر فقتله

وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه فى الحروب ؛ وكان يقول : الملك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لا يصلح للملك لأنه يكون مثل المرأة . وكان قد عزم على قصد بغداد وجمع وحشد فوصل إلى دهستان فتوفى بها فى رمضان ؛ فحمل فى تابوت إلى خوارزم فدفن عند أهله . وقام ولده محمد مقامه . وهو الذى خرج عليه التاتار وعلى ولده جلال الدين وماتا فى محاربتهم كما سيأتى ذكره .

وفيها : توفى عبد اللطيف بن اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبى سعد وكنيته أبو الحسن ولقبه ضياء الدين وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل الذى قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مرارا وتوفى بالرحبة سنة ثمانين . وأما عبد اللطيف فولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث من والده أبى البركات اسماعيل ، ومن قاضى المارستان ؛ وابن السمرقندى وغيرهم وكان صالحا ثقة وكان شيخ الرباط الذى بالمشرعة شرقى بغداد ، وحج ثم ركب البحر إلى مصر وزار الشافعى والقدس ؛ والخليل وقدم دمشق فتوفى بها فى ذى القعدة ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع رحمه الله .

وفيها : توفى الشيخ أبو جعفر أحمد بن على بن أبى بكر بن اسماعيل القرطبى إمام الكلاسة الزاهد العابد يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان . قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سعدون القرطبى

وفيها : توفى القاضى الفاضل : وقايماز النجمى . والشهاب الطوسى ؛ وابن العفاره(١) بدر الدين عسكر

وفيها : توفى الرئيس مؤيد الدين بن العساكر بن الصوفى رابع عشر ذى الحجة .

وفيها : فى رجب توفى بالقدس الفقية مجد الدين ابو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابى الحلبى الشافعى ، وكان فاضلا فى علم الوصايا والفرائض ، ودرس بالقدس الشريف ومولده بحلب فى نيف وثلاثين وخمسمائة ، وهو والد الفقهاء بنى جهبل الذين كانوا عندنا بدمشق بالمدرسة الجاروخية . بهاء الدين نصر الله ، وتاج الدين اسماعيل ، وقطب الدين .

---

(١) وفى بعض التواريخ أنه لم يزد نيل مصر واشتد عليهم الغلاء ، والوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا ، وأكل بعضهم بعضا . وذلك فى سنة ست وتسعين . وفيها : ولى ضياء الدين الشهرزورى قضاء القضاة ببغداد . وفيها ورد القاضى زين الدين أبو الفضل ابن القاضى مجد الدين ابن هندى الحاكم بمدينة حمص إلى مدينة حماة مفارقا حمص وقضاءها فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالاعزاز والاكرام والمصنف ذكر ذلك فى سنة سبع وتسعين والله أعلم بذلك . اهـ من هامش الأصل .

وفيها : توفى أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن كليب الحرانى راوى جزء ابن عرفة عن أبى على بن نبهان ، وهو آخر من حدث عنه ، وعن أبى القاسم ابن بيان ، وأحمد بن على الحلوانى . وكانت وفاته فى ربيع الأول ، ودفن بباب حرب وله خمس وتسعون سنة . وكان ثقة صحيح السماع ، وكان يأخذ على سماعه جزء ابن عرفة دينارا .

وفيها : توفى كامل ابن الفتح أبو تمام ابن سابور الضرير ويلقب بالظهير النحوى بغدادى اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما . ومن شعره .

وفى الأوانس من نعمان آنسة ... لها من القلب ماتهوى وتختار
ساومتها نفثة من ريقها بدمى ... وليس إلا خفى الطرف سمسار
عند العزول اعتراضات ولائمة ... وعند قلبى جوابات وأعذار

وكانت وفاته فى جمادى الآخرة ودفن بباب حرب . وفيها : توفى البلخى الواعظ واسمه محمد بن عبد الله ويلقب بالنظام وبابن الظريف ، ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وقدم بغداد فوعظ بها فى النظامية ، وباب بدر ، وجامع القصر ، ومدرسة ابن النجيب ، ودار بن حديدة الوزير وكان فصيحا مليح الصوت ، وكان متشيعا . وأنشد يوما فى النظامية .

سقاهم الليل كاسات السرى فغدوا ... منه سكارى كأن الليل خمار
وصير الشوق أطواقا عمائمهم ... لايعقلون أقام الحى أم ساروا
ونسمة الفجر إذ مرت بهم سحرا ... تمايلوا وبدا للسكر آثار

فلم يبق فى المجلس الأمن قام وصاح وتواجد . وأنشد أيضاً :

مددت يدى فى الحب نحوك سائلا ... وقلت لجفنى أذر دمعك سائلا
تفقهت فى علم الصبابة والهوى ... فمن شاء فليلق على المسائلا

وحكى أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء ، ويرتكب المحرمات ، فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال . قد رسم أن تخرج من البلد فأنشد .

أبابل لا واديك بالجود منعم ... لدى ولا واديك بالرفد آهل
لئن ضقت عنى فالبلاد فسيحة ... وحسبك عاراً اننى عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدله ... فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل حسنها ... فأى مكان فيه خيمت بابل

وأخرج إلى الجانب الغربى من بغداد فمات ودفن فى مقابر قريش فى صفر .

وفيها : توفى بمصر الفقيه شهاب الدين محمد الطوسى مدرس منازل العز وقد ذكرته فى آخر كتاب الروضتين .

قيل لما كان قدم بغداد ركب بالسنجق والسيوف المسللة والغاشية المرفوعة والطوق فى عنق البغلة فمنع من ذلك فسافر إلى مصر ووعظ واظهر مذهب الأشعرى وثارت الحنابلة فكان يجرى بينه وبين الزين ابن نجية العجائب من السباب والتكفير . وبلغنى أنه سئل : أيما أفضل دم الحسين ، أم دم الحلاج فاستعظم ذلك وقال : كيف يجوز أن يقال هذا ؟ قطرة من دم الحسين أفضل من مائة ألف دم مثل دم الحلاج فقال السائل : فدم الحلاج كتب على الأرض الله ولا كذلك دم الحسين . فقال الطوسى : المتهم يحتاج

إلى تزكية . قلت : وهذا جواب فى غاية الحسن فى هذا الموضع على أنه لم يصح ماذكر عن دم الحلاج والله أعلم .

وكانت وفاتة فى الحادي والعشرين من ذى القعدة وكان يومه مشهوداً ركب فيه الملك العادل وكبراء الدولة وخرج أهل مصر والقاهرة جميعاً مشيعين نعشه الى حيث دفن من القرافة .

وفيها : توفى الهمام العبدى الشاعر واسمـــه الحسن بن على العبتسى البغدادى . وذكر القوصى فى معجمه أنه وفد على قاضى القضاة محي الدين محمد بن على القرشي وهو على رسالته المحتوية على التعزية فأنشد .

ألا قل لناعى الفضل أقصر فانني تيقنت حقاً أن نعيك باطل
إذا كان محيي الدين فى الدست جالسا فما مات فى الدنيا من الناس فاضل

وفيها: توفى محمد بن عبد المنعم بن أبى الفضائل الصوفى المهى شيخ رباط البسطامى ويلقب بالركن ، كان جواداً سمحاً لم يكن في أبناء جنسه من يضاهيه في الكرم ماطلب منه أحد شيئاً فمنعه حتى كان يخرج وفى رجليه مداس فيرجع حافياً ؛ ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عريانا ، وكانت له خلوات ومحاضرات . سمع من شهدة وغيرها . وتوفى فى ذى الحجة ودفن فى الشونيزية عند والده أبى الفضائل . وفى هذه السنة كان الأفضل والظاهر ومن تابعهما على حصر دمشق والعسكر جائمة بمنزلتهم وقد حفروا عليها خندقاً من أرض اللزات إلى أرض يلدا مشرقاً احترازامن مهاجمة من بدمشق لهم فيها . ثم رحل الافضل والظاهر إلى رأس الماء وافترقا . فسار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب تاسع ربيع الأول . وخرج العادل تابعاً للافضل فكسر عسكره بموضع يعرف بالقصرين بين الغرابى والسائح ودخل العادل القاهرة ورجع الأفضل إلى صرخد .

سنة ٥٩٧ ﻫ :

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة ففيها . توفى بهاء الدين قراقوش الأسدى . وقيل إنه لم يكن مملوكا لأسـد الدين وإنما كان لابن الطقطق فصحب أسد الدين وتقدم عنده بعد وفاة سيـده .

وفيها : كانت حوادث كثيرة عظيمة منها هبوط نيل مصر فهرب الناس إلى المغرب ، والحجاز ، واليمن والشام تفرق أيدى سبا ومزقوا كل ممزق أعظم من سنة اثنين وستين واربعمائة فى أيام الملقب بالمستنصر ابن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء المصريين . فان الناس فى هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه ؛ وأحرق السلطان جماعـة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجل يدعو صديقه وأحب النـاس اليه الى منزله ليضيفه فيذبحـه ويأكله ، وفعلوا كذلك بالأطباء كانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وفقـدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها . وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم ، وكفن السلطان فى مدة يسيرة مائتى ألف وعشرين ألفا ، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس وصلى امام جامع الاسكندرية فى يوم على سبعمائة جنازة .

قال العزبن تاج الأمناء : وجاءت فى شعبان زلزلة هائلة من الصعيد فعمت الدنيا فى ساعة واحدة هدمت بنيان مصر فمات تحت الهدم خلق كثير ، ثم امتدت الى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم الا حارة السمرة وكان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية من شهر رمضان بحيث بلغ ثمن الأردب ستة دنانير مصرية وخلا أهل الأعمال وصار الى بلاد الفرنج منهم جمع حملوا إلى الجزائر البحرية . وأقر كثير ممن تفرق فى البلاد الاسلامية بالعبودية لمن يؤويه ويطعمه وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلى لولا تدارك لطف الله تعالى باجراء نيلها والاسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التى صرفها فى تقاوى البلاد ومؤن .إعانة ، وبيعا ، وصدقة فتماسك من كان مقيما بها وتراجع اليها من قدر على الرجوع من أهلها . قال أبو المظفر . ومات تحت الهدم ثلاثون ألفا وهدمت عكا ، وصور وجميع قلاع الساحل وامتدت الى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق ، وأكثر الكلاسة ، والبيمارستان النورى وعامة دور دمشق إلا القليل وهرب الناس الى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر وتهدمت بالناس وهو بين بين . وخرج قوم من بعلبك يجنون الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم ، وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص ، وحماة ، وحلب ، والعواصم وقطعت البحر إلى قبرص وانفرق البحر فصار أطوادا وقذف بالمراكب الى الساحل فتكسرت ، ثم امتدت الى اخلاط ، وأرمينية ، واذربيجان ، والجزيرة واحصى من هلك فى هذه السنة على سبيل التقريب فكان الف الف انسان ومائة الف انسان وكان قوة الزلزلة فى مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الانسان سورة الكهف ثم دامت بعد ذلك أياماً . نقلت جميع ذلك من تاريخ أبى المظفر سبط الجوزى رحمه الله . قال : وفى مستهل ذى القعدة حوصرت دمشق ، جاء الأفضل ، والظاهر وكان العادل بمصر . وجاء حسام الدين بشارة من بانياس نجدة لهما فقاتلوا دمشق أياماً ، وكان بها المعظم عيسى بن العادل . وبلغ العادل فجاء ونزل نابلس وبعث فأصلح الأمراء ، وزحف الأفضل ، والظاهر فوصلوا إلى باب الفراديس وأحرقوا فندق تقى الدين فقاتلهم المعظم وحفظ البلد فأقاموا نحو شهرين ، وبعث العادل فأوقع الخلف بين الاخوين فرحلوا سلخ ذى الحجة ، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم ، وشركس ، وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس ، وتسلم قرجا صرخد . وحج بالناس طاشتكين وكان الخليفة قد أفرج عنه ورد اليه أقطاعه وماله .

وفيها : توفى عز الدين ابراهيم بن المقدم وكان شجاعا عاقلا وله قلعة بارين ، وفامية ، ومنبج ، والروندان ودفن بدمشق بمقبرة باب الفراديس . وكان له بنات وابن وهو المقتول بعرفات .

وفيها . توفى ناظر نهر الملك ببغداد واسمه ابراهيم بن محمد بن ابراهيم وكان متزهدا يلبس القطن الفوط ويعدل فى الرعية ويحسن اليهم . أمر الخليفة الناصر بصلبه فصلب على كرسى جسر بغداد وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى ، فمر به الخليفة وهو مصلوب فى وسط الجذع . فقال : يتنمس علينا ارفعوه إلى رأس الجذع . وكان شجاعاً مهيبا وحزن الناس عليه .

وقبل ذلك فى سنة ست وثمانين واقعة أبشع من هذه كان ببغداد عبد الرشيد بن عبد الرزاق الكرجى

(بالجيم) الصوفى يتفقه بدار الذهب . وكان ورعا عاقلا عابدا ، وكان ببغداد صوفى يقال له النفيس يضحك منه ويسخر به ، وكان يدخل على الخليفة فدخل يوماً مدرسة دار الذهب فجعل يتمسخر. فقال له الكرجى : اتق الله نحن نبحث العلم وأنت تهزل ماهذا موضعه . فدخل على الخليفة وبكى بين يديه وقال : ضربنى الكرجى وعيرنى . فغضب الخليفة وأمر بصلبه . فأخرج وعليه ثوب أزرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة ونصبوا له خشبة ليصلبوه . فقال . دعونى أصلى ركعتين فصلى وصلبوه فجاء خادم من عند الخليفة فقال لاتصلبوه وقد فات فلعن الناس النفيس الصوفى وبقى أياما لايتجاسر يظهر ببغداد ورأى الكرجى بعض الصالحين فى المنام فقال مافعل الله بك ؟ فقال : وقفنى الحق بين يديه فقلت يا الهى رضيت ماجرى على ؟ فقال . أو ماسمعت ماقلت فى كتابى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الآية . أى انى أردت أن تصل إلى مرتبة الشهداء .

وفيها : توفى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى الواعظ واسمه عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيدالله بن حمادى بن احمد بن محمد بن جعفر الجوزى ابن عبدالله بن القاسم بن النصر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أبو الفرج ابن أبى الحسن القرشى التيمى . وجعفر الجوزى منسوب الى فرضة من فرض البصرة يقال لها جوزة . وفرضة النهر ثلمته التى يستقى منها . قال سبطه أبو المظفر . ولد جدى ببغداد بدرب حبيب . فى سنة عشر وخمسمائة تقريبا . وتوفى أبوه وله ثلاث سنين . وكانت له عمة صالحة ، وكان أهله تجارا فى النحاس ولهذا رأيت فى بعض سماعاته وكتب عبد الرحمن الصفار . فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل ابن ناصر فاعتنى به واسمعه الحديث ، وقرأ القرآن ، وتفقه . وقد ذكر من مشايخه فى المشيخة نيفاً وثمانين شيخا ، وعنى بأمره شيخه ابن الزاغونى وعلمه الوعظ واشتغل بفنون العلم وأخذ اللغة عن أبى منصور الجواليق ، وصنف الكتب فى فنون قيل بلغت مصنفاته نحو ثلاثمائة مصنف ، وحضر مجالسه الخلفاء ، والوزراء ، والأمراء والعلماء ، والأعيان وأقل ما كان يحضر مجالسه عشرة آلاف . وربما حضر عنده مائة ألف واوقع الله له فى القلوب القبول والهيبة . وكان زاهدا فى الدنيا متقللا عنها . وسمعته يتسرل على المنبر فى آخر عمره . كتبت باصبعى هاتين ألفى مجلدة ، وتاب على يدى مائة الف ، واسلم على يدى عشرة آلاف يهودى ونصرانى ، وكان يجلس بجامع القصر الرصافة ، وبجامع المنصور وباب بدر ، وتربة أم الخليفة وغيرها وكان يختم القرآن فى كل سبعة أيام ولا يخرج من بيته الا الى الجامع للجمعة والمجلس وما مازح أحدا قط ، ولا لعب مع صبى ولا أكل من جهة لايتيقن حلها . وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى .

وقد ذكرنا محنته التى زاحم بها الأنبياء ، والعلماء ، والفضلاء ، والأولياء وتلقى ذلك بالصبر والحمد والشكر وقد أثنى عليه العلماء . فذكره أبو عبد الله محمد بن الدبيثى فى الذيل الذى ذيله على تاريخ السمعانى فقال :

شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزى صاحب التصانيف فى فنون العلم من التفاسير ، والفقه ، والحديث ، والتواريخ وغير ذلك . واليه انتهت معرفة الحديث وعلومه والوقوف على صحيحه من سقيمه وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال ومعرفة الأحاديث الواهية ، والموضوعة ،

والانقطاع . والاتصال . وكان من أحسن الناس كلاما وأتمهم نظاماً وأعذبهم لسانا وأجودهم بياناً .
تفقه على أبي بكر الدينوري ، وقرأ الوعظ على الشريف أبي القاسم العلوى وأبي الحسن ابن الزاغوانى . وبورك له فى عمره وعمله فروى الكثير وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة . وحدث بمصنفاته مراراً .

قال وأنشدنى بواسط لنفسه :

ياساكن الدنيا تأهب وانتظر يوم الفراق
وأعد زادا للرحيـل فسوف تحدى بالرفاق
وابك الذنوب بادمع تنهل من سحب المآق
يامن أضاع زمانه أرضيت مايفنى بباق

فصل فى نتف من كلامه :

قال له قائل مانمت البارحة من شوقى إلى المجلس . فقال نعم . لأنك تريد أن تتفرج ، وإنما ينبغى أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت .

وقيل له : إن فلانا أوصى عند الموت . فقال : طين سطوحه فى كانون .

وقال له قائل : أيمـا أفضل أسبح . أم أستغفر ؟ فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور .

وقال فى قوله عليه السلام . «أعمار أمتى مابين الستين إلى السبعين» . إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الاقامة قيل جثوا المطى .

ووعظ الخليفة يوماً فقال ياأمير المؤمنين : إن تكلمت خفت منك ، وان سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفى عليك على خوفى منك لمحبتى لدوام أيامك . إن قول القـائل اتق الله خير من قول القائل إنكم أهل بيت مغفور لكم ، وقد قال الحسن البصرى . لئن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف ؛ وكان عمر بن الخطاب يقول . إذا بلغنى عن عامل أنه ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم .

يا أمير المؤمنين . كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط لئلا ينسى الجياع . وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول . قرقر إن شئت أولا تقرقر فوالله لاشبعت والمسـلمون جياع . فتصـدق الخليفة المستضىء بصدقات كثيرة وأشبع الجيـاع وأطلق المحبوس .

وقال فى (فرعون أليس لى ملك مصر) ايفتخر فرعون بنهر ماء أجراه ما اجراه . وقال فى قصة الذين عبدوا العجل . لوأن الله خار لهم ما خار لهم .

وذكر قصة معاذ بن جبل فى القراءة فقال : طاب له ارتضاع ثدى التلاوة فر على وجهه فقيل له افتان أنت ؟ ابس السكل على طريقتك الولد لاتعد عليه الرضعات انما تعد على الأجانب لاثبات نسب الرضاع .

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس : فهمتم ، فهمتم .

وسئل عن قوله عليه السلام : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . فأعطاها عليا . فأين كان أبو بكر . فقال . لما كان يوم بدر قام أبو بكر ليقاتل فقال له رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم : « متعنا بنفسك » ولما كان يوم خيبر سلم الراية إلى على فقال له : « أخرج نقعود من قعد بالأمر كخروج من خرج بالأمر » ولكن فى قوله متعنا بنفسك . فضيلة .

وسئل . لم لم ينص النبي صلى الله عليه وسلم على خلافة أبى بكر ؟ فأجاب : أنه قد جرت أشياء تجرى مجرى النص منها قوله : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » و « اقتدوا باللذين من بعدى » و « هلموا أكتب لأبى بكر كتاباً لئلا يختلف عليه المسلمون » فهذه أحاديث تجرى مجرى النص فهمها الخصوص غير أن الرافضة فى إخفائها كاللصوص .

قال السائل : لما قال أقيلونى ما سمعنا مثل جواب على . والله لا أقلناك . فقال : لما غاب على عن البيعة فى الأول أخلف مافات بالمدح فى المستقبل ليعلم السامع والرائى أن بيعة أبى بكر وأن كانت من ورائى فهى رأيى ، ومثل ذلك الصدر لا برائى . وما أحسن استدلاله حين قال رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا .

وسأل سائل : ما الذى وقر فى صدر أبى بكر ؟ فقـــال : قوله ليلة المعراج إن كان قال فقد صدق فله السبق .

وسأل آخر : سيف على نزل من السماء فسعفة أبى بكر من أين ؟ فقال . إن سعفة أبى بكر هزت يوم الردة فأثمرت سبيا جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند .

ثم قال : ياعجبا الرافضة إذا مات لهم ميت تركوا معه سعفة من أين ذا الصالح ؟!

سأل سائل : مامعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » فقـــال : الميت يقسم ماله ، ويلبس الكفن . وأبو بكر أخرج المال كله وتجلل بالعباء .

وقال فى قوله تعالى : (ونزعنا ما فى قلوبهم من غل) قال على والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان ، وطلحة ، والزبير منهم .

ثم قال أبو الفرج : إذا أصطلح الخصوم فما بال النظارة .

وقال . قال جبريل للرسول عليه السلام : سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها ، وواجهه لمريم لأنه ماكان لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز فى حقها الأباطيل .

وسئل عن لعنة يزيد بن معاوية . فقال : قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ونحن نقول ، مانحبه لما فعل بابن بنت نبينا ، وحمله آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا إلى الشام على أقتاب الجمال . وتجرئه على الله ورسوله فان رضيتم بهذه المصالحة فى قولنا . ما نحبه والا رجعنا إلى أصل الدعوى يعنى جواز لعنته . ثم قال أما ابوه ففى خفسارة الصبحة ندعوه من ايديكم وأنتم فى حل من الابن قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وما رآها يزيد قط ودخلها .

ثم قال : لاتدنسوا وقتنا بذكر من ضرب بالقضيب ثنايا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها جعلها يزيد غرضا لبلوغ غرضه .

قلت : كان أبو الفرج رحمه الله مبتلى بالكلام فى مثل هذه الاشياء لكثرة الرافضة ببغداد وتعنتهم له فى السؤآلات فيها . وكان بصيرا بالخروج منها بحسن إشاراته . وذكر يوماً حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة . وأن الله تعالى أتم لداود مائة ولآدم ألفا . ثم قال : المتوسط بين اثنين إذا كان كريما غرم .

ولأبى الفرج أشعار كثيرة . قيل إنها نحو عشر مجلدات . وقد ذكره العماد الكاتب فى الخريدة وأثنى عليه فمن الأشعار المنسوبة إليه :

ياصاحبى إن كنت لى أو معى	فعج على وادى الحمى نرتع
وسل عن الوادى وسكانه	وأنشد فؤادى فى ربا المجمع
حى كثب الرمل رمل الحمى	وقف وسلم لى على لعلع
واسمع حديثا قد روته الصبا	تسنده عن بانة الاجرع
وابك فما فى العين من فضلة	ونب فدتك النفس عن مدمعى
وانزل على الشيح بواديهم	وقل ديار الظاعنين اسمعى
رفقا بنضو قد براه الأسى	ياعاذلى لو كان قلبى معى
لهفى على طيب ليال خلت	عودى تعودى مدنفا قد نعى
إذا تذكرت زمانا مضى	فويح اجفانى من مدمعى
يانفس كم اتلو حديث المنى	ضاع زمانى بالمنى فاقطعى

ومنها :

فى شغل من الرقاد شاغل	من هاجه البرق بسفح عاقل
ياصاحبى هذى ديار ربعهم	قد أخبرت شمائل الشمائل
واطربنى إذا رأيت أرضهم	هذا وفيها رميت مقاتلى
ماالصبا مولعة بذى الصبا	أصبا فوق الغرام القاتل
مااللهوى العذرى فى بلادنا	أين العذيب من قصور بابل
يابانة الشيح سقيت أدمعى	ولا ابتليت بالهوى تمايلى
ميلك عن زهو وميلى أسى	ما طرب المخمور مثل الثاكل
لله در العيش فى ظلالهم	ولى وكم أسار فى المفاصل

ومنها :

تملكوا واحتكموا	وصار قلبى لهم
تصرفوا فى ملكهم	فلا يقال ظلموا
إن وصلوا محبهم	أو قتلوا فهم هم
اصبر على ما شاءوا	شاء الذى قد حكموا
يا أرض سلع خبرى	وحدثينى عنهم

يا أرض سامع خبرى وحدثينى عنهم
ياليت شعرى إذ غدوا أأنجدوا أم أتهموا
تشتاقهم أرض منى ومكة وزمزم

فصل فى وفاة أبى الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع شهر رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى . قال سبطه أبو المظفر : وكنت حاضراً فانشد أبياتاً قطع عليها المجلس وهى : —

الله أسأل أن تطول مدتى وأنال بالانعام مافى نيتى
لى همة فى العلم ما من مثلها وهى التى جنت النحول هى التى
خلقت من العلق العظيم الى المنى دعيت إلى نيل الكمال فلبت
كم كان لى من مجلس لو شبهت حالاته لتشبهت بالجنة
اشتاقه لما مضت أيامه عطلا وتعذر ناقة ان حنت
ياهل لليلات تقضت عودة أم هل الى وادى منى من نظرة
قد كان أحلى من تصاريف الصبا ومن الحمام مغنيا فى الايكة
فيه البديهات التى ما نالها خلق بغير تصبر ومبيت
برجاحة وفصاحة وملاحة يقضى لها عدنان بالعربية
وبلاغة وبراعة ويراعة ظن النباتى أنها لم تنبت
وإشارة تبلى الأديب وصحبة فى رقة ماقالها ذو الرمة

قلت : أظن هذه الأبيات نظمها فى أيام محنته إذ كان محبوسا بواسط فمعانيها دالة على ذلك والله أعلم ثم قال ابو المظفر : ونزل من المنبر فمرض خمسة أيام وتوفى ليلة الجمعة بين العشائين فى داره ببغداد . قال : وحكت لى والدتى رحمها الله أنها سمعته يقول قبيل موته : ايش أعمل بطواويس (يرددها) قد جبتم لى هذه الطواويس . وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر ، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق ، وجاء أهل المحال وشددنا التابوت بالحبال وسلمناه إليهم فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى عليه ابنه أبو القاسم على اتفاقا لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه ، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه وضاق بالناس . وكان يوما مشهوداً لم نصل إلى حفرته عند قبر أحمد بن حنبل إلى وقت صلاة الجمعة ، وكان فى تموز وأفطر خلق كثير ممن صحبه ورموا نفوسهم فى خندق الظاهرية فى الماء . وما وصل إلى حفرته من الكفن إلا قليل . وأنزل فى الحفرة والمؤذن يقول : الله أكبر . وحزن الناس عليه حزنا شديداً ، وبكوا بكاء كثيراً ، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات . ورآه تلك الليلة رجل صالح فى منامه وهو على منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس فى مقعد صدق والملائكة جلوس بين يديه والحق سبحانه حاضر يسمع كلامه . قال : وأصبحنا يوم السبت عملنا عزاءه وتكلمت فيه وحضر خلق عظيم .

قال : ومن العجائب إنا كنا جلوسا عند قبره عند انفضاض العزاء وإذا بخالى محى الدين يوسف قد

صعد من الشط وخلفه تابوت فعجبنا وقلنا ترى من مات فى الدار ؟ وإذا بها خاتون أم ولد جدى والدة محيي الدين وعهدى بها فى ليلة الجمعة التى مات فيها جدى فى عافية قائمة ليس بها مرض فكان بين موتها وموته يوم وليلة ، وعد الناس ذلك من كراماته لأنه كان مغرى بها فى حال حياته. وأوصى جدى أن يكتب على قبره :—

يا كثير العفو عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الـصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الضـيف إحسان إليه

وهذا البيت تضمين .

فصل فى ذكر أولاده

قال ابو المظفر : وكان له من الاولاد الذكور ثلاثة عبد العزيز وهو أول أولاده ، وأبو القاسم علي، وأبو محمد يوسف . فأما عبد العزيز وكنيته ابو بكر : تفقه على مذهب أحمد وسمع أبا الوقت ، وابن ناصر، والأرموى ، وجماعة من مشايخ والده . وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام فيقال إن بنى السهروردى حسدوه فدسوا إليه من سقاه السم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين فى حياة والده .

وأما أبو القاسم : فكتب الكثير وسمع الحديث من ابن البطى وغيره. وهو الذى أظهر مصنفات والده وباعها مع العسر فيمن يزيد ، ولما مضى والده إلى واسط كانت كتبه فى داره بدرب دينار فتحيل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد وباعها ولا بثمن المداد ، وكان أبوه قد هجره منذ سنين فلما امتحن أبوه صار إلبا عليه للمعادين . وتوفى سنة ثلاثين وستمائة وله ثمانون سنة .

وأما أبو محمد يوسف ولقبه محيي الدين ، فولد فى سنة ثمانين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير وتفقه وناظر ونشأ على الطريق الرشيدة والخلائق الحميدة ، وهو كان السبب فى خلاص والده من واسط . ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تربة والدة الخليفة ،وقامت بامره أحسن قيام . ثم ولى الحسبة بجانبى بغداد فى سنة أربع وستمائة إلى تسع وستمائة. ثم وليها من سنة خمس عشرة وستمائة إلى (١) وسلك طريق العقل والسداد وترسل عن الخلفاء إلى الملوك . وأول ترسله عن الإمام الظاهر ابن الناصر فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى اولاده العادل الأشرف والمعظم والكامل وآخر ما انفصل عن الشام (٢) فى سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغداد وفى تلك السنة توفى صاحب الروم والاشرف والكامل ثم ولى أستاذية الدار فى سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر . قلت : وبقى على ذلك إلى أن قتله التاتار لعنهم الله . استولوا على بغداد وهى سنة خمس وخمسين وستمائة مع من قتلوه من الأكابر الذين خرجوا مع الخليفة إليهم على ما سنذكره إن شاء الله .

قال ابو المظفر : كان لجدى عدة بنات منهن والدتى رابعة ، وشرف النساء ، وزينب، وجوهرة

(١) بالأصل بياض

(٢) ومحيي الدين بن الجوزى هذا هو الذى بنى المدرسة الجوزية بالبزورية (سوق القمح) بدمشق أيام كان به . « ز »

وست العلماء الكبرى ، وست العلماء الصغرى . وكلهن سمعن الحديث من جدى وغيره .

• قال الشيخ أبو الفرج فى كتابه المنتظم فى أخبار سنة إحدى وسبعين وخمسمائة : وفى هذه السنة عقد عقد ابنتى رابعة بباب حجرة الخليفة وحضر قاضى القضاة والعدول والخدم والأكابر على أبى الفتح بن رشيد الطبرى ، قال : وزوجت ابنى أبا القاسم بابنة الوزير يحى بن هبيرة فى ذلك اليوم وكان الخاطب ابن المهتدى .

قال ابو المظفر : هذه رابعة والدتى هى تزوجها ابن رشيد الطبرى وهو أول أزواجها ولم يطل عمره معها ثم زوجها جدى بوالدى بعد موت ابن رشيد . وقد سمعت الحديث على ابن البطى ، وثابت بن بندار ، ومعظم مشايخ جدى . قال أبو الفرج : وزفت إلى ابن رشيد فى المحرم سنة اثنتين وسبعين فى دار الجهة بنفشا جهة الخليفة وجهزتها بمال عظيم .

قال أبو المظفر : ماقصد جدى بهذا الكلام إلا إعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة . وإن أحداً من ابناء جنسه لم يصل إلى مرتبته.

فصـل :

وفى هذه السنة ايضا وهى سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفى فى مستهل شهر رمضان العماد الكاتب الأصطفهانى وكان كاتب الإنشاء فى الدولتين النورية ، والصلاحية ، وكان مبرزا فى النظم والنثر عارفا بالادب ، حافظا لدواوين العرب . وقد ذكرت له ترجمة حسنة فى تاريخ دمشق فى حرف الميم ، وأخباره مفرقة فى كتابى الذى سميته بالروضتين وقد ذكر هو نفسه أيضا فى كتابه الذى سماه بالخريده . ومن شعره : —

بالله ياريح الشمال تحملى ... منى التحية نحو ذاك المنزل
خفى على حمل السلام وخففى ... عن قلب صب بالصبابة مثقل
قولى لمن شغل الفؤاد بحبه ... ويخال أن فؤاده منه خلى
حلت عقود دموعه وعقوده ... وعهوده معقودة لم تحلل
سقيا لأحباب تبدل ودهم ... بعدى ولم أنقض ولم أتبدل
الظاعنين وودهم مستوطن ... والراحلين وذكرهم لم يرحل
لى بعدهم حال المعنى المبتلى ... حزنا وعين الساهر المتململ
ياراكبا يطوى الفلا مستعجلا ... هيجت أحزانى فلا تستعجل
أقفلت باب مسرتى وفتحت من ... دمعى وحزنى كل باب مقفل
عرج وعج نحو الحمى سق الحمى ... اعدل فليس عن الحمى من معدل

ومنـــه

أياساكنى مصر عفا الله عنكم ... وعفا كم مما ألاقيه منكم
أبيت على هجرانكم متندما ... ومن ينأ عنكم كيف لايتندم
فان كنتم لم تعلموا مالقيته ... من الوجد والأشواق فالله يعلم

بقيتم وعشتم سالمين من الأذى ومنية قلبي أن تعيشوا وتسلموا

وفيها : توفى مكلبة بن عبد الله المستنجدى . وكان صالحاً يقوم الليل سمع المؤذن يقول وقت السحر فى المئذنة : —

يا رجال الليل جدوا رب صوت لا يرد

ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد

فبكى مكلبة بكاء شديدا وصاح يامؤذن زدنى . فقال المؤذن : —

قد مضى الليل وولى وحبيبى قد تجلى

فصاح مكلبة ومات . فأصبح جمع من بغداد على باب داره وكان يوما عظيما لم ير ببغداد مثله فالسعيد من وصل إلى كفنه ، وقطع الكفن . ودفن بالوردية .

وفيها : توفى أبو منصور بن نقطة المزكلش . كان يقول :

كان . وكان . ولا يعرف الخط . وهو : أخو عبد الغنى بن نقطة الزاهد . وهو : عبد الغنى بن أبى بكر بن شجاع . كان له زاوية ببغداد يأوى اليها الفقراء ، وكان دينا جوادا سمحا لم يكن ببغداد فى عصره من يقاومه فى التجريد . كان يفتح عليه قبل غروب الشمس بألف دينار فيفرقها والفقراء صيام لايدخر لهم منها شيئا ويقول : نحن لانعمل بأجرة (يعنى لانصوم ونذكر ما نفطر عليه) . وكانت والدة الخليفة الناصر تحسن الظن به ، زوجته بجارية من خواصها ، ونقلت معها جهازا يساوى عشرة آلاف دينار فما حال الحول وعنده منه سوى هاون . لجاء فقير فوقف على الباب وقال : لى ثلاثة أياما أكلت شيئاً . فأخرج الهاون وقال : لا تشنع على الله كل بهذا ثلاثين يوما . وتوفى عبد الغنى رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن بزاويته .

وأخوه أبو منصور ابن نقطة المزكلش كان ينشد كان.وكان فى الأسواق ، ويسحر الناس فى رمضان فقيل له ما تستحى اخوك زاهد العراق وانت تزكلش فى الأسواق فقال مواليا : —

قد غاب من شبه الجزعة إلى الدرة وشابه قحبـة إلى مستجنة حرة

أنا مغنى واخى زاهد إلى مرة فى الدار بئرين ذى حلوة وذى مرة

وأجرى حديث قتل عثمان وأن عليا كان بالمدينة ولم يقدر على الوصول اليه . فقال ابن نقطة :

« ومن قتل فى جواره مثل ابن عفان واعتذر »

« يجب عليه أن يقبل فى الشام عذر يزيد »

فأراد الشيعة قتله فوثب عليه ليلة وكان يسحر الناس فى شهر رمضان . وكان الإمام الناصر تلك الليلة فى المنظرة وهو واقف يسحر ويقول : أى نياما : قوما . قوما السحور . قوما . فعطس الخليفة . فقال ابن نقطة : يامن عطس فى الروزنة ، يرحمك الله قوما . فبعث الخليفة اليه مائة دينار وحماه من الشيعة فمات بعد قليل .

وفيها : توفى مسند الشام فى وقته أبو طاهر بركات بن ابراهيم بن طاهر الخشوعى . شارك الحافظ

أبا القاسم فى كثير من شيوخه الدمشقيين سماعا والغرباء إجازة وعمر حتى ألحق الصغار بالكبار ، أخبرنا عنه جماعة رحمه الله .

سنة ٥٩٨ هـ :

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين والغلاء بمصر مستمر ثم تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها وأقلع فى أواخرها ولله الحمد .

قال أبو المظفر : كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه وهو أخو زوجته سعدى ابنة ناصر الدين محمد شيركوه الكبير فجاء إلى عمه العادل فالتقاه عند ثنية العقاب فأكرمه وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، وقلعة نجيم وقرايا فى المرج ومصر وتسلم الظاهر فامية من ابن المقدم ، ونزل العادل على حماة فصالحه الظاهر ورجع العادل إلى حمص

وجاءت فى شعبان زلزلة عظيمة فشققت قلعة حمص ، ورمت المنظرة التى على القلعة ، وأخربت حصن الأكراد ، وتعدت إلى جزيرة قبرس ، وامتدت إلى نابلس فأخربت ما بقى .

وقال العز بن تاج الأمناء : هذه الزلزلة العظمى التى هدمت بلاد الساحل صور، وطرابلس، وعرقة ، وشعثت كثيرا من البلاد الإسلامية الشمالية . ورمت بدمشق رؤس منائر الجامع وبعض شراريفه من شماله فقتلت رجلا مغربيا بالكلاسة ، ومملوكا تركيا لرجل صيرفى ساكن فى درب السميساطى عند تنفس الصبح من يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان الموافق العشرين من آب وأعقبها زلزلة خفيفة فى ضحوة الغد .

قال أبو المظفر : وفيها شرع الشيخ ابو عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى فى بناء الجامع بالجبل ، وكان بقاسيون رجل فامى يقال له ابو داود محاسن فوضع أساسه وبلغ قامة ، وأنفق عليه ما كان يملكه . وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب إربل فبعث إلى الشيخ أبى عمر مالا فتممه ووقف عليه وقفا . وبعد ذلك أراد ابن زين الدين أن يسوق الماء اليه من برزة وبعث ألف دينار لذلك . فقال الملك المعظم عيسى بن العادل : طريق الماء كلها قبور . وكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين اشتروا بغلا واعملوا مدارا وبالباقى مكانا أوقفوه عليه ولاتؤذوا أحدا . ففعلوا . وحج بالناس من العراق وجه السبع . ومن الشام خشتر بن الهكارى .

وفيها: توفيت بنفشا ابنة عبد الله جارية المستضىء . وكانت كريمة صالحة ، كثيرة الصلاة والصدقات عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد وتصدقت بأموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين. وهى التى اشترت دار الوزير بن جهير بباب الأزج ووقفتها على الحنابلة وفوضت نظرها إلى الشيخ ابى الفرج ابن الجوزى . وهى التى أشارت على المستضىء بولاية الإمام الناصر وكان فى عزمه أن يولى الخلافة ولده الأمير أبا منصور فرأى الناصر لها ذلك . فلما ولى الخلافة أنزلها فى الدار التى كانت بها والدته وأحسن إليها . ولما توفيت تولى أمرها والدة الخليفة وجهزتها أحسن جهاز. ودفنتها فى تربتها المجاورة لمعروف الكرخى وذلك فى ربيع الأول .

وفيها : توفى أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الباخرزى . ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة. وهو

السنة التى ولد فيها نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله تعالى . وسمع الحديث ببغداد ، ومصر ، والاسكندرية . سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدى ، وبالاسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفى وببغداد ابن السمرقندى وغيرهم . وحدثنا عنه جماعة . ومات بحران فى ذى الحجة وأنشد لنفسه : —

تنقل المرء فى الآفاق يكسبه　　محاسنا لم يكن فيها ببلدته

أما ترى بيدق الشطرنج أكسب　　حسن التنقل فيها فوق رتبته

وفيها : توفى هبة الله بن الحسن بن المظفر أبو القاسم الهمذانى . ويقال له ابن السبط والسبط هو جده المظفر . كان سبطا لأحمد بن على بن لال الفقيه الهمذانى . ولد هبة الله فى سنة عشر وخمسمائة وهو محدث ، ابن محدث ، ابن محدث ، وكانت وفاته فى باب المراتب ببغداد فى المحرم ، ودفن بالريان سمع أبا القاسم ابن الحصين ، وقاضى المارستان ، وابن السمرقندى وأنشد لغيره :

إذا الفتى ذم عيشا فى شبيبته　　فما يقول إذا عصر الشباب مضى

وقد تعوضت عن كل بمشبهه　　فما وجدت لأيام الصبا عوضا

وفيها : توفى الشيخ على بن محمد بن غليس اليمنى الزاهد . كان مقيما بكلاسة جامع دمشق فى شرقيها وتوفى يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ودفن بمقبرة باب الصغير قبلى الحظيرة التى فيها قبر معاوية وغيره بغرب . وحكى عنه كرمات جليلة حكى عنه جماعات من المشايخ السادة مثل شيخنا أبى الحسن السخاوى ، وأبى القاسم الصقلى ، وابى البركات ميمون الضرير . وأبى الحسن ابن أبى جعفر وغيرهم . أخبرنى أبو على حسن بن عبد الله بن صدقة الصقلى الشيخ الصالح رفقه الله قال: سمعت شيخنا السخاوى يقول : سمعت ابن غليس يقول : كنت مسافرا مع قافلة فرأيت فى المنام كان سبعا إعترضهم فقطع الطريق عليهم فوقفوا حائرين فتقدمت اليه وقلت يا كلب الله أنت كلب وأنا عبد الله فاخضع وارجع لمن سكن له ما فى السموات والأرض وهو السميع العليم . فذهب وانفتحت الطريق للقافلة . ثم انتبهت فسرنا قليلا وإذا بالقافلة قد وقفت فسألت ما الخبر ؟ فقيل السبع على الطريق فتقدمت اليه وهو مقعى على ذنبه فقلت ذلك الكلام وتقدمت إليه فادخلت يدئ فى فمه وقلبت أسنانه وشممت من فيه رائحة كريهة .

قال الشيخ السخاوى فقلت له : انه يأكل اللحم وما يتحلل . قال : وأدخلت يدى فقلبت خصييه وإذا هما مثل خصى القط . قال : واخبرنى الشيخ ميمون الضرير عن صاحب لابن غليس قال : أمرنى بايقاد السراج ولم يكن به زيت فاوقدت الفتيلة فوقدت ، ثم أمرنى فى الليلة الثانية فأوقدتها فوقدت ، ثم أمرنى فى الليلة الثالثة بايقادها فقلت : أفلا زيت فى السراج . قال : وإيش فضولك فى هذا لو سكت لكانت تقد أبداً . أو كما أخبرنى الشيخ ابو القاسم الفضل قال : مات مهر لابن غليس فحزن عليه كثيرا فقيل له لم تحزن عليه ؟ غيره يقوم مقامه . فقال إنه فرس صالح كان معى فى سفرى بالعراق فآوانى الليل مع جماعة إلى قرية وكانت ليلة باردة ذات ريح ومطر فلم يقدر لنا مكان نأوى اليه إلا موضع صغير فقلت لأصحابى : إن تركنا الفرس خارج البيت هلك بالبرد وخفنا عليه وإن أدخلناه معنا خفنا من بوله وتلويثه الجماعة لصغر المكان فتقدمت اليه وقلت له : نحن ندخلك معنا بشرط أن لا تفعل ما يتأذى

به الجماعة من بول وغيره ، ثم أدخلناه فبات ليلته لم يتحرك بحركة يتأذى منها ، ولم يبل . فلما أصبحنا أخرجناه معنا فلما صار خارج الباب بال نحو قربة ماء ، أو كما قال : قال وحدثني محمد بن أبي جعفر قال : ابن غليس يقول عن نفسه ابن غليس ما يسوى فليس رحمه الله .

وفيها : توفي بدمشق خطيبها الدولعي الكبير الملقب بضياء الدين واسمه : أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي . والدولعية قرية من قرى الموصل ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة قبل جمال الدين ابن الحرستاني بسنتين وقدم بغداد فتفقه بها على مذهب الشافعي وسمع الحديث ، ثم قدم دمشق فاستوطنها وصار خطيبها ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المنسوبة الى الشيخ نصر المقدسي رحمه الله تعالى . وكان متزهداً ، حسن الأثر ، حميد الطريقة ، مهيبا صارما في قول الحق سمع جامع الترمذي من أبي الفتح الكروخي ، وكتاب السنن للنسائي من أبي الحسن على بن أحمد اليزدي ، وسمع من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ، والقاضي أبي سعد ابن أبي عصرون وقرأ عليه الفقه وغيرهم . وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول ودفن بباب الصغير في قبور الصحابة وقبره ثم مشهور يزار . وكانت جنازته مشهودة امتلأ بها جامع دمشق متصل صلاة يوم الجمعة المسقف ، والصحن ، والرواقات وخارج الأبواب . حدثنا عنه والدي رحمه الله . وابن أخيه جمال الدين محمد الذي تولى الخطابة بعده وغيرهما ، وطلبه شرف الدين ابن عصرون أن ينوب عنه في القضاء فأبى . فاستناب جمال الدين بن الحرستاني . وأخبرني القاضي الخطيب عماد الدين ابن الحرستاني أن قاضي القضاة محي الدين يوم مات الخطيب حضر إلى الجامع وقدم ولده الزكي الطاهر فصلى بالناس صلاة واحدة وأراد أن يأخذ المنصب له فمضى جمال الدين الدولعي إلى علم الدين أخي السلطان فأخذ أمر أخيه توقيعا بمنصب الخطابة مكان عمه فبقي فيه سبعا وثلاثين سنة على ماسنذكره في سنة وفاته وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة .

فيها : ته في المؤيد اسعد بن القلانسي بدمشق فجأة رابع عشر ربيع الآخر .

وفيها : توفي حسام الدين بشارة الذي كان صاحب بانياس قبل شركس في السادس والعشرين من ربيع الآخر .

وفيها : توفي قاضي دمشق محي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي . وجميع من ذكرنا من أجداده ولوا القضاء بدمشق . وجده الأعلى يحيى بن علي بن عبد العزيز هو جد الحافظ أبي القاسم ابن عساكر لامه ويعرف بابن الصائغ . ذكر الحافظ في ترجمته وترجمة والده في تاريخ دمشق . وذكر أيضا ترجمة ولديه محمد بن يحيى ، وسلطان بن يحيى وهما خالا الحافظ أبي القاسم ولم يرفع نسب أحد منهم بما يتصل بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما تدعيه ذريته في زماننا ولو كان ذلك الاتصال صحيحاً لما خفي على الحافظ ابي القاسم ولو كان يعرفه لما أغفل ذكر هذه المنقبة لأجداده وأمه وأخواله .

تولى أبو المعالي قضاء دمشق أولا نيابة عن الشيخ شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن عصرون ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وبأمره في

سنة (ثمان وثمانين) وخمسمائة وبقى على ذلك إلى أن توفى فى هذه السنة فى سابع شعبان ودفن بتربته فى الجبل . ولما فتح صلاح الدين مدينه حلب أضاف اليه أيضا قضاءها ، وكان عالما صارما ، كاتبا حسن الخط واللفظ . وهو أول من خطب بالبيت المقدس شرفه الله تعالى لما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بخطبة فائقة من انشائه قد ذكرتها فى كتاب الروضتين ، وكان بيده الأوقاف التى للجامع وغيره ، ثم عزل عنها فى جمادى الاولى سنة وفاته . وتولاها شمس الدين ابن التيتى ضمانا ، ثم فى صفر من سنة أربع وستمائة عزل الشمس ابن التيتى عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضمانا بزيادة ثلاثة آلاف دينار ، ثم فى تاسع شعبان من هذه السنة سنة أربع وستمائة أبطل ضمانها وتولاها المعتمد والى دمشق ، وكان محى الدين قد اختل فى آخر عمره وجرت له قصة مع الاسماعيلية بسبب قتل شخص منهم يعرف بالفافا ولذلك فتح له بابا سرا إلى الجامع لصلاة الجمعة . ودرس عنه عماد الدين ابن الحرستانى وأثنى عليه فى فصاحته وحفظه لما يلقيه فى درسه . قال : وتوفى وله ثمان وأربعون سنة . وكذا ولده الزكى الطاهر . وكان رحمه الله يحرض على كتابة عقيدة الغزالى الملقبة بالمصباح ويأمر بتحفظ الصغار لها وكذا أخيه من بعده ، وكان ينهى عن الاشتغال بكتب المنطق والجدل ولقد استدعى بكتب من كانت عنده من سكان مدرسته التقوية فقطعها بحضور الجمع فى مدرسته بالكلاسة قبالة الشباك الصلاحى وثم كان يذكر الدرس العام للتفسير فقطعها ومالكها حاضر . قال : وكان قد تنزل ذكر نيابته عن ابن عصرون فأرسل السلطان صلاح الدين مجد الدين ابن النحاس والد العماد اليه وأمره أن يضرب على علامته فى مجلسه ففعل به ذلك فلزم بيته حياء من الناس فطلب ابن عصرون من يستنيبه فأشير عليه بالخطيب ضياء الدين الدولعى فأرسل اليه خلعة مع البدر ابن يونس الفارق فرده وشتمه ورمى بالخلعة فأرسل إلى جمال الدين ابن الحرستانى فناب عنه وعن ابنه إلى أن عزل . قال : وكان قد اختلط عقله فى آخر عمره فبينا هو فى داره يوما وعنده جماعة من أكابر دمشق ثار به الخلط فخرج من ساعته على الهيئة التى كان عليها فى داره فوجد بغلة لبعض من كان عنده فركبها فخيف عليه فارتدفه غلام صاحب البغلة فخرج على وجهه إلى الميدان فلحقه الجماعة وأمر له بضرب خيمة وبات والناس عنده تلك الليلة ثم أدخل من الغد فبقى أياما ومات.

سنة ٥٩٩ ﻫ :

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وهى سنة موالدى ففى سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم فى السماء شرقا وغربا ،وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا ، ولم ير هذا إلا فى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكانت هذه السنة أعظم . قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزى .

وقال العزبن تاج الأمناء . فى سلخ المحرم رؤى فى السماء نجوم متكاثفة متطايرة شديدة الاضطراب إلى غاية. قال وشرع فى عمارة سور قلعة دمشق فى الشهور الأواخر من هذه السنة وابتدىء ببرج الزاوية الغربى القبلى منها المجاور لباب النصر .

قال أبو المظفر : وتمت عمارة رباط المرزبانية الذى بناه الخليفة على نهر عيسى ورتب فيه الشيخ

شهاب الدين عمر السهروردى وعنده جماعة من الصوفية

وفيها : بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى العادل وأولاده فلبسوها فى شهر رمضان وأخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل بأمر العادل . وابتدىء بعمارة قلعـة دمشق ، وحج بالناس من العراق طاشتكين.

قال وفيها:توفيت والدة الإمام الناصر واسمها زمرد خاتون أم ولده المستضىء ، كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات ، دائمة البر والصلات ، متفقدة لأرباب البيوت ، وحجت فأنفقت مالا عظيما نحو ثلاثمائة ألف دينار كان معها نحو ألفى حمل . وتصدقت على أهل الحرمين وأصلحت البرك والمصانع ، وعمرت التربة عند قبر معروف والمدرسة إلى جانبها ، ووقفت عليها الأوقاف وتوفيت فى جمادى الأولى وحزن الخليفة عليها حزنا لم يحزنه ولد على والده ، وفعل فى حقها ما لم يفعله أحد من أمثاله صلى عليها فى صحن السلم ومشى بين يدى تابوتها إلى دجلة من ناحية التاج ، ثم حملت فى الشبارة نهاراً والوزير ناصر ابن مهدى قائم مشدود الوسط وأرباب الدولة فى السفن ، وصعدوا بتابوتها إلى التربة وأمر الخليفة أن يمشى الناس من دجلة إلى تربتهـا المجاورة لمعروف والمسافة بعيدة . وكان الوزير سمينا نكاد يهلك وقعد فى الطريق نحو من ثلاثين مرة وعمل لهـا العزاء شهرا كاملا وأنشدت المراثى . وختمت الختمات طول الشهر ، وفرق الخليفة بعد الشهر أموالا كثيرة فى الزوايا ، والربط ، والمدارس ، وخلع على الأعيان ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا . وأمر بأن يفرق جميع ما خلفته من ذهب ، وفضة ، وحلى ، وجواهر ، وثياب فى جواريها ومماليكها نقسم بينهم ، وحمل ما كان فى خزانتها من الأشربة ، والمعاجين ، والعقاقير إلى المارستان العضدى وكان يساوى ألوفا . وحزن عليها أهل بغداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة إلى الناس .

قال وفيها : توفى القاضى أبو الفضل أحمد ابن قاضى القضاة أبى طالب على بن هبة الله بن محمد بن البخارى استنابه أبوه فى القضاء بحريم دار الخلافة فلم يزل على ذلك حتى توفى والده فانعزل ، ثم ولى سنة أربع وتسعين فاقام حتى ولى ضياء الدين ابن الشهرزورى فى رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة فأقره على حاله ، ثم عزله فى ذى الحجة من السنة المذكورة فلزم بيته إلى أن توفى فى ذى الحجة من هذه السنة وصلى عليه بالنظامية ودفن عند أبيه بمشهد موسى بن جعفر وكان نزها عفيفا .

وفيها : توفى عبد الله بن الحسن بن زيد أبو محمد الكندى أخو الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندى العلامة . وكان عبد الله أصغر من الشيخ وكان جوادا . سمع ببغداد أبا الفضل بن ناصر وغيره واستوطن دمشق إلى أن توفى بها فى ذى القعدة وصلى عليه أخوه تاج الدين بجامع دمشق ودفن بجبل قاسيون . قلت : وهو والد أمين الدين أبى العباس أحمد الذى ورث عمه تاج الدين وكان آدم اللون رحمهم الله .

وفيها : توفى علم الدين سليمان بن شيرويه بن جندر أخو العادل لأمه فى التاسع والعشرين من المحرم ودفن بداره بدمشق ، وهى التى وقفها مدرسة للشافعية المعروفة بالفلكية بحارة باب الفراديس وقف عليها قرية الحمّان .

وفيها : توفى الأمير سيف الدين أبا زكوج الأسدى بمصر سابع عشر ربيع الآخر .

وفيها : توفى الفقيه برهان الدين مسعود بن شجاع الحنفى مدرس المدرسة النورية بدمشق فى خامس عشر جمادى الآخرة ودفن بالمقبرة التى بجبل قاسيون غربى دار ابن سمندار . وكان هو وابن العقادية ممن يشتغل على الشيخ على البلخى رحمه الله .

قال أبو المظفر وفيها : توفى عبيد الله بن على بن نصر أبو بكر البغدادى . يعرف بابن المارستانية أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث ؛ والطب ، والنجوم ، وعلوم الأوائل وأيام الناس ؛ وصنف كتابا سماه ديوان الإسلام فى تاريخ دار السلام قسمه ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر . وهو الذى صنف سيرة ابن هبيرة ، وهو الذى قرأ كتب عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر يوم احرقت كان يقرأ الكتاب ويقول : ياعامة هذا عبد السلام يقول فى هذا الكتاب من بخر زحل بكذا وكذا وقال: يا الهى ياعلة العلل نال ما أراد . وكان ابن المارستانية محولا على ابن عبد القادر وكان الخليفة قد أمر الوزير أن يخلع عليه ويبعثه رسولا إلى الكرج بتفليس فخلع عليه خلعة سوداء سنية وخرج من دار الوزير بين يديه الحجاب وأرباب الدولة فوقف له عبد السلام بن عبد الوهاب الذى أحرق كتبه وتقدم إليه وقال له سراً بينهما . الساعة من بخر زحل أنا أم أنت ؟ فقال : انا . ولما قضى الرسالة وعاد من تفليس توفى بمكان يقال له جرخ بند فى ذى الحجة وقد تكلموا فيه ذكره ابن الدبيثى فى الذيل فقال عبيد الله بن على بن نصر بن حمزة (بحاء مهملة وراء مهملة) أبو بكر ابن أبى الفرج ويعرف بابن المارستانية جمع الكتب ، وادعى الحفظ وسعة الرواية عمن لم يلقه ولم يأخذ عنه ، وكان ينتسب إلى أبى بكر الصديق وكان أبوه ينكر ذلك وكان أبوه وأمه يخدمان المارستان ، ولهذا نسبت أمه اليه وأطلق الناس القول فى جرحه بهذه الأسباب حتى قال أبو جعفر الواثق : —

دع الأنساب لا تعرض لتيم فأين الهجن من ولد الصميم

لقد أصبحت من تيم دعيا كدعوى حيص بيص إلى تميم

فطعن فيه ابن الدبيثى طعنا كثيرا . وقال فى كتابه أخبرنا : والدى. أنبأنا : قاضى المارستان وهذه قحة عظيمة وأبوه عامى لايعرف الحديث ولا سمعه وكان قصده أن يقال عنه محدث ابن محدث

قلت : هذا غلو من قائله لايلزم من كونه عاميا أن لا يكون له سماع فى صغره يوما فلايسمع قوله « ولاسمعه » فانها شهادة على نفى . قال : وما تم كتابه المسمى بديوان الإسلام ولو تم لظهرت فضائحه سمع الكاتبة شهدة ، وشيوخ ذلك العصر .

وفيها : توفى زين الدين ابن نجية الواعظ . واسمه أبو الحسن على بن ابراهيم بن نجا الحنبلى ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ونشأ بها وهو سبط الشيخ أبى الفرج الحنبلى جد بنى الحنبلى الدمشقيين فهو ابن عمة نجم بن عبد الوهاب بن أبى الفرج ، ونجم هذا والد الناصح ابن الحنبلى وإخوته . اشتغل ابن نجية المذكور بالتفسير ، والوعظ وبعثه نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله رسولا إلى بغداد فى سنة أربع وستين وخمسمائة . فسمع بها عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وغيره ، وصاهر سعد الخير الأنصارى

على ابنته ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين وفى أيامه وكان له منه منزلة جليلة ، وهو الذى نم على عمارة اليمنى الشاعر وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة فشنقهم صلاح الدين على ماذكرناه فى كتاب الروضتين . وقد ذكرنا من أحوال زين الدين هذا فى كتاب الروضتين أشياء . منها : ما كاتب به صلاح الدين فى تفضيل مصر على الشام وغير ذلك . وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضره بجلسه هو وأولاده العزيز وغيره ، وكان له جاه عظيم وحرمة زائدة وكان يجرى بينه وبين الطوسى العجائب لأن الطوسى أشعرى . وابن نجية حنبلى وكلاهما واعظ . جلس يوما ابن نجية فى القرافة بالجامع فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده السقف فعمل الطوسى خطبة وذكر فيها قوله تعالى:(فخر عليهم السقف من فوقهم) وعايبوا كلبا يشق الصفوف فقال ابن نجيـة : هذا من هناك وأشار إلى مكان الطوسى . وكان ابن نجية ينشد على المنبر شعر الملك الصالح طلائع ابن رزيك وزير خليفة مصر فمنه : —

مشيبك قد نضا صبغ الشباب   وحل البـاز فى وكر الغراب
تنام ومقـلة الحدثان تعطى   وما ناب النوائب عنك ناب
وكيف بقاء عمرى وهو كنز   وقد أنفقت منه بلا حساب

قال أبو المظفر : وكان ابن نجية قد اقتنى أموالا عظيمة وتنعم تنعما زائداً بحيث أنه كان فى داره عشرون جارية للفراش تساوى كل جارية ألف دينار . وأما الأطعمة فقد كان يعمل فى داره ما لا يعمل فى دور الملوك ، وتعطيه الخلفاء والملوك أموالا عظيمة كثيرة . ومع هذا مات فقيراً كفنه بعض أصحابه وتمزقت الأموال وحالت الأحوال وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة .

وفيها : توفى أبو الحسن على بن الحسن بن اسماعيل العبدى من عبد القيس ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة بالبصرة وبرع فى علم الأدب والترسل ، وسمع الحديث ببغداد من ابن ناصر وطبقته ثم عاد إلى البصرة فتوفى بها فى شعبان .

وأنشـد لنفسه : —

لا تسلك الطرق إذا اخطـرت   لو أنهـا تفضى إلى المملكه
قـد أنزل الله تعـالى (ولا   تـلقوا بأيدكم إلى التهلكه

وفيها : توفى أبو القاسم على ابن يحى بن أحمد الصوفى البغدادى ويعرف بسبط حامد البناء سمع قاضى المارستان وطبقته ، وتوفى ببغداد ودفن بباب الأزج وكان أنشد لنفسه : —

أى شىء يـكون أعجب من ذا   ان تفكرت فى صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزنا   والبـلا ما تكال بالقفزان

وفيها : توفى القاضى ضياء الدين الشهرزورى وهو : أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله بن القاسم وهو ابن أخى القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم قاضى قضاة الشام فى الأيام النورية وبعض الصلاحية إلى أن توفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وأوصى بالقضاة لابن أخيه ضياء الدين المذكور فأقام قليلا ثم استقال من القضاء لما فهم من غرض صلاح الدين تولية أبى سعد ابن عصرون فاقاله ورتبه للرسالة بينه وبين الخليفة فيرسل عنه إلى بغداد مراراً . ولد ضياء الدين فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

وتفقه ببغداد على يوسف الدمشقي بالنظامية، وسمع الحديث وعاد إلى الشام وبيته مشهور بالرئاسة والتقدم والقضاء، والفضل وآخر قدومه رسولا عن صلاح الدين في سنة ثمان وثمانين، ثم قدمها رسولا عن الأفضل عقيب موت صلاح الدين ولما أخذ العادل دمشق أخرجه منها بسبب الأفضل فاستدعى إلى بغداد في سنة خمس وسبعين فولاه الخليفة قضاء القضاة، وورد إليه أمور المدارس والأوقاف الشافعية والحنفية وغيرها. وكانت مطالعات الخليفة تصدر إليه دائما وحظى عنده وحصلت له منه منزلة لم تحصل لغيره من الغرباء، وكانت زوجته ست الملوك تدخل على أم الخليفة الناصر وتحسن إليها. وأقام ببغداد فلم تطب له واشتاق إلى الشام فطلب الانفصال فلم يجبه الخليفة فدخلت ست الملوك على أم الخليفة وسألتها في مخاطبة الخليفة في الإذن له في العود إلى الشام فسألته فأذن له.

قال أبو المظفر: وسمعت بعض عوام بغداد يقولون كان سبب عزله انه مسح يوماً القلم في شرابة الدواة ولم يمسحه في الخرقة الزرقاء التي عند الدواة وبلغ الخليفة فعزله. قال: وهذا ليس بشيء، ولم يعزله الخليفة إنما هو اشتاق إلى الشام ولم يعتد قواعد العراق، وخاف على نفسه أن يبدو منه مالا يليق فطلب الخروج إلى الشام وكان قد حسده أرباب الدولة على قربه ومنزلته من الخليفة وميله إليه فخاف من التحريف عليه، فكانت مدة ولايته بها سنتين وأربعة أشهر. ولما سافر عن العراق جاء إلى حماة فاقام بها وولى القضاء فعتب عليه ذلك بعد قضاء بغداد فقال: ماعزلت من قضاء بغداد، وحماة، والشام، والشرق، والغرب، في ولايتي فاذا نظرت في بعض ولاياتي فليس ذلك بعيب. وكانت وفاته بحماة منتصف رجب ودفن بها. ولقد حكى لي أنه لما احتضر جعل يسبح ويذكر الله وتتفرقع أصابعه حتى قضى. وكان فاضلا جواداً، سخياً، لم يكن في أبناء جنسه أكرم منه. وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه ومن شعره:

في كل يوم ترى للبين آثار ... وماله في الشام الشمل ايثار

يسطو علينا بتفريق فواعجبا ... هل كان للبين فيما بيننا ثار

يهزني أبدا من بعد بعدهم ... إلى لقائهم وجد وتذكار

ماضرهم في الهوي لو واصلوا دنفا ... وما عليهم من الأوزار لو زاروا

يانازلين حمى قلبي وإن بعدوا ... ومنصفين وإن صدوا وإن جاروا

ما في فؤادي سواكم فاعطفوا وصلوا ... وما لكم فيه إلا حبكم جار

وفيها: توفي أبو البركات محمد ابن أحمد بن سعيد البكري، ويعرف بالمؤيد وكان أديباً، فاضلا، شاعراً ومن شعره أبيات حسنة شائعة قالها في الوجيه النحوي. وكان الوجيه قديما على مذهب أحمد فآذاه الحنابلة فتحنف، فآذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي. فجعلوه يدرس النحو في النظامية فقال المؤيد:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة ... وإن كان لاتجدى لديه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل

وما اخترت رأي الشافعي تدينا ... ولكنما تهوى الذي هو حاصل

وعما قليل أنت لاشك صائر ... إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفيها: توفي أبو ذكريا يحيى بن طاهر بن محمد الواعظ. ويعرف بابن النجار البغدادي. ولد يوم

عرفة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير من أبي الفضل الأرموي وطبقته ، وتوفي في ذي الحجة ودفن بالمختارة شرقي بغداد وأنشد في مجلسه : —

عاشر من الناس من تبقى مودته ... فأكثر الناس جمع غير مؤتلف

منهم صديق بلا قاف ومعرفة ... بغير هاء وأخوان بلا ألف

وفيها : ولد مصنف هذا الكتاب الفقير إلى الله تعالى عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان ابن ابي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي الشافعي ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عفا الله عنه عرف بأبي شامة لأنه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر يكنى أبا القاسم محمد . وكانت ولادته من هذه السنة برأس درب الفواخير بدمشق داخل الباب الشرقي . وأصل جده أبي بكر من بيت المقدس كان أبوه أحد الأعيان بها ولعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي المقرىء الصوفي إمام صخرة بيت المقدس ذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق .

قال ابن الأكفاني : قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .وهو أحد الشهداء الذين رؤسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ماملة بالقدس الشريف فانتقل ولده أبو بكر إلى دمشق فأقام بها فولد له ولدان عثمان بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلما بباب الجامع الشامي وسيأتي ذكره . وكثر الله نسلهم بدمشق ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي فأولد عثمان بن إبراهيم بن عثمان جد مصنف الكتاب توفي في شعبان سنة خمس وسبعين وخمسمائة ودفن بمقبرة باب الفراديس فأولد ابراهيم بن عثمان ولدين أبا القاسم بن ابراهيم توفي في يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة أربع وستمائة وذفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما واسماعيل بن ابراهيم توفي ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة فأولد اسماعيل ولدين إبراهيم بن اسماعيل ومولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة احدى وتسعين وخمسمائة ومصنف الكتاب عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم وحبب الله تعالى إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز وطلب العلم فجعل ذلك همته فلم يشعر والده به إلا وهو يقول له قد ختمت القرآن حفظا ، ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه ، والعربية ،والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم وصنف في ذلك مصنفات كثيرة سيأتي ذكرها وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ثم حج في التي بعدها أيضا ثم سافر إلى البيت المقدس زائراً سنة أربع وعشرين وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين ، واجتمع بشيوخ هذه البلاد في ذلك الوقت بمصر والقاهرة ودمياط والاسكندرية ثم لزم الاقامة بدمشق عاكفا على ماهو بصدده من الاشتغال بالعلوم جمعه في مؤلفاته والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها وكان في صغره يقرأ القرآن في جامع دمشق ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور ابن عساكر ويروى طريقه في فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية لإلقاء دروس الفقه ويرى إقبال الناس عليه وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم ونشره له وانتفاع الناس بفتاويه فبلغه الله من ذلك فوق ما تمناه وظهر الشيب في لحيته ورأسه وله خمس وعشرون سنة فجعل الله تعالى له الشيخوخة صورة ومعنى فنظم في ذلك بعض الفضلاء :

ان يشب إذا بلغ خمسا وعشرين ... فما كان المشيب فيه بعاب
جهل الناس قدر شيخوخة العلـ ... ـم لجاس أنواره فى الشباب
نور الله الوجه والقلب منه ... ان فيه هداية المرتاب
هو شيخ معنى فعاجله الشيـ ... ـب وقاراً له على الأتراب
لجرى الفضل يافعا ومسنا ... ان زلفى له وحسن مآب

ورويت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل اليه من العلم وما يرجوه من الخير منها : أن والدته رحمها الله أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان فقالت الوالدة : لا تعجب فانى لما كنت حاملا به رأيت فى المنام كأنى فى أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وأنا أؤذن فقصصتها على عابر فقال: تلدين ذكرا ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير . ورأى هو فى صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام منجدا لأهله على الفرنج خذلهم الله ، وكان له بخصوصية من إفضاء أمره اليه والتحدث معه فى أمور المسلمين وهو يمشى إلى جانبه ملاصقا منكبه حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم وكأنه واسطة بينه وبين الناس ، وفى هذه السنة رأى أيضا كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام سلمه الله داخل باب الرحمة بالبيت المقدس وقد أراد فتحه وثم من يمنع من فتحه ويدفعونه لينغلق فمازالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذى خلفه . ورأى أيضا فى جمادى الآخرة من هذه السنة كأن المسلمين فى صلاة الجمعة فى حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولا ماء ثم يعرف فنظر إلى قليب ماء قريبا منه وحوض فخطر له ان يسقى من ذلك القليب ويسكب فى الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة فاستقى شخص قبله لا يعرفه دلواً أو دلوين ثم أخذ الدلو منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب فى الحوض . ورآه المهتار هلال بن مازن الحرانى متقلداً هيكلا وهو يقول : انظروا فلانا كيف تقلد كلام الله . ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا وهى قرية من قرى غوطة دمشق وكأنهم سئلوا ماشأنهم قالوا ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بنا قالت فحضر يعنى مصنف هذا الكتاب فصلى بهم . وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذى للكتب فى صدر الإيوان بالمدرسة العادلية وهو الموضع الذى يجلس فيه غالبا للفتوى وغيرها ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة فتعجب فقيل له مم تتعجب ؟ قال: هذا مكان ما رأيته قط . قال: ورأيت فى المنام كأنى كنت بهذه المدرسة العادلية وفيها خلق كثير وكأن قائلا يقول للناس تنحوا فالنبى صلى الله عليه وسلم عبر . قال فنظرت فخرج علينا من المجلس الذى للكتب ومر كما هو الى المحراب . ورأى الصلاح الصوفى أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه تزوداً تاماً يعجب منه الرائى . ورأى حسن الحجازى فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا فى عالم الغيب لا يراه بل يسمع صوته يقول: الشيخ أبو شامة نبى هذا الوقت أو كما قال : ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية وتحت القنطرة حيطة كثيرة . ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن اسمعيل وهو أسن منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين رأى

والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك فنظر فاذاهوفى رأس جبل والوالد والرائى يمشيان فى اسفله . ورأى فى صفر سنه سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دلى من السماء وهو مرتفع فيه فسأل إنسانا عن ذلك فى المنام فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى فقال له ذلك الإنسان من بنى هذا المسجد ؟ فقال: سليمان بن داود . فقال:أعطى أخوك مثل ما أعطى سليمان فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أوتى ملكا لا ينبغى لأحدمن بعده أليس أعطى كذا وكذا وعدد أنواع ما أوتى فقال: بلى. قال : وكذا أخوك أوتى أنواعا من العلم كثيرة أو كما قال. قال : ورآه الشرف الصرخدى فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذن ثم بعد الأذان قرأ : (واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب) . ورأى أيضا كأن القيامة قد قامت ومصنف الكتاب راكب على حمار وهو مسرع فقيل له فى ذلك فقال :اطلب النبى صلى الله عليه وسلم على الحوض. ورأى الشرف ابن الرئيس أيضا القيامة ووصف من اهوالها . قال : ورأيت فلانا يعنى صاحب هذا الكتاب فسألته عن حاله فقلت له . ماذا ما لقيت ؟ قال . لقيت خيرا .

وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه فى قوله تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث) وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» اللهم أوزعنا شكر هذه النعم واختم بخير واسترنا فى الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك(١)

سمع المذكور جماعة من المشايخ والعلماء من أصحاب أبى الوقت ، والحافظ أبى طاهر السلفى ، وأبى الفرج الثقفى ، وأبى طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعى وغيرهم وجمع وألف وهذب وصنف فى فنون العلوم النافعة كتباً كثيرة ومصنفات جليلة مختصرة ومطولة ثم أكثرها وسمعها ووقفها وكثرت النسخ بها . فأول ماأظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد . ومنها : شرح قصيدة الشيخ الشاطبى رحمه الله الذى سماه ابراز المعانى من حرز الأمانى وهما شرحان أصغر وأكبر والإكبر إلى الآن لم يتم والأصغر مجلـــدان .

ومنها : اختصاره لتاريخ دمشق وهما أيضا أكبر وأصغر وكلاهما تام فالأكبر بخطه فى خمسة عشر مجلداً والأصغر فى خمس مجلدات . ومنها: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين فى مجلدين ومختصره فى مجلدة صغيرة . ومنها: الكتاب المرقوم فى جملة من العلوم يجمع عدة مصنفات فى مجلدين الأول فيه خطبة العلم الكبرى التى سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول . وكتاب نور المسرى فى تفسير آية الاسرا . وشرح الحديث المقتفى فى مبعث النبى المصطفى . وضوء السارى إلى رؤية معرفة البارى. والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول . وكتاب البسملة .

والباعث على انكار البدع والحوادث . وكتاب السواك . وما أشبه ذلك . ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك .

ومنها : كشف حال بنى عبيد . والواضح الجلى فى الرد على الحنبلى. وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ والأصول من الأصول . ومفردات القراءة . وشيوخ الحافظ البيهقى . ومقدمة فى النحو . والألفاظ

---

(١) زاد بعض تلاميذ المؤلف مابعد هذا إلى آخر الترجمة (ز)

المغربة . والقصيدة الدامغة .وقصيدتان فى منازل طريق الحج .ونظم مفصل الزمخشرى . ونظم العروض والقوافى .ونظم شىء من متشابه القرآن . وشرح عروس السمر.وابتدأ كتبا كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها وتجز فى سنة تسع وخمسين وستمائة التى تعتبها سنة ستين فيها . كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى . ومختصر تاريخ بغداد ، وتقييد الأسماء المشكلة . ورفع النزاع بالرد إلى الاتباع والمذهب فى علم المذهب . ونية الصيام ومافى يوم الشك من الكلام . وشرح نظم المفصل . والاعلام بمعنى الكلمة والكلام . وشرح لباب التهذيب . والاجوزة فى الفقه . وذكر من ركب الحمار . ومشكلات الآيات . ومشكلات الأخبار . وكتاب القيامة . وشرح أحاديث الوسيط . وتعاليق كثيرة فى فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبى على الفارسى . وامالى ثعلب . وامالى الزجاجى . ونحو كتاب المجالسة . واختصار جملة من الدواين

وقد نظم أحد الفضلاء بعض هذه المصنفات فى أبيات كتبها له فقال :

هـذا الشهاب الثـاقب الفهم الذى ... قـد فاق فى بحر العلوم وشطه
أكرم بتحقيق واتقان وتصـ ... ـنيف له وبراعة فى ضـبطه
وعناية من ربه فيما يحاو ... له به فأحـله فى وسطه
فكلامه فى الفقه يشبه ماتقد ... م من كلام الشافعى وسبطه
يبنى على نص الكتاب وسنة ... للمصطفى فى رفعه أو حطه
ومذاهب العلماء يلحظها فيفـتى بالمرجح عنـده من قسطه
ويفسر القرآن والأخبار عن ... حذق بمفهوم الكلام وربطه
وبنص أسماء الورى وحديثهم ... ووفاتهم فكأنهم من رهطه
شرح الصدور بشرحه لقصائد ... نبوية فى قبضـه أو بسطه
والشاطبية جولوا افكاركم ... فى شرحها إن كنتم من شرطه
وله كتاب الروضتين وهذب التـاريخ مختصراً له من شحطـه
وكتابه المرقوم فيـه مصنفا ... ت فى علوم حازها فى مرطه
منها المحقق والسواك وباعث ... مع مبعث احسن به وبقمطه
والضوء والإسرا وبسملة ومر ... شدها الذى أحيا بحسن محطه
ولنظمه فى النحو والأوزان والـ ... أحكام لم يك ما مضى من سمطه
وقد ابتدا كتباً فان أبقاه من ... قواه أكملها بحـودة سفطه
رفـع النزاع ومشكل الـ ... آيات والأخبار بماشده فى قمطه
أرجو له عفـو الإله فانه ... مازال يطلب عفوه فى شحطه

كان المذكور لايكاد يكتب فى فتوى ، أو شهادة ، أو طبقـة سماع ، أو نسخ كتاب إلا أردف اسمه بكتابة عفا الله عنه ، وكان حريصا على الاجتهاد فى الأحكام المختلف فيها فيفتى بما يراه اقرب إلى الحق وان كان خلاف مذهبه تبعاً للأدلة .

ونظم بعض الأدباء فيه :

أيها الحاسدون فضل شهاب الد ين عبد الرحمن رب المعالى
لا تطيقون ما أطاق دعو التمنى فلن تدركوه غير خيال
متعب نفسه صبياً وكهلا ثم شيخاً مواظب الاشغال
وبحب مجالس العلم والدين جميعاً مجانب الأنذال
جد حرصاً على الفوائد منها وسؤالا عن مشكل الأقوال
لا ترى غير قارىء لكتاب أو مجيباً بالحق للسؤال
كم كتاب أنهاه حفظاً وشرحا واطلاعا علا رؤس الرجال
لا يمارى ولا يبارى ولا ينفك عن نشره عليه للموالى
ولهذا يحب ديناً فمن أبغضه نال لعنة المتعالى
ان عبد الرحمن فيه فنون من علوم معها كريم خلال
حاز مذ كان بالقناعة عزا مع بهاء وهيبة وجلال
واعتلاء على الأماثل فى بت ت جواب له وحسن سؤال
ناشر العلم قائل الحق كم نصر الشرع عن صحيح الجدال
صائن نفسه وما فيه من علم ودين عن مهنة وابتذال
وسواه فى الذل ان خاب أو أنجح يسعى أيامه والليالى
فازساً راجلا يمر ويأتى نحو قاض وتارة نحو والى
ذو التصانيف المغنيات بعون الله عن مصنفات قيل وقال
من يرد قدر فضله فليطالع كتبه فهى عين عين الكمال
ليرى ما آتاه خالقه جل مع العلم من جليل الفعال
فواليه فى الهدى ومعاديه وحساده معاً فى ضلال
وهو من نفسه الأبية فى عز ز ومن علمه رخى البال
وهو من قنعه غنى وراض لا يدانيه فى الغنى ذو المال

وكتب اليه بعض الأدباء وانشده اياها بجامع دمشق بحلقته عند رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فى زمن كان يسمع فيه تاريخ دمشق الذى اختصره وغيره وذلك ثامن ذى الحجة سنة ثمان وأربعين وستمائة قصيدة منها :—

هو الشيخ شيخ العلم والحلم والهدى وناهيك من علم القراءة من محل
هناء له منا بصحة جسمه فصحته فى جسمه صحة العقل
ولما اعتراه ما اعتراه تألموا جميع الورى كالنفس والصحب الأهل
وعوفى بحمد الله والحمد لم يزل دواء له هذا شعار ذوى الفضل
ووالده كالسيد السلمى خذ بكنيته والشيخ فى ورع الشبلى

وفى العلم بحر قد تدفق موجه ... ويملا منه بالجواهر ما يملى
فهذب تاريخ الشـآم دراية ... وتهذيبه قد صح عند ذوى العقل
كما انه علامـة الوقت مفرد ... بعلم حديث المصطفى سيد الرسل
فحاشا حياة العلم من فقد مثله ... وحاشا أحاديث النبى من الجهـل
ومسألة فى شرح بسملة لمـا ... سمو وشرح الشاطبيـة يستعلى
بنظم عروض والمفصل قبـله ... رويته تروى الورى ديمة الهطل
فحاشا يدى التصنيف ان لاتنتج من ... عزيز وحاشا الروضتين من المحل(١)
وحاشا الفتاوى ان تعطل بعده ... وحاشا جمال البحث يخلو من الحفل
كثير المعالى والمعانى مفنن ... تقى زكى طيب الفرع والأصل
يقول لنـا مالا سمعناه قبـله ... وقال لنا ماسدت إلا بمن قبلى

وكتب اليه أيضاً قصيدة منها : —

يقصد المجلس الأجـل جنابا ... عالم الأرض كيف قال أصابا
وسماء فيها شموس علوم ... وبدور تهـدى وتدعى الشهابا
ملك الفضل بن خليفة علم الدين ... ن وازداد من الفنون عجابا
وبى وهو ذو المعـالم مفت ... فهو يهمى صبا ويهمى صوابا
مثله وأ أ ه تلق جوادا ... وجوادا فهو شيخ فى الفضل ينمى شبابا
وهو بحر قد ساغ عذب فرات ... وسـواه لم نلق إلا سرابا

وكتب اليه قصيدة منها : —

شرعت امتداحا لامـام مستقـيم
ركن دين الله فى الدنيـا بأنواع العـلوم
كهف تصنيف تحلى ... حـلة الطرز الرقيم
واذا الف فى تأليفـه ألف الحبيم
وله فى الشرح شرح النفس والصدر الكـظيم
هذب التاريخ حتى ... راق فى حسن وسيم
فتعجب منـه اذا أنقص انمى فى الجسيم
وله الشامـة فى تر ... جمة فى حرف ميم
تلك اسماء ابن اد ... ريس ياشهاب عيم
رم شمل الدهر حتى ... خلف الميت الرميم
فهو بالكل اعتياض ... من حـديث وقديم

(١) هكذا فى الأصول الثلاثة وفيه ركة .

بربر فيـــه بحر بحر عرفان عظيم
زاخر كل غريب وعجيب ويتيـــم
فهو يندى وهو يبدى أنفس الدر النظيم
ملك الفضل انفراداً فيه من غير قسيم
ولمفت وقى فضـل عليم كـريم

وكان يحضر عنده بالجامع والتربة الأشرفية جماعة من الأكابر والفضلاء لسماع التاريخ والروضتين وغيرهما من تصانيفـــه فنظم الرئيس الأصيل الفاضل محيي الدين يحيي بن علي بن محمد التميمى من بنى القلانسى: —

انا والله والجماعة طـــرا من سماع التاريخ فى بستان
ورياض أنيقـــة أطلقتها بأزاهيرها لنـا الروضتـان
أيد الله شيخنـا فلقـد أبـ ـدع فى الاختصار والتبيـان
فهو قطب الحجى وبدر المعالى وشهاب الفتيا وشمس البيان
دام فى نعمة ورفعـــة قدر سالما من نوائب الحدثان
ماتغنى ورق على غصن بان وتسنى برق على نعمان

وكان المصنف عفا الله عنه محباً للعزلة والانفراد ؛ غير مؤثر للتردد الى أبواب أهل الدنيا متجنباً المزاحمة على المناصب لايؤثر على العافية والكفاية شيئا ومن شعره : —

الثوب واللقمه والعافيــه لقانع من عيشه كافيــه
ومايزد فالنفس ليست به وإن تـكن تملكه راضيه

وله أيضا: —

أنا فى عز القناعـــه رافل فى كل ساعـــه
رب اتممها بخــير فى معافاة وطاعـــه

وله أيضاً : —

أردت راحة سرى مما يضيق صدرى
لمـــا ألاقى من الخلق من جفاء وغدر
وحسد واغتياب فيا ضياعا لعمرى
فاخترت أن انتحى وأستقل بأمرى
فلست امشى إلى من يرى/خطيراً لقدرى
لأجل دنيا فمشي اليـــه بالعلم يزرى
لكن إلى عالم أو شـــيخ نبيه الذكر
فى الدين يقصد للعـــلم والتقى لا الفخر

أما إذا أحوجتني ضرورة من فقر
فلا يكون فرجي عن فيها بصبر
يارب فاشرح صدري للخير واشدد ازري
ولا تكلني إلى الخـلق أنت حسبي وذخري
هب لي مدى الدهر سـتراً حتى أوسد قبري
واختم بخير واعظم من جنة الخلد أجري

وله أيضاً: —

نزهت نفسي وعرضي وصنت هذى البقيه
لما انعزلت ببيتي قولا وفعلا ونيـه
وبقيت علقتي بالـ ـمداوس . الفقهيه
وسوف اخلص منها حقاً ورب البريه
إني عبد ضعيف أخاف نعت المنيه
ولست أرضى لنفسي دوام هذى البليه
إلى الملمات فربي (له هبات) عليه
وكان معرفة الله النعمة الأخرويه
أنا لها بانشراح راضية .مرضيه

وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المصلي : —

ألق سمعاً واحضر بقلب وعقل بالمصلي ورتل القرآنا
وتدبر آياته وتفكر واجمع الهم مقبلا يقظانا

أي مقبلا عليه متيقظاً .

وكتب إلى من كان عنده أصل للمصنف بكتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة بخط مصنفه شيخنا السخاوي رحمه الله يستعيره منه : —

يا من نراه وسيلة يحوز كل فضيلة
ومن مدى الدهر يسعى فيما يسر خليله
مازال يتعب صب يهوى وصال العقيله
وطالب العلم يهو ى كثيره وقليله
فابعث اليه معيناً له كتاب الوسيله

وقال أيضاً : —

بدمشق سقى الآله رباها وحماها ذكرى اولى الألباب
وعجيب أشجارها حين تبدو مزهرات تشيب قبل الشباب

وله أيضاً أبيات فى حصر السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله على ما صح فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله . إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب : وجمال فقال انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لاتعلم شماله ما أنفق يمينه » . فقال فى حصرهم :

امام محب ناشىء متصدق ... وباك مصل خائف سطوة الباس
يظلهم الله الجليل بظله ... اذا كان يوم العرض لاظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم ... فيذكرهم بالنظم من بعضهم ناس

أى من هو ناس بعضهم .

وله فى هذا المعنى : —

وقال النبى المصطفى إن سبعة ... يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشىء متصدق ... وباك مصل والامام بعدله

وله أيضاً : —

لاتقم فى مدينة ليس فيها ... خمسة إن أردت دار قرار
نهر مالك وعدل قاض ... وطب حاذق مع سوق ونجار

وله ايضاً : —

قول ابن ادهم قول الناصحين لنا ... العجب والحرص ثم السخط فاجتنبوا
ثلاثة حجبت عن اليقين قلو ... بنا فلابد من أن ترفع الحجب
نسر بالمدح والموجود يفرحنا ... والقلب سخطا من المفقود يضطرب

وله فى حصر السبع الموبقات الوارد فى الحديث الصحيح : —

أكل مال اليتيم والشرك والسحـ ... ـر وأكل الربا وقذف المعرا
والتولى يوم زحف وقتل نفس ... سبع قد أوبقت من مجراه

وله أيضاً : —

فلا تحفل بمن يغتاب شخصاً ... ويحسده فيذكر من هناته
فمن حسناته تهدى اليه ... فان نفدت تحمل سيئاته

سنة ٦٠٠ هـ :

ثم دخلت سنة ستمائة . قال ابو المظفر :

فيها : سار نور الدين بن عز الدين صاحب الموصل إلى تل عفر (أعفر) فأخذها وكانت لابن عمه

قطب الدين بن عماد الدين صاحب سنجار فاستنجد القطب بالملك الأشرف ابن العادل فجمع جمعا كثيرا والتقى مع نور الدين فكسره وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي وولده الظهير غازي وذلك في شوال ثم اصطلحا في ذى الحجة . وتزوج الأشرف أخت نور الدين وهى الأتابكية بنت عز الدين مسعود صاحب التربة بجبل قاسيون .

وفيها : تمكن ناصر الدين ابن ارتق بقلعة ماردين وقتل زوج أمه نظام الدين الذى كان قد قهره واستولى عليه . وفيها : حج بالناس من العراق طاشتكين.

وفيها : توفى الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى ، ولد بجماعيل قرية من أعمال نابلس فى سنه إحدى وأربعين وخمسمائة فى ربيع الآخر وكان أكبر من الموفق عبد الله ابن احمد بأربعة أشهر لأن مولد الموفق فى شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة والموفق ابن عمه الخ ... قرأ عبد الغنى القرآن وسمع الحديث الكثير وسافر إلى الأمصار وكتب كثيراً وصنف وقدم بغداد هو والموفق فى سنة ستين أو إحدى وستين فى السنة التى توفى فيها الشيخ عبدالقادر فنزلا فى مدرسته وما كان يمكن أحداً من النزول بها ولكنه لما رآهما تفرس فيهما الخير والصلاح فأكرمهما وسمعا عليه . ثم توفى الشيخ عبد القادر بعد قدومهما بخمسين ليلة . وكان ميل عبد الغنى إلى الحديث والموفق إلى الفقه فاشتغلا فى الفقه على أبى الفتح ابن المنى ثم قدما دمشق بعد أربع سنين وسافر عبد الغنى إلى مصر والاسكندرية ثم عاد الى دمشق ونزل إلى الجزيرة وسمع بها وعاد الى بغداد ثم رحل الى اصبهان فسمع بها ثم عاد الى دمشق وكان لما دخل اصبهان وقف على كتاب أبى نعيم الحافظ فى معرفة الصحابة فأخذ عليه فى مائة وتسعين موضعا فطلبه بنو الخجندى ليقتلوه فاختفى وخرج من اصبهان فى ازار . ولما دخل الموصل قرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلى (١) وفيه جرح أبى حنيفة فثار عليه الحنفية وحبسوه ولولا البرهان البلى الواعظ خلصه لقتلوه فانه قطع الكراسة التى فيها ذكر أبى حنيفة ففتشوا على اسم أبى حنيفة فلم يجدوه فاطلقوه فخرج منها خائفا يترقب فلما قدم دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة ويجتمع الناس اليه فحصل له قبول . وكان رقيق القلب سريع الدمعة فحسده الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح ابن الحنبلى فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة النسر ففعل فشوش على عبد الغنى فصار يقعد بعد العصر وذكر عقيدته على الكرسى فاتفق القاضى محى الدين ابن الزكى ، والخطيب ضياء الدين الدولعى (٢) وجماعة من الدماشقة وصعدوا الى القلعة وواليها صارم الدين بزغش فقالوا : هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا واحضروه فناظرهم فاخذوا عليه مواضع . منها : « ولا انزهه تنزيها ينفى حقيقة النزول » .

ومنها قوله : « كان الله ولا مكان وليس هو اليوم على ما كان » ، ومنها : مسألة « الصوت والحرف »

---

(١) حشوى متحامل ، رد عليه راويته ابن الدخيل دفاعاً عن أبى حنيفة وقد لخص ابن عبد البر هذا الرد فى « الانتقاء » ويظهر مبلغ تحامله مما ذكره الذهبى فى « ميزان الاعتدال » فى ترجمة على بن المدينى وكان عبد الغنى حشويا مثله وهذا منشأ عدائه لإمام الأئمة سامحه الله (ز).

(٢) هما من كبار الشافعية فى ذلك العصر (ز)

فقالوا له إذا لم يكن على ما كان فقد أثبت له المكان وإذا لم تنزهه تنزيها ينفى حقيقة النزول فقدا جزت عليه الانتقال . وأما الحرف والصوت فانه لم يصح عن امامك الذي تنتمي اليه فيه شيء . وانما المنقول عنه انه كلام الله لاغير وارتفعت الأصوات . فقال له صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وانت على الحق؟ قال: نعم فأمر الأمراء فنزلوا إلى جامع دمشــــق فكسروا منبر عبد الغني وما كان فى حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة ففاتهم صلاة الظهر فجمع الناصح ابن الحنبلي السوقة وقال ان لم نرجع الى مكاننا فعلنا وصنعنا فاذن لهم القاضي فى ذلك وخرج عبد الغني الى بعلبك ثم سافر الى مصر فنزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث فافتى فقهاء مصر باباحة دمه وكتب أهل مصر الى الصفى ابن شكر وزير العادل يقولون قد أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤس الأشهاد فكتب الى والى مصر بنفيه الى المغرب فمات قبل وصول الكتاب وكانت وفاته بمسجد المصنع يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمر بن مرزوق(١) وكان إذا اجتاز بذلك المكان يقول روحي ترتاح الى ههنا فدفن فيه :

قال أبو المظفر سبط الجوزي : وكان زاهداً عابداً ورعا يصلى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة - ورد احمد بن حنبل - ويقوم الليل وعامة دهره صائم وما ادخر شيئاً قط . وكان جوادا سمحا إذا فتح بشيء من الدنيا حمله بالليل الى أبواب الأرامل واليتامى فألقاه اليهم ومضى لئلا يعرفوه . وكان يرقع ثوبه بيمينه وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه فى علم الحديث سمع باصبهان الحافظ أبا موسى محمد بن عمر المديني وغيره وببغداد عبد الله بن النقور ، ويحيى بن ثابت بن بنــــدار وغيرهما . وبدمشق أبا المكارم عبد الواحد بن المسلم بن هلال وغيره . وبمصر عبدالله بن برى النحوى وغيره بالاسكندرية أباطاهر السلفى الحافظ وغيره وسأله السلفى يوما من هو محمد بن عبدالرحمن الذهبي فقال له المخلص : وكان له ثلاثة أولاد محمد ، وعبد الله ، وعبد الرحمن سيأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى . وله مصنفات كثيرة منها الكمال (٢) فى معرفة رجال الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه فى نحو عشر مجلدات (٣)

قلت وفيها : توفى الحافظ بهاء الدين أبو محمد القاسم ابن الحافظ الأكبر أبي القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر ودفن على أبيه بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التى فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضى الله عنهم من جهة الشرق وكان قد شارك أباه فى أكثر شيوخه سماعا فاجازه . صنف عدة مصنفات وخلف أباه فى القيام بهذا الشأن بدمشق واظهار كتب أبيه واسماعها بالجامع ودار الحديث النورية ، وبيض تاريخ دمشق بخطه فى ثمانين مجلدا ورحل الى مصر وأسمع بها وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر ودفن بعد العصر ولى منه أجازة رحمه الله تعالى .

وفيها : يوم الجمعة العشرين من ربيع الآخر توفى أمام الملك الناصر ضياء الدين أبو بكر محمد

---

(١) وفتنته فى التشبيه بمصر معروفة وكان حنبليا أخذ عن الشيخ عبد القادر (ز) .

(٢) وعلى تهذيب هذا الكتاب وتوسيعه أو تلخيصه مضى الحفاظ بعده (ز) .

(٣) فى أربعة مجلدات متوسطة (ز) .

ابن يوسف بن أبى بكر الآملى الطبرى المقرىء المعروف بخواجا امام سمع الحافظ أبا العلاء الهمذانى وغيره واعتنى بكتب القراءات سماعا ونسخا وفى خطه خطأ كثير من تصحيف وتحريف ، ودفن بعد الصلاة فى الجبل رحمه الله .

وفيها : قدم بغداد أبو الفتوح بن أبى نصر الغزنوى رسولا من صاحب غزنة وجلس بباب بدر وقال يا أهل بغداد هنيئا لكم أنتم تحظون بأمير المؤمنين ونحن محرومون وتشاهدون سدة سيادته ونحن محجوبون وأنشد متمثلا :

الا قل لسكان وادى العقيق   هنيئا لكم فى الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضا   فنحن عطاش وأنتم ورود

وكان يمكنه أن يصرح بمراده فيقول :

* الا قل لسكان دار السلام *

ولكنه أتى به على لفظه ليعلم انه تمثل به .

وأول هذه السنة سافر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط الجوزى الواعظ رحمه الله من بغداد إلى الشام وقد ذكر صفة تنقله فى البلاد فى تاريخه الذى سماه ، مرآة الزمان ، فقال : فى أول هذه السنة سافرت عن بغداد إلى الشام وهى أول رحلاتى فاجتزت بدقوقا فجلست بها يعنى عقد مجلس الوعظ قال : وبها خطيبها الحجة وكان يعظ بها ثم قدمت اربل فاجتمعت بشيخ فاضل كيس ظريف يقال له محيى الدين الشا تانى فانشدنى مقطعات لغيره وهذه الابيات منها : —

رحمت أسود هذا الخال حين بدا   فى حمرة الخد مرميا بابصار
كأنه بعض عباد المجوس وقد   ألقى بمهجته فى لجـة النار

وجلست باربل ثم قدمت الموصل وجلست بها وحصل لى القبول التام بحيث أن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس فى الجامع من كثرة الزحام وأدركت بها جماعة من العلماء فسمعت النقورية على أبى طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسى الخطيب وغيره . ثم قدمت حران فجلست بها وسمعت الخطيب فخر الدين ابن تيمية وابن الطباخ وعبدالقادر الرهاوى وغيرهم ثم قدمت منها إلى حلب وجلست بها وسمعت شمائل النبى صلى الله عليه وسلم من الافتخار وأسباب النزول من عبد الرحمن ابن الأستاذ وغيرهما . ثم قدمت دمشق فنزلت بقاسيون عند المقادسة وجلست به وبجامع دمشق فكانت مجالسى ولله الحمد والله مثل غدوات الجنة ثم زرت بيت المقدس وجلست به وقبر الخليل عليه السلام وعدت إلى قاسيون فاقمت به إلى سنة ثلاث وستمائة ورجعت إلى حلب . قال : وصحبت الشيخ أبا عمر شيخ المقادسة وشاهدت منه الزهد فى الدنيا والورع والفضل والتواضع ومن أخيه الموفق ونسيبه العماد وهو أخو الحافظ عبدالغنى ما نرويه عن الصحابة والأولياء الافراد فانسانى حالهم أهلى وأوطانى ثم عدت اليهم بعد ذلك على نية الاقامة عسى أن أكون معهم فى دار المقامة . قال : وحضر مجلسى بجامع دمشق فى سنة عشر وستمائة القضاة والاشراف والاعيان والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله وشيوخنا جمال الدين الحصيرى وتاج الدين الكندى والقاضى شمس الدين بن الشيرازى والقاضى شمس الدين بن سنى الدولة وكان مجلساً

عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد علي وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادي والآخر يقال له الشرف بن مي صوته مزعج وكان النجيب إذا قرأ أطربنا وابن مي إذا قرأ ينغصنا فحكيت للجماعة ان جدى رحمه الله قرأ بين يديه قارئان فأطربا الجمع فأنشد :—

ألا ياحمامي بطن نعمان هجتما على الهوى لما تغنيتما ليا

ألا أيها القمريتان تجاوبا بلحنيكما ثم اسجعا لي علانيا

قال: وقرأ بين يديه قارىء حسن الصوت فأطرب الجماعة ، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة فقال جدي: كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغنى طيبا ،والأخرى مزعجا فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه ،وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيط ما مزق فحكيت للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين وكان الشيخ الكندي قاعدا في القبة التي في وسط المجلس فقال: ياابني كلنا اليوم نخيط

قلت : كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها فكأن الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت: وظرافة الشمائل في الايراد والجوابات واللباس وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه ما لا يحصى من الخلق رجالا ونساء والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغرى وكبرى في الموضعين مراراً وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر الى عودته في الأسبوع الآخر فانه كان يجلس كل سبت وتبسط السجادات والحصر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة في يوم الجمعة ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقا يقرؤن القرآن بالشموع كل ذلك فرحا بالمجلس مسابقة إلى الأماكن وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم وكانوا لا يفوتون حضور المجالس ثم ينصرفون منه إلى فرجهم فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وانشاد الأشعار والتحدث بمن أسلم فيه أو تاب وايراد ما كان فيه من سؤال وجواب ولم يزل على ذلك مدة سنين ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان كل سبت فانقطع بمنزله عند تربته بالجبل إلى أن توفى سنة أربع وخمسين وستمائة وسنعود لذكره في سنة وفاته إن شاء الله تعالى .

قال أبو المظفر: ولما أردت فراق دمشق في سنة ثلاث وستمائة قاصدا حلب جلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا القليل وامتلأ جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب لا. لا. لا. يعنون قوموا فاخرجوا فخرجنا إلى المصلى وكان شيخنا تاج الدين الكندي حاضراً فلما خرج من الباب زحموه فانكشف رأسه ووقعت عمامته فعز علي وسألته أن يمضي إلى دمشق ولا يحضر في المصلى فامتنع وقال : لاوالله حتى يتم المجلس وتاب في ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب وقطعوا شعورهم وكان سيف الدين بن تميرك حاضراً وجرى الكلام في المغناطيس وأنه يعشق الحديد قلت والخبازى (١) تعشق الشمس ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الخبازى اليها فصاح سيف الدين بن تميرك يامولاي شمس كلنا اليوم خبازى .

---

(١) نبت معروف (ز) .

قال العز ابن (١) تاج الأمناء :

وفيها : احترقت خزانة السلاح الحامية دمشق التى تعمل النشاب وذهب جميع ما فيها ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة . وفى سابع عشرى رمضان توجه أسطول الفرنج من عكا عشرون قطعة ودخل يوم العيد من فم رشيد إلى قرية فوة من عمل الديار المصرية ونهبها وأقام بنواحيها يومين ثم خرج من حيث دخل غانما سالما ولم يسمع أن أحدا أقدم على هذا الفعل منذ فتوح الديار المصرية . ثم فى سنة تسع وستمائة دخلوا من فم دمياط إلى قرية بورة ففعلوا نحو ذلك وسيأتى ذكره . وفى هذه السنة أخذت العملة المشهورة من مخزن أيتام سيف الدولة ابن السلار بن تختيار من قيسارية الفرش بدمشق ومبلغها ستة عشر الف دينار مصرية ومصاغ وبقيت سنين إلى أن ظهرت واعتقل بسببها خلق كثير ومات منهم جماعة ثم ظهرت على المعروف بابن الدخنية .

وفيها : قتل الفقيه القزوينى الزاهد بباب الكلاسة من جامع دمشق حالة خروجه إلى زيارة القدس بيد اسماعيلى واجهه يظهر أنه يصافحه وضربه بسكين فى خاصرته وانحرف عنه منهزما فوقع القزوينى الى الأرض وحمله أصحابه إلى داخل الكلاسة فمات فى وقته ودفن بمقابر الصوفية على الشرف القبلى . وأما القاتل فان بعض أصحاب القزوينى لحقه إلى الزيادة فتناول عصا أعمى وأدخلها بين رجليه فوقع وركبه وأخذ السكين من يده واجتمع الناس يضربون العجمى ظنا أنه الاسماعيلى وكادوا يقتلون الاسماعيلى منه ثم عرفوا القصة فأوثقوا أكتاف القاتل وحملوه إلى المعتمد فحمل إلى السجن فأقام به . إلى أن عرض له مرض وحمل إلى البيمارستان فهلك .

سنة ٦٠١ هـ :

ثم دخلت : سنة إحدى وستمائة . ففى جمادى الآخرة وقيل الأولى عزل الخليفة الناصر ولده أبا نصر محمدا عدة الدنيا والدين عن ولاية العهد بعد أن دعى له بذلك على المنابر سبعة عشر عاما ومال إلى ولده على ورشحه للخلافة فاخترم فى إبان شبابه فألجأت الضرورة إلى أن رجع الحق إلى نصابه فعهد إلى أبى نصر فتولى بعهده ولقب بالظاهر كما سيأتى وأما صورة العزل فانه ألجىء إلى أن كتب خطه بما سنذكره .

قال أبو المظفر : اجتمع أرباب الدولة فى دار الوزير ابن مهدى والقضاة والعلماء والفقهاء والأمراء وأخرج الوزير رقعة خط ولى العهد إلى والده مضمونها أنه حين ولاه العهد لم يكن يعلم ما يجب عليه فيه ولا قدر ذلك وأنه يسأل أباه إقالته وعزله وأنه لا يصلح لذلك وشهد عليه أبو منصور بن سعيد ابن الرزاز، وأبو أحمد بن زهير العدلان بذلك وأن الخليفة أقاله وأنشأ محمد بن محمد القمى الذى ناب فى الوزارة وعزل فى أيام المستنصر وكتب المسكين كتابا يقول فيه :

أما بعد : فان أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمداً ولاية العهد فى المسلمين ، ورشحه بعده لامرة المؤمنين ، وألقى عليه هذا القول الثقيل ، ونهج له من مراشد الدنيا والدين أوضح سبيل ، مؤملا فيه الاستقلال باعبائه ، والاتيان بما يبين عن اضطلاعه وغنائه ، والتخلق بأخلاقه التى هى من أخلاق

(١) هو العز النسابة أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد ابن عساكر المتوفى سنة ٦٤٣ هـ من رجال بيت ابن عساكر المذكورين فى ذخائر القصر لابن طولون ، وأبوه تاج الأمناء توفى سنة ٦١٠هـ (ز) .

البارى مكتسبة ، وعلى التقوى مؤسسة فلما آن أوان تكامل رشده وبلغ المبلغ الذى أمل فيه سداد رأيه وقصده ، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة وما يجب عليه من الرحمة للأمة والرأفة فأقر بالعجز عن تأدية حق الأمة فى أمره ، وأشهد عليه أنه لا يصلح لها فيا مضى ولا فيما بقى من عمره وخلع نفسه مما كان أمير المؤمنين فوضه اليه ، واعتمد فيه عليه . ولم يسع الخليفة إلا استخارة الله تعالى فى إقالته وطلب رضاه فى حل عقدة ولايته فأسقط اسمه من السكك والمنابر والأقلام والمحابر . ولما خلعه لم ير أن يعين أحدا ليلقى الله بذمته يوما من الأيام غير متعلقة بوزر يخص الخاص ويعم العام ، وقد وافق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث جعلها شورى فى الستة المذكورين من أعيان المهاجرين ، ولما قال له عبدالله ابنه : ما يمنعك أن تعين من تراه أهلا ؟ فقال : لا والله لا أتحملها حياً وميتاً ، وذكر القمى كلاما طويلا وكتب نسخا إلى الأطراف وحج خالى أبو محمد يوسف فى هذا العام وقرأ الكتاب بمكة عند البيت المحرم والمدينة عند قبر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام .

قال : وفى جمادى الآخرة عقيب هذه الوقعة وقع حريق بدار الخلافة لم يجر فى الدنيا مثله فتحت أبواب الدار بالليل وركب الوزير ابن مهدى وأرباب الدولة إلى خزانة السلاح فرأوا النار قد لعبت فيها ، واجتمع جميع من ببغداد من السقايين ، والفراشين ، بالقرب ، والروايا ، والصناع والفعلة وأقاموا يوما وليلة يقلبون الماء على النار وهى تزداد فاحترق جميع ما كان فى الخزانة من السلاح ، والأمتعة ، والقسى ، والنشاب . والرماح ، والجروخ ، والسيوف ، والجواشن ، والزرديات ، وقدور النفط والخوذ المرصعة بالجواهر واليواقيت، وعملت النار وساعدها الهواء ودبت إلى الدور والتاج والدار البيضاء فخرج الخليفة منها إلى دجلة واحترقت خزانة فيها رأس البساسيرى ، وطغريل وغيرهما ويقال إن قيمة ما ذهب ثلاثة آلاف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وكان فى ذلك عبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن افتكر .

قال وفيها : جاءت الفرنج إلى حماة بغتة وأخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصى وخرج اليهم الملك المنصور بن تقى الدين وثبت وأبلى بلاء حسنا وكسر الفرنج عسكره ووقف فى الساقة من الرقيطا إلى باب حماة وامتلأت أيديهم بالمكاسب وأسروا من حماة شهاب الدين احمد بن شداد البلاعى من قرية بلاعة وكان فقيها شجاعا تولى حماة مرة ، وسلمية أخرى وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك ووصل إلى حماة سالما ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً . وحج بالناس من العراق وجه السبع ؛ ومن الشام صارم الدين بزغش العادلى والى قلعة دمشق ، وزين الدين قراجا صاحب صرخد وغيرهم .

قال وفيها : توفى عبد المنعم بن على بن الصقلى أبو محمد الحرانى ولقبه:نجم الدين قدم بغداد أول مرة فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وتفقه على أبى الفتح ابن المنى ، وسمع الحديث الكثير من أبى الفتح ابن شاتيل وأبى السعادات بن رزيق ؛ وجدى رحمه الله وغيرهم . وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام فاستشعر منه الفخر محمد بن تيمية خطيب حران وخاف أن يتقدم فلما رأى النجم ذلك

عاد إلى بغداد فاستوطنها ووعظ بها وحضرت مجالسه بمسجد باب المشرعة وكان يقصد التجانس فى كلامه وسمعته ينشد :ـ

واشتاقكم يا أهل ودى وبيننا كما حكم البين المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظرى فمشرد وأما هواكم فى فؤادى فراسخ

وكان صالحا دينا نزها عفيفا كيسا لطيفا متواضعا كثير الحياء ، وكان يزور جدى بالنظامية ويسمع معنا الحديث ، وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول وصلى عليه بالنظامية ودفن بباب حرب وخلف ولدين:النجيب عبد الله ، والعز عبد العزيز صارا تاجرين لديوان الخلافة .

وفيها : توفى محمد بن سعدالله بن نصر أبو نصر بن الدجاجى الواعظ الحنبلى فى ربيع الأول ودفن بباب حرب ومولده سنة أربع وخمسمائة سمع أبا منصور القزاز وغيره وأنشد لنفسه :ـ

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها كانت إلى نيل التقى احوى لها
وان تراها سددت أقوالها كان على حمل العلى أقوى لها
فلو تبدت حال من هالها فى قبره عند البلى لهالها

قال العز بن تاج الأمناء : وفى شهور هذه السنة الأواخر تغلبت طائفة من الفرنج البحرية يعرفون بالبنادقة على قسطنطينية وأخرجوا الروم منها بعد حصر وقتال وحازوا مملكتها وانتهبوا ذخائرها وما حوته كنائسها من آلات ورخام وحملوه إلى الديار المصرية والشامية فبيع ووصل منه إلى دمشق رخام كثير وكان أسامة يعمر داره فحصل له منه شىء لم يكن قبله مثله وزخرفها . قلت:هى الدار التى جعلها الباذرائى رسول الخليفة مدرسة للشافعية .

قال وفيها : توفى العدل أبو محمد المعروف بعدل الزبدانى سابع عشر المحرم بدمشق .

وفيها : توفى القاضى محيى الدين بن عصرون فى أول ربيع الأول بدمشق

وفيها : توفى الأمير علم الدين كرجى الأسدى بدمشق ثالث عشر ربيع الآخر وصلى العادل عليه بمرج باب الحديد ودفن بالجبل ووصل الخبر بموت بوريا التقوى غريقا ببلاد المغرب فى خدمة ابن عبد المؤمن

وفيها : قتل قاضى دارا ظاهر حلب بالمنزلة المعروفة فى السعدى فى أواخر ذى القعدة.

وفيها : فى ربيع الآخر توفى الشاعر الحلى على بن الحسن الملقب بشميم وكان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وله حماسة ورسائل وقال أقمت مدة آكل فى يوم شيئا من الطين فاذا وضعته أشتمه فلا أجد له رائحة فسميت لذلك شميا .ذكره ابن المشرق فى تاريخ اربل .

سنة ٦٠٢ هـ :

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة ففيها : استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الحسنى ، وخلع عليه خلعة الوزارة القميص والدرعة والعمامة ، والسيف وخرج من باب الحجرة فقدم له فرس من خيل الخليفة وبين يديه دواة عليها ألف مثقال،ووراءه المهد الأصغر، وألوية الحمد ، وطبول النوبة

والكوسات تخفق ، والعهد منشور بين يديه وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه ، وضرب الطبول والبوقات له بالرحبة فى أوقات الصلاة الثلاث المغرب ، والعشاء الآخرة ، والفجر .

وفيها : هرب أبوجعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصارى من دار الوزير ابن مهدى وكان محبوسا بدرب المطبخ عند ابن مهدى ليعذبه لحلق ابن حديدة رأسه ولحيته وخرج فلم يظهر خبره الا من فراغه بعد مدة وعاد إلى بغداد .

وفيها : توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط بمكاتبة أهلها لجاء الملك الأشرف فنزل على دنيسر واقطع بلد ماردين فعاد ناصر الدين إلى بلده بعد أن غرم مائة الف دينار ولم يسلموا اليه خلاط .

وفيها : أغار ابن لاون على بلد حلب وأخذ الجشار من نواحى حارم فبعث الملك الظاهر ابن صلاح الدين ميمون القصر ، وايبك فطيس ، وحسام الدين بن أمير تركمان فنزلوا على حارم فقالو لميمون: نحن على حذر فتهاون فكبسهم ابن لاون فقتل جماعة من المسلمين وثبت ايبك فطيس ، وابن أمير تركمان فقاتلا قتالا شديدا ولولاهما لأخذ ميمون ، وبلغ الظاهر فخرج من حلب فنزل مرج دابق وجاء إلى حارم فهرب ابن لاون إلى بلاده وكان قد بنى قلعة فوق درساك فاخربها الظاهر وعاد إلى حلب .

وفيها : حج بالناس من العراق وجه السبع ؛ ومن الشام الشجاع على بن السلار . قلت : كذا قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى فيما نقلته من خطه وقد نقلت من خط محمد بن تاج الأمناء قال: وفى السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمائة نادوا الحج على ايلة صحبة ابن الخزاعى .

وفيها : توفى طاشتكين بن عبد الله المقتفوى أمير الحاج ولقبه مجد الدين حج بالناس ستا وعشرين سنة ، وكان فى طريق الحج مثل الملوك . فقصده ابن يونس الوزير وقال للخليفة : انه يكاتب صلاح الدين وزور عليه كتابا فحبسه مدة ثم تبين له انه برىء من ذلك فاطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده الى امرة الحج . وكانت الحلة الشيعية اقطاعه . وكان سمحا ، جواداً ، شجاعا ، قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع ولايتكلم استغاث اليه رجل يوما فلم يكلمه فقال الرجل : الله كلم موسى . فقال : وأنت . فقال الرجل : وانت الله . فقضى حاجته . وكان حليما التقاه رجل فاستغاث اليه من نوابه فلم يجبه . فقال له الرجل : أحمار أنت ؟ فقال طاشتكين : لا . وفى قلة كلامه يقول ابن التعاويذى :

وأمير على البلاد مولى ... لايجيب الشاكى بغير السكوت

كلما زاد رفعة حطنا الله ... بتغفيله إلى البهموت

وقام يوما إلى الوضوء لحل خياصته وتركها موضعه ودخل ليتوضأ وكانت الخياصة تساوى خمسمائة دينار فسرقها الفراش وهو يشاهده . فلما خرج طلبها فلم يجدها . فقال أستاذ داره : اجمعوا الفراشين واحضروا المعاصير . فقال له طاشتكين : لاتضرب أحداً فإن الذى أخذها ما يردها ، والذى رآه ما يغمز عليه . فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذى سرق الخياصة ثيابا جميلة ، وبزة ظاهرة فاستدعاه سراً وقال له بحياتى هذه من ذيك . فخجل . فقال : لا بأس عليك فاعترف فلم يعارضه وكان طاشتكين قد جاوز تسعين سنة فاستأجر أرضاً وقفا ثلثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها داراً وكان ببغداد رجل

محدث فى الخلق يقال له فتيحة المحدث فقال يا أصحابنا نهنيكم مات ملك الموت قالوا : وكيف ؟ قال : طاشتكين عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضا ثلثمائة سنة فلو لم يعلم ان ملك الموت قد مات ما فعل هذا . فتضاحك الناس . وكانت وفاته بتشتر وأوصى بأن يحمل إلى مشهد أمير المؤمنين على فحمل فى تابوت فدفن فيه .

وفيها : توفى الاخوان مسعود ومودود أبناء الحاجب مبارك بن عبد الله فمسعود لقبه سعد الدين ، وكان صاحب صفد . ومودود لقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق . وامهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب دار السعادة وأصل أمهم من المسطرة . ففرخشاه أخوهما لأمهما واختهما لأمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها وكانت دارها . وأما أخوهما مسعود فداره هى المجاورة لرباط زهرة خاتون قريب حمام جاروخ هى الآن لجمال الدين موسى بن يغمور . وأما مودود فدارة بحارة البلاطة هى الآن لنجم الدين بن الجوهرى . وكان مسعود ومودود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين . وتقدمت وفاة مودود على وفاة أخيه بشهر واحد فانه مات بداره بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان ، وتوفى مسعود بصفد يوم الاثنين خامس شوال .

وفيها : توفى أبو يعلى حمزة بن علي بن حمزة الحرانى المقرىء ويعرف بابن القبيطى . ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد . وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبى منصور الخياط وغيره ، وسمع الحديث وكان حسن الصوت بالقراءة يصلى إماما بالمسجد الذى بجانب البدرية ، وكان الناس فى ليالى شهر رمضان يأتون اليه من أقطار بغداد يستمعون قراءته . وكانت وفاته فى ذى الحجة وصلى عليه بالنظامية ودفن بباب حرب . سمع أبا الكرم ابن الشهرزورى ، وابراهيم بن نبهان الرقى ، وسعد الخير الأنصارى ؛ وأبا الفضل الأرموى وغيرهم ، وكان صالحا ، عفيفا ، زاهداً ثقة .

ونقلت من خط العز بن محمد تاج الأمناء : أبو الفضل احمد بن محمد بن الحسن قال : يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت أم المعظم ودفنت بالجبل قلت : يعنى بالقبة التى فى المدرسة المعروفة بالمعظمية . وفى تلك القبة معها أبناء المعظم عيسى ، والعزيز عثمان أبناء الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن العادل .

قال : وفى رابع عشر جمادى الآخرة توفى الفقيه شرف الدين أبو الحسن على بن محمد بن على جمال الاسلام بن الشهرزورى بمدينة حمص كان قد سكنها منذ اخرج من دمشق

قلت : وكان مدرس المدرسة الأمينية والزاوية المقابلة لباب البرادة بالجامع وكان عالما بالمذهب والخلاف ، ماهرا فى ذلك .

قال : وفى شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقى الرومية لينشر حجارتها بلاطا لصحن الجامع وفرغ منه فى رمضان سنه اربع وستمائة ، وفى أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة اضلاع من شمالها ، وفى خامس عشر توفى مسعود الحبشى الزاهد ودفن بالجبل ، وفى يوم الخميس سابع ذى القعدة وجد التقى الأعمى مشنوقاً بالمئذنة الغربية .

قلت : هذا التقى اسمه عيسى بن يوسف بن احمد الغرافى ، ولد بالغراف من أرض العراق ، وكان

ضريراً عفيفاً ، فقيها مفتيا شافعيا مدرسا بالمدرسة الأمينية خارج باب الجامع القبلى ، وكان يسكن فى أحد بيوت منارة الجامع الغربية ، وكان ابتلى بأخذ مال له من بيته واتهم به شخصا كان يقرأ عليه ويطلع معه الى البيت يقضى حاجته ، ويقوده من المدرسة إلى البيت ، ومن البيت إلى المدرسة فانكر الشخص المتهم ذلك وتعصبت له أقوام عند والى البلد . فوقع الناس فى عرضه من اتهامه من ليس من أهل التهم ومن كونه جمع ذلك المال وهو وحيد غريب ، ونسبوه إلى أنه غير صادق فيما أدعاه . فزاد عليه الهم من ضياع ماله والوقوع فى عرضه ففعل بنفسه ما فعل وقد وقع مثل هذا لجماعة وفعلوا فعله . وجرى لى أخت هذه القضية وعصمنى الله سبحانه بفضله وبلغنى أن جماعة من المتفقهة امتنعوا من الصلاة عليه وقالوا : قتل نفسه فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه فاقتدى الناس به رحمهم الله ودرس بالمدرسة الأمينية بعده الجمال المصرى وكيل بيت المال وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وفى ثامن عشر ذى القعدة توفى الفقيه جامع المغربى والد العلاء محمد بن جامع ودفن من الغد بالجبل وتربته مشهورة على الطريق وكان يتولى عقود الأنكحة وسمع من الحافظ الكبير أبى القاسم وغيره رحمه الله .

سنة ٦٠٣ هـ :

ثم دخلت : سنة ثلاث وستمائة ففيها : فارق وجه السبع (١) حاج العراق وقصد الشام ، وكان فى الحاج العراقى جماعة من الأعيان فبكوا وضجوا وسألوه فقال مولاى أمير المؤمنين محسن إلى وما أشكو الا من الوزير ابن مهدى فانه يقصدنى لقربى من مولاى ، وما عن الروح عوض وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهم وحشة وكآبة وأمر الخليفة أن لا يخرج الموكب إلى لقائهم ولا يخرج اليهم أحد ، وأدخل الكوس والعلم والمهد فى الليل فأقام الخليفة حزينا أياما وأما وجه السبع فوصل إلى دمشق فالتقاه العادل وأولاده وخدموه وأحسنوا اليه .

وفيها : ولى الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبدالله بن الدامغانى قضاء القضاة ببغداد فاستناب أبا الفتح محمد بن المندائى الواسطى فى القضاء بواسط .

وفيها : قبض الخليفة على الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذى أحرقت كتبه فى الرحبة فاستأصله وأصبح يطلب من الناس وكان قد بلغه فسقه وفجوره وكان عبدالسلام المذكور هو الذى وشى بالشيخ أبى الفرج ابن الجوزى حتى نكب بما ذكرناه فى سنة تسعين وخمسمائة .

قال أبو المظفر : لما قبض ابن يونس الوزير تتبع ابن القصاب أصحابه فقال الركن عبدالسلام بن عبد الوهاب أين أنت من ابن الجوزى ؟ هو من أكابر أصحاب ابن يونس وأعطى مدرسة جدى وأحرق كتبى بمشورته وهو ناصبى من أولاد أبى بكر (٢) وكان ابن القصاب متشيعا فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة من أهل مذهبه ولبسوا على الخليفة فأمر بتسليمه إلى عبدالسلام قال سبط ابن الجوزى : وكان جدى يسكن بباب الأزج فى

---

(١) مظفر الدين سنقر أمير الحاج العراقى (ز) .

(٢) سبحان الله كيف يعاب المرء بكونه سليل أبى بكر الصديق ؟ (ز) .

داره بنفشا وكان الزمان ضيقا وجدى رحمه الله جالس فى السرداب يكتب وأنا صبى صغير ، وإذا عبد السلام قد هجم على جدى فى السرداب فأسمعه غليظ الكلام وختم على كتبه وداره وشتت عياله وجرى عليهم مالم يجر على أقل الناس . فلما كان أول الليل حملوا جدى إلى السفينة فأنزلوه فيها ونزل معه عبد السلام لا غير وعلى جسدى غلالة بغير سروال وعلى رأسه تخفيفة وحدروه إلى واسط فاستوفى من جدى بالكلام وجدى لا يجيبه . فسبق عبد السلام إلى واسط وكان ناظرها العميد ابن امسينا ، وكان متشيعا فقال له عبد السلام : حرس الله أيامك مكنى من عدوى لأرميه فى المطمورة فمز عليه وزجره وقال : يازنديق ارمى ابن الجوزى فى المطمورة بقولك ؟ هات خط الخليفة والله لو كان من أهل مذهبى لبذلت روحى ومالى فى خدمته . فعاد عبد السلام الى بغداد وكان إحراق كتبه فى سنة ثمان وثمانين . وسببه أنه كان بين ابن يونس وبين أولاد الشيخ عبد القادر عداوة قديمة لأنه كان جارهم بباب الأزج فى حال خموله وفقره وكانوا يؤذونه بحيث أنهم ربوا كلبا ولقبوه جليل يعنون جلال الدين وهو لقب ابن يونس ، وكان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسموا بغلا للطحن العماد ، وكان من ولد الشيخ عبد القادر لصلبه طحان اسمه سليمان كان أشر خلق الله هو الذى فعل هذه الأفاعيل . فلما ولى ابن يونس الوزارة ، ثم أستاذية الدار أظهر ما كان فى قلبه منهم فبدد شملهم وبعث بعضهم إلى المطامير الى واسط فماتوا بها وكان عبد السلام هذا مداخلا للدولة وكان عنده كتب كثيرة فبعث ابن يونس فكبس داره وأخرج منها كتب فى فنون منها : الشفاء لابن سينا ، والنجاة . ورسائل اخوان الصفا . وكتب الفلاسفة . والمنطق ، وتبخير الكواكب ، والنارنجيات ، والسحر . فاستدعى ابن يونس وهو يومئذ أستاذ دار الخليفة العلماء ، والفقهاء ، والقضاة ، والأعيان وكان جدى فيهم وقرىء فى بعضها : « أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا » وفى حق المريخ من هذا الجنس وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس . هذا خطك ؟ قال : نعم . قال : لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائلة ومن يعتقده . فسألوه فيه فقال : لا بد من تحريق الكتب ، فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر صفر جلس قاضى القضاة ، والعلماء ، وجدى معهم على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأضرموا تحت المسجد نارا عظيمة وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول : العنوا من كتبه ومن يعتقده فيصيح العوام باللعن ، وعبد السلام حاضر وتعدى اللعن الى الشيخ عبد القادر وأحمد بن حنبل وظهرت الأحقاد البدرية وقال الخصوم اشعارا منها قول المهذب الرومى ساكن النظامية :—

لى شعرا رق من دين ركن الد	ين عبد السلام لفظا ومعنى
زحليا يشنا عليا ويهوى	آل حرب حقدا عليه وضغنا
منحته النجوم إذ رام سعدا	وسرورا نحسا وهما وحزنا
سار إحراق كتبه سير شعرى	فى جميع الأقطار سهلا وحزنا
أيها الجاهل الذى جهل الحـ	ـق ضلالا وضيع العمر غبنا
رمت جهلا من الكواكب بالتبخـ	ـير غرا فنلت ذلا وسجنا
ما زحيل وما عطارد والمر	يخ والمشترى ترى يامعنى
كل شىء يودى ويفنى سوى الله	الحى فانه ليس يفنى

ثم حكم القاضى بتفسيق عبد السلام (١) ورمى طيلسانه وولى جـ ـ ـ بى مدرسة الشيخ عبد القادر فذكر الدرس بها فى ربيع الأول .

وفيها : قدم البرهان محمد بن مازة البخارى ويلقب بصدر جهان حاجا إلى بغداد وتلقاه جميع من ببغداد ماعدا الخليفة والوزير وانزل فى دار زبيدة على نهر عيسى وحملت اليه الاقامات والضيافات وكان معه ثلثمائة من الفقهاء والمتفقهة ، وجرى له فى حجه ما سنذكره فى أول السنة الآتية .

وفيها : نزلت الفرنج على حمص وكان الظاهر بعث اليها المبارز يوسف بن خطلخ الحلبى نجدة لأسد الدين الأصغر شيركوه الأصغر ، واسر فى هذه المرة الصمصام بن العلائى ، وخادم صاحب حمص

قال ابو المظفر وفيها : فارقت دمشق قاصداً حلب فوصلتها فى ذى الحجة واجتمعت بالنقاش الحلبى الشاعر واسمه مسعود بن أبى الفضل أبو الفتح ولقبه تاج الدين مولده سنة أربعين وخمسمائة وقدم دمشق سنة تسع وستمائة وأنشد الجماعة قطعا من قصائده منها :ـ

مالى سـوى حبكم مذهب ... ولا لى إلى غـيركم مذهب
ناشدتك الله نسيم الصبا ... من أين هـذا النفس الطيب
أودعت برداك وقت الضحى ... مكان القت عقـدها زينب
أم باسمت رياك روض الحمى ... وذيلها من فوقـه يسحب
فهات انحفـنى باخبارها ... فعهـدك الآن بها أقرب

ومنهـا :ـ

أى يد عنـدى وأى منه ... للركب ان بشرنى بهنـه
صاحوا الرحيل فظلت والها ... أنشد قلبى بـين عيشهنه
كأننى بالحى قد شدوا العرى ... ليلهـم وارخو الأعنـه
وماسمعت قبـل أن يرحلوا ... بمطلع الشهب من الأسنه
يا حادى الأظعان رب فرح ... احـدثه طيب حـديثهنه
فاسلم وقل للراحلين ان يكن ... بـين فرفـقاً بقتيلكن

ومنهاقصيدة فى صاحب بعلبك الأمجد بن فرخشاه :ـ

زار وطرف النجم لم يرقـد ... مـتزر من حسنه مرتد
احور يحكى الخال فى خده ... نقطة يـد فوق ورد ند
يا حسنه من زائر مابدا ... إلا وأنسى قمـر الاسعـد

(١) قال ابن رجب : سمع الحديث من جده وتفقه عليه ، رأى والده يوما ثوبا بخاريا عليه فقال: والله هذا عجيب مازلنا نسمع البخارى ومسلم ، وأما البخارى وكافر فما سمعناه . وكان أبوه كثير المجون اهـ. راجع طبقات الحنابلة لابن رجب (ز) .

ويا ضلالى فيه من بعد ما عسرأ وجهه اهتدى
فيالها من ليلة لم يفز بمثلها الهادى ولا المهتدى
اذ اجتلى فى ليل اصداغه من وجهه شمس صباح الغد
وعاذل عنف فيه ومن ينادم البدر ولم يحسد
ظن خلاصى فى يدى فاعتدى وقال يم سوى قاتلا لايدى
فقلت لا ترج سلوى فقد خلعت سلوانى على عودى
أأهجر العيش لهجرى له واخرج الفوز به عن يدى
واثنى منه إلى هجره لا وحياة الملك الأمجد

وفيها : توفى اسماعيل بن على أبو محمد الخطيرى من خطيرة الدجيل كان أديبا فاضلا شاعر أنشد لنفسه :-

لا عالم يبقى ولا جاهل ولا نبيه لا ولا خامل
على سبيل مهيع لاحب يورى اخو اليقظة والغافل

وفيها : توفى عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى كان زاهداً عابداً ورعا لم يكن فى أولاد الشيخ مثله ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير وكان مقتنعا من الدنيا باليسير وكان وفاته فى شوال ودفن بباب حرب سمع أبا الكرم بن الشهرزورى وطبقته وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من اخوته .

وفيها : فى ربيع الأول توفى أبو منصور عبدالرحمن بن الحسين بن عبد الله النعمانى النيلى (١) المعروف بالقاضى شريح لقب بذلك لذكائه وفطنته كان يتوقد ذكاء وفضلا كانهم شبهوه بالقاضى شريح الأكبر الذى كان فى زمن الصحابة رضى الله عنهم. ولى شريح هذا قضاء النيل مدة ثم قدم بغداد فندب الى المراتب الكبار فلم يدخل فى شيء منها فرمى طاشتكين أميرالحاج نفسه عليه وسأله أن يكتب له فاستحيا منه وكتب له فاقام عنده مدة عشرين سنة فقصده الوزير ابن مهدى حسداً افضله وكان فاضلا، مترسلا بليغا، جواداً، سمحاً حسن الصورة فصيح اللسان متواضعا لطيفا يصلح للوزارة فلبس على الخليفة فى أمره فحبسه فى دار طاشتكين بدار الخليفة ولم يقدر طاشتكين على الكلام فيه ومات طاشتكين وهو محبوس ثم مات شريح بدار طاشتكين فاخرج منها ميتا فدفن بداره فى القبيبات ومن العجايب ان ابن مهدى نكب بعد وفاة شريح وحبس بدار طاشتكين أيضا وبها مات كما سنذكر فى أخبار السنة الآتية . ورسائل شريح مدونة فى مجلدين رحمه الله .

وفيها : توفى بالموصل فى شوال أبو الحرم مكى بن ربان بن شبة الماكسينى الموصلى النحوى قدم بغداد وقرأ على ابن الخشاب، وابن العصار، والكمال الانبارى وبرع فى علم النحو وقدم الشام فأقام بحلب مدة وإنتفع به خلق عظيم وقدم دمشق وقرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوى رحمه الله كتاب أسرار العربية للأنبارى وربما يقع تصحيف فى اسم أبيه وجده فاعلم: أن اسم أبيه أوله راء بعدها باء معجمة

(١) نسبة إلى مدينة النيل بسواد الكوفة . (ز).

بواحدة (١) من تحت وشبة على وزن حبة ، وبدأ بذكره فى تاريخ اربل شرف الدين المستوفى لأنه شيخه ووصفه وأثنى عليه وقال ولد بها كسين من ولاية سنجار ونزل بالموصل بعد أن رحل فى طلب العلم إلى بغداد وكان سبب عماه جدريا لحقه وهو ابن ثمان أو تسع ، وكان يتعصب لأبى العلاء احمد بن سليمان المعرى للجامع بينهما من العمى والأدب وكان قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز وجميع ضروب الأدب فكان لايتفرغ الا للصلاة المكتوبة أو الى لما لابد منه وتخرج عليه جماعة من أصحابه وكان أخذ عن أبى بكر يحيى بن سعدون القرطبى الأصل الموصلى الوفاة ومن شعره —

إذا احتاج النوال إلى شفيع فلا تقبله تضح قرير عين
إذا عيف النـوال لفرد من فأولى أن يعاف لمنتـين

وله الغاز فى اسم دعد :.

اسم الذى أنا عبـدها يا أيها الرجل الحكيم
تلقيـه معكـوسا كما تلقيـه إذ هو مستقيم

قلت : وكنى من سلك أن يقول اسمها إن عكسته مثله ان تركته .

وفيها : توفى جمال الدولة اقبال الخادم بالبيت المقدس رابع عشر ذى القعدة بعد أن وقف داربه بدمشق مدرستين (٢) إحداهما للشافعية وهى الكبرى، والأخرى للحنفية وهى الصغرى، ووقف عليهما مواضع ثلثاها لمدرسة الشافعية والثلث الباقى لمدرسة الحنفية وكان من خدام صلاح الدين رحمه الله .

سنة ٦٠٤ هـ

ثم دخلت سنة أربع وستمائة . ففيها : قدم حاج العراق بغداد فى صفر وحكوا ما لقوا من صدر جهان (٣) وشدة العطش وان غلمانه كانوا يسبقون الناس الى المناهل فيأخذون الماء فيرشون به حول خيمته ويسقون أحواض البقل على الجمال ومات أكثر الناس عطشا وسموا هذه السنة صدر جهنم ولما وصل إلى بغداد لم يخرج أحد للقائه ولعنوه فى وجهه وسبوه فى الأسواق وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع وكان النساء يخرجن متبرجات منشرات الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن العنوا صدر جهنم فسأل الوزير أن يأذن له فى الرجوع الى بلده فخلع عليه جبة وعمامة وطيلسان وخرج من بغداد والناس خلفه يسبونه ولم يقدر أحد على منعهم .

قال أبو المظفر : وحججت أنا فى هذه السنة وهى الرابعة فرأيت من الموتى ما أذهلنى وخصوصاً فى النقرة والعسيلة فإنى رأيت فيها ما يزيد على خمسة آلاف ميت ومشينا ثلاثة أيام فى الأموات .

وفيها : فى جمادى الآخرة قبض الخليفة على الوزير ابن مهدى ليلا بعث اليه من أغلق بابه فأقام أياما ثم نقله فى رجب إلى دار طاشتكين فى دار الخليفة الذى مات فيها القاضى شريح ونقل أهله

(١) جعله ابن خلكان بالمثناة التحتية ، ولعل الصواب هو ماهنا (ز)
(٢) هما الاقباليتان (ز) ، (٣) هو محمد بن احمد بن عبد العزيز البخارى (ز) .

وأولاده وأمواله وذخائره ووجد له من الأموال والذخائر مالم يوجد فى خزائن الخلفاء لم يتعرض له الخليفة وفوض الأمر إلى المكين محمد القمى كاتب الانشاء بين يدى ابن مهدى وناب القمى بعد ذلك فى الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه واختلفوا فى سبب عزل الوزير ابن مهدى فقال قوم : كان ظالما جبارا قاسيا متكبرا قليل الرحمة قل أن حبس أحدا فتخلص منه . حكى لى خالى أبو محمد يوسف قال: شفعت اليه يوما فى محبوس. فقال: وكم له فى الحبس؟ فقلت: خمس سنين. قال: ليس هذا بمحبوس المحبوس عندنا فى العجم من يمضى عليه خمسون سنة .

وقال آخرون إن المكين القمى سعى به الى الخليفة وقال انه قد طمع فى الخلافة ويقول انه علوى ونحن أحق وانه ينفذ الأموال إلى العجم فى قواصر التمر الى أهله بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكا يقصد بغداد. وقال آخرون انه اتفق مع ابن ساوا النصرانى على قتـل علاء الدين ايتامش مملوك الخليفة فى هذه السنة وسنذكره ولما ظهر خبره واستقلاله بالأمور . هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار واوصلوها إلى الخليفة منها ما كتب به يعقوب بن صابر المنجنيقى :ـــ

خليلى قولا للخليفة احمـد   توق وقيت السوء ماأنت صانع
وزيرك هـذا بين أمرين فيهما   صنيعك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة حيدر   فهذا وزير فى الخلافة طامع
وان كان فيما يدعى غير صادق   فأضيع ماكانت لديه الصنائع

وجلس يوما فى الديوان فوقعت بين يديه ورقة مختومة فلم يتجاسر على فتحها فبعث بها إلى الخليفة وكان فيها :ـــ

إن صح فـيما تزعم يا مـدعى   إلى نبى لست من نسله
لا قاتل الله يزيـدا ولا   مـدت يد السوء إلى نعله
لأنه قد كان ذا قدرة   على اجتثاث العود من أصله
وإنمـا أبقاك أحدوثة   للنـاس كى يعزر فى فعـله

فكان سبب حتفه لأن الخليفة قال ما كتبوا هذه إلا وقد اهلك الحرث والنسل .

وفيها : رتب الخليفة فى شهر رمضان دور الضيافة ببغداد من الجانبين عشرين دارا فى كل دار فى كل ليلة خمسمائة قدح وألف رطل من الطبيخ الخاص، والخبز النقى، والحلواء وغير ذلك مستمر فى كل رمضان

وفيها : وصل إلى بغداد من دمشق قاضى عسكر الشام نجم الدين خليل الحنفى رسولا من العادل أبى بكر بن أيوب وأخرج فى مقابلته الشيخ شهاب الدين السهروردى وسنقر السلحدار ومعهما الخلع للعادل وأولاده وكان فى خلعة العادل الطوق والسواران .

وفيها : ملك الأوحد بن العادل مدينة خلاط كاتب أهلها بعد قتـل ابن بكتمر صاحبها والهزار دينارى. وكان دينارى هو الذى قتل ابن بكتمر، وكان شابا لم يبلغ عشرين سنة ولم يكن فيها أحسن منه وقيل أنه أغرقه فى بحر خلاط وكانت أخته مع صاحب ارزن الروم فقالت لا أرضى حتى يقتل الهزار دينارى

وتأخذ بثأر أخي فسار الى خلاط وخرج الهزارد يناري للقائه فضربه فابان رأسه وعاد الى الروم وبقيت خلاط بغير ملك وكان الأوحد هو صاحب ميافارقين فكاتبوه لجاء اليهم واستولى عليها وكانوا جبابرة وتشرط عليه المقدمون بها فشرع فيهم فابادهم وغرقهم فى بحر خلاط وبدد شملهم .

ذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه أن ابن بلبان مملوك شاه أرمن لما أخذ خلاط من ابن بكتمر قصد الأوحد موش من أعمال خلاط فأخذها وغيرها ، ثم طمع فى خلاط فقصدها فهزمه بلبان فرجع الأوحد الى ميافارقين وحشد وعاد اليه فاستنجد بلبان بصاحب ارزن الروم وهو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان فانجده بنفسه وهزما الأوحد ثم غدر مغيث الدين ببلبان فقتله طمعاً فى البلاد وسار الى خلاط فمنعه أهلها فعاد عنها فارسلوا الى الأوحد لحضر اليهم فسلموها اليه .

وفيها : حج بالناس من الشام بدر الدين مودود فرحل من دمشق ثامن عشر شوال وصحبه الملك المحسن ابن صلاح الدين وجاور فى تلك السنة وودعهم السلطان العادل الى الكسوة وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه وأولاده ، وشبل الدولة الحسامى وخلق كثير منهم : أبو المظفر سبط ابن الجوزى وهى أول حجاته وكانت الوقفة يوم الأربعاء وعاد الى العراق . وحج بالناس من العراق فى هذه السنة والتى قبلها مجاهد الدين ياقوت .

وفيها : توفى علاء الدين إيتامش (١) بن عبد الله مملوك الخليفة الناصر وكان شجاعاً عاقلا صالحا متصدقا رحوما رقيق القلب ولا يعرف المسكر ولا الفواحش وكان يطعم المساكين ويكسو العارى وكان الخليفة يحبه ويقربه والوزير ابن مهدى يشنأه لقربه من الخليفة وكان ابن مهدى قد ولى الدجيل ودقوقا رجلا نصرانياً يقال له ابن ساوا فتسلط على المسلمين وفتك وظلم وأهان المسلمين واذلهم وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه قالوا وكان ابن ساوا يحمل مثل البلاد الى ابن مهدى فيأخذ منها ما يريد ويعطى الخليفة ما يريد فاقطع الخليفة إيتامش دقوقا والدجيل فخرج اليها واطلع على الأحوال فخاف إبن مهدى قالوا فاتفق مع ابن ساوا على أن يسم إيتامش فمضى النصرانى الى دقوقا وتوصل الى إيتامش ودس عليه من سقاه السم فرض إيتامش وعاد الى بغداد مريضاً فمات بعد أيام فتقدم الخليفة بأن يفتح له جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد من ارباب الدولة إلا الخليفة والوزير وحمل الى مشهد موسى بن جعفر فدفن هناك وعلم الخليفة بباطن الحال فأمر بأن يسلم ابن ساوا إلى غلمان إيتامش . فكتب المهدى الى الخليفة يقول : إن النصارى قد بذلوا فى ابن ساوا خمسين ألف دينار ولا يقتل . فكتب الخليفة على رأس الورقة :ـ

ان الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

فسلم ابن ساوا الى مماليك علاء الدين فأخرج من دار الوزير وفى رقبته حبل وهو مكتوف فقتلوه وأحرقوه وكان لابن مهدى مملوك عاقل يقال له آق سنقر الدوادار . كان يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدى وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى فى فساد الدولة ، وعلم الوزير فسقاه السم فمات فى ربيع الآخر هو وعلاء الدين إيتامش فى أيام قريبة وقبض الخليفة على بن مهدى فى جمادى .

وفيها : فى شهر رمضان توفى شرف الدين الناقد بن قنبر واسمه الحسن بن أبى طالب ، ولاه الخليفة

---

(١) وقع فى ابن كثير (بنيامين) وهو تحريف (ز) .

حجبة الباب وناب فى الوزارة ، ثم ولاه صاحب المخزن فتجبر وطغى ، وبنى بدرب المطبخ دارا تناهى فى بنائها فلم يكن ببغداد مثلها ، وشرع فى الظلم والفسق وتجاهر به ومدعينيه إلى أولاد الناس وكان قبيح السيرة فرفع أمره إلى الخليفة فأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وقبض عليه واستأصله ، ونقض داره إلى الأساس وحبسه فأخرج فى رمضان ميتاً فدفن بمشهد باب التبن .

وفيها : توفى ابو على حنبل بن عبدالله ، إبن الفرج بن سعادة المكبر بجامع الرصافة وكان فقيراً جداً ، وكان قد سمع المسند من ابن الحصين فقيل له لو سافرت إلى الشام . فخرج من بغداد فأسمع المسند بإربل فسمعه ابن زين الدين ، وبالموصل ، وبدمشق فسمعه عليه الملك المعظم عيسى بالكلاسة فى جمع كثير وهو آخر من رواه عن ابن الحصين فألحق الصغار بالكبار ، وكان كثير الأمراض بالتخم . كان الملك المعظم يطعمه ألوان الطعام وأشياء مارآها ولا فى المنام وكان معوداً ببغداد أكل الهرطمان (١) وتلك الألوان وبلغنى أن الشيخ تاج الدين الكندى حضر عندهم يوما فى السماع ولم يحضر حنبل فقال تاج الدين : واين حنبل . فقال المعظم : هو متخوم . فقال تاج الدين : أطعمه عدس . فضحك المعظم والجماعة . وكان عمر بن طبرزد قد رافقه من بغداد إلى الشام وحصلا مالا طائلا وعاد إلى بغداد ، فاشترى حنبل العتابى والكاغد ، وعزم على العود إلى الشام فى تجارة فأدركته المنية رابع عشر محرم سنة أربع وستمائة وله تسعون سنة ، وحمل المال إلى بيت المال ولم يكن له وارث ودفن بباب حرب . ومات ابن طبرزد فى سنة سبع وستمائة كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وفيها : فى صفر توفى عبدالرحمن بن عيسى بن أبى الحسن البزورى الواعظ من أهل باب البصرة ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقرأ على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى الوعظ ، والفقه ، والحديث ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته حتى كنى نفسه أبا الفرج واجتمع إليه سفاف أهل باب البصرة ، وانقطع عن جدى والماجاء من واسط ماجاء إليه ولازاره ، وكان فى عشر السبعين تزوج صبية واغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره ومات وسمع أبا الوقت وغيره .

وفيها : توفى عبدالمجيد بن أبى القاسم عبدالله بن زهير أبو محمد الحربى ابن أخى عبد المغيث الحربى(٢) ولد سنة سبع وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير وكان تردد من عند الخليفة الى العادل فى أمور خاصة فخرج فى السنة الماضية وعاد فى هذه السنة فتوفى بحماة وكان صالحا ثقة .

وفيها : توفى الامير زين الدين قراجا الصلاحى صاحب صرخد وداره فى دمشق بالدلاقة بنواحى باب الصغير وكان شجاعا جواداً توفى بدمشق ودفن بجبل قاسيون وقبره عند تربة ابن تميرك فى قبة على الجادة على يمين السالك شرقا كذا قال أبو المظفر . وقال العز بن تاج الأمناء : توفى بالعسكر على بحيرة قدس مرابطاً يوم السبت أول جمادى الأولى وحمل إلى دمشق فى محفة فدفن فى المقبرة العادلية من جبل قاسيون حالة وصوله بكرة يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى المذكور ووصل ابنه ناصر الدين يعقوب من قلعة صرخد

---

(١) الهرطمان بالضم حب متوسط بين الشعير والحنطة نافع للاسهال والسعال فتأمل؟ من هامش الأصل.
(٢) مؤلف مناقب يزيد وقد رد عليه ابن الجوزى (ز) .

إلى خدمة السلطان العادل وهو على القدس ، فأكرمه وأنعم عليه بما كان بيد أبيه ثم توفى فى سنة أربع عشرة وستمائة وعمره إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر .

وفيها : توفى أبو الثنا محمود بن هبة الله بن أبى القاسم الحلى البزار قرأ القرآن على على بن عساكر البطائحى ، والأدب على أبى محمد بن الخشاب ، وسمع الحديث على أبى الوقت . وحكى عن اسماعيل بن موهوب الجواليقى قال : كنت فى حلقة والدى أبى منصور موهوب يوم جمعة بعد الصلاة بجامع القصر والناس يقرأون عليه فوقف عليه شاب فقال : ياسيدى مامعنى قول القائل ؟ :ـــ

وصل الحبيب جنـــان الخلد أسكنها وهجره النار تصلينى بها النهـــارا

فالشمس بالقوس اضحت وهى نازلة ان لم يزرنى وبالجوزاء ان زارا

فقال له والدى : يابنى هذا شىء يتعلق بسير الشمس بالبروج وما يتعلق بعلم الأدب . ثم قام والدى وآلى على نفسه ألا يعود الى مكانه ذلك حتى ينظر فى علم النجوم ويعرف سير الشمس والقمر فنظر فيه وعلمه بحيث إذا سئل عن شىء أجاب . ومعنى الشعر: ان الشمس إذا نزلت فى القوس يكون الليل فى غاية الطول فإذا كانت فى الجوزاء كان الليل فى غاية القصر .

وفيها : فى ربيع الأول توفيت ست الكتبة واسمها نعمه بنت على بن محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية للحديث روت كتاب الشمائل للترمذى عن أبى شجاع عمر بن أبى الحسن البسطامى وعن جدها أبى محمد بن يحيى بن محمد الطراح وغيرهما ودفنت بباب الفراديس :

وفيها : فى تاسع شهر رمضان توفى عمى الشيخ أبو القاسم بن ابراهيم بن عثمان بن الخشاب ودفن بالمقبرة التى بين الباب الشرقى وباب توما رحمه الله .

وفيها : فى ذى القعدة توفى عبد العزيز الطبيب فجأة وهو والد سعد الدين الطبيب الاشرفى وهو الذى عناه القائل اظنه ابن عنين بقوله :ـــ

فرادى ولا خلف الخطيب جماعة ومـوت ولا عبـــدالعزيز طبيب

وفى شعبان سار أولاد صلاح الدين إلى حلب . وفى ثانى رمضان تجدد هواء قوى عقيبه مطر وثلج بحيث رمى بعض رصاص المسجد على رجلين فى صلاة الجمعة فقتلهما . وفى سابع عشر رمضان وصلت رسل الخلافة ، والشيخ شهاب الدين السهروردى ، ونور الدين التركى الخليفتى ، ولبس السلطان العادل أبو بكر ، وولداه المعظم ، والأشرف ، والوزير صفى الدين بن شكر ، وأستاذ الدار شمس الدين الدكز العادلى الخلع من القصر إلى القلعة وكان دلدوم حامل التقليد على رأسه بين يدى السلطان ، ودخل جميعهم من باب الحديد عند آذان الظهر ، وأنزل الرسل بدار عز الدين فرخشاه ، ورباط خاتون وقرأ الوزير التقليد قائما بمحضر من القضاة وسراة البلد بايوان القلعة ، ولم يزل السلطان وأولاده وجميع الحاضرين قياما إلى أن فرغ من قراءته . واتفق حضور شهاب الدين بن شداد قاضى حلب رسولا من الظاهر صاحبها وعلى يده ألف دينار للنثار فلم يأذن له العادل بنثارها ، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد وصحبتها قاضى العسكر خليل الحنفى ، وشمس الدين الدكز أستاذ الدار بهدايا سنية وودعهم العادل إلى القصير .

وفى رجب ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع وشرعوا فى عمارة البرج الذى فى قبالة المدرسة القيمازية . وفى ثالث شوال ذكر القاضى شرف الدين عبدالله بن زين القضاة عبدالرحمن بن سلطان الدرس فى مدرسة ابن رواحة . وفى رابع وعشرين شوال سار الشيخ فخر الدين بن عساكر إلى القدس للاقامة بالمدرسة الناصرية . وفى الخامس والعشرين منه اعتقل السلار بهرام وأولاده على العملة بالقيسارية وهى العملة المعروفة بابن الدخينة واشتهرت فى البلاد .

وفيها : وصل الخبر إلى دمشق بحدوث زلازل بنواحى بلد خلاط وريح بحيث وقع خسف بموضع قد كان الأوحد بن العادل نازلا به ورحل عنه قبل ذلك بليلة .

وفيها : توفى العفيف ابن الدرجى إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق .

سنة ٦٠٥ هـ :

ثم دخلت سنة خمس وستمائة ففيها: تكاملت دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربى للحجاج الواردين من البلاد، ورتب لهم الخليفة فنون الأطعمة والزاد ، وإذا عادوا من الحج فرقت فيهم الدنانير والثياب .

ووصل حاج الشام دمشق فى التاسع والعشرين من المحرم ، وجاور الملك المحسن وتوفى أخوه الأشرف بحلب ، وفى تاسع المحرم يوم الجمعة دخل عند الأذان فى السحر مملوك افرنجى كان لفلك الدين سليمان وكان سكران إلى مقصورة الخطابة وفى يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان أو ثلاثة ووقعت بعض الضربات فى جانب المنبر فأثرت فيه والناس مجتمعون لصلاة الصبح وعملت فى ذلك اشعار كان يغنى بها فى الأسواق وسمعتها وأنا صغير أحفظ منها :ـــ

مقصورة الخطيب طلب والناس ولوا الهرب
فى جانب المنبر ضرب بالسيف حتى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالبيمارستان وشنق بجسر اللبادين آخر النهار ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه الى الطريق المسلوكة بجيرون فيراه الناس من الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور .

وفيها : دخل الشيخ شهاب الدين السهروردى إلى بغداد من الرسالة بالشام ومعه شمس الدين الدكر أستاذ دار العادل فتلقى الموكب الدكر وكان معه الهدايا والتحف وأعرض عن الشيخ الشهاب ونقم عليه حيث مد يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء أسامة وغيره وقد كان قبل الرسالة زاهداً فقيراً وأخذ منه الربط التى كانت بيده رباط الزوزنى والمرزبانية ومنع من الوعظ فقال: ماقبلت هـــذه الأموال إلا لأفرقها على الفقراء ببغداد . وشرع يفرق الأموال والثيــــاب فى الزوايا والربط قال أبو المظفر : كان من عادة خالى أبى محمد يوسف يجلس يوم السبت تحت تربة أم الخليفة ، والشهاب يجلس يوم الثلاثاء بباب بدر ، فمنع الشهاب من الجلوس وأمر خالى فجلس مكان الشهاب بباب بدر فاتفق ان حكى خالى حكاية الذى نظر فى الرحبة إلى شخص مستحسن فاسود بعض وجهه ، فرأى فى المنام قائلا يقول : اذهب إلى بغداد إلى شيخك الجنيد فسله أن يستغفر لك : فنزل إلى بغداد وطرق زواية الجنيد فقال له الجنيد : تذنب بالرحبة وأستغفرلك ببغداد . فقال الناس : ماقصد إلا الشهاب . ومعناه

لو تركت هذه الأموال بالشام كان أصلح من أخذها وتفريقها ببغداد . قال : والظاهر أن خالى ماقصد نكت الشهاب وإنما وقع ذلك على سبيل الاتفاق ، وقد اغنى خلقا كثيراً من فقراء المسلمين بالشام والعراق والأموال كلها للمسلمين فقد صرفت إلى أرباب الاستحقاق . قال: وكان الفخر بن تيمية قد حج فى السنة الماضية وكتب مظفر الدين بن زين الدين معه كتاباً إلى الخليفة بالوصية عليه فلما عاد من مكة سأل الجلوس بباب بدر فاجيب إلى ذلك وتقدم إلى خالى بالحضور فحضر وقعد على دكة المحتسب بباب بدر ووعظ ابن تيمية ومدح الخليفة وأنشد فى أثناء ذلك :ــ

وابن اللبون إذا ما لذ فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

فقال العوام : ماقصد إلا خالى يعنى أن ابن تيمية كان شيخا وخالى شاب . قال : وكان الخليفة خلع على الشمس الدكز أستاذ دار العادل وعاد الى الشام بالهدايا وزلزلت نيسابور زلزلة عظيمة ودامت عشرة أيام فمات تحت الهدم خلق عظيم . وحج بالناس من العراق المجاهد ياقوت ، ومن الشام حسام الدين قايماز والى القدس الشريف .قال العز بن تاج الأمنـــاء : فى عشية ثالث عشر رجب جرى بين التاج الكندى وابن دحية كلام ومشاتمة عند الوزير .

قلت : حكى لى من حضر ذلك المجلس أن الشيخ الحافظ أبا الخطاب عمر بن دحية لما عاد من رحلته الخراسانية قصـــد مجلس الوزير صفى الدين عبد بن على المعروف بابن شكر وزير العادل، وكان الشيخ العلامة تاج الدين الكندى جالساً إلى جنبه فاجلس ابن دحية إلى الجانب الآخر، فشرع ابن دحية يورد حديث الشفاعة فلما وصل إلى قول ابراهيم الخليل صلوات الله عليه وقوله :إنما كنت خليلا من وراء . وراء . لفظ باللفظتين بفتح الهمزة فيهما فقال الكندى : وراء . وراء . بالضم فعز ذلك على ابن دحية وكان جريئاً ذا أنفة من الرد عليه فقال للوزير من ذا الشيخ؟ فقال له : هذا تاج الدين الكندى . فسمج ابن دحية فى حقه بكلمات فلم يسمع من الكندى إلا قوله : هو من كلب فنبح . وهذه تورية حسنة من لفظ حلو وذلك أن ابن دحية كان ينسب إلى ابن كلب من العرب ، وهى قبيلة دحية الصحابى رضى الله عنه . وفى صحة الانتساب اليه كلام ونظر ، فان جماعة من المتقدمين قالوا لم يعقب على ماذكرناه فى ترجمته فى تاريخ دمشق ، ووقع الناس فى أبى الخطاب بسبب ذلك حتى قال بعضهم :ــ

دحية لم يعقب فلا تنتسب اليه بالبهتان والإفك

ما صح عند الناس شىء سوى انك من كلب بلا شك

فأخذ الشاعر المعنى الذى أشار اليه الكندى بذلك اللفظ الوجيز، أما اللفظتان المتنازع فيهما فرأيت فى أمالى احمد بن يحيى ثعلب جواز الأمرين فيهما والجر أيضاوقد نظمت ذلك فى كتاب مفصل الزمخشرى وغيره من المسائل النحوية وبالله التوفيق .

وفيها : فى ثالث شهر رمضان توفى عم جدى عبد الرحمن بن أبى بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسى ويعرف بعبد ان المعلم .كان معلما فى المكتب الذى بباب الجامع الشامى قبالة خانقاه السميساطى وعمر طويلا نحو تسعين سنة ، ودفن بباب الفراديس .ومات جدى الذى هو ابن أخيه قبله بزمان. قرأت بخط عمى أبى القاسم ابن ابراهيم بن عثمان الخشاب رحمه الله قال : توفى الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم الفقيه الأمام عثمان ابن أبى بكر المقدسى الى رحمة الله فى السابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة قال:وتوفيت

والدة أبي القاسم المذكور في ثاني شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي جدتي أم أبي اسماعيل فبينها وبين وفاة جدي شهر واحد ، ودفنت بباب شرقي ودفن جدي بباب الفراديس قبالة تربة الصيفي ابن العائص بينهما الطريق وعلى قبر عم جدي بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته .

وفيها : توفي أبو العباس الخضر بن علي الجزري ولد بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وعشرين وخمسمائة وقدم بغداد وله يد في تعبير الرؤيا وانشد لنفسه : —

أنست بوحدتي حتى لواني ... رأيت الأنس لاستوحشت منه
وما ظفرت يدي بصديق صدق ... أخاف عليه إلا خفت منه
وما ترك التجارب لي حبيباً ... أميل اليه إلا ملت عنه

وفيها : توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة كان فاضلا أديباً انشد يوما : —

قسما بمن سكن الفؤاد وانه ... قسم به لو تعلمون عظيم
إني به صب كئيب مدنف ... قلق الفؤاد مـ ـونه مهموم
لا يستطيع مع التنائي سلوة ... حتى الممات واننى لسليم
فتعطفوا بالوصل بعد تهاجر ... فالصبر ينفد والرجاء مقيم

وفيها : توفي الأمير سنقر الصلاحي بحلب رابع عشر المحرم وهو أحد الأمراء المذكورين المجاهدين .

وفيها : في ربيع الاول توفي الشيخ أبو الخير مصدق بن شبيب بن الحسن النحوي الصلحي من أهل فم الصلح ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وصحب الشيخ صدقة الزاهد وقرأ عليه القرآن والنحو وأقام برباط صدقة ، وقرأ على ابن الخشاب ، وابن القصار ، والكمال الانباري . وسمع الحديث من أبي الفتح ابن البطي ودفن مع الشيخ صدقة في ضريحه وكان على طريقه في الزهد والعبادة ومنقطعا عن النـــاس

وفي ليلة الخميس ثاني شوال توفي الفصيح الواعظ بدمشق وهو : ارسلان بن علي بن غرلوا الواعظ الحنفي ودفن بباب الصغير على الطريق بالقرب من قبة ابن زين العابدين واسمه على قبره . وفي الرابع والعشرين من شوال وصل الخبر بأن الشرف الفلكي وجد مذبوحا في فراشه ذبحه غلام له ليلة عيد الفطر بخلاط وكان قد وزر للملك الأوحد وهو أخو الصفي الأسود . واسمه عبد المحسن بن اسماعيل بن محمود المحلي ، وكان قد ناب بديوان دمشق عن الصاحب صفي الدين بن شكر في الدولة العادلية ، ثم وزر لأخي العادل لأبيه فلك الدين فنسب اليه ، ثم استقل وزيرا بخلاط للأوحد بن العادل إلى أن قتلة مملوكه بها ليلة عيد الفطر سنة أربع أو خمس وستمائة وحمله من خلاط إلى دمشق صديقه الرشيد عبيد الله بن المظفر الصفوي ودفنه بجبل قاسيون ، وصلب قاتله على قبره . وعند صلبه بدره الرشيد فطعنه بمدية في نحره

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الأمير المعروف بالجناح الكردي ابراهيم بن احمد ودفن بالجبل وخرج السلطان في جنازته ، وفي الغد عمل عزاؤه في الجامع ، وحضر جميع الأمراء الأكراد بالجوخ ومناديل على رؤوسهم وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد . وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة شنق فضيل الخلاطي الخياط لكونه قتل تاجراً قزوينيا كان اشتشفع يا أحشيشه (هكذا) ثم أنزل وحملت جنازته على الأصابع .

وفيها : وصل الخبر من حلب بموت الأشرف عز الدين محمد بن صلاح الدين . ومن القدس بوفاة الأمجد حسن بن العادل وهو : شقيق المعظم والعزيز . ومن مصر بوفاة قاضيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى . ومن الجزيرة بقتل صاحبها سنجرشاه بن غازى بن مودود بن زنكى بن آق سنقر قتله ولده الأكبر غازى وكان سنجر شاه قد اطلع على سعى ولده هذا فى ذمه فسجنه مدة وتسبب إلى أن خلص من السجن واختفى بالقلعة عند بعض النساء وأظهر أنه قد هرب وندب واحدا من جهته يطوف البلاد متنكراً ويظهر أنه هو ففعل ووفد على الأشرف فأكرمه ثم وصل إلى دمشق وشاع خبره فسكن سنجرشاه إلى ذلك وكان متحرزاً فلما أمكنت الولد الفرصة هجم عليه ليلا فقتله بسيفه وخلف الأمراء فملك الجزيرة يوما وليلة فأوثقه مماليك والده وأقاموا ولده الصغير محمود الملقب بالمعظم معز الدين ثم قتل غازى

وفيها : غارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصى جسرا من خشب كانوا صنعوا آلته ببلادهم وحملوها معهم وعبروا العاصى عليه ثم رفعوه على جمالهم وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الإسلامية فهربوا على طريق القدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم .

سنة ٦٠٦ هـ :

ثم دخلت سنة ست وستمائة ففيها : نزلت الكرج على مدينة خلاط فى خلق عظيم مع ملكهم إيواى فضايقها وبها الأوحد بن العادل فأشرف على أخذها وقال له منجمه يوما ماتبيت الليلة إلا فى قلعة خلاط فشرب الخمر حتى ثمل وركب فى جيوشه وقصد باب أرجيش فخرج إليه المسلمون فقاتلوه ورأوا مالا قبل لهم به فبيناهم كذلك عثر به حصانه فقتل عليه جماعة من خواصه وأخذ أسيرا لحمل إلى القلعة فما بات إلا بها ورحل الكرج عن البلد وفرج الله عن أهله . ثم اتفق مع الأوحد على أنه يرد ما فتح من بلاد المسلمين ويطلق الأسارى ومائة ألف دينار ويزوج ابنته للأوحد . وقيل إنما كانت وقعة إيواى بعد حصار سنجر فى سنة سبع وستمائة .

وفى ربيع الأول نزل العادل على سنجار بعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر ومعه أولاده الأوحد وغيره وأقام يضربها بالمجانيق إلى رمضان ولم يبق إلا تسليمها فأرسل الملك من حلب أخاه المؤيد يشفع فى السناجرة وصاحبها يومئذ قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود رحمه الله فلم يشفعه ، ومات المؤيد فى هذه السفرة وكره المشارقة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل وأرسل الخليفة ابن الضحاك أستاذ داره آقباش الناصرى يشفع إلى العادل فيهم فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور ونزل بحران وفرق العساكر وصالح المشارقة صاحب إربل والموصل والجزيرة وماردين وحلب . وحج بالناس من العراق ياقوت ، ومن الشام فخر الدين إياس الشحامى(؟).

وفيها : توفى الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين بمدينة رأس عين عند منصرفه من رسالة أخيه الظاهر إلى عمه العادل فى أمر سنجار فى النصف من شعبان وكان قد نام فى بيت مع ثلاثة وعندهم منقل فيه نار ولا منفذ فى البيت فانعكس البخار فأخذ بأنفاسهم فماتوا جميعا فحمل المؤيد فى محفة إلى حلب ودفن بها

وفيها : توفى الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل بدمشق ودفن بسفح قاسيون بالتربة التى فيها أخوه الملك المعظم

وفيها : توفي الفخر الرازي ابن خطيب الري صاحب الكلام ، والمنطق واسمه محمد بن عمر بن الحسين ، وكنيته أبو المعالي ، صنف التفسير ، والمحصول ، والمحصل ، ونهاية العقول ، والأربعين وغيرها واعتنى بكتب ابن سينا في المنطق وشرحها ، وكان يعظ وينال من الكرامية وينالون منه سبّاً وتكفيراً ، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته . وكانوا يرمونه بالكبائر وكانت وفاته في ذي الحجة ولا كلام في فضله . وإنما الشناعات عليه قائمة بأشياء منها : أنه كان يقول : قال محمد التازي (١) يعني العربي يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد الرازي يعني نفسه . ومنها أنه كان يقرر في مسائل كثيرة مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة فاذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة ، وقد رأيت من أصحابه جماعة قدموا علينا دمشق وكلهم كان يعظمه تعظيماً كثيراً ولا ينبغي أن يسمع فيمن ثبتت فضيلته كلام شنع لعله صاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة رحمه الله تعالى . ويلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار خارجاً عما كان يملكه من الدواب ، والثياب ، والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار وكان ابنه الأكبر قد تجند في حياته وخدم السلطان محمد بن تكش وكان في زمانه القاضي الوحيد كبير القدر في الوعظ يحضر مجلسه الأكابر من الملوك ، والأمراء ، والرؤساء وكان فخر الدين يتكلم فيه . فبلغه فأتاه مسلماً فوقف على رأسه فرفع فخر الدين رأسه إليه ولم ينهض له وأنكر عليه مشافهته بما كان ينكر عليه في غيبته فتبسم الوحيد وقال : اطبخ لك أرزاً باللبن تأكله ينفع رأسك ومزاجك ثم دعا بالقدر والنار وجعل ينفخ النار بنفسه ليطبخ ذلك بحضرة فخر الدين ويتولى ذلك بنفسه على جلالة قدره فقام فخر الدين فوقع على رجليه وبكى وسمع سلطان البلد فحضر وأحضر الأطعمة وآلات السماع وجرى لهم يوم طيب وكان فخر الدين بعد ذلك يحضر مجلس الوحيد ويجلس قبالة وجهه بين ذلك الجمع العظيم

وفيها : في سلخ ذي الحجة توفي المجد بن الأثير الجزري الأصل الموصلي الدار واسمه : أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم . كاتب ، مصنف صدر كبير ولد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر وانتقل إلى الموصل ونشأ بها وقرأ الأدب والحديث وفنون العلم وقدم بغداد حاجاً وسمع بها الحديث وعاد إلى الموصل وكتب لأمرائها . وكان أمراء الموصل يحترمونه ، ويعظمونه ، ويستشيرونه . وكان بمنزلة الوزير الناصح إلا أنه كان منقطعاً إلى العلم وجمعه وصنف كتباً حساناً منها : جامع الأصول ، والنهاية في غريب الحديث ، وشرح مسند الشافعي رحمه الله تعالى وكان به نقرس وكان يحمل في محفة وكان يسكن بدرب دراج بالموصل وبه دفن . قرأ النحو على أبي محمد بن الدهان ، ثم على أبي الحرم الضرير مكي بن ربان ، وسمع الحديث من أبي بكر بن سعدون القرطبي ، وأبي الفضل عبد الله بن الطوسي وسمع ببغداد أبا الفرج ابن كليب وغيره ، روى الحديث وانتفع به الناس وكان عاقلاً بهياً ذا بر وإحسان وكان له أخوان فاضلان : ضياء الدين ابن الأثير الكاتب كان وزير الأفضل بن صلاح الدين صاحب

---

(١) بالزاي كان العجم يطلقونه على العرب وهو يفيد معنى العربي عندهم فقول ابن كثير : (البادي من البادية) تحريف على أن التازي هو الذي يوازن الرازي (ز) .

كتاب المثل السائر وغيره ، وعز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ وغيره قدم علينا دمشق وأسمع بها بالجامع ودار الحديث النورية رحمهم الله .

وفيها : في ذي الحجة أيضا توفي ببغداد أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي مدرس النظامية ولقبه مجد الدين ، ولد بواسط سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وقرأ القرآن على جده سليمان وتفقه على أبيه ورحل إلى نيسابور صحبة أبو القاسم بن فضلان ، وعاد إلى بغداد وتولى تدريس النظامية وكان عارفاً بالتفسير ، والمذهب ، والأصولين ، والخلاف ، وصنف تفسيراً في أربع مجلدات وبعثه الخليفة في رسالة إلى خراسان. سمع أبا الوقت وطبقته وكان ثقة ديناً صدوقا فدفن إلى جانب ابن فضلان رحمه الله تعالى

وفيها : توفي الحسن بن احمد بن جكينا من أهل الحريم الظاهري كان فاضلا ومن شعره :ــ

قد بان لي عذر الكرام فصدهم عن أكثر الشعراء ليس بعار
لم يسأموا بذل النوال وإنما جمد الندى لبرودة الأشعار

وفيها : توفي شمس الدين بن البعلبكي والد المجد وكان قاضي الفتيان بدمشق في العشرين من صفر وهو الذي بعث إلى مصر ليشد الكامل فتوة للخليفة لما جاء من بغداد الأمر بذلك .

وفيها : توفي شمس الدين سلام بن سلام والد اسماعيل واسحاق الشاهد بدمشق حادي عشر ربيع الآخر سنة ٦٠٧ هـ :

ثم دخلت سنة سبع وستمائة فوصل الحاج إلى دمشق صحبة بن محارب ثاني صفر وفيها : أظهر الخليفة الأجازة التي أخذت له من الشيوخ وذكرهم في كتاب روح العارفين ودفع إلى كل مذهب اجازة عليها مكتوبا بخطه أجزنا لهم ما سألوه على شرط الأجازة الصحيحة وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين . وسلمت إجازة أصحاب الشافعي إلى ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة ، وإجازة أصحاب أبي حنيفة إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستاني ، وإجازة أصحاب أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر ، وإجازة أصحاب مالك إلى التقي علي بن جابر التاجر المغربي . قال أبو المظفر سبط بن الجوزي:

وفيها : خرجت من دمشق إلى نابلس بنية القراءة وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله بها ، جلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين وإلى باب الساعات وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحرزوا ثلاثين ألفا، وكان يوما لم ير بدمشق مثله ولا بغيرها ، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة يعني التي كان يقطعها من رءوس التائبين

قال : وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها وبعثت به إليه وقالت : اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله قال : فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلا لخيل المجاهدين وكرفسارات (؟) ولما صعدت المنبر أمرت باحضارها فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال . فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها وقامت القيامة . وكان المبارز المعتمد ابراهيم والي دمشق حاضراً فقام وجمع الأعيان فلما نزلت من المنبر قام المبارز يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب الناطفانيين ، فقدم لي فرسي فأمسك ركابي وأركبني وخرجنا من باب الفرج إلى المصلى وبجميع

من كان بالجامع بين يدى وسرنا من الغد إلى الكسوة ومعنا خلق كثير مثل التراب ، وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكا نحوا من ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، وأما من غيرهم فخلق كثير والجميع خرجوا احتسابا وجئنا إلى عقبة أفيق والطير لا تقدر تطير من خوف الفرنج فسرنا على الجادة إلى نابلس ووصلت أخبارنا إلى عكا وخرج المعظم فالتقانا وسربنا وجلست بجامع نابلس وحضر وأحضرنا الشعور فأخذها وجعلها على وجهه وجعل يبكى وكان يوما عظيما ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك اليوم وخدمنا وأكرمنا وخرجنا إلى نحو بلاد الإفرنج فأخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا فأقمنا أياما ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة والمعظم معنا فقال : أريد أن أبني عليه قلعة وطلب أخاه الملك الأشرف وعساكر الشرق وحلب وشرع فى عمارة الطور وأقام العسكر تحته من ذى الحجة من هذه السنة إلى آخر سنة ثمان وستمائة فكمل سوره ودار واستوى فخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل فصالحهم وأعطى العساكر دستورا فتفرقوا وأقام المعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة العادل فلا يحصى ما غرم عليه . وحج بالناس من الشام سيف الدين على بن علم الدين سليمان بن جندر وكان قدم من حلب لذلك واحتفل الناس له .

وفيها : توفى صاحب الموصل نور الدين أرسلان بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى فى رجب وقيل فى صفر . قال أبو المظفر : وكان متكبراً ، جباراً ، بخيلا ، فاتكا ، سفاكا للدماء . حبس أخاه علاء الدين فمات فى حبسه وولى الموصل رجلا ظالما يقال له السراج فأهلك الحرث والنسل .

وفيها : توفى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن على الصوفى المعروف بابن سكينة ولقبه ضياء الدين ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقرأ القرآن على الشيخ أبى محمد المقرىء شيخ تاج الدين الكندى ، وسمع الحديث الكثير ، وكان صديق أبى الفرج الجوزى ملازماً لمجالسته ويزوره . وسأله أبو الفرج لما عاد من واسط أن يلبس ابنه يوسف خرقة التصوف فألبسه إياها بقطعنا وكانت وفاته فى ربيع الآخر وقد قارب سبعين سنة وصلى عليه بجامع القصر ، وكان يوماً مشهوداً حضره أرباب الدولة ودفن عند باب جامع القصر إلى جانب رباط الزوزنى .

وذكره محمد بن الدبيثى فى ذيله وقال : هو سبط شيخ الشيوخ أبى البركات اسماعيل بن أحمد النيسابورى . ورافق أبا سعد ابن السمعانى ببغداد ، وسمع من قاضى المارستان ، وابن الحصين وأبى غالب محمد بن الحسن الماوردى ، وأبى البركات الأنماطى ، وجده لأمه شيخ الشيوخ اسماعيل ، وزاهر بن طاهر الشحامى وأبا الفتح الكروخى ، وأبا الوقت وغيرهم ، وحدث ببغداد والشام ومكة ومصر والمدينة وغيرها وكان من الأبدال

وفيها : توفى ببغداد أبو حفص عمر بن محمد بن يحيى المعروف بابن طبرزد الدارقزى قال أبو المظفر : ولد فى ذى الحجة سنة عشر وخمسمائة سمع حديثاً كثيرا من أبى غالب بن البناء ، وأبى الحسن بن الزاغونى وأبوى القاسم بن الحصين ، وابن السمرقندى وقاضى المارستان ، وأبى الوقت وغيرهم ، وكان معلما للصبيان بدار القز ببغداد وكان خليعاً ماجناً وسافر مع حنبل إلى الشام وحصل له مال بسبب الحديث وعاد مع حنبل إلى بغداد فأقام حنبل يعمل له تجارة فتوفى فى سنة ثلاث وستمائة . فسلك طريق حنبل فى استعمال

الكاغد والعتابى فرض مدة ثم توفى ودفن بباب حرب . ولم يكن له وارث فرجع المال إلى بيت المال
وجدت بخط الحافظ عبد العظيم المنذرى : ان الشيخ أبا عمر المذكور توفى فى يوم الثلاثاء التاسع
والعشرين من ربيع الأول من السنة رحمهما الله تعالى ودفن بجبل قاسيون .

وفيها : توفى الشيخ أبو عمر شيخ الصالحية والمقادسة الزاهد العابد واسمه : محمد بن احمد بن محمد بن
قدامة أخو الشيخ الموفق ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا من أعمال نابلس وقيل بجماعيل
قال أبو المظفر : حدثنى أبو عمر قال : هاجرنا من بلادنا فنزلنا بمسجد أبى صالح بباب شرقى فاقمنا به مدة
ثم انتقلنا الى الجبل فقال الناس : الصالحية . الصالحية نسبونا إلى مسجد ابى صالح لا اننا صالحون .
قال : ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحورانى وأماكن يسيرة .

قال أبو المظفر : وكان معتدل القامة ، حسن الوجه . عليه أنوار العبادة لايزال مبتسما ، نحيل الجسم
من كثرة الصيام والقيام ، قرأ القرآن بحرف أبى عمرو ، وحفظ مختصر الخرقى فى الفقه ، وقرأ النحو
على ابن برى بمصر ، وسمع الحديث بدمشق ومصر ، واشتغل بالعبادة عن الرواية وكتب الحلية لأبى
نعيم ، وتفسير البغوى ، والمغنى لأخيه الموفق ، والإبانة لابن بطة ، ومصاحف كثيرة للناس ولأهله
وكتبا كثيرة والكل بغير أجرة وكان يصوم الدهر إلا من عذر ، ويقوم الليل من صغره ، ويحافظ
على الصلوات فى الجماعات ، ويخرج من ثلث الليل الأخير الى المسجد فى الظلمة فيصلى إلى الفجر ، ويقرأ
فى كل يوم سبعا من القرآن بين الظهر والعصر ، ويقرأ بعد العشاء الآخرة يس ، وتبارك والواقعه ،
والمعوذتين ، وقل هو الله أحد ، واذا ارتفعت الشمس لقن الناس القرآن إلى وقت الضحى . ثم يقوم
فيصلى الضحى ثمانى ركعات ويقرأ قل هو الله أحد ألف مرة ، ويزور المقابر بعد العصر فى كل يوم
جمعة ، ويصعد يوم الاثنين والخميس إلى مغارة الدم ماشيا بالقبقاب فيصلى فيها مابين الظهر والعصر ،
وإذا نزل جمع الشيح من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى ، ويحمل فى الليل إليهم
الدراهم والدقيق ولايعرفونه ، ولاينام إلاعلى طهارة ومتى فتح له بشىء من الدنيا آثر به أقاربه وغيرهم .
وتصدق بثيابه وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب ويبقى مدة طويلة بغير سراويل ، وعمامته
قطعة من بطانة فان أحتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة ، وكان ينام
على الحصير ويأكل خبز الشعير ، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه ، وما نهر أحداً ، ولا أوجع قلب أحد ،
وكان يقول : أنا زاهد ولكن فى الحرام ، ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو واخوه والجماعة فى
خيمة فجاء العادل الى زيارته وهو فى الصلاة فما قطعها ولا التفت ولا ترك ورده ، وكان يصعد المنبر فى
الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب وفى يده عصا والمنبر يومئذ ثلاث مراق ، وكان يجاهد فى سبيل
الله ويحضر الغزوات مع صلاح الدين . وكان اخوه الموفق يقول عنه : هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا
وعلمنا وحرص علينا وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ومن غاب منهم خلفه فى أهله قال : وكان
أبو عمر قد تخلى عن أمور الدنيا وهمومها وكان المرجع فى مصالح الأهل اليه وهو الذى هاجر بنا
وسفرنا الى بغداد وبنى لنا الدير ولما رجعنا من بغداد زوجنا وبنى لنا دورا خارجة عن الدير وكفانا
هموم الدنيا وكان يؤثرنا ويدع اهله محتاجين ، وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته وكان مجاب الدعوة ،
وما كتب لأحد ورقة للحمى إلا وشفاه الله تعالى وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة .

فمنها : انى صليت يوم جمعة بجامع الجبل فى أول سنة ست وستمائة والشيخ عبد الله اليونانى (١) الى جانبى فلما كان فى آخر الخطبة وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعا وصعد الى مغارة التوبة وكان نازلا بها فظننت انه قد احتاج الى الوضوء وآلمه شيء فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه وقلت له خير ما الذى أصابك ؟ قال : هذا أبو عمر ما تحل خلفه صلاة قلت : ولم ؟ قال : لأنه يقول على المنبر مالا يصلح . قلت : وما الذى قال ؟ قال : الملك العادل وهو ظالم فما يصدق . وكان أبو عمر يقول فى آخر الخطبة اللهم واصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن ايوب. فقلت له: اذا كانت الصلاة خلف أبى عمر ماتصح فياليت شعرى خلف من تصح ؟ ! وخطر لى قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يمشى فى أزقة المدينة فتبعه فاتى الى بيت عجوز فدخله قال : فقلت لانظرن مايصنع فتواريت واذا به قد خرج من عندها فدخلت بعده وقلت للعجوز ماكان هذا يصنع عندك ؟ فقالت : يحمل الى ما آكل ويخرج الأذى عنى . قال عبد الرحمن فقلت فى نفسى : ويحك ياعبد الرحمن اعثرات عمر تتبع .

قال ابو المظفر : وبينا نحن فى الحديث واذا بالشيخ ابى عمر قد صعد الى مغارة التوبة فدخل ومعه مئزر فسلم وحل المئزر وفيه رغيف وخيارتان فكسر الجميع وقال : بسم الله الصلاة ثم قال : ابتداءاً قد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ولدت فى زمن الملك العادل كسرى (٢)» فنظر الى الشيخ عبد الله وتبسم ومد يده فاكل وقام ابو عمر فنزل فقال لى عبد الله ياسيدى : ماذا الا رجل صالح .

قلت : الشيخ عبدالله اليونينى كان ايضا من الصالحين وقد رأيته وسيأتى ذكره فى أخبار سنة سبع عشرة بعد عشر سنين من وفاة الشيخ ابى عمر وهو لفرط صلاحه وورعه مارأى مسامحة مثل الشيخ أبى عمر فى اطلاق لفظ العادل على من هو فى ظنه غير مستحقه وعذر الشيخ ابى عمر فى ذلك انه اسم من الأسماء الاعلام لاتلحظ فيه الصفة فهو كالتسمية بسالم ، وغانم ، ومحمود ، ومسعود بغير قصد المعنى المسمى بذلك فى حالة يكون فيها متصفاً بضد مايقتضيه اشتقاق هذه الاسماء فيكون عاطباً ولايدعى إلا بسالم ، أومذموماً ولايدعى إلا بمحمود ، تعريفا لامدحاً . فكذا اطلاق لفظ العادل فى حق من أطلقه فيه الشيخ ابو عمر على أنه قد اعتذر بعذر آخر وهو اطلاق هذا اللفظ على كافر ولا ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى . قال الله تعالى : (أن الشرك لظلم عظيم) قال : (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أى بشرك فاذا لم يمنع الشرك المحقق من اطلاق لفظ العادل من اتصف به لايمنع ظلم ما فى شيء من الاشياء التى دون الشرك أولى . بقى فى قضية الشيخ عبد الله أشكالا من كونه ترك صلاة الجمعة ولعله كان مسافراً فلم تكن الجمعة واجبة عليه والله أعلم .

قال ابو المظفر : وأصابنى قولنج عانيت فيه شدة فدخل على ابو عمر وبيده خروب شامى فقال استف هذا وكان عندى جماعة فقالوا : هذا يزيد فى القولنج ويضره . فما التفت الى قولهم وأخذته من يده فأكلته فبرئت فى الحال . قال : وحكى لى الجمال البصراوى الواعظ قال : أصابنى قولنج

(١) ويقال اليونينى نسبة الى بلد فى بعلبك (ز)
(٢) لكنه لم يصح عند أهل الحديث (ز) .

فى رمضان فاجتهدوا أنى أفطر فلم أفعل فصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم وإذا أنا بالشيخ أبى عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرئت . قال: وجاء رجل مغربى فقرأ عليه القرآن ثم غاب عنه مدة وعاد فلازمه . فسئل عن ذلك فقال : دخلت ديار بكر فاقمت عند شيخ له زاوية وتلامذة فبينا هو ذات يوم جالس بكى بكاء شديداً واغمى عليه ثم أفاق وقال مات القطب الساعة وقد اقيم أبو عمر شيخ الصالحية مقامه . قال : فقلت له ذلك شيخى . قال فإيش قعودك ههنا قم فاذهب اليه وسلم عليه عنى وقل له لو امكننى السعى اليه لسعيت . ثم زودنى وسافرت قال أبو المظفر : وقلت له يوما أول ماقدمت الشام وما كان يرد أحداً شفاعته كائنا من كان وقد كتب ورقة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل وقال فيها : إلى الولد المعظم . فقلت كيف تكتب هذا والملك المعظم فى الحقيقة هو الله ؟ فتبسم ورمى إلى الورقة وقال لى : تأملها وإذا به لما كتب المعظم كسر الظاء فصارت المعظم . وقال: لابد أن يكون يوما قد عظم الله تعالى فتعجبت من ورعه وتحفظه ومنطقه عن مثل هذا .

قلت : وساعده على تمشية تلك الكسرة أن كل من رآها يعتقد انها للميم المستحقة للجر فلا ينكرها وحصل له مانواه . نظير هذا القصد ما يروى عن سفيان الثورى انه أنكر على ابن أبى ذئب رحمهما الله قوله للمنصور أبى جعفر فى مخاطبته له أنا أنصح لك من أبيك المهدى . وقال له لم قلت المهدى ؟ فقال : يا أبا عبد الله كلنا كان فى المهد .

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوما للمبارز المعتمد قد أكثرت عليك من الرقاع والشفاعات . فقال له : ربما تكتب إلى فى حق اناس لا يستحقون الشفاعة وأكره رد شفاعتك . فقال له : أنا اقضى حق من قصدنى وأنت إن شئت تقبل ، وإن شئت فلا تقبل . فقال : ما أرد ورقتك أبداً. قال: وكان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة ، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين ، وينهى عن صحبة المبتدعين ، ويأمر بصحبة الصالحين وكان سبب موته انه حضر مجلساً بقاسيون فى الجامع مع أخيه الموفق والعماد والجماعة وكان قاعداً فى الباب الكبير وجرى الكلام فى رؤية الله تعالى ومشاهدته فاستغرقت فى ذلك وكان وقتاً عجيباً وأبو عمر جالس إلى جانب أخيه الموفق فقام وطلب باب الجامع ولم أره فالتفت فاذا بين يديه شخص يريد الخروج من الجامع فصحت على الرجل اقعد فظن أبو عمر انى أخاطبه فجلس على عتبة باب الجامع الجوانية إلى أن فرغ المجلس ثم حمل إلى الدير فكان آخر العهد به وأقام أياما مريضا ولم يترك شيئا من أوراده . فلما كان عشية الاثنين ثامن عشر ربيع الأول جمع أهله واستقبل القبلة ووصاهم بتقوى الله ومراقبته وأمرهم بقراءة يس وكان آخر كلامه : (ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وتوفى رحمه الله وغسل فى وقت السحر ومن وصل إلى الماء الذى غسل به نشف به النساء مقانعهن . والرجال عمائمهم ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة ، والأمراء ، والعلماء ، والأعيان وعامة الخلق وكان يوما مشهوداً ولما خرجوا بجنازته من الدير كان يوما شديد الحر فاقبلت غمامة فاظلت الناس إلى قبره وكان يسمع منها دوى كدوى النحل ولولا المبارز المعتمد ، والشجاع بن محارب ، وشبل الدولة

الحسامى ما وصل من كفنه إلى قبره شىء وانما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس . وكان قبل وفاته بليلة رأى انسان كأن قاسيون قد وقع أو زال من مكانه فأولوه بموته ولما دفن رأى بعض الصالحين فى منامه تلك الليلة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «من زار أبا عمر ليلة الجمعة فكأنما رأى الكعبة فاخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا اليه » ومات عن ثمانين سنة ولم يخلف ديناراً ولا درهما ولا قليلا ولا كثيراً . قال : وعلمنى دعاء السنة فقال ما زال مشايخنا يواظبون على هـذا الدعاء فى أول كل سنة وآخرها وما فاتنى طول عمرى .

فاما أول السنة فانك تقول : اللهم انك الأبدى القديم وهذه سنة جديدة اسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه ، والعون على هذه النفس الامارة بالسوء . والاشتغال بما يقربنى اليك ياذا الجلال والاكرام . فان الشيطان يقول قد آيسنا من نفسه فيما بقى ويوكل الله به ملكين يحرسانه .

وأما دعاء آخر السنة فانك تقول فى آخر يوم من أيام السنة : اللهم ماعملت فى هذه السنة مما نهيتنى عنه ولم ترضه ولم تنسه وحلمت عنى بعد قدرتك على عقوبتى ودعوتنى الى التوبة من بعد جرأتى على معصيتك فانى استغفرك منه فاغفرلى وماعملت فيها مما ترضاه ووعدتنى عليه الثواب فاسألك أن تتقبله منى ولا تقطع رجائى منك يا كريم.

قال :فان الشيطان يقول :تعبنا معه طول السنة فافسد فعلنا فى ساعة قال وانشدنى أبو عمر: —

ألم يك ملهاة عن اللهـــو اننى بدا لى شيب الرأس والضعف والالم
الم بى الخطب الذى لو بكيته حياتى حتى ينفد الدمع لم الم

قال وأنشدنى أبو عمر لنفسه :

اوصيكم بالقول فى القرآن بقول أهل الحق والاتقان
وليس بمخلوق ولا بفان لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعانى نتلوه لله باللسان
محفوظة فى الصدر والجنان مكتوبة فى الصحف بالبنان
والقول فى الصفات يااخوانى كالذات والعلم مع البيان
أسرارها من غير ما كفران من غير تشبيه ولا عطلان

وكان له من الأولاد من الذكور عمر والد احمد بن عمر وبه كان يكنى أبو عمر ، والشرف عبد الله والد العز ، واحمد ، وعبد الرحمن الباقى منهم فى هـذا الزمان وهو سنة خمس وخمسين وستمائة اصغرهم شمس الدين عبد الرحمن خطيب جامع الجبل بعد أخيه الشرف عبد الله قال: وكان لأبى عمر بنات كما قال الله تعالى : (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات) الآية ومما رثى به ابو عمر قول محمد بن سعد المقدسى : —

أبعد أن فقدت عينى أبا عمر يغذنى فى بقايا العمر عمران
ما للمساجد منه اليوم مقفرة كأنها بعد ذاك الجمع قيعان

ما للمحارب بعد الأنس موحشة | كأن لم يتل فيها الدهر قرآن
تبكى عليه عيون الناس قاطبة | إذ كان فى كل عين منه انسان
وكان فى كل قلب منه نور هدى | فصار فى كل قلب منه نيران
وكل حى رأينا فهو ذو أسف | وكل ميت رآه فهو فرحان
لازال يسقى ضريحا أنت ساكنه | سحائب غيثها عفو وغفران
كم ميت ذكره حى ومتصف | بالحى ميت له الأثواب أكفان

قلت : وقبره فى طريق مغارة الجوع فى الزقاق المقابل لدير الحورانى على يمين المار إلى المغارة وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ احمد رحمه الله وأول ما وقفت على قبره وزرته وجدت بتوفيق الله تعالى رقة عظيمة وبكاء صالحا وكان معى رفيق لى وهو الذى عرفنى قبره وجد أيضا مثل ذلك ، وأخبرنى أصحابنا الثقات انه رأى الإمام الشافعى رحمه الله فى المنام فسأله إلى أين يمضى ؟ فقال : أزور أحمد بن حنبل . قال : فاتبعته انظر ماذا يصنع . فدخل داراً فسألت لمن هى ؟ فقيل للشيخ أبى عمر رحم الله الجميع.

وفيها : اتفقت الملوك على العادل منهم سلطان الروم ، وصاحب الموصل . وصاحب اربل ، وصاحب حلب ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب سنجار ، ومن تابعهم اتفقوا على مشاققة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج ارسلان وارسلوا إلى الكرج بالخروج إلى جهة خلاط وخرج كل منهم بعساكره إلى حدود بلاده مجمعا على الاجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل وإيجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلهم وهو مقيم ثابت بظاهر حران وعنده صهره صاحب آمد ابن قرا رسلان ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر مع مقدمهم إيواى وصاحبها يومئذ الأوحد أيوب بن العادل فرجعوا على البلد بين الصلاتين من يوم الاثنين تاسع عشره وهجموا الربض وقدر الله تعالى وقوع مقدمهم إيواى بفرسه فى حفرة بالربض وهو سكران فأخذ أسيراً وعرفه ياقوت الخادم المالطى فحمله إلى الأوحد فاكرمه وخلع عليه والتمس منه صد الكرج عن البلد فاستدعى اليهم منه من يثق به ليشاهد انه سالم وأمرهم بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم ثم لم يجسروا على مخالفته ولا تعرضوا لقرية من عملها باذية . وقد كان من بخلاط أيقن بذهاب الأنفس والأموال فدفع الله عنهم ، وبادر الأوحد باطلاع والده العادل على ما منحه الله من الظفر فكاد يذهل فرحا واستطارت الأخبار بذلك شرقا وغربا ؛ وعلم من كان مجمعا على قصد العادل من الملوك بالحالة فتقهقرت آراؤهم وبادر كل منهم بالرسل اليه ويحيل على غيره ويبذل الطاعة فقبل أعذارهم وعقد معهم صلحاً فى جمادى الأولى ، ورغب إيواى إلى الأوحد فى أن يفدى نفسه ويبذل ثمانين الف دينار واطلاق الفى أسير من المسلمين وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لأعمال خلاط كان تغلب عليها وتزويج بنت الملكة بالأوحد ، وتزويج ابنته لاخى الاوحد من أمه ، وأن تكون الكرج معه أبداً سلماً لا يؤذون شيئا من أعماله وأن قصد بلاده عدو سارعوا فى دفعه عنها . فاستأذن الاوحد والده العادل فى ذلك فأمضاه وأمر باطلاقه بعد الاستيثاق منه بالإيمان والرهان ففعل وأطلقه فى ثانى عشر جمادى الآخرة .

قال العز بن تاج الامناء : ومن أعجب ماسمعته فى هذه القضية أن إيواى لما نزل بخلاط قال له منجمه فى بكرة يومه إنك ستدخل إلى قلعة خلاط قريب العصر من يومك فى زى غير زيك هذا . فتخيل قوله فى نفسه وشرب فلما سكر ذكر قول المنجم وكان قميسه فركب لوقته وزحف فكان من أمره ماقدر الله تعالى وادخل إلى القلعة وقت العصر أسيراً لابساً خلعة الاوحد فأعجب لهذا الاتفاق . ولما وصل إلى بلاده عاد إلى ما كان عليه من التقدمة على عساكر الكرج وحمل بعض ما كان بذل للأوحد وسومح بالباقى . ثم لما أن صارت خلاط للأشرف تزوج بابنه . وفى ثانى شعبان كان إملاك نور الدين رسلان شاه صاحب الموصل على ابنة العادل وعقد العقد بقلعة دمشق على صداق ثلاثين الف دينار ثم وصل الخبر بوفاة نور الدين هذا بالموصل فى آخر رجب وقام ولده عز الدين مسعود بالامر وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك .

وفى الخامس والعشرين من شعبان ظهرت عملة ابن السلار على المعروف بابن الدخنية بعد طول مكثه فى السجن وموت زوجته تحت الضرب وعصره دفوعاً وعصر بناته وابنه فلم يقروا بشىء . وكان أكثر الذهب مدفوناً تحته بسجن القلعة وانكشف أمرها بأيسر حال من جهة منصور بن السلار فانه كان الباحث عنها بسبب انه كان حبس عليها واتهم بها وجمع من الليل إلى آخر النهار عشرة آلاف دينار . ثم تحصل فيما بعد بقية مبلغها ثم مات ابن الدخنية فى الحبس وصلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب وأنا رأيته مصلوبا وعمرى يومئذ ثمانى سنين ودخلت فى التاسعة اللهم استر فى الدنيا والآخرة .

وفيها : فى سابع شوال شرع فى عمارة المصلى بظاهر دمشق المجاور لمسجد التاريخ برسم صلاة العيدين وهدم حائطه القبلى ومنبره ليجدد ، فبنى بغير سقف بل انتهت حيطانه من الجوانب الاربع ؛ وفتحت له الابواب وشرفت أعالى حوائطه ، وبنى له منبر كبير عالى بجوانب المحراب وفوقه قبة مبيضة وتحت أرض القبة خلو إلى الارض يتصل به الصف الاول خلف الإمام ، وكان ركز العلمان الاسودان فى أعلا الدرج ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من فى المصلى من كل جانب ، وكان بناء حيطانه واغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع فى أرضه من الدواب الميتة ، والعظام ، والارواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه . ثم انه بعد ذلك فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ترتب الخطيب لاقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان بعد أن جدد فى قبلته رواقان سقف أحدهما ولم يتم الآخر لوفاة الملك العادل الآمر بذلك ولزم من ذلك خراب ذلك المنبر لجعل له منبر خشب كالذى فى سائر الجوامع وترتب فيه امام راتب يصلى الجمعة وغيرها .

وفيها : فى حادى عشر شوال جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الاصفر وركبت . وفى سادس عشر شوال شرع فى اصلاح الفوارة بجيرون ، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها ، واتخذ فيها مسجداً بامام راتب ، وأول من ترتب فيه بأمر الصاحب الوزير ابن شكر النفيس المصرى ، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته وكان قرأ على الشيخ أبى منصور الضرير المتصدر بالجامع وكان حسن الصوت وكنت أقرأ عليه فى صباى وكان يجتمع الناس اذا قرأ النفيس عليه كثيراً .

قال العز بن تاج الأمناء : وفى العشر الأوسط من ذى الحجة كان الابتداء بعمارة حصن الطور بتولى الملك المعظم واقتراحه ومساعدة والده له برجال العسكر ودوابه نوبا . وفى العشر الأخير من ذى الحجة توجه البال (١) القبرسى لعنه الله فى مراكب من عكا إلى الديار المصرية فوصل إلى ساحل دمياط فأرسى غربيها وسلك فى البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة بنورة وهى على ساحل النيل فكبسها سحراً وسبى أهلها وحاز ذخائرها وعاد على أثره فى بقية يومه إلى مراكبه . وبلغ الى دمياط خبره فبادر بالرجال اليه فالفاه قد حصل بظهر البحر فى مراكبه وامتنع عن طالبه ووصل الأسرى والغنائم إلى عكا وقد نال بفعلته هذه والتى قبلها نوبة فوة من الديار المصرية فى سنة ستمائة ما لم ينله أحد من الفرنج قبله ولا أقدم أقدامه .

قال : وفى عاشر المحرم وصل حسن الحمار من مكة سابقا للحاج وأخبر بأن قتادة صاحب مكة قتل المعروف بعبد الأسير ثم وصل كتاب مرزوق الطشتدار الأسدى فى الخامس والعشرين من المحرم وكان حاجا يخبر فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة ، ونهب الحاج اليمنى.ثم وصل الحجاج إلى دمشق صحبة ابن محارب يوم الاثنين ثانى صفر . وفى عاشر صفر توفى المخلص بلدق الزاهد المعظم بدمشق .

وفيها : توفى مظفر بن شاشير الواعظ الصوفى البغدادى . ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة . وكان يعظ فى الأعزية . وترب الرصافة ،والمساجد ، والقرى . وكان مطبوعا كيسا ظريفا وكان يسكن دار العميد عند الصوفية فتوفى فى المحرم ودفن عند قبر معروف الكرخى . سمع أبا الوقت وطبقته ، جلس يوما فى مسجد بالقرية فقام اليه انسان فقال له : أنا مريض وجائع . فقال له : احمد ربك فقد عوفيت ، واجتاز يوما على قصاب يبيع لحما هزيلا والقصاب ينادى أين من حلف أن لا يغبن ؟ فقال له ابن شاشير حتى تحنثه . وقال : خرجت يوما إلى يعقوبا فتكلمت بها فى الليل فى جامعها فقام واحد فقال : عندى للشيخ نصفية . وقال آخر : عندى نصفية فعدوا نحو خمسين نصفية . فقلت فى نفسى استغنيت الليلة . فلما أصبحت وإذا فى زاوية المسجد مقدار كارة شعير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا النصافى كل كيل شعير نصفية قال : وجلست بباجرى لجمعوا شيئا ما أعلم ما هو فلما أصبحنا إذا فى جانب المسجد صوف الجاموس وقرونه . فقام واحد ينادى عليه . من يشترى صوف الشيخ وقرونه . فقلت : ردوا صوفكم وقرونكم اليكم .

سنة ٦٠٨هـ:

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة والسلطان العادل مخيم بالعساكر على الطور ، وابنه المعظم مباشر لعمارة حصنه مجتهداً فى إدارته حوشا . ووصل الخبر من جهة طرابلس بأن الأخبار تتابعت اليها من الغرب فى

---

(١) هكذا فى الأصول الثلاثة :

البحر بأن ابن عبد المؤمن كسر الفرنج بارض طايطلة كسرة عظيمة أباد فيها خلقا منهم ونازل طليطلة وربما فتحها .

وفى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة حدثت زلزلة عظيمة هدمت مواضع كثيرة بمصر والقاهرة وأبراجا ، ودوراً بالكرك ، والشوبك ، وهلك جماعة من الصبيان والنسوان تحت الهدم وكان قوتها من جهة ايلة مما يلى البحر وقيل انه تقدمها يوم ريح أسود وتساقطت نجوم كثيرة . وفى خامس عشرى رمضان رئى دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين الغرب والقبلة بنواحى أرض عاتكة ظاهر دمشق وقت العصر .

وفيها : ابتاع الاشرف جوسق الريس بالنيرب من الظاهر خضر ابن سه .

وفيها : قدم رسول جلال الدين حسن صاحب الالموت يخبرهم بانهم قد تبرءوا من الباطنية وبنوا الجوامع والمساجد واقيمت الجمعة والجماعات عندهم وصاموا رمضان فسر الناس والخليفة بذلك . وقدمت خاتون بنت جلال الدين حاجة فاحتفل بها الخليفة .

وفيها : أمر الخليفة أن يقرأ مسند احمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفى الدين محمد ابن جعفر الموسوى بالاجازة عن الخليفة وأول ما قرىء فيه مسند أبى بكر الصديق . وحديث فدك وما جرى فيها .

وفيها : نهب الحاج العراق وكان حج بالناس فى هذه السنة من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبى فراس ينفعه ويدبره ، وحج من الشام الصمصام اسماعيل أخو سياروخ النجمى على حاج دمشق ، وعلى حاج القدس الشجاع على بن السلار ، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل فى الحج فلما كان يوم النحر بمنى بعد ما رمى الناس الجمرة وثب الاسماعيلية على رجل شريف من بنى عم قتادة لشبه به وظنوه إياه فقتلوه عند الجمرة ويقال أن الذى قتله كان مع أم جلال الدين ، وثار عبيد مكة والاشراف وصعدوا على الجبلين بمنى ، وهللوا ، وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثانى وقتل من الفريقين جماعة . فقال ابن أبى فراس لمحمد بن ياقوت ادخلوا بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين . فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل . وقال قتادة : ما كان المقصود إلا أنا والله ما أبقيت من حاج العراق أحداً ، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلار ، وأخو سياروخ وحاج الشام . فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراق فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيراً بها ومعه خاتون أم جلال الدين . فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له : ماذنب الناس قد قتلت القاتل ، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء فى الشهر الحرام فى الحرم والمال وقد عرفت من نحن ، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن . فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال : ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق . ونحن من الشام . فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفاً من أمير الحاج العراق ومن خاتون أم جلال الدين ، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح ، ومسلوب ،

وجائع، وعريان . وقال قتادة : مافعل هذا إلا الخليفة ولئن عاد أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع . ويقال انه أخذ من المال والمتاع وغيره ماقيمته ألف ألف دينار ، وأذن للناس فى الدخول إلى مكة فدخل الأصحاء الأقوياء فطافوا وأى طواف ، ومعظم الناس مادخلوا ورحلوا إلى المدينة ودخلوا بغداد على غاية من الفقر ، والذل ، والهوان ولم ينتطح فيها عنزان .

وفيها : توفى أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن . ويلقب بتاج الدين بن حمدون مصنف كتاب التذكرة ، قرأ اللغة على أبى الحسن ابن العصار ، وسمع أبا الفتح البطى وغيره ، وولاه الخليفة المارستان العضدى . وأغرى بجمع الكتب والخطوط المنسوبة . فجمع منها شيئا كثيراً وتوفى بمدائن كسرى وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها وكان فاضلا بارعاً .

وفيها : توفى الأمير فخر الدين سركس بن عبد الله الصلاحى، ويقال أياز جركس ويقال : جهاركس يعنى أنه اشترى باربعمائة دينار (١) وكان من أمراء صلاح الدين ، شهد معه الغزوات ، وأعطاه العادل بانياس ، وتبنين ، والشقيف ، وهونين ، وقلعة أبى الحسن وتلك البلاد فأقام بها وكان يتردد إلى دمشق فمرض وتوفى فى رجب ودفن بقاسيون ، وخلف ولداً فأقره العادل على ما كان لأبيه وقام بأمره الأمير صارم الدين خطلبا المعروف بالتبنينى أحسن قيام وسدتلك الثغور ، وقوم الأمور ، واشترى ضيعة بوادى بردى تسمى الكفر وقفها على تربة فخر الدين (بالصالحية) وعمر له قبة عظيمة على الجادة قبالة قبة خاتون ، ثم توفى ولد سركس بعد قليل وأقام صارم الدين بالحصون إلى سنة خمس عشرة فانتزعت منه وسيأتى ذكره .

وفيها : توفى المعين عبد الواحد ابن الشيخ عبد الوهاب بن على بن سكينة . ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وسافر إلى الشام فى أيام الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وبسط لسانه فى الدولة فأرسل إليه من بغداد ابن التكريتى ليقتله فوثب عليه مراراً بدمشق فلم يقدر عليه ، فكتب إلى الخليفة كتابا يتنصل فيه مما قيل عنه ويعتذر ويسأله العفو فعفا عنه وكتب له كتاب أمان ، فقدم بغداد فولى مشيخة الشيوخ وأعطى رباط المشرعة ثم بعثه فى رسالة إلى جزيرة ليس (؟) ومعه جماعة من الصوفية فغرق فى البحر ومن معه ، سمع جده لأمه أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ ، وأبا الفتح بن البطى ، وأبا زرعة وغيرهم .

وفيها : أخذ حاجب الباب كمال الدين محمد بن الناعم ، وكان حسن الصورة ، قبيح الفعال ، صادر

---

(١) هذا تخريج لا وجه له فى اللغة ولا فى الواقع وانما هو جركسى النسب ويقال للجركس جهاركس أيضا باعتبار أن قبائلهم الأصلية أربعة كما ذكره العينى وغيره . قال المؤرخ ابن الفوطى « فى معجم الأسماء والالقاب » - بالظاهرية - رقم (٢٦٧) . « فخر الدين اياز بن عبد الله أبو نصر أبو الغارات الجركسى الأمير كان من الأمراء الأجلاء وهو الذى اهتم بعمارة مصر لما أحرقها شاور . وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب يثق به ويوليه أمور قصر الخلافة لاجتهاده وقيامه ومعرفته بالناس » اهـ وكان مقدم الصلاحية كما ذكره ابن الاثير وغيره . (ز) .

جماعة وماتوا تحت الضرب ، فلما قبض عليه ضرب ضرباً مبرحاً فلم يقر بشى فمات تحت الضرب ورمى به فى دجلة كما كان يفعل بالناس وظهر له بعد ذلك أموال عظيمة ودفائن كثيرة .

وفيها : توفى الشيخ العماد محمد بن يونس الفقيه الموصلى . ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وتفقه وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعى بالموصل ، وبعث رسولا إلى بغداد لما توفى صاحبهـا نور الدين ارسلان شاه بن عز الدين مسعود ، وكان به وسواس فى الطهارة يبعث كل يوم غلامه إلى الجسر فيقف فى وسط الشاطئ ويملأ الأباريق فيتوضأ بها وكان على ما قيل يعامل الناس (بالعينة) . فالتقاه قضيب البان الموله يوماً فقال له العماد : سلام عليك يا أخى كيف أنت ؟ فقال . أما أنا فبخير بلى قد بلغنى عنك تغسل أعضاءك بأباريق ماء كل يوم فلم لا تنظف اللقمة التى تأكلها ؟! ففهم العماد قوله فرجع عن ذلك وكانت وفاته فى رجب بالموصل .

وفيها . توفى بنيسابور فى شعبان منصور بن عبد المنعم بن عبد الله الفراوى من أهل بيت الحديث رواية ودراية ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فى رمضان ، وقدم بغداد حاجاً فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وحدث بها عن أبيه وجد أبيه فقيه الحرم أبى عبد الله محمد بن الفضل الفراوى ، وزاهر بن طاهر الشحامى وغيرهم ، وحدثنا عنه شيخنا أبو عمرو بن الصلاح ، ومحمد بن أبى الفضل المرسى وغيرهما. وكان له ثلاث كنى : أبو القاسم ، أبو بكر ، أبو الفتح .

وفيها . توفى صارم الدين بزغش العادلى بدمشق فى الثالث والعشرين من صفر ودفن بتربته فى الجبل غربى الجامع المظفرى . ووصل الخبر بقتل الأمير المعروف بايبك فطيس بظاهر حلب فى حمام قتله فيه مملوك له تركى خامس عشر رجب . وتوفى قاسم الدين التركمانى بالعقيبة ظاهر دمشق فى التاسع والعشرين من شوال ، وهو والد ابن قاسم الدين والى دمشق .

وفيها . توفى صاحب الروم خسروشاه بن قليج أرسلان . وخلف ولدين كيكاوس توفى سنة خمس عشرة وستمائة كما سيأتى ذكره وهو الذى تسلطن بعده ، وكيقباد وتولى بعده أخوه .

سنة ٦٠٩ هـ :

ثم دخلت سنة تسع وستمائة ففيها . كانت نكبة أسامة الجبلى صاحب دار أسامة داخل باب السلامة التى هى الآن مدرسة للشافعية وكان أحد الأمراء الكبار وهو الذى ذكر عنه أنه سلم بيروت إلى الفرنج كما تقدم.

قال أبو المظفر : اجتمع العادل وأولاده الكامل ، والفائز ، والمعظم بدمياط . وكان أسامة بالقاهرة قد استوحش منهم واتهموه بمكاتبة الظاهر صاحب حلب ، وحكى لى المعظم انه وجدله كتابا اليه واجوبة فخرج أسامة من القاهرة كأنه يتصيد فاغتنم اجتماع الملوك بدمياط وساق إلى الشام فى مماليكه يطلب قلاعه وهما . كوكب ، وعجلون . وذلك يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة ، فارسل صاحب بلبيس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك .فقال العادل : من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه . فقال المعظم : أنا . وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب وكنت معه . فقال لى : أنا أريد أن أسوق فسق أنت مع قماشى ودفع لى بغلة وساق ومعه نفر يسير وعلى يده حصان وكان صباح يوم الجمعـة فى غزة .ساق مسيرة ثمانية أيام فى

ثلاثة أيام فسبق أسامة . وأما أسامة فانه انقطع عنه مماليكه ومن كان معه وبقى وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم ؛ وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء ، فرآه بعض الصيادين فى برية الداروم فعرفه فقال له : انزل . فقال : هذه ألف دينار وأوصلنى إلى الشام ، فأخذها الصياد وجاء رفاقه فعرفوه أيضا فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ليحملوه إلى عجلون فدخلوا به القدس يوم الاحد سادس رجب . جاء بعد المعظم بثلاثة أيام . فقال له المعظم رحمه الله : ما كنت خائفا إلا أن تصادفنى فى الطريق غلمانه فيقتلونى ، لو رمانى ايدكين بسهم قتلنى فلك ايدكين والجميع فانزل أسامة فى صهيون وبعث اليه بثياب وطعام ولاطفه وراسله وقال : أنت شيخ كبير وبك نقرس وما يصلح لك قلعة سلم الى كوكب وعجلون وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد . فامتنع وشتم المعظم فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك فاعتقله واستولى على قلاعه وأمواله ، وذخائره ، وخيله . فكان قيمة ما أخذ منه ألف دينار . وحج بالناس من العراق حسام الدين ابن أبى فراس نيابة عن محمد بن ياقوت وكان معه مال وخلع لقتادة حتى سكت عنهم . ومن الشام شجاع الدين محارب على أيلة .

وفيها : استولى البال القبرسى على انطاكية فرميت تلك الأعمال منه بداهية وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق وحصر فى واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه فى أعمالهم . ثم حملوه فى البحر إلى الملك العادل بمصر . وهذا الملعون هو الذى كان هجم على فوة وبورة كما تقدم .

وفيها : كان عزل الوزير صفى الدين بن شكر عن وزارة العادل والقبض على أملاكه ثم نفى إلى الشرق .

وفيها : تظاهرت الاسماعيلية بالألموت وكروكور وما والاهما من بلاد العجم بالإسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد ، وأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة ويستدعى قضاة وفقهاء يفقهونهم ويقضون بينهم فأجيب . وبعث إلى الحصون الشامية مصياف، والخوابى، والقليعة وما ينضاف اليها مما ينسب إلى الاسماعيلية من أظهر فيها شعائر الإسلام وتجديد المساجد واقامة الحد على من ارتكب محرما .

وفيها : خربت حصن كوكب ونقل ذخائرها إلى الطور .

وفيها : توفى مادح الرحمن ، وفخر الدين اسرائيل ، وعز الدين عبيدان الفلكى صاحب الدار والحمام المنسوبين بعده إلى ابن موسك مقابلة دار الحديث النورية.

وفيها: فى ثامن ربيع الأول توفى الملك الأوحد صاحب خلاط . واسمه أيوب بن أبى بكر ابن ايوب ولقبه نجم الدين وكان قد سفك دماء المقدمين من أهل خلاط فلم يطل عمره . ملك خلاط أقل من خمس سنين وابتلى بأمراض مزمنة كان يتمنى الموت معها ، وكان قد استزار أخاه الأشرف من حران فأقام عنده أياما فاشتد مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حران لئلا يتحيل منه الأوحد فقال له الأوحد يا أخى : كم تلح والله إنى ميت وأنت تأخذ البلاد وكان الأوحد قد صاغ للأشرف

طلعة (؟) ذهب من خمسمائة دينار للسنجق وبقيت فى الخزانة ، واشتغلوا بمرض الأوحد فتوفى وملك البلاد الأشرف ، وأول ركوبه فى خلاط بالسنجق كان بتلك الطلعة وكانت وفاة الأوحد بملا ذكرد فدفن بها وجاء الأشرف فدخل خلاط فأحسن إلى أهلها وخلع عليهم وعدل فيهم فأحبوه وأطاعوه .

وفيها: توفى أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبى بكر القفصى المحدث المقرىء سمع الكثير بدمشق وغيرها وكتب كتبا كثيرة ، وكانت وفاته فى ربيع الأول ، ودفن عند المنيبع بمقابر الصوفية .

وفيها : توفى بمرو أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجى من أهل مرو ولد فى المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وسمع الحديث وقدم بغداد حاجا سنة ستمائة ومعه كتاب سماه «المحصل فى شرح المفصل» للزمخشرى فى النحو وعاد إلى مرو وسمع أبا سعد ابن السمعانى وغيره وكان فاضلا ثقة .

وفيها : توفى الشيخ أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلى الزاهد : ولد فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد بالبدرية وقرأ القرآن . وسمع الحديث ، وكان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، وكان له رياضات ومجاهدات وساح فى بلاد الشام وغيرها ، وبنى رباطا بباب الأزج يأوى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم وانتفع به خلق كثير ، وكان شيخاً مهيباً لطيفاً كيساً باشاً متبسما يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة ولا يأكل إلا من غزل عمته .

وحكى أنه كان ببغداد رجل عوانى يقال له شروين وكان فاتكا ذا شر إذا رأى امرأة أو صبياً مستحسناً فى طريق تبعه فاذا صادف رجلا من أولاد الناس لزمه . وقال كانت هذه أو هــذا عندك ومقصوده يأخذ منه شيئا ويقول له امش إلى المحبس فيأخذ مامعه . قال . فسألنى جماعة من الأخيار أن نمضى إلى زيارة قبر معروف الكرخى واشترى ما كولا وعبرنا دجــلة وقد تبعنا شروين ولم نعلم فدخلنا بستاناً وقعدنا نأكل وإذا به قد هجم علينا وقعد بيننا فخاف الجماعة منه ومد يده فأخذ لقمه فصحت عليه صيحة عظيمة . وقلت له . ويلك قم فنحن لايأكل معنا إلا من هو ولى لله تعالى . قال : فتغير لونه ورمى باللقمة من يده وولى منصرفاً وما عاد إلى مثلها وكانت وفاة محمود فى صفر ودفن برباطه رحمه الله تعالى .

سنة ٦١٠هـ:

ثم دخلت سنة عشر وستمائة ففيها . أمر العادل باحداث تركيب سلاسل ، على أفواه السكك المجاورة للجامع ومدها فى أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع ، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التى يركبها بعض المصلين إلى الجامع ، فحصل للناس بذلك رفق عظيم ثم ترك ذلك بعد زمان وعاد الأمر إلى ما كان عليه إلى الآن وعمل بعض المتفرغين فى ذلك نظما كان يغنى به فى الأسواق أوله :ــ

إن ذا عام جديد إن ذا يوم سعيد
والمدينــة هاربــة قيــدوهــا بالحــديد
كل جمعــة يسجنوها كأنهــم مايعرفوهــا
والنبى لو أطلقوهــا ما برح باب البريــد

وفيها : وصل الفيل من الديار المصرية ليحمل هدية إلى الكرج وازدحم النـــاس للتفرج عليه وذلك فى ثانى صفر .

وفيهـا : ولد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وفيهـا : قدم إلى بغداد شمس الدين التبتى رسولا من الملك العـادل وكان قد أحسن إلى العادل لمـا حوصر بدمشق وأقرض له أموال التجار وضمنها فرأى له العادل ذلك فأحبـه وقربه وحسده الصفى بن شكر فأبعده بالرسالة .

وحج بالناس ابن أبى فراس من العراق. ومن الشام الغرز صديق بن تمرتاش التركمانى على ايلة بحاج الكرك والقدس .

وفيها : قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله من حلب بعزم التوجة إلى الحج فنزل بالقابون يوم الأحد رابع شوال ثم انتقل إلى مسجد القدم خامسه ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحى شام حوران واجتمع على جسر الخشب سادسه وعمل له دعوة بداره تاسعه ودعتهما جميعا عمتهما ست الشام إلى دارها ثامن عشره ورحل من دمشق متوجهاً إلى الحج فى جمع من الحجاج تاسع عشر شوال،وخرج معه المعظم فودعه وتوجه نحو الجابية فاجتمع الحاج ببصرى فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق لثانى عشر آذار فسلكوا طريق تيما إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق .

قال أبو المظفر : وكان حج معه يعقوب الخياط المغارى كان مقيا بمغارة الجوع بقـــاسيون وكان صديق الظافر فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن فقالوا ترجع فقال قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ماقصـدى اليمن وإنما أريد الحج فقيدونى واحتاطوا بى حتى أقضى المناسك وأعود إلى الشام فلم يلتفتوا فرجع إلى الشام وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج .

وحكى لى والدى رحمه الله وكان ممن حج معه فى تلك السنة : أنه شق على الناس ماجرى عليه وأراد كثير منهم أن يقاتلوا الذين صدوه عن المضى فى حجته فنهاهم عن ذلك واختـــار الرجوع على الفتنة وفعل مافعله النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حين صده الكفار عن البيت فقصر من شعره وذبح ماتيسر وكان محرماً من ذى الحليفة ، ولبس ثيـــابه وودع الناس ورجع وعيون الناس باكية ولهم ضجيج وعويل ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين وهو ابن مثل صلاح الدين رحم الله الجميع .

وفيها : وصل كتاب من جهة بلاد خراسان من بعض فقهاء الحنفية إلى الشيخ تاج الدين الكندى بدمشق يخبر فيه بخلاص خوارزم شاه محمـــد من أسر التتر وعوده إلى مملكته وهو أنه كان منازلا لطوائف التتر بعساكره فخطر له أن يكشف أمورهم بنفسه فتنكر ودخل عسكرهم ومعه ثلاثة نفر فى زى القوم فأنكروهم وقبضوهم وضربوا اثنين فماتا تحت الضرب ولم يقروا ، ووكلوا بخوارزم شـــاه

ورفيقة فهربا بالليل ووصل إلى معسكره سالما وعاد إلى ما كان عليه من التصدى لمنازلتهم .

وفيها : ظهرت بلاطة وهم يحفرون فى خندق حلب فقلعت فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللبن ، فاعتبرت فكان منها ذهبا مصريا ثلاثة وستون رطلا بالحلبي وعشرة أرطال ونصف صورى ، وأربعة وعشرون رطلا فضة ، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف فكمل الجميع قنطاراً .

وفيها : قتل أحمد بن محمد بن عمر الازجى ويعرف بالموفق نشأ بباب الأزج وسمع الحديث من ابن كليب ، وابن يونس، وابن طبرزد وغيرهم. وكان فقيراً فخرج إلى الشام واجتمع بالملك الظاهر صاحب حلب وقال له قد بعث لك الخليفة معى إجازة . وتقول على الخليفة فخلع عليه وأعطاه خمسين ديناراً ودار على ملوك البلاد فحصل له منهم ثلثمائة دينار .

قال أبو المظفر : واجتمعت به فى دمشق وقد رجع من زيارة القدس فقلت له . إلى أين انتهت زيارتك ؟ فقال : إلى لوط وكان مطبوعا وبلغنى حديثه فقلت له قد فعلت مافعلت فلاتقرب بغدادفقال: « أتتك بحائن رجلاه » ، فقلت : ما أخوفنى أن يصح المثل فيك فكان كما قلت . نزل إلى بغداد فى سفينة من الموصل وصعد باب الأزج إلى بيت اخته وقت المغرب فلما كان بعد العشاء الآخرة طرق الباب طارق فقال : من هذا ؟ فقال كلم من يطلبك فخرج وإذا برجل فسحبه عن الباب وضربه بسكين حتى قتله . ثم صاح على الباب . أخرجى خذى أخاك وما معه ، فخرجت أخته واذا به مقتول فأخذت المال ودفنته فى الليل .

وفيها : توفى أبو الفضل احمد بن مسعود بن على التركستانى . الحنفى قدم بغداد وكان قد تفقه وبرع فى علم النظر وانتهت إليه الرئاسة فى مذهب أبى حنيفة ، ولاه الوزير ابن مهدى المظالم ، والتدريس بمشهد أبى حنيفة .

وفيها : توفى أبومحمد اسماعيل بن على بن الحسين الملقب بالفخر غلام ابن المنى ويعرف بابن الرفاء وبابن الماشطة الحنبلى . ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقرأ المذهب والخلاف على أبى الفتح ، وقرأ طريقة الشريف وصنف له تعليقة وجدلا من كلام الشريف ، وزاد عليه ونقص منه حتى سماه أهل بغداد النظيف من تعليق الشريف ، وكان فصيحاً وله عبارة جيدة وصوت رفيع . وكان له حلقة بجامع الخليفة يجتمع إليه الفقهاء فيها ويناظرهم ، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الرعية وجبى الأموال من غير حلها فشكوه إلى الخليفة فسخط عليه وعزله . فأقام فى بيته خاملا فقيراً يعيش من صدقات الناس إلى أن مات فى ربيع الأول ودفن بداره بدرب الجب ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار .

قال أبو المظفر : وولده محمد بن اسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستمائة وتعاطى الوعظ ، وكان فاسقاً مجاهراً خبيث اللسان ، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس يقول إنهم مماليكه ، وسمى نفسه ابن المنى وإنما هو ابن غلام ابن المنى ، وبدت منه بدمشق ومصر والشام هنات قبيحة وكان يضرب الزغل مع هذه الهنات ، وورد خالى أبو محمد يوسف رسولا إلى الكامل فكتب

فى حقه إلى بغداد شيئا وشنع عليه وكان الخليفة هو المستنصر فلم يسمع منه ونفاه الكامل من مصر فجاء الى دمشق وأنا بها فهجا قاضيها شمس الدين بن الخوبى ، ومحتسبها وشيخ شيوخها الصدر البكرى ، وأعيان الدماشقة هجاهم بقصيدة يقول فيها :ــ

شيخ شيوخ الشام مسخرة   هذا وقاضى قضاتهم نردى

وكان نازلا فى مدرسة الحنابلة عند الناصح بن الحنبلى فهجا الناصح والمقادسة . واتفق أنه أخذ غلاما فى السوق ومعه دراهم زغل ووصل الخبر الى المعظم فاراد قطع يده ثم نفــاه ومات المعظم وهو بدمشق . وأقام بالشام مدة ثم خطر له النزول الى بغداد فقدمها فى أيام المستنصر بالله وتوصل حتى جلس بباب بدر . ثم شرع فى السعايات بالناس واتفق أن غلاماً له تعرض لبعض حرم الناس من السطح فجاء زوجها وشنع عليه فمضى الى أستاذ الدار ولبس عليه وقال : أمرك الوزير أن تضرب زوجها مائة خشبة وتحلق لحيته . ففعل بالرجل ذلك . وبلغ الخبر المستنصر فقامت عليه القيامة وبعث إلى الوزير فأنكر عليه ؛ فأحضر أستاذ الدار وسأله عن القضيـة فأحال على غلام ابن المنى فأمر الخليفة بأن يخرج إلى باب النوبى ويضرب مائة خشبة ويقطع لسانه ففعلوا به ذلك وأعطوه لسانه فى مداسه بيده ونادوا عليه جزاء من يكثر كلامه وحمل إلى البيمارستان العضدى فتكلم ، وكان قطع لسانه من أصله وبرأ وأخرج من البيمارستان فعاد إلى السعاية بالناس فقال المستنصر : لايجىء من هذا خير أبداً يحمل إلى واسط ويرمى فى مطمورة فنفى إلى واسط والتى فى مطمورة فمات بها فى أيام المستنصر وكان مافعل به المستنصر من أكبر حسناته .

وفيها : توفى ابن حديدة الوزير . واسمه سعيد بن على بن احمد ابو المعالى ولقبه معز الدين . وهو من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الانصارى الصحابى رضى الله عنه . ولد بسامرا سنة ست وثلاثين وخمسمائة ونشأ ببغداد وكان أحد الموسرين له مال كثير ، وجاه عريض واستوزره الإمام الناصر فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وخلع عليه خلعة الوزارة الكاملة القميص الأطلس ، والفرجية المسرح والعمامة القصب الكحلية باعلام الذهب ، وقلده سيفاً محلى وقدم له فرساً من خيل الخليفة فركبه وخرج أرباب الدولة يمشون بين يديه من باب حجرة الخليفـة إلى دار الوزارة . وهو الذى كان الشيـخ أبو الفرج بن الجوزى يجلس فى داره ويمدحه ، ولم يزل على الوزارة حتى ولى ابن مهـدى نقابة العلويين فشرع فيه ومازال بالخليفة حتى عزله واعتقله وطالبه بمال فالتجأ إلى التربة الاخلاطية فلم ينفعه ، وأدى المال وأقام فى بيته إلى أن ولى ابن مهدى الوزارة فسلم اليـه فاعتقله فى داره بدرب المطبخ ، وعزم على تعذيبه فواطأ الموكلين به وحلق رأس نفسه ولحيته وخرج فى زى النساء الى مراغة وأقام بها حتى عزل ابن مهدى وعاد إلى بغداد فنزل داره بالصوبيين وأقام بها حتى توفى فى جمادى الأولى ونقل إلى الكوفة فدفن فى مشهد أمير المؤمنين ، وكان جواداً ، سمحا كثير الصدقات ، والمعروف ، متواضعاً .

وفيهـا : فى شوال توفى سنجر بن عبد الله الناصرى الذى كان عصى على الخليفــة ثم عفا عنه . وكان ذليلا بخيلا ساقط النفس مع كثرة البلاد والأموال ، تولى امارة الحاج فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وعاد فى صفر سنة تسعين فاعترض الحاج رجل بدوى من الأعراب يقال له دهمش فى نفر

يسير ومع سنجر خمسمائة فارس فلم يلقه وذاله. فطلب دهمش منه خمسين الف دينار لجمعها سنجر من الحاج وضيق عليهم ، ولما ورد بغداد وكل عليه الخليفة بذلك المال وأخذه منه ورده على أصحابه وعزله عن إمارة الحاج وولاها طاشتكين.

وفيها : توفى تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله من بنى عساكر أخو الفخر وزين الأمناء ، وهو أكبر منهما ، سمع عمه الضياء بن أبى الحسن ، والثقة الحافظ أبا القاسم وغيرهما ودفن عند مسجد القدم وخلف أولاداً كثيرين ، وكان من أصدقاء الشيخ تاج الدين الكندى . وكان له سمت حسن ، وكانت وفاته يوم الأحد ثانى رجب ودفن فى الغد بمقبرة مسجد القدم على جده لأمه قبلى المحراب .

وفيها : توفى الصفى ابراهيم بن التبنينى ودفن بالجبل وهو والد البدر .

وفيها : توفى بحلب تاج العلاء النسابة الشريف الحسنى الرملى الذى كان بآمد وكان اجتمع هو وأبو الخطاب بن دحيــــة فقال له تاج العلاء : ان دحية لم يعقب نرماه ابن دحية بالكذب فى مسائله الموصلة .

وفيها : توفى عبد الجليل والد الشمس صديقنا الشيرجانى راوى كتاب البخارى عن أبى الوقت سمعه عليه خلق كثير بدمشق وكان نازلا بدويرة حمد فى سابع عشر جمادى الأولى ودفن بالجبل.

سنة ٦١١ هـ:

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة ففيها شرع فى تبليط رواقات الجامع الداخلة، وابتدأ بالحجر الشرقية مكان السبع الكبير فى ثالث عشر المحرم وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها فبقى حفراً وجوراً .

وفيها: فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين محمود الحصيرى العجمى ، وحضر المعظم مع الفقهاء ، ودرس فى ثالث ربيع الأول .

وفيها : توفى ابن سيف الإسلام صاحب اليمن واستولى عليها سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق من أجنادها وتزوج بأم ابن سيف الإسلام المتوفى فاذن العادل للكامل فى تنفيذ ابنه إلى اليمن ليملكها ففعل فملك أتسيس بن الكامل بن العادل اليمن ويلقب بالملك المسعود ، وكان جباراً فاتكا قيل انه قتل باليمن ثمانمائة شريف وخلقاً من الأكابر والعظماء .

وفيها : أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها مالا واقطاعا . وحج بالناس من العراق أبو فراس بن ورام نائباً عن محمد بن ياقوت . ومن الشام علم الدين الفضية نصر الله الجعبرى . امام الملك المعظم عيسى .

وفيها : حدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية فبقيت زمانا ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدى الناس إلى أن فنيت .

وفيها : أعطى المعظم صرخد وأعمالها مماوكه استاذ داره عز الدين ايبك المعظمى فبقيت فى يده إلى أن أخرجه منها الصالح أيوب بن الكامل سنة أربع وأربعين وستمائة .

وفيها : حج بالناس المعظم بن العادل . فسار من الكرك على الهجن حادى عشر ذى القعدة ، وعماد الدين بن موسك . والظهير بن سنقر الحلبى وغيرهم. وسلكوا طريق العلاء وتبوك ، وجدد المعظم البرك والمصانع ، وأحسن إلى الناس وتلقاه سالم أمير المدينة وخدمه وقدم له الخيل والهدايا وسلم اليه مفاتيح المدينة ، وفتح الاهراء وانزله فى داره وخدمه خدمة عظيمة. ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذى الحجة وكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة ، وانفصل عن مكة بعد اداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، وقدم المدينة فاقام بها ثم انفصل عنها عائداً إلى الشام بصحبة الأمير سالم صاحبها فى الخامس والعشرين منه.

قال أبو المظفر : وحكى لى رحمه الله قال : قلت له أين ننزل فأشار إلى الأبطح بسوطه فقال : هناك . فنزلنا بالأبطح وبعث لنا هدايا يسيرة وحج السلطان على مذهب أبى حنيفة وأتى بجميع المناسك واحياء السنة ، احرم قارنا وبات بمنى ليلة عرفه ، وصلى بها الصلوات الخمس ، وسار إلى عرفه وقضى نسكه كما أمره الله تعالى .

ولقد رأيت كتفه بعد ما عاد وقد أكلته الشمس وانكشط ، وقيح . فقلت ما هذا ؟ قال : ما غطيت رأسى ولا كتفى منذ ثلاثة عشر يوما . قلت : لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه فانه لا يستحب إلا حالة الاصطباع فى طواف القدوم والله أعلم .

قال ابو المظفر : وتصدق على فقراء الحرمين بمال عظيم ، وحمل المنقطعين وزودهم وأحسن اليهم ، ولما عاد إلى الى المدينة شكا اليه سالم من جور قتادة فوعده أن ينجده عليه . قال : ولما رجع كنت مقيما بالكرك فخرجت للقائه مع جماعة من الأعيان ، والأمراء ، والفقراء ، والفقهاء فما التفت إلى أحد منهم ، ولما رآنى ترجل عن ناقته وعانقنى وسقنا إلى برزا وكان لقاؤنا له على غدير الظرفاء فى البرية وشرع يحكى لى صفة حجه وما فعل . وكان والده العادل نازلا على خربة اللصوص فقال : أريد أن أبغته حتى لا يلتقينى أحد ، وسار اليه واجتمع به وحكى له خدمة سالم وتقصير قتادة . فجهز جيشاً مع الناهض بن الجرحى الى المدينة والتقاهم سالم فاكرمهم وقصدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ولم يقف بين أيديهم .

وفيها : هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق ومن جملة ما هدم حمام قايماز النجمى ؛ ووقف دار الحديث النورية وكان قريبا وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القامة

وفيها : فى الثامن والعشرين من ذى القعدة الموافق لآخر اذار على إحدى عشر ساعة منه أظلم الجو ووقع شبيه بالرمل إلى بعد المغرب ثم ارتفع ذلك .

وفيها أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب اليه بأرض عاتكة قبلى القنوات .

وفيها : توفى الأمير بدر الدين دلدرم(١) الياروقى صاحب تل باشر فى آخر السنة .

وفيها : توفى ابراهيم بن على بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلى . ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة. قرأ القرآن وتفقه على مذهب احمد ، وسمع الحديث على أبيه وغيره وشهد عند القاضى ضياء الدين

(١) دلدرم بن ياروق . (ز)

الشهرزوری، وناظر، وافتی، ثم أن الله تعالى مكر به فصار صاحب خبر بباب النوبی، ورمى الثوب الواسع ولبس المزند، وتقلد السيف وظلم وفتك في المال والحريم، ضرب جماعة بالخشب ورماهم في دجلة وما كانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم. ولى نيابة الباب وكان ما له أن ضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب. وكان يقول وهو يضرب: « ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » فكان ذلك آخر كلامه ورمى به في دجلة ليلا، وسر الناس بموته لأنه فتك في المال والحريم وكان أبوه من الصالحين زوجه أبوالفرج بن الجوزی إحدى بناته وليست أم المذكور

وفيها: توفى ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذى أحرقت كتبه بالرحبة وحكم القاضى بتفسيقه على ما ذكرناه فى أخبار سنة ثلاث وستمائة وكان الخليفة قد استأصله حتى طلب من الناس. ثم توصل حتى ولى وكالة الأمير الصغير على الخليفة.

قال أبو المظفر: وكان خالى أبو القاسم صديقه وكذا كانت عادته أن يوالى من يعادى أباه. قال لى خالى أبو القاسم يوما بعد ما مات جدى: تيسر لى صديق يشتهى أن يراك ولم يعرفنى من هو فادخلنى إلى دار شممت من دهليزها رائحة الخمر ودخلنا وإذا الركن عبد السلام جالس وعنده صبيان مردان وهو فى حالة قبيحة فلم أقعد، فصاح خالى والركن فخرجت ولم التفت فتبعنى خالى وقال: خجلتنى من الرجل. فقلت له: لاجزاك الله خيراً وأسمعته غليظ الكلام ومرض عبد السلام بعلة البطن فرمى كبده قطعاً ومات فى هذه السنة.

وفيها: توفى أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر. ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل هو جنابذى الأصل بغدادى الدار والمولد سمع الحديث الكثير وصنف الكتب الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل؛ وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث ويقرأ عليه، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته وكانت له دكان بزقاق الريحانيين بخان الحسبة، وكانت وفاته فى شوال وصلى عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان ودفن بباب حرب إلى جانب أبى بكر المرزوقى. سمع قاضى المارستان، وابن السمرقندى؛ وأبا الوقت؛ وابن ناصر؛ والأنماطى وسعد الخير وغيرهم وكان فاضلا صالحا ديناً عفيفاً لطيفاً.

وفيها: فى شعبان توفى محمد بن على بن نصر الحنبلى الواعظ الدورى أصله من الدور قرية بدجيل سمع أبا نصر، وأبا الوقت وغيرهما، وتعاطى الوعظ ولم يكن من صنعته وكان يضاهى أبا الفرج بن الجوزى حتى قيل له أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال: ما أرضاه يقرأ على الفاتحة. وبلغ ذلك أبا الفرج: فقال: ما أقرأ عليه الفاتحة بل اقرأ عليه قل هو الله أحد. وكان يتعصب له حاكة قطفتا ودفن فى رباطه بقطفتا وكان ينتحل أشعار الناس ادعى يوما بيتين لنفسه وأنشدهما على المنبر مشيراً إلى الخليفة وهما لأبى الفتح البستى:—

علم فى دجى الدجى وشهاب كلنا فى ضيائه واقتباسه
متلف الأموال فى وقت بؤس وجواد بالعفو فى وقت بأسه

سنة ٦١٢ هـ :

ثم دخلت سنة اثنى عشر وستمائة وفيها : شرع فى عمارة المدرسة العادلية .

وفيها : وصل الملك المعظم من الحجاز بعد إداءه فريضة الحج والعمرة الى والده الملك العادل وهو بخربة اللصوص بعد المغرب من ليلة الاثنين سابع عشر المحرم ، وفى بكرته وصل الأمير سالم صاحب المدينة النبوية على ساكنها السلام والتحية فركب العادل وتلقاه وبالغ فى اكرامه ودخل الجميع دمشق فى الثالث والعشرين من المحرم ، وقدم الأمير سالم هديته من تحف الحجاز وعشرين رأساً من الخيل العراب .

وفيها : وصل الخبر بغارة الفرنج على بلاد الاسماعيلية وأخذهم منها نحو ثلثمائة أسير . وبغارة الكرج على أذربيجان حازوا ذخائرها وما يزيد على مائة الف أسير .

وفيها : وصل الصلاح بن شعبان الأربلى من مصر مبشراً بفتوح اليمن واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب ، وانضمام سليمان شاه المستولى عليه إلى قلعة تعز بعياله واموالة ثم وصل الخبر بتملك ولد الكامل قلعة تعز حصرها وقبض سليمان شاه بن تقى الدين منها ، واحضر إلى مصر تحت الحوطه هو وزوجته بنت سيف الإسلام .

ووصل الخبر من جهة الحجاز بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تاسع صفر وحصرها أياما وقطع ثمرها جميعه وكثيرا من نخيلها نقاتله من فيها وقتل جماعة من أصحابه ورحل عنها خاسراً . وفى سابع ربيع الآخر عزل القاضى الزكى بن محيي الدين عن الحكم بدمشق وأعمالها وولى من الغد جمال الدين ابن الحرستانى وهو ابن اثنتين وتسعين سنة فقضى بالحق وحكم بالعدل رحمه الله تعالى . وفى رابع جمادى الآخرة شرع فى عمارة العدلية المقابلة لدار العقيقى من الغرب ، وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت ، ثم احرقت بالنار فى رمضان سنة أربع وعشرين .

وفيها : أبطل السلطان ضمان الخمر والقيان فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة وبقى الأمر على ذلك إلى أن توفى العادل فى سنة خمس عشرة — نحو ثلاث سنين — فبكان الذين يريدون شرب الخمر يتجشمون الخروج إلى ضياع جبل سنير(١) فى صيدنايا ومعربا ونحوهما .

وفيها : وصل رسول الخليفة من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردى ونزل بجوسق العادل فى رمضان وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راحلا إلى بغداد فى خامس عشر شوال

وفى ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان والراحل اليها من المخيم السلطانى بالكسوة ، ثم توفى بالطريق قبل وصوله إلى المدينة ، وقام ولد أخيه جماز بالأمر بعده واجتمع أهله على طاعته فمضى بمن كان مع عمه نقصد قتادة صاحب مكة لجمع قتادة عسكره وأصحابه والتقو

(١) بين بعلبك وحمص (ز) .

بوادى الصفراء ، وكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهبا ، ومضى قتادة منهزما إلى الينبع فتبعوه وحصروه بقلعته وحصل لجيد بن راجب من الغنيمة ما يزيد على مائة فرس وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبه الناهض بن الجرخي خادم المعتمد وفى صحبتهم كثير مما غنموا من أعمال قتادة ومن ينبعة وادى الصفرا من نساء وصبيان وظهر فيهم أشراف حسنيون وحسينيون فاستعيدوا منهم وسلموا إلى المعروفين من أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم فى قسمهم من وقفهم .

وفيها : كسر كيكاوس ملك الروم الفرنج المتغلبين على انطاكية وأخذها منهم وأخذ خوارزم شاه محمد بن تكش غزنة من غير قتال ، وأخذ ابن لاون انطاكية من الفرنج ثم عاد أبوس (١) طرابلس وأخذها من ابن لاون .

وفيها : فى العشرين من المحرم توفى بدمشق الشيخ الفقيه كمال الدين مودود ابن الشاغورى الشافعى وكان فقيها ، صالحا ، دينا ، خيراً ، متواضعاً ، زاهداً وكان يقرىء الناس الفقه بالجامع قبالة مقصورة الخطابة احتسابا ، ويشرح التنبيه للطلبة ، ويطول روحه على تعليمهم وتفهيمهم لله تعالى ، ودفن بمقبرة باب الصغير شمالى الحظيرة التى فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضى الله عنهم ، وكتب على قبره فى نصبة حجر أبيات حسنة من نظم الشهاب فتيان الشاغورى رحمهما الله . أفادنى قراءة ذلك على قبره شيخنا أبو الحسن السخاوى رحمه الله ، وقد خرجت معه لزيارة القبور فوقف عليه مترحما . وقال لى : اقرأ ما على القبر فإنه من نظم الشهاب فتيان فقرأت الأبيات وهو يستحسنها :—

كم ضم قبرك يا مودود من دين	ومن عفاف ومن بر ومن لين
ما كنت تقرب سلطانا لتخدمه	لكن غنيت بسلطان السلاطين
نبكى عليك وعنا أنت فى شغل	برد تسليم حور فرد عـين
سقى الاله ضريحا أنت ساكنه	حتى ترى منبتا خضر الرياحين

وفيها : توفى بحران يوم السبت ثانى جمادى الآخرة الحافظ عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الرهاوى ، ولد بالرها سنة ست وثلاثين وخمسمائة ونشأ بالموصل ، وكان مولى لبعض المواصلة فاعتقه فطلب العلم وسمع الحديث الكثير . ويقال انه مولى لبنى فهم الحرانيين . سافر إلى بغـداد ، واصفهان ، ونيسابور ، والشام ، ومصر وغيرها وأقام بالموصل بدار الحديث المظفرية يحدث بها مدة ثم خرج إلى حران فأقام بها إلى أن مات ودفن بها ، سمع بمصر الحافظ السلفى ، وببغداد ابن الخشاب ، وشهدة ، وباصبهان أبا عبد الله الرستمى وغيرهم ، وكان صالحا مهيبا زاهداً ناسكا خشن العيش صدوقا ورعا رحمه الله .

وفيها : توفى ببغداد فى شعبان الوجيه النحوى . واسمه المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطى . ولد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وكان حنبليا فآذاه الحنابلة فانتقل إلى مذهب أبى حنيفة ، ثم انتقل إلى

(١) وفى ابن كثير (ابريس) . (ز) .

مذهب الشافعي لأسباب عرضت له . وكان يقول : ما انتقلت عن مذهبي . وهجي بأبيات تقدم ذكرها(١). في اخبار سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وقرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره ، وبرع فيه وكان يقرئه بالمدرسة النظامية ، وله مقدمة في النحو وصلى عليه بالنظامية ، ودفن بالوزيرية عند ابن فضلان رحمه الله .

وفيها : توفى بدمشق يوم السبت الثالث والعشرين من شوال الوجيه ابن البوني واسمه ابراهيم بن يوسف بن محمد بن ابى الفرج المغربي أحد مشايخ القراء المعتبرين بجامع دمشق ، وكان يؤم بمقصورة الحنفية الغربية داخل الجامع وكان يعقد حلقة الاقراء بحلقة ابن طاوس شرق البرادة وقبالة حلقة جمال الإسلام ابن الشهرزوري ، وكان فاضلا ، خيرا متواضعا ، ساعيا في حوائج الناس . قرأت عليه الجزء الأول من القرآن ودفن بالجبل وكان يوما مشهوداً . وفي شوال توفى السديد ابراهيم بن عمر بن سماقة الاسعردي الفقيه الشافعي بخلاط .

وفيها : توفى يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة ولد الخليفة الناصر وهو الولد الصغير الذى جعل ولى العهد بدل الكبير واسمه ابو الحسن علي .

قال أبو المظفر : ويلقب بالملك المعظم وكان جواداً كثير الصدقات وافر المعروف كريم الأخلاق حسن العشرة مرض أياما ثم توفى وصلى عليه بتاج الخليفة والمخرج التابوت وبين يديه أرباب الدولة لم يتخلف سوى الخليفة وحمل إلى تربة أم الخليفة فدفن معها في القبة .

قال : ومن العجائب انه دخل يوم الجمعة رأس منكلي مملوك السلطان أزبك الذى كان قد عصى على مولاه وعلى الخليفة ، وقطع الطريق ، وسفك الدماء ، وأخذ المال ، ثم تعدت اليه العساكر فقتل أصحابه ونهبت أثقاله وذلك بالقرب من همذان فهرب في الليل فضل عن أصحابه فجاء إلى بيت صديق له في بعض القرى فقيده الرجل ، ثم قتله وحمل رأسه الى ازبك فبعث به الى ابن زين الدين ، فبعث به الى الخليفة وأدخل رأسه بغداد على خشبة ، وقد زين له البلد وظهر السرور والفرح ، ولما وصل الرأس إلى باب درب حبيب وافق في تلك الساعة وفاة على ابن الخليفة ، فوقع صراخ عظيم من دار الخليفة فرد الرأس إلى عقد الكافين ورمى في بيت في الخان وكوسات تكلى مشققة ، واعلامه منكسة ، وانقلب ذلك السرور حزنا ، وأمر الخليفة بالنياحة عليه في أقطار بغداد ، ففرشوا البواري والرماد ، وخرج العواتق من خدورهن ونشرن شعورهن ولطمن ، وقام النوائح في كل ناحية ، وعظم حزن الخليفة

---

(١) وهي :

فمن مبلغ عني الوجيه رسالة ... وان كان لا تجدى اليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وفارقته اذ أعوزتك المآكل

وما اخترت رأى الشافعي تدينا ... ولكنما تهوى الذى هو حاصل

وعما قليل أنت لا شك صائر ... إلى مالك فافطن لما أنا قائل

بحيث امتنع من الطعام والشراب ، وغلقت الأبواب وعطلت الحمامات ، وبطل البيع والشراء ، وجرى في بغداد ما لم يجر في بلد آخر وكان الخليفة قد رشحه للخلافة ففعل في ملكه ما أراد ورد الخلافة إلى أخيه الأكبر أبي نصر بعد ما كان صرف عن ولاية العهد لأجله . وخلف على ولدين أبا عبد الله الحسين ولقبه المؤيد ، ويحيى ولقبه الموفق .

وفيها : توفي بدمشق الصمصام أبو ساروخ النجمي ، والشريف مؤمن . وفي رابع ذي الحجة تو في الشريف مجد الدولة ابراهيم بن أبي الحسن الحسيني بدمشق.

سنة ٦١٣هـ :

ثم دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة ففيها : أحضرت الأوتاد الخشب لأجل قبة النسر في الجامع بدمشق وعدتها أربعة طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعا بذراع النجارين حيث كانت قطعت من الغوطة والدخول بها من باب الفرج الى المدرسة العادلية إلى باب الناطفانيين ، واقيم هناك لها الصاري ورفعت ثم وضعت .

وفيها : في المحرم أيضاً شرع في تحرير خندق باب السر وهو المقابل لدار الطعم العتيقة المجاورة لنهر بانياس وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب كل واحد يأخذ معه قفة يجعلها على قربوس سرجه ويمضون جميعا مع المعظم نحو الميدان الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم ثم انقسموا فرقتين وكان المعظم وعسكره ينقلون يوما وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم اليه من العسكر ينقلون يوماً والناس في الخندق يعملون ، وكثير منهم يتفرجون . وكان كل يوم حمل الخندق على طائفة من أهل البلد ، وعمل فيه الفقهاء ، والصوفية ، ولم يبق احد . ونظم في ذلك أشعار كان يغنى بها في الأسواق وتحت القلعة .

وفيها : كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقيبه وحملهم السلاح وقتالهم بالرحبة والصيارف وركوب العسكر للفصل بينهم وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة وكان مقيما به ، وقبض جماعة من مقدمي الحارات منهم رئيس الشاغور وأودعوا السجن في السادس والعشرين من ربيع الأول.

ووصل الخبر بتسلم نواب الكامل الينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن جماز صاحب المدينة على ساكنها السلام ، وكان قاسم بن جماز أخذ وادي القرى ونخلة من قتادة وهو مقيم به ينتظر الحاج حتى يقضوا مناسكهم وينازل هو مكة بعد انفصالهم عنها .

وفيها : سار المعظم من قرية العبادية بالمرج إلى أخيه الأشرف على الهجن في البرية على مسافة بظاهر حران بعد أن كان وصل في سيره ففاوضه في أمر حلب وذلك حين كان بلغه موت صاحبها ابن عمه الظاهر غازي صلاح الدين ، وكان قد سبق من الأشرف الاتفاق مع القائم بأمرها فرجع إلى العبادية بعد سبعة عشر يوماً ، ولم يظهر للناس إلا انه كان منصوراً .

وفيها : ترتب الخطيب بالمصلى لاقامة الجمعة به تاسع عشر رمضان ؛ وأول من خطب به الصدر

وكان شيخاً ، صالحاً ، فقيهاً ، معيداً بالمدرسة الفلكية ، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبى اليسر ثم بنو حسان إلى الآن ..

وفيها : امتنع تجار الفرنج من الوصول إلى الأسكندرية وصار وصولهم الى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل للملك عكا جملة وافرة وبلغ ضمان قصبتها مائة وعشرين الف دينار وكانت سنة قليلة الأمطار غالية الأسعار .

وفيها : سافر أبو المظفر سبط ابن الجوزى الى خلاط قال : وبعث الخليفة كتاب روح العارفين إلى الأشرف وعرضه على العلماء الذين هم فى خدمتــه وأمرهم أن يشرحوه فلم يقدروا على شرح حديث واحد فاشار الى شرحه وتبيين مافيه من الفوائد فشرحتــه ، والنسخة موقوفه بدار الحديث الأشرفية بدمشق . قال : وجلست بقلعة خلاط وحضر الأشرف وبكى وانتفع .

ووصل شهاب الدين عبد السلام بن أبى عصرون من حلب رسولا من الملك العزيز بن محمد بن الظاهر إلى الخليفة يسأله تقريره على ما كان عليه أبوه . ونزل الأشرف من خلاط إلى حران فى شعبان ، وسألنى الجلوس بجامع حران فضربت له خركاة فى الجامع وحضر وكان يوماً مشهوراً وجلس فى الخركاة ، وجاء الفخر بن تيمية الخطيب فقعد عنده ، وكتبوا إلى رقاعا كثيرة فجمعتها وقلت أتركوها إلى يوم مجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم ، أما هذا اليوم فالوقت ما يحتمل. فأعجب الأشرف وانقضى المجلس . فقلت للأشرف . لابد لى فى هذه السنة من شيئين أحدهما الحج على بغداد والثانى الاعتكاف بالرقه . وقال : مبارك . وخرجت من حران فى آخر شعبان أريد الرقة فبينما أنا بين مسلمة (١) والرقة وإذا بنجابين بينهم رجل عليه بغلطاق (٢) أحمر فقلت لأصحابى هذه شمائل الملك المعظم . فقالوا : الملك المعظم فى دمشق ايش جاء به إلى هنا . فلما قربوا منا وإذا به المعظم ، وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان، وأعطانا ناقته وأخــذ فرسى ، وقال أين أخى ؟ فقلت فى الزراعة فساق واجتمعنا ، وفاوضه فى أمر حلب وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغريل الخادم وأنه اتابك العزيز محمد بن الظاهر ، فشق ذلك على المعظم ولم يقل شيئا وجاءا معاً إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاه وحضرا عندى وسار المعظم إلى دمشق وجهزنى الأشرف إلى الحج وعمل لى سبيلا مثل سبيله وتوجهت إلى بغداد.

وحج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام علم الدين الجعبرى ، وعدت من الحج على طريق العلا ، وتبوك ، وجمعت بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام فى المحرم .

وفيها : فى ثانى صفر توفى بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وله من العمر ثنتان وتسعون سنة ونصف ، وشيع السلطان جنازته . وكان جليلا عند الملوك وأبوه من قبله ، وقد ذكرنا من أخباره فى التاريخ وفى كتاب الروضتين مادل على جلالة بيته وأدبه ، وشجاعته ، وفضائله مع طول

---

(١) حصن ينسب لمسلمة بن عبد الملك . (ز)

(٢) نوع من القباء راجع التوفيقية (١٠ — ٣٤) . (ز) .

عمره رحمه الله . وفى جمادى الأولى قتل المعروف بابن الطيب الكتبي بباب الجامع بيد الاسماعيلية وكان ينسب إلى خدمتهم متهماً بمذهبهم بقرب باب السلامة عند غروب الشمس به من يوم الأحد السادس والعشرين منه .

وفيه : فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة توفى الشيخ حسان بن قوام الرصاق بدمشق . وفى أول رجب توفى الشريف اسماعيل بن تغلب بالقاهرة ، وفى ثامن ذى القعدة توفى الشريف المدعى بالخلافة المستولى على صنعاء وما والاها من أرض اليمن وقام ولده مقامه فلم يغن شيئاً ، واستعيد منه كثير مما تغلب عليه أبوه . وفى ثالث المحرم توفيت بدمشق خاتون الشيررية وبلغت من العمر حدود مائة سنة .

وفيها : توفى صاحب حلب الملك الظاهر غازى بن يوسف بن أيوب وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام ، ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام ، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل ، وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل ، وأخواله ، وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذ ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد ، ثم من بعده للمنصور محمد ابن أخيه العزيز عثمان صلاح الدين الذى كان أبوه أوصى له بملك فلم يتم العادل له ذلك . وكان العادل قد زوجه ابنته ، وفوض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بالشهاب طغريل كان وصل إلى خدمته من بلاد الروم ، وكان مشتهراً بالزهد فصار له عنده مكانة .

قال أبو المظفر : وكان الظاهر مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء ، والفضلاء ، مزينة بالملوك والأمراء . وكان محسناً إلى الرعية وإلى الوافدين عليه ، وحضر معظم غزوات والده ، وانضم إليه أخوته وأقاربه ، وكان ملجأ للغرباء ، وكهفا للفقراء يزور الصالحين ويتقدم ، ويغيث الملهوفين ويرفدهم قال : وكان يتوقد ذكاء ، وفطنة ، سريع الادراك جلست عنده فى سنة اثنتى عشرة وستمائة وكان الأشرف قد أرسلنى إليه فى قضايا لا يطلع عليها كاتب . وكتب كتاباً بيده إلى الظاهر وكان بحلب فقير ممن يحضر مجالسى قبل ذلك فى سنة ثلاث وأربع وخمس وستمائة وكان ذلك الفقير يقوم فى المجلس ويصيح : واه . واه . فيزعج الحاضرين وكان صالحاً والظاهر انه تغير حاله . فلما جلست سنة اثنتى عشرة عند الظاهر بقى ذلك الفقير يحترق ويقول : كيف أعمل ويرددها . فقال الظاهر قدموه إلى عندى فقدموه له فقال له هذا الذى تقول يقول الشيخ ماهو بمليح . قال : بلى . قال : إن أردت أن تصيح صيح فبقى الحاضرون وحضر فى ذلك المجلس رجل عجمى يقال له أبو بكر النصيبي وكان صالحاً وكان يحمل عصا أبنوس فطابت قلوب الجماعة فى ذلك اليوم وبكوا فقام النصيبي ودار وجاء إلى الظاهر وقال له : أنت فرعون ماتتحرك . وثار فى وجه النصيبي مثل التفاحتين وخرج من المجلس فمات بعد ثلاث . وحضرنا عنده يوم الخميس فى دار العدل لجىء بامرأة قد تحدثت على شخص واعترفت بالكذب فقال للقاضى ابن شداد : ماذا يجب عليها ؟ قال : التأديب فقال تضرب بالدرة شريعة ويقطع لسانها سياسة . فقلت له : الشريعة هى السياسة الكاملة وما عداها يكون تعدياً عليها . فأطرق فأدبت المرأة وسلمت من قطع اللسان . وله من هذا الجنس نوادر فى الموارد والمصادر . وتوفى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلة الذرب ودفن بقلعة حلب . ثم بعد ذلك نقل إلى مدرسته التى أنشأها . وقام بعده ولده الملك العزيز محمد وأتابكه شهاب الدين طغريل الخادم فقام بأمره أحسن قيام واشتغال الملك

الأشرف بديه متى شاء ، ويقضين متى شاء ، لحفظ مملكة حلب على ولد الظاهر محسن تدبيره الى أن كبر واستقل به .

وفيها : توفى الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندى ، أوحد العصر وفريد الدهر رواية ودراية ، بأنواع علم الأدب ، وجمع أصول الكتب ومتعه الله بطول العمر وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء ، والقضاة ، والأعيان ، وجلالة من كان يتردد إلى منزله وحيث كان للسماع عليه والاقتباس من فوائده وفرائده . وكان مولده فى الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة ، وقرأ القرآن بالروايات ، وله عشر سنين على شيخه الشيخ أبى محمد عبد الله بن على سبط الشيخ أبى منصور الحافظ ، وهو الذى رباه وكان خصيصا به فاسمعه عليه وعلى غيره كتباً كثيرة مثل كتاب سيبويه ، والمقتضب للمبرد ، والحجة لأبى على الفارسى ، وقرأ العربية أيضا على أبى السعادات بن الشجرى ، واللغة على أبى منصور الجواليقى ، وسمع الحديث الكثير من ابن ناصر ، وابن السمرقندى ، والأنماطى ، وسعد الخير ، ومحمد بن عبد الباقى الأنصارى ، وأبى منصور القزاز . وروى عنه تاريخ بغداد للخطيب وغيرهم ، وكان مسكنه بدمشق بجيرون بدرب العجمى فكم ازدحم فى ذلك الدرب من شيوخ العلم وطلبته أولاد الملوك وخدمتــه ، ومتى ما أريد اعتبار ذلك فلينظر فى الكتب التى عليها طبقات السماع عليه ليعلم جلالة من كان يتردد اليه ، وكان فارق بغداد فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وورد الديار المصرية فسمع بفضلـه فتقرب اليه من هو من أهله ، فاشتمل عليـه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وهو : ابن أخى صلاح الدين ، ثم ولده الملك الأمجد صاحب بعلبك من بعده ، ثم بالشام تردد اليه الملك الأفضل على فى سلطنته ، وأخوه الملك المحسن ابنا صلاح الدين والملك المعظم عيسى بن العادل وغيرهم . وأخبرنى القاضى ضياء الدين بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيوش المصرية رحمه الله وكان من أعلم من رأيت بأخبار الناس ، وعمل للشيخ أبى اليمن مشيخة حسنة . قال : سألته كيف كان اتصاله بعز الدين فرخشاه ؟ فقال : كنت بمجلس القاضى الفاضل رحمه الله فى داره بالقاهرة فدخل عليه فرخشاه فلما استقر بمجلسه جرى ذكر شرح بيت من الشعر لأبى الطيب المتنبى فذكرت منه شيئاً فأعجب فرخشاه . فسأل القاضى الفاضل عنى فقال : من هذا ؟ قال : هذا العــلامة تاج الدين الكندى أو كما قال فنهض فرخشاه وقبض على يدى وأخرجنى معه إلى منزله ودام اتصالى به . وكان يحضر مجلسه للقراءة فى داره والسماع منه جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين . كأبى الحسن السخاوى ، ويحيى بن معطى ، والوجيه البونى ، والفخر التركى ، وغيرهم . وقال لى شيخنا أبو الحسن رحمه الله : أنا حرضت الملك المحسن على التردد اليه فحمل ذلك ابن عمه الملك المعظم على ملازمته والقراءة عليه . وقال فى كتابه شرح المفصل : لقيت جماعة من أهل العربية منهم : الشيخ الفاضل أبو اليمن زيد بن الحسن الكندى رحمه الله تعالى وكان عنده فى هذا الشأن ما لم يكن عند غيره ، وأخذت عنـه كتاب سيبويه ، وقرأت عليه كتاب الايضاح لأبى على مستشرحا ، وأخذت عنه كتاب اللمع لأبى الفتح ، وكان واسع الرواية ، وافر الدراية ومن العجب أن سيبويه اسمه عمرو والكندى اسمه زيد فقلت فى ذلك :

لم يكن فى عصر عمــرو مثله   وكذا الكندى فى آخر عصر

فهما زيد وعمـــرو إنما   بنى النحو على زيد وعمـــرو

وهذا معنى حسن وهو نظير قول أبى شجاع بن الدهان من أبيات تقدم ذكرها فى أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وهى : —

النحو أنت أحق العالمين به   أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقرأ على شيخنا أبى الحسن من نظمه قصيدة فائقة جامعة لفضائل أبى اليمن الكندى رحمه الله وهى :

أيها الدائب المعنى المعانى   مقتضى الكد فى معانى المعانى
لذباب الكندى زيد أبى اليمـــن إمام الأنام فرد الزمان
فعقول الورى فى الفهم عنه   ذات فقر للفضل والعرفان
فهو بحر فيه نفيس لآل   وسواه كالآل عند العيان
غير بدع ان قر فى البحر در   وهو تاج والدر للتيجان
صورة صورة من السؤدد المحـــض وطيب الأنفاس والأخدان
علم سيبويه منفرد فيه   باسناده وبالاتقان
وكذا شرح سيبويه وماحـــل باقطارها له فيه بان
وكتاب الايضاح قد فاق فيه   بحلى الايضاح والتبيان
وكذا كامل المبرد مع مقتضـــب النحو ذى الفصول الحسان
وأصول السراج واللمـــع الفر   د وشرحاه حبذا الشرحان
والذى حرر ابن برهان فى النحـــو وما قال قبله الرمانى
وكذا الحجة الذى فاق فيه   علماء الأعصار والأزمان
والتفاسير والقراءات والتجـــويد فيها ومشكل القرآن
وحديث النبى والقول فيه   قوله فى غريبه والبيان
والتواريخ والقوافى من الشعـــر وعلم العروض والأوزان
وله فى العروض ما لم تجده   لمجيد القريض فى ديوان
بين جزل غدا حبيب حبيب   وحسان كانت هوى حسان
يقظ واسع المجال رحب البـــاع فيما ينأى عن الأذهان
يرشد العاقل الذكى من السهـــو بقلب ذى فطنة يقظان
وجنان له وقد جاوز التسعين حولا نضارة العنفوان
ويد يرقم الطروس كما فصـــل عقيان ناظم بجمان
فانظر الخط واسمع اللفظ تنعم   ثم فى روضتى يد ولسان
وفر الله بعد طول بقاء   فى نعيم نعيمه فى الجنان

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : شيخنا تاج الدين الكندى انتهت اليه القراءات ، والروايات وعلم النحو واللغات . قرأت عليه من كتاب الصحاح ، والمتنبى والحماسة ، والإيضاح ، والمعرب لابن الجواليق ، وكان يحضر مجالسى بجامع دمشق ، وقاسيون ويقول : أنا قد صرت من زبون المجلس .

وكان حسن العقيدة ، طيب الخلق ، ظريفا ، لا يسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة . ولما خرجت في سنة سبع وستمائة إلى القراة كتب لى إلى نابلس كتابا بخطه وكان يكتب مثل الدر :—

جزى الله بالحسنى ليالى أحسنت   إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالى كانت بالسرور قصيرة   ولم تك لولا طيبها بالقصائر
فيالك وصلا كان وشك انقضائه   كزورة طيف أو كنغمة طائر

قال وكتب أيضاً :—

أيا ساكناً قلبي على بعد دارهم   لقد عيل صبرى منذ شطت نواكم
سرى معكم نومى فأصبحت بعدكم   ألوم السرى منه وأبكى سراكم
رضيتم بعادى عنكم فرضيته   لأنى أهواكم ، أهوى هواكم
شجانى غرام لو وفيتم ببعضه   لقلب المعنى فيكم لشجاكم
أعيدوا لنا عيد الوصال على اللوى   سقى الله أيام النوى وسقاكم
دعانى اشتياق لم تصبكم سهامه   فياليته لما دهانى دهاكم
وانى لأخشى أن أموت بغصتى   عليكم ولا أبقى إلى أن أراكم
ولو كان قلبي كالقلوب لغيركم   لقد كان لما أن سلوتم سلاكم

وله ديوان شعر . قال: وحكى لى قال: كتبت إلى الملك الأمجد إلى بعلبك :—

لا يضجرنكم كتبي إذا كثرت   فأن شوقى أضعاف الذى فيها
والله لو ملكت كفى مهادنة   من الليالي التى أحيا بناديها
لما تصرم لى فى غير داركم   ليل ولامت إلا فى نواحيها
عدوا احتمالكم لى حين أضجركم   من الصلات التى منكم أرجيها

قال وكتب إلى بخطه وهى له :—

إنا لتتحفنا بالشوق كتبكم   وإن بعدتم فان الشوق يدنيها
فكيف نضجر منها وهى مذهبة   من وحشة الشوق لوعات نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكموا   فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيم الصبا تهدى تحيتنا   إليكم فهى تدرى كيف تهديها

قال : وكان المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما . قرأ عليه كتاب سيبويه نصا وشرحا ، والإيضاح

والحماسة ، وشيئاً كثيراً ، وكان يمشى من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين والكتاب تحت أبطه توفى رحمه الله يوم الإثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد ، وصلى عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن به ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما ، وكان صدوقا ثقة قلت وقرأت فى ديوانه بخطه : —

لبست من الأعمار تسعين حجة　　وعندى رجاء بالزيادة مولع

وقد أقبلت إحدى وتسعين بعدها　　ونفسى إلى خمس وست تطلع

ولاغرو ان آتى هنيدة سالماً　　فقد يدرك الإنسان ما يتوقع

وقد كان فى عصرى رجال عرفتهم　　حيوها وبالآمال فيها تمتعوا

وما عاف قبلى عاقل طاول عمره　　ولا لامهم من فيه للعقل موضع

هنيدة اسم علم على المائة (؟) وقرأت بخطه فهرس كتبه التى وقفها على فتاه ياقوت ، ثم على ولده ثم على العلماء فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلداً فى علوم القرآن مائة وأربعون ، الحديث تسعة عشر ، الفقه تسعة وثلاثون ، اللغة مائة وثلاثة وأربعون ، الشعر مائة واثنان وعشرون ، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون ، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون ، وكان معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيأ له خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق ، ونقل اليها جملة من هذه الكتب ، ثم انها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت وبيع جملة منها سراً وجهراً نسأل الله عفواً وغفراً وصيانة وستراً . وكان الشيخ تاج الدين رحمه الله قد عمل شرحا لديوان أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فلما انتهى سماعه عليه كتب شيخنا أبو الحسن الثبت وفيه بيتان يريد بهما مصنفه أبا اليمن الكندى وهما : —

فلو ان احمد يدرى بما　　ينال من السعد ما قاله

لرام من التيه وطء السهى　　وجر على النجم أذياله

وأخبرنى صاحبنا جمال الدين احمد بن عبد الله بن شعيب وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين أنه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعا مع طلبته ، يخاطب كلا منهم بقوله : يا سيدنا . قال : وكنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائى فدخل الملك المعظم لجلس فسكتنا فقال الشيخ للمعظم: إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم . فقال : لا والله إنما القراءة بالنوبة فليتمموا . فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا . قال : وكان منصفا لمن يدخل عليه ولقد سمعته وهو يعتذر لهم عن ترك القيام لكبره وأنشد : —

تركت قيامى للصديق يزورنى　　ولا ذنب لى إلا الإطالة فى عمرى

فان بلغوا من عشر تسعين نصفها　　تبين فى ترك القيام لهم عذرى

ومن شعره وقد شرب دواء :

تداويت لامن علة خوف علة　　فأصبح دائى فى حشاى دوائى

فيا عجب الأقدار من متحذلق يحاول بالتدبير رد قضاء

وفيها : توفى أبو الغنائم سعيد بن حمزة بن احمد . ويقال له ابن ساروخ الكاتب النيلى العراقى ، ولد بالنيل سنة ثمان عشرة وخمسمائة وسمع شيوخ ذلك العصر . وسافر إلى الشام والروم ، ومدح الملوك والأمراء، وذكره العماد فى الخريدة وقال : قدم دمشق ومدح امراءها وعاد الى بغداد فكبر وأسن وانقطع فى بيته إلى آخر عمره وكان بارعا وله رسائل ، ومكاتبات ، وأشعار رائقة ، والفاظ فائقة شائقة فن شعره ..

ياشايم البرق من نجد كاظمة يبدو مراراً وتخفيه الدياجير
إذا سقيت الحيا من كل معصرة وعاد مغناك خصباً وهو ممطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم وعفر الخد إن لاح التعافير
أحن شوقاً إلى تلك الرياض وقد ضاها بنفسجها ورد ومنثور
ومالت السرو فى خضر الثياب كما تمايلت فى الحرير الأخضر الحور
والغصن سكران من ظل الندا فإذا دعا ابن ورقاء اضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت عنهن فى غصق الداجى النواطير
فظل يسجعن حتى كدت من ولهى اقضى ولكننا فى العمر تأخير
لكن وجدى بترجيع الهزيل وما غردن باق إلى أن ينفخ الصور

وكانت وفاته ببغداد فى رمضان.

وفيها : توفى محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسى . ولقبه عز الدين ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، رحل إلى اصبهان ثم عاد إلى بغداد وقرأ مسند احمد ببغداد، وسمع أباالفرج ابن الجوزى وغيره وعاد إلى دمشق وحدث عن أصحاب الحداد وغيرهم ، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وصحب الملك المعظم عيسى وسمع بقراءته الكثير ، وكان حافظاً ديناً زاهداً ورعا وتوفى بقاسيون رحمه الله

وفيها : توفى أبو الفتوح محمد بن على بن المبارك بن الجلاجلى البغدادى التاجر ويلقب بالكمال . ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ؛ وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار وسمع الشيوخ ، وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف فى رسائل خفية . سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن على الوكيل ، وأبا بكرعبد الله بن النقور ، وابن البطى . وبالاسكندرية الحافظ أبا الطاهر السلفى وغيرهم ، وكان عاقلا دينا صالحا ثقة صدوقا بساما متواضعاً ومات بالقدس .

وفيها : توفى محمد بن يحيى بن عبد الله بن نصر بن النحاس الواسطى الاديب كتب من واسط إلى المظفر سبط ابن الجوزى رحمهما الله : —

وقائلة لما عمرت وصار لى ... ثمانون عاما عش كذا وابق واسلم
ودم وانتشق روح الحياة فانه ... لأطيب من بيت بصعدة مظلم
فقلت لها عذرى لديك ممهد ... ببيت زهير فاعلمى وتعلمى
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لامحالة يسأم

وفيها توفى أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد أربع مرات — العلوى الحسينى البصرى يعرف بابن أبى زيد ولى نقابة الطالبيين بالبصرة بعد أبيه مدة ، وسمع الحديث من أبيه وغيره ، وقرأ الأدب على أبى على بن الأحمر الحمانى بالبصرة ومولده سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد وكان رقيق الشعر ، توفى ببغداد فى رمضان ودفن بمقابر قريش ومن شعره :ـ

هذا العذيب وهذا الرند والبان ... فاحبس فلى فيه أوطار وأوطان
آليت والحر لايلوى أليته ... ان لايلذ بطيب النوم أجفان
حتى تعود ليالينا التى سلفت ... بالأجرعين وجيران كما كانوا

سنة ٦١٤هـ :

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة قال أبو المظفر : ففيها قدم شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه إلى بغداد رسولا من العادل ، وقدم بعده ولده فخر الدين رسولا من الكامل بن العادل إلى أخيه المعظم فى خطبة بنته لابنه . وحضر المعتمد لطرح البلاطة الخاتمة بيده بحضرة مقصورة الحصر فى ثالث المحرم

وفيها : قدم بأسرى فرنج وعلى صدر كل واحد منهم رأس فرنجى مقتول معلق ، واحضرت خيمة فرنجية سرقها العرب من مخيم الفرنج بظاهر عكا قيل انها كنيسة لهم فنصبت فى الميدان الأخضر الصغير وعمل فيها طعام للفقراء .

وفيها : ذكر محيى الدين محمد بن يحيى بن فضلان الدرس فى النظامية

وفيها : زادت دجلة زيادة عظيمة وركب الخليفة فى شعبان وخاطب الناس وجعل يقول لهم : لو كان هذا الماء رد بمال أو حرب دفعته عنكم ولكن أمر الله ما لأحد فيه حيلة ، وانهدمت بغداد بأسرها والحال ، ووصل الماء إلى رأس السور وبقى مقدار أصبعين حتى يطفح على السور فأيقن الناس بالهلاك وقام سبع ليال وثمانية أيام ثم نقص الماء وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لا أثر لها.

وفيها : قدم محمد خوارزم شاه إلى همذان بقصد بغداد فى أربع مائة الف على ماقيل وقيل ستمائة الف واستعد له الخليفة وفرق الأموال والسلاح . وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردى فى رسالة فأهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له فى القعود . حكى الشيخ شهاب الدين قال : استدعانى فأتيت الى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر فى الدنيا مثله ، والدهليز والشقة أطلس والاطناب حرير

وفى الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم منهم صاحبة همذان ، وأصبهان ، والرى وغيرها . ثم دخلت إلى خيمة أخرى ابريسم وفى دهليزها ملوك خراسان . مرو ، ونيسابور و بلخ وغيرها ثم دخلت خيمة أخرى وملوك ما وراء النهر فى دهليزها كذلك ثلاث خيام فدخلنا عليه وهو فى خركاة عظيمة من ذهب وعليها سجاف مرصع بالجواهر وهو صبى له شعرات قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخارى يساوى خمسة دراهم ، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوى درهما . فسلمت عليه فلم يرد ولا أمرنى بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بنى العباس ووصفت الخليفة بالزهد ، والورع ، والتقى ، والدين : والترجمان يعيد عليه قولى . فلما فرغت قال للترجمان : قل له هذا الذى يصفه ماهو فى بغداد بل أنا أجى وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف ثم ردنا بغير جواب ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم وركب خوارزم شاه يوما فعثر به جواده فتطير ، ووقع الفساد فى عسكره وقلت الميرة وكان معنه سبعون الفا من الخطا فرده الله تعالى . « ونكب تلك النكبة العظيمة وسنذكرها » .

وذكر المنشىء محمد بن احمد النسوى فى كتابه الذى ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور ومع ولده جلال الدين وقد اختصرته قال : حكى القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى أنه أرسل إلى بغداد مراراً آخرها لأجل مطالبة الديوان بما كان لبنى سلجوق من الحكم والملك ببغداد فأبوا ذلك وصحبت فى عودة بالشيخ شهاب الدين السهروردى رسولا مدافعاً قال : وكان عند السلطان من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ما أوجب تخصيصه بمزيد الاكرام ومزية الاحترام تمييزاً له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان فوقف قائما فى صحن الدار ثم أذن للشيخ فى الدخول فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله : إن من سنة الداعى للدولة القاهرة أن يقدم على أداء رسالته حديثاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم تيمناً وبركا فأذن له السلطان فى ذلك وجلس على ركبتيه تأدباً عند سماع الحديث فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذية آل العباس رضى الله عنهم . فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث . قال السلطان : أنا ما آذيت أحداً من ولد العباس ولا قصدتهم بسوء وقد بلغنى أن فى مجالس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين يتناسلون بها ، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع . فعاد الشيخ والوحشة قائمة بحالها ثم عزم على قصد بغداد وقسم نواحيها أقطاعا وعملا وسار إلى أن علا عقبة اسد أباد فنزل عليه ثلوج حلت الأباطح والاعلام ، وغطت الخراكى والخيام ، ودام ثلاثة أيام بلياليها ، فعظم إذ ذاك البلاء ، واعضل الداء ، وشمل الهلاك خلقا من الرجال ولم ينج شىء من الجمال ، وتلفت أيدى رجال وأرجل آخرين ؛ فرجع السلطان عن وجهه ذلك حينئذ مما هم به ويئس من مطلبه .

وفيها : كانت جفلة السلطان العادل من الفرنج لما اجتمعوا وخرجوا عليه ووصلوا إلى عين جالوت وهو ببيسان فأحرقها وظهر إلى جهة عجلون ؛ ووصل الغور وقطع الفرنج خلفه الأردن وأوقعوا بيليزك (١) وغاروا على البلاد وكتب العادل إلى المعتمد والى دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام

---

(١) الحرس . (ز) .

الرجال ، وتدريب دروب قصر حجاج ، والشاغور ، وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة وتغريق أراضيها بالماء فان الفرنج مظهرون قصدها ، واختبط البلد لأجل هذه الشائعة وأرسل السلطان إلى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم ، ووصل إلى مرج الصفر ، ونزل به بنية المقام لاجتماع العساكر اليه ورد خزانته اليه بعد أن كانت وصلت إلى مسجد القدم فى السحر للدخول إلى دمشق ، وجفلت أهل القرى من عقربا ، وحرستا ، وغيرهما وغلت الأسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور ، وكان للناس ضجيج بالجامع فى أوقات الصلاة وبكاء ودعاء ثم رجع الفرنج متوجهين إلى عكاء بمن حصل فى أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غياراتهم وصلوا إلى رخو النصارى وماقرب منها ، والى افيق وإلى كثير من أعمال الشقرا والناس بين أيديهم جافلين ، ووصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع من اجتمع معه من العساكر لنجدة الإسلام ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج لتلقيه وكان يوما مشهوداً طلعت له الشمس عند حرستا فما وصل إلى البلد الا وقت الظهر من كثرة الناس فى طريقه ودخل من باب الفرج ومضى على قدمه إلى دار الست فرج الشام أخت العادل الكبرى أقام عندها ساعة ، ثم عاد إلى داره وبات بها وأصبح متوجهاً إلى السلطان فسكنت قلوب الناس بدمشق بقدومه وزال خوفهم.

وقال أبو المظفر وفيها : انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج ، وجاء العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده فى العساكر الشامية ، وخرج الفرنج من عكا ومقدمتهم ملك الهنكر فنزل عين جالوت فى خمسة عشر الفا ، وكان شجاعا مقداما ومعه جميع ملوك الساحل فلما أصبحوا ركب الهنكر فى أوائلهم وقصد العادل ، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى انه لاقبل له بهم فتأخر فقال له المعظم إلى أين ؟ فشتمه بالعجمية وقال له بمن اقاتل اقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول وذكر كلاما فى هذا المعنى وساق فعبر الشريعة وعند برقا ، وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشى وشىء لايعلمه إلا الله تعالى فأخذ الجميع ، وارتفع العادل إلى عجلون ، ومضى المعظم فنزل نابلس والقدس على عقبة اللبن خوفا على القدس وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين . وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة الكرسى إلى خربة اللصوص والجولان وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون ثم عادوا فنزلوا الغور وبعث العادل أثقاله إلى بصرى ونساءه ، وأقام على رأس الماء جريدة ولما نزل الفرنج الغور جاء العادل فنزل عالقين ، ثم نزل الفرنج تحت الطور يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان وأقاموا إلى يوم الأحد ثانى رمضان وكان يوما كثير الضباب فما أحس بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب قد الصقوا رماحهم بالطور ففتح المسلمون الباب وخرج اليهم الفارس والراجل وقاتلوهم حتى رموهم أسفل الطور فلما كان يوم الثلاثاء رابع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفوا من ناحية باب دمشق والصقوا السلم بالسور فقاتلهم المسلمون قتالا لم يجر فى الإسلام مثله ودخل رماح الفرنج من المرامى من كل ناحية فضرب بعض الزراقين السلم بالنفط فأحرقه وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج منهم كند كبير

فلما رأوه مقتولا صاحوا ، وبكوا ، وكسروا عليه رماحهم . واستشهد فى ذاك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ، وسيف الدين بن المرزبان وكان من الصالحين الأجواد ، وأغلق المسلمون باب الطور (١) وباتوا يداوون الجرحى ، وضربوا مشورة ، واتفقوا على انهم يقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم لئلا يجرى عليهم ماجرى على أهل عكا . وكان فى الطور أبطال المسلمين . وخيار عسكر الشام ، وأوقد الفرنج حول الطور النيران . فلما كان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا وجاء المعظم فصعد (٢) وأطلق المال ، والخلع وطيب قلوب الناس . ثم اتفق العادل والمعظم على خراب الطور كما سيأتى ذكره ، وقيل ان المعظم انفذ كتابا إلى الخليفة وفى أوله بيتان وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبى :ـــ

قل للخليفة لا زالت عساكره لها إلى النصر اصدار وايراد

ان الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا يغفلن لحصن الطور بغداد

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن اخت الهنكر جبل صيدا وقال : لابد لى من أهل هذا الجبل فنهاه صاحب صيدا : وقال : هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل وصعد فى «خمسمائة» من ابطال الفرنج إلى جزيرة ضيعة الميادنة قريباً من مشغرا فاخلاها أهلها وجاء الفرنج نزلوا بها وترجلوا عن خيـــولهم ليستريحوا فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم وأسروا ابن اخت الهنكر فهرب من بقى منهم نحو صيدا . وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه فقال لهم : أنا أعرف إلى صيدا طريقا سهلا أوصلكم اليه . فقالوا ان فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون . ففهموا أن الجاموس غرهم فقتلوه ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة وجاء إلى دمشق بالأسارى وكان يوما عظيما ، وحج بالناس من العراق ابن أبى فراس

وفيها : توفى بهاء الدين احمد بن أبى الفضائل الميهنى شيخ رباط الخلاطية من بيت التصوف وكان أبوه أبو الفضائل واسمه عبد المنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية . وكان الخليفة قد سلم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ثقة فيه من غير مشرف ولا عمل حساب فاقام مدة يقصده الناس من البلاد واطراف بغداد ، وأرباب البيوت ، والفقهاء ، والفقراء ، والأعيان فما رد قاصداً ولا منع سائلا ، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل وكان له مملوك عبد اسود اسمه ريحان نخان فى الأموال . وبلغ الخليفة فأخذه فأقر وقال : المال عند أخت بهاء الدين فعزل بهاء الدين عما كان عليه فرأى الذل والهوان بعد العز والامكان . ومرض بهاء الدين فى تلك الحال فولى الخليفة القاضى الريحانى أمر الرباط وحمل بهاء الدين إلى بيت اخته على نهر عيسى فتوفى ثامن رجب ودفن فى الشونيزية فى صفط الجنيد عند أبيه سمع شهدة الكاتبة ، وابن البطى وغيرهما وصحب أباه وأخذ عنه طريقة التصوف

---

(١) وفى مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى : وجبن جماعة منهم عن القتال وبات الناس عشيه الاربعاء (٢) الطور وبكى على بدر الدين ابن أبى القاسم وابن المرزبان ومن قتل .

وفيها : توفى الشيخ العماد الحنبلي وهو الحافظ عبد الغنى الزاهد العابد الورع واسمه : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ولد بجماعيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم سافر إلى بغداد ، وقرأ القرآن على أبى الحسن على بن عساكر بن المرحب البطائحى وغيره ، وسمع الحديث الكثير ببغداد ودمشق ، وكان معتدل القامة شعره إلى أذنيه مليح الوجه بساماً زاهداً مجتهداً لا يدخر من الدنيا شيئاً حسن الصلاة كثير السجود والدعاء يقرأ القرآن والفقه دائماً فى الحلقة بجامع دمشق ، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء الآخرة فيحملهم إلى بيته ، ويحضر لهم من الطعام ما تيسر ، وما تعرف لأحد من أبناء الدنيا قط لا إلى سلطان ولا الى غيره .

قال أبو المظفر : ولا تحرك حركة ، ولا مشى خطوة ، ولا تكلم كلمة إلا لله تعالى ، وكان يتعبد بالاخلاص . ولقد رأيته مراراً بالحلقة فى جامع دمشق والخطيب يوم الجمعة — على المنبر فيقوم عماد الدين ويأخذ الأبريق ويضع بلبله فى فيه على رءوس الاشهاد ويوهم الناس كأنه يشرب وانه لصائم ، وكان الشيخ الموفق يثنى عليه ويقول : أعرف العماد من صغره وما عرفت أنه عصى الله تعالى قط . وكان من خيار اصحابنا وأعظمهم نفعاً وأشدهم عبادة وورعا وأكثرهم صبراً على تعليم القرآن والفقه ، داعية إلى السنة وأقام بدمشق يعلم الفقراء ويطعمهم ويبذل لهم ماله ونفسه وطعامه ، وكان من أشد الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه وما رأيت أشد خوفا لله تعالى منه ، وكان كثير الدعاء والسؤال ، طويل الركوع والسجود ، يصوم يوما ويفطر يوما ، وكان إذا سمع عليه جزء وكتبوا على ظهره سمع على العالم الورع ينهاهم عن ذلك . وسافر لى بغداد مرتين ، الأولى فى سنة تسع وستين وخمسمائة صحبة الموفق بعد أن حفظ القرآن وغريب الحديث ومختصر الخرقى ، وتفقه فى بغداد على أبى الفتح بن المنى وافتى وناظر . والسفرة الثانية سنة إحدى وثمانين صحبة عز الدين ابن أخيه عبد الغنى الحافظ ، وصنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية ، وكتاب الأحكام ، ولم يتمه . قال : وكان يحضر مجالسى دائما بجامع دمشق وقاسيون لاينقطع إلا من عذر ، ويقول صلاح الدين يوسف فتح الساحل . واظهر الإسلام . وانت يوسف أحييت السنة بالشام . قلت : السنة التى يغنيه البهاكون أبى المظفر رحمنا الله وإياه كان كثيراً مايورد على المنبر من كلام جده أبى الفرج وخطبه مايتضمن إمراء آيات صفات البارى عز وجل وما جاء فى الأحاديث الصحاح بن ذلك على ماورد من غير ميل إلى تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم وهو جيد لكن الإكثار منه على اسماع العوام ربما يحمل أكثرهم على شىء من التشبيه فاذا قرن به مايشرحه وينفى توهم التشبيه كان اولى والله اعلم .

قال أبو المظفر : ولما كان عشية الأربعاء سادس عشر ذى القعدة صلى العماد المغرب بجامع دمشق ، وكان صائما وافطر فى داره على شىء يسير فجاءه الموت فى الليل فجعل يقول ياحى يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام . وتوفى فغسل وقت السحر وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق فما وسع الناس الجامع ، وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد ، وكان يوما لم ير فى الإسلام مثله كان أول الناس عند مغارة الدم برأس الجبل الى الكهف وآخرهم بباب الفراديس ولولا المبارز والمعتمد رحمه الله وأصحابه لقطعوا أكفانه وما وصل إلى الجبل إلى آخر النهار وقال : وتأملت الناس من أعلا قاسيون إلى

... إلى ... البعلوى لو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت . فلما كان فى الليل نمت وأنا مفتكر فى جنازته ... أبيات سفيان الثورى التى أنشدها فى المنام : —

نظرت إلى ربى كفاحا وقال لى ... هنيئاً رضاى عنك يابن سعيد

فقد كنت قواما إذا أقبل الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصر أردته ... وزرنى فانى منك غير بعيد

وقلت : أرجو أن العماد يرى ربه كما رآه (١) سفيان عند نزول حفرته ونمت فرأيت العماد فى النوم ... حلة خضراء وهو فى مكان متسع كأنه روضة وهو يرقى فى درج مرتفعة فقلت يا عماد الدين كيف ... فانى والله مفكر فيك ؟ فنظر إلى وتبسم على عادته وقال : —

رأيت إلهى حين انزلت حفرتى ... وفارقت أصحابى وأهلى وجيرتى

فقال جزيت الخير عنى فاننى ... رضيت فها عفوى لديك ورحمتى

دأبت زمانا تأمل الفوز والرضى ... فوقيت نيرانى ولقيت جنتى

فانتبهت مرعوبا وكتبت الأبيات . سمع ببغداد أبا محمد الخشاب النحوى ، وشهدة الكاتبة ، (٢) وغيرهما . وبالشام أبا المكارم عبد الواحد بن محمد بن المسلم (٣) وعبد الله بن صابر وغيرهما (٤) ورثاه الصلاح موسى (٥) بن الشهاب بأبيات منها : —

ياشيخنا ياعماد الدين قد قرحت ... عينى وقلبى منك اليوم متبول

أوحشت والله ربعاً كنت تسكنه ... لكنه اليوم بالأحزان مأهول

كم ليلة بت تحييها وتسهرها ... والدمع من خشية الله مسبول

وسجدت طال ما طال القنوت بها ... قد زانها منك تكبير وتهليل

قلت : كان رحمه الله كثير الصلاة مطيلا لاركانها قياما ، وركوعا ، وسجوداً . شاهدته مصليا بالجامع فى حلقة الحنابلة مراراً ولم يكن لهم فى حياته هذا المحراب الآن انما كان يصلى بالجماعة هو تارة والموفق تارة إلى خزانتين مجتمعتين فى موضع المحراب الآن سنة سبع عشرة او نحوها لجدد لهم هذا المحراب . وسببه أن قاضى دمشق جمال الدين يونس بن بدران حسن للسلطان المعظم عيسى

---

(١) يعنى فى المنام (ز) .
هذه الزيادة من كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى وهى : (٢) وعبد الحق بن عبد الخالق بن احمد بن يوسف (٣) وسلمان بن على الدمشقى (٤) يروى لنا عنهم (٥) كان الصلاح عارفا ، أديبا ذا معرفة بالشعر والأدب ، فاضلا ، عاقلا ، ظريفا ، حلو الشعر والمنطق رثاه بأبيات أولها : —

الحمد لله فى كل الأمور فما ... يقضى الإله علينا فهو مقبول

نرضى بما جاءنا منه ونشكره ... على الرؤوس قضاء الله محمول

ابن العادل أن يجمع خزائن الكتب التى فى الجامع إلى مشهد ابن عروة فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية ، ومن الكلاسة ، ومن أروقة الجامع فكان من جملة المنقول الخزانتان اللتان بحلقة الحنابلة فبقى مكان صلاة إمامهم مكشوفا ، فتعصب لهم الركن الأمير المعظمى فى عمل هذا المحراب فركب فى ليلة ذلك اليوم وصلى فيه الشيخ الموفق ، ومن بعده وردت الخزانتان إلى الحلقة فجعلتا عن يمين المحراب ويساره والشيخ العماد هو الذى سن الجماعة فى الصلوات المقضية وكان يصلى بالجماعة بحلقتهم بين المغرب والعشاء ما قدره الله تعالى وبقى ذلك بعده مدة . حضرت جنازته والصلاة عليه رحمه الله .

وفيها : توفى القاضى جمال الدين أبو القاسم عبـد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الأنصارى شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد ، ولد بدمشق سنة عشرين وخمسمائة ، وأصل أبيه من قرية بقرب دمشق تسمى حرستا ، قدم دمشق ونزل منزله بباب توما وأم بمسجد الزينبى . ثم أم فيه ابنه جمال الدين بعده إلى أن انتقل إلى مسكنه بالحويرة قبالة الجامع . شارك الحافظ أبا القاسم على بن الحسن رحمه الله فى كثير من مشايخه الدمشقيين سماعا ، وفى الغرباء اجازة ، سمع بدمشق جمال الاسلام أبا الحسن على بن المسلم ، وعبد الكريم بن حمزة بن الخضر ، وأبا الحسن على بن احمد بن قعيس المالكى وغيرهم . ورحل إلى حلب وسمع بها أبا الحسن على بن سليمان المرادى الحافظ أكثر كتب الحافظ البيهقى وغيرهما . ثم رجع إلى دمشق فأقام بها وكان آخر من حدث عن عبد الكريم الحداد ، وجمال الاسلام سماعا ، وممن اجاز له من أهل نيسابور أبو عبد الله الفراوى ، وهبة الله بن سهل السيدى ، وزاهر بن طاهر الشحامى ، وأبو المعالى الفارسى ، وعبد المنعم بن أبى القاسم القشيرى . ومن أهل بغداد قاضى المارستان ، وابن السمرقندى ، والأنماطى وغيرهم . وكان مواظبا للصلوات فى الجماعات . يصلى فى الصف الأول بمقصورة الخضر بالجامع قبالة محرابها دائماً ، وهنالك كان يقرأ عليه الكتب المسموعة ويجتمع خلق عظيم مع حسن سمته وسكوته وهيبته . وكان بارعاً فى فقهه . حكى لى الفقيه عز الدين أبو محمد العز بن عبد السلام أيده الله وهو الآن حى بالديار المصرية أنه لم ير أفقه منه وعليه كان ابتداء اشتغاله . ثم صحب الشيخ فخر الدين بن عساكر رحمه الله فسألته عنهما فرجح ابن الحرستانى وقال : أنه كان يحفظ الوسيط للغزالى ولى القضاء قديماً نيابة بدمشق فى أيام شرف الدين بن أبى عصرون ، وكان يكتب له فى الأسجال فى القضايا ، ولما أضر شرف الدين بقى هو على نيابته مع ابنه محيى الدين بن أبى عصرون . فلما عزل وولى محيى الدين بن الزكى استقلالا وهو شاب لم ير النيابة عنه وبقى منقطعاً فى بيته إلى أن ولاه العادل المدرسة المجاهدية التى فى الرصيف فبقى مواظباً على التدريس بها وإسماع الحديث بمقصورة الخضر التى يصلى بها إلى أن عزل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب رحمه الله عن قضاء دمشق فى سابع ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وستمائة قاضى القضاة زكى الدين أبا العباس الظاهر بن قاضى القضاة محيى الدين أبى المعالى محمد بن على القرشى وأخذ منه مدرسة العزيزية والتقوية ، وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن عساكر ، وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستانى ، واعتنى به العادل اعتناء كثيراً ، وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل إليه مايفرشه تحته فى مجلس الحكم لكبره وضعفه ومايستند إليه ، وكان يجلس للحكم بمدرسة المجاهدية ، وناب بها عنه عماد الدين عبد الكريم ، وكان يجلس بين يديه وإذا قام الشيخ يستند مكانه ، ثم إنه منعه من أى شىء سمعه عنه ، وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة

يومئذ شمس الدين بن الشيرازى ، وكان يجلس قبالته فى الأيوان بالمجاهدية ، وشمس الدين بن سنى الدولة وبنيت له دكة فى الزاوية القبلية بغرب المدرسة ، وشرف الدين بن الموصلى الحنفى بمجلس المحراب بها ، وبقى بالقضاء نحوا من سنتين وسبعة أشهر ثم توفى يوم السبت رابع ذى الحجة وكانت له جنازة عظيمة حفلة ودفن بجبل قاسيون حضرت الصلاة عليه بالجامع ، ومقابر باب الفراديس ، وكان له يوم توفى خمس وتسعون سنة والغرابة ولاية القضاء لمن هو فى هـذا السن قال شاعر الشام فى وقته شهاب الدين فتيـان الشاغورى هذين البيتين :ــ

يا من تدرع فى حمل الحمول ويا   معـانق الهم فى سر وإعلان

لاتيأسن روح من بادى لدى مائة   قاضى القضاة الجمال بن الحرستانى

على أنه رحمه الله امتنع عن الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها ، وكان فى مدة ولايته صارماً ، عادلا ، حاكما بالشريعة المطهرة ، جاريا على طريقـة السلف فى لباسه واقتصـاده فى أمره ، وعفته ، وصيانته ، وعدم الألتفات إلى الأكابر فى الشفاعات فى الأحكام ، ولقد بلغنى أنه ثبت لديه حق لامرأة على بيت المال فأحضر الوكيل جمال الدين المصرى وأمره أن يسلم إليها ما ثبت لها ، فاعتذر بضيق الوقت وكان فى آخر النهار . وقال : فى غد أسلم اليها . فقال : ربما أموت أنا الليلة ويعوق حقها . فقيل إنها كانت تدعى بستانا قد وضع النواب أيديهم عليه وقد ثبت حقها لديه فأمر الوكيل أن يسلمه إليها ويشهد عليـه بأنه ثبت حقها ، ولادافع له من جهة بيت المال فاستمهله إلى الغد لدخول المساء ، وكان قد أشعلت القناديل وهم بالمدرسة فقال القاضى : ربما أموت أنا الليلة وترجع أنت أيها الوكيل ربما تعنتهم وتطلب إعادة البينة عند الحاكم الذى يقوم بعدى فوكل به من لا يفارقه حتى يسلم إليها البستان ، وشهد عليه بذلك ، وقام القاضى وأخذ سجادته على كتفه ومشى ليصلى بالجامع على عادته بمقصورة الخضر فوافق وصوله إلى الجامع أذان المغرب فصلى ومضى إلى بيته وكان أوصى إذا أشهد عليه الوكيل أن يحملوا الكتاب إليه ليقف عليه فجاءه الكتاب إلى داره فوقف عليه فلما علم أنه قد استقصى حق المرأة سلم كتابها إليها . وقيل انه كان مالا بالمخزن فما زال به حتى أنفذ إلى أمناء الحشرية فجمعهم وفتحوا مخزنهم بقيسارية الفرش ودفعوا إلى المرأة حقها .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : كان القاضى جمال الدين بن الحرستانى . زاهداً ، عفيفا ، عابداً ، ورعا ، نزها ، لا يأخذه فى الله لومة لائم . واتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاة بجامع دمشق فى جماعة إلا إذا كان مريضا ينزل من بيته إلى الحويرة فى سلم طويل فيصلى ويعود إلى داره ومصلاه بيده ، وكان مقتصداً فى ثيابه وعيشه ، وما كان يمكن أحداً من غلمان القضاة يمشى معه بل كأنه بعض الناس . قال :وحكى لى ولده قال : كان أحد بنى قوام يعامل الملك المعظم عيسى فى السكرة ويتجر له فمات ابن قوام فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام وبعث المعظم إلى القاضى يقول : هذا الرجل كان يتاجر لى بمالى والتركة لى وأريد تسليمها . فأرسل اليه القاضى يقول : لا أسلم إليك تركته حتى تحلف إنك تستحقها . فقـال المعظم: والله ما احقق مالى عنده . فقال القاضى وأنا والله ما أسلم إليك حتى تحلف فما حلف المعظم ولا أثبت القاضى له شيئا . وحكى لى جماعة من الدماشقة : أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابا يوصيه به فى خصومة بينه وبين رجل فجاء إليه ودفع إليه الكتاب فقـال : إيش فيه . قال :

وصية لي . قال : أحضر خصمك . فأحضره والكتاب بيده ولم يفتحه وادعى على الرجل فظهر الرجل على حامل الكتاب فقضى عليه . ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حامله وقال : كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب . فمضى الرجل إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال فقال العادل : صدق. كتاب الله أولى من كتابي . وكان يقول للعادل ما أحكم إلا بالكتاب والسنة وأنا ما سألتك القضاء فان شئت وإلا فأبصر غيري . قال : وحكى لي الشمس بن خلدون رحمه الله قال : أحضر ولده القاضي علاء الدين بين يديه صحن حلواء أسخنه وقال : ياسيدي كل منه . فغضب وقال : من أين هذا ؟ أتريد أن تدخلني النار ؟ ولم يأكل . قلت : غلب على ظنه أنه هدية ممن له حكومة . وبلغني أن ولده هو الذي ألح عليه في تولية القضاء على كره منه . وحكى لي ولده المذكور قال : جاء إليه الشرف بن عنين فجلس إلى جانبي قبالته وقال : السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فان له محاكة في كذا . وكذا . فغضب وقال : الشرع ما يكون فيه وصية لافرق بين السلطان وغيره في الحق فقال : صحيح . فقال : إذا كان صحيحا فايش حاجة إلى قولك قال السلطان . قال : وكان إذا غضب من رسائل أرباب الحاجات يأخذ سجادته على كتفه وينهض من المجلس . وتولى القضاء بعده من كان القاضي قبله زكي الدين الطاهر بن محيي الدين ، ثم أن ولده تولى نيابة الحكم بدمشق عن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوبي عام حج ، ثم تولاه استقلالا . ثم تولى خطابة جامع دمشق وهو الآن خطيبه والله الموفق .

وفيها : استشهد الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري بالطور على ما تقدم شرحه بعد ان ابلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وكان من المجاهدين له المواقف المشهورة في قتال الفرنج وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به صلاحه ودينه ، وكان سمحاً ديناً لطيفاً ورعا باراً بأهله وبالفقراء والمساكين كثير الصدقات دائم الصلاة . بنى بالقدس مدرسة للشافعية وقف عليها الأوقاف ، وبنى مسجداً قريبا من الخليل عليه السلام عند قبر يونس عليه السلام على قارعة الطريق وكان يتمنى الشهادة دائما يقول : ما أحسن وقع سيوف الكفار على وجهي وانني فاستجاب الله دعاه ورزقه الشهادة ونقل من الطور إلى القدس فدفن بتربته في ماملا وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف

وفيها : توفيت بدمشق العالمة المعروفة بدهن اللوز وكانت شيخة العالمات بدمشق في ربيع الآخر.

وفيها : توفيت بنت بوريحان بدمشق وهي آخر بناته وفاة وانتقل ماخلفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت صفية .

وفيها : توفي الشجاع محمود المعروف بالدماغ في ذى القعدة وكان من أصدقاء العادل في زمن الشبيبة وبقي معه في زمن السلطنة مضحكا له ، وحصل له ثروة عظيمة وداره بدمشق جعلتها زوجته مدرسة للفريقين

سنة ٦١٥هـ (١٢١٦م) :

ثم دخلت سنة خمس عشر وستمائة ففيها : نزل الفرنج على دمياط في ربيع الأول وكان العادل بمرج الصفر فبعث العساكر التي كانت عنده إلى مصر الى ابنه في مقابلة الفرنج وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج .

وفيها : استدعى العادل ولده المعظم وقال له : قد بنيت هذا الطور وهو يكون سببا لخراب الشام وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط ، وأنا اعوضك فتوقف المعظم وبقى أياما لا يدخل إلى العادل فبعث اليه فارضاه بمال ووعده فى مصر ببلاد فاجابه فبعث فنقل ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون ، والكرك ، ودمشق .

وفيها : فى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف ملك الروم كيكاوس وسببه أن الأشرف جمع عساكر الشرق فى عسكر حلب ودخل بلد الفرنج ليشغلهم عن دمياط ونزل على صافيتا ، وحصن الأكراد ، وكان العادل بمرج الصفر وتقدم الى عالقين فخرج ملك الروم ووصل إلى رعبان يريد أرض... يلم بحلب ونزل اليه الأفضل من سميساط وأخذوا رعبان وتل باشر وبلغ الأشرف فعاد من صافيتا إلى حلب وقد سبقه ملك الروم إلى منبج وتقدم بعض عسكرهم إلى بزاغة فدخل الأشرف فنزل باب بزاغة وقدم العرب بين يديه فكسروا الروم ورجع صاحب الروم إلى بلاده وأكثر ما نكل فيهم العرب ، ورجع الأفضل إلى سميساط فاسترد الأشرف رعبان ، وتل باشر ، وأعطاهما لصاحب حلب وبعث الأشرف سيف الدين بن كهدان ، والمبارز ، وابن خطلخ نجدة إلى دمياط وخطب صاحب آمد الصالح محمود بن ... الروى وقطع خطبة العادل

وفيها : أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة فى آخر جمادى الأول فارسل الكامل إلى ابنه العادل شيخ الشيوخ ... الدين يخبره ويستصرخ به فلما اجتمع بالعادل فأخبره فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت قلت : واذكر وانا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوى رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد ويعظم أمر ذاك وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية . وصدق رحمه الله تعالى فانى لما رأيته فى سنة ثمان وعشرين كما سيأتى ذكره بان لى صحة ما أشار الشيخ اليه . وذاك انه برج عال مبنى فى وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه وفى ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو فهو قفل البلاد بالديار المصريه إذا اوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ومتى لم يكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ، ومصر ، والى قوص ، واسوان والله المستعان .

وفيها : فى جمادى الآخرة التقى المعظم بالفرنج على القيمون (١) ونصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية مائة فارس ، وادخلهم القدس منكسة أعلامهم.

وفيها : وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الى العادل وهو بمرج الصفر فبعث بالجواب مع الخطيب جمال الدين محمد الدولعى الشافعى خطيب جامع دمشق بعد عمه ، ونجم الدين خليل

---

(١) حصن قرب الرملة ... (ز) .

ابن على الحنفى قاضى العسكر فوصلا الى همذان فوجدا الخوارزمى قد اندفع بين يدى الخطا والتاتار قد غامر عليه عسكره فسار إلى حد بخارى فاجتمعا بولده جمال الدين فاخبرهما بوفاة العادل فرجعا الى دمشق وكان الخطيب الدولعى قد استناب مكانه فى الخطابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس ولم يكن له أهلية فسعى القاضى زكى الدين وأكابر البلد فى عزله وتولية الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الابار إلى أن يقدم الدولعى وكان يسكن بالمدرسة العزيزية فى البيت الأوسط القبلى من البيوت السفلى ويكرر الخطب فى بيته ذلك وفى ايوان المدرسة ، ويخرج فى اوقات الصلوات الى الجامع يصلى بالناس ثم يرجع ويوم الجمعة يكون فى بيت الخطابة يخرج منه بالأهبة السوداء الى المنبر فيخطب ويصلى ثم يرجع فينزع السواد ثم يمضى إلى بيته بالمدرسة إلى أن قدم الخطيب الدولعى فرجع الى مكانه ومنصبه .

وفيها : توفى داود ابن أبى الغنائم أبوسلمان الملهمى من بنى ملهم الضرير كان يسكن رباط المأمونية ببغداد ، وكان على رأى الأوائل وانما كان يتستر بمذهب الظاهرية وكان موته بالمحرم ودفن بالشونيزية وقد جاوز السبعين ومن شعره :

إلى الرحمن أشكو ما ألاقى ... غداة غدوا على هوج النياق

نشدتكم بمن زم المطايا ... أمر بكم أمر من الفراق

وهل داء أضر من التنائى ... وهل عيش ألذ من التلاقى (١)

وفيها : (٢)توفى القاضى شرف الدين أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى ابن على القرشى الدمشقى ولى القضاء بدمشق نيابة عن محيى الدين بن الزكى ، ثم عن ابنه زكى الدين الطاهر وهو ابن عمهما يلتقى نسب الجميع الى يحيى بن على المذكور وهو أول من درس بالمدرسة الرواحية ثم بالمدرسة الشامية الحسامية وكانت وفاته فى شعبان يوم الأحد ثالث عشر شعبان وصلى عليه بجامع دمشق ودفن عند مسجد القدم وهو الذى يوجد علامته على الكتب المسجلة . الحمد لله وهو المستعان. قال ابو المظفر : وكان فقيها فاضلا نزها ، لطيفا ، عفيفا .

وفيها : توفى أبو الحسن على بن احمد بن روح القاضى المعروف بابن العنبرى كان نائبا عن القضاة ببغداد صحب أبا النجيب السهروردى ، وتفقه عليه وقرأ العربية على العصار ، وكان شيخا كيسا فاضلا متواضعا وكان وفاته فى رمضان ومن شعره : —

وقد كنت أشكو من حوادث برهة ... واستمرس الايام وهى صحائح

إلى أن تغشتنى وقيت حوادث ... تحقق ان السالفات منائح

وفيها : توفى القاضى عماد الدين بن الدامغانى الحنفى قاضى القضاة ببغداد واسمه أبو القاسم عبد الله بن

---

(١) البيت الأخير من كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى

(٢) وفى تاريخ ابن كثير المطبوع هنا تخليط حيث جعل هذه الترجمة لغير صاحبها (ز) .

الحسين ولد فى رجب سنة اربع وستين وخمسمائة وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وعرف الفرائض والحساب ، وفسمة التركات مع السمت ، والوقار ، والدين ، والعفة . وأول ولايته القضاء فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وعزل فى رجب سنة اربع وتسعين وخمسماية . فأقام ثمانى سنين قاضيا ثم أعاده ابن مهدى فى سنة ثلاث وستمائة ثم عزل فى سنة احدى عشر وستمائة فكانت ولايته الأخيرة تسع سنين إلا شهور وتوفى فى ذى القعدة وصلى عليه بالنظامية ودفن بالشونيزية . سمع الحديث من أبيه أبى المظفر الحسين بن أبى الحسن احمد قاضى القضاة ، ومن عمه أبى الحسن على قاضى القضاة ومن أبى الفرج بن كليب وغيرهم .

وفيها : توفى السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب وكنيته أشهر من إسمه سئل عن مولده فقال : فتوح . يعنى لما فتح الرها وما والاها الا تابك (١) زنكى والد نور الدين سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فيكون عمره ستا وسبعين سنة . قيل كانت ولادته ببعلبك لما كان والده واليها من قبل زنكي ونشأ فى خدمة نور الدين بن زنكى مع أبيه وأخوته وحضر مع اخيه صلاح الدين فى فتوحاته وغزواته . وقام احسن قيام فى الهدنة مع الانكليز ملك الفرنج بعد اخذهم لعنهم الله عكا ، وكان صلاح الدين يعول عليه كثيراً واستنابه بالديار المصرية مدة ، ثم أعطاه حلب . ثم الكرك وأعماله ، ثم حران ومايتعلق بها ، ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمور سبق ذكرها إلى أن استقر له الملك .

قال أبو المظفر : امتد ملكه من بلاد الكرج إلى همذان والجزيرة والشام ، ومصر ، والحجاز ، واليمن وكان نبيها خليقا بالملك ، حسن التدبير حليما صفوحا عادلا ، مجاهداً ، عفيفا ، دينا ، متصدقا آمراً بالمعروف . ناهياً عن المنكر . طهر جميع ولايته من الخمور ، والخواطىء ، والقمار ، والمخانيث ، والمكوس ، والمظالم ، وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة الف دينار فأبطل الجميع لله تعالى . وكان واليه المبارز المعتمد رحمه الله قد أعانه على ذلك أقام رجالا على عقاب قاسيون ، وجبل الثلج ، وحوالى دمشق بالجامكية والجراية ، يحرمون أحداً يدخل دمشق بمنكر ، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر فى الطبول ويدخلون بها إلى دمشق فمنع من ذلك . قال : وبلغنى أن بعض المغنيات دخلت على العادل فى عرس فقال لها : أين كنت ؟ قالت : ماقدرت آجىء حتى وفيت ماعلى للضامن . فقال : وأى ضامن ؟ قالت : ضامن القيان . فقامت عليه القيامة وطلب المعتمد وأنكر عليه وقال : والله لئن عاد وبلغنى مثل هذا لأفعلن ولأصنعن . قال : ولقد فعل العادل فى غلاء مصر عقيب موت العزيز مالم يفعله غيره ، كان يخرج بالليل بنفسه ومعه الأموال يفرقها فى أرباب البيوت والمساكين ، ولولاه لمات الناس كلهم ، وكفن فى تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء . وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ماعليه وباعه حتى فرسه وتصدق به . قلت : وكان لما عزل القاضى زكى الدين الطاهر عن قضاء دمشق وولاه القاضى جمال الدين بن الحرستانى تعصب وكيل بيت المال يومئذ

---

(١) لقب به لكونه مربى أولاد السلطان محمود السلجوقى (ذ)

وأثبت على زكى الدين محضرا يتضمن عشرين الف دينار أودعها قيماز النجمى عند والده محيى الدين برسم فكاك أسرى وذلك بعد عزله بنحو من شهر . وبلغنى أن القاضى جمال الدين بن الحرستانى تأنى فى اثباته . واستقصى فى تزكية الشهود جهده وطاقته ولما علم عليه بالثبوت قام الوكيل الجمال المصرى فقال القاضى : انى النار وأنا وراك . وذلك لعلمه بأن القضية بطريق التعصب والاغراض وكان ذلك بثلاثة وقيل بشهادة اثنين . أحدهما : ابن عوضه . والآخر : أبو محمد الخشاب الأقط وقد رأيتهما وكان كل واحد منهما فى قلبه على القاضى حقداً بسبب حكومة حكم بها عليه . أما ابن الخشاب فكان أقر ببستان له لأولاد أخيه وأظنه وقفه عليهم ثم أراد إبطال ذلك والرجوع فيه فلم يمكنه القاضى وهذا البستان تحت نهر يزيد قبالة الجنينة المختصة لى من فوقه وأخذ خط الزكى بالمبلغ فى ذمته فى السابع والعشرين من جمادى الأولى ، وشرع القاضى فى بيع ما يملكه من كتب وغيرها واستدان من الناس ما حمله فى وفاء ذلك فذكرت بعض خطايا العادل انها رأت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يوصيه بالقاضى فأسقطها عنه ورد المال عليه على رؤوس الأشهاد أنزل به من القلعة جهاراً فى طبق وأنا رأيته محمولا إلى دار القاضى صحبة القاضى الاشرف ابن الفاضل ، والجمال الوكيل ، وقاضى العسكر ، وابن التيتى بين الصلاتين من يوم الاحد الحادى والعشرين من رجب سنة اثنتى عشرة ثم رده إلى القضاء بعد موت ابن الحرستانى وبلغنى أن القاضى طلب جرح الشهود فلم يجسر أحد على ذلك إلا الثقة عنتر كان يتولى عقود الأنكحة بالمدرسة التقوية فبلغ ذلك العادل فتبسم فقال : من عادة عنتر الجرح .

قال أبو المظفر : وسبب موته انزعاجه من الخبر الذى جاءه من دمياط ان الفرنج استولوا على برج السلسلة فدق بيده على صدره وأقام مريضا إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة فتوفى بعالقين ، وكان المعظم قد كسر الفرنج على القيمون بخامس جمادى الآخرة . ولما توفى العادل لم يعلم بموته غير كريم الدين الخلاطى فأرسل الطير إلى المعظم بنابلس فجاء المعظم يوم السبت إلى عالقين فاحتاط على الخزائن وصبر العادل وجعله فى محفة وعنده خادم يروح عليه وقد رفع طرف سجافها وأظهروا أنه مريض ودخلوا به دمشق يوم الأحد والناس يسلمون على الخادم وهو يومىء إلى ناحية العادل أى انه يعلمه عن مسلم ودخلوا به الى القلعة وكتموا موته . قال : ومن العجائب أنهم طلبوا له كفنا فلم يقدروا عليه فأخذوا عمامة الفقيه النجيب ابن فارس وكفنوه بها وأخرجوا قطنا من مخدة فلفوه به ولم يقدروا على فأس فسرق كريم الدين فأسا من الخندق فحفروا له به فى القلعة وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه فى القلعة . قال : وكنت قاعداً عند باب الدار التى فيها الأيوان وهو واجم ولم أعلم بحاله فلما دفن أبوه قام قائما وشق ثيابه ولطم على رأسه ووجهه وكان يوما عظيما وعمل له العزاء ثلاثة أيام بالأيوان الشمالى . قال : ولما رأيت المعظم قد بلغ به الحال ما بلغ تكلمت فى أول يوم فلما انقضى العزاء عتبنى المعظم وقال : ياسبحان الله انت صاحب العزاء إيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلى . وكان الناصح قد تكلم فى ذلك اليوم فقلت لابد من الكلام . فقال : إذا كان ولابد فليكن فى اليوم الثالث ولا يتكلم معك أحد فامتثلت ما أمر وعمل له العزاء فى جميع البلاد ونودى ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازى المجاهد فى سبيل الله فليحضر الى جامع القصر فحضر الناس ولم يتخلف سوى الخليفة وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه

وتقدم الى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة. قال : وفوض الى المعظم تربة بدر الدين حسن في اليوم الثالث.

قلت : هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو واخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكي رحمه الله وتربته هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل قريب من المدرسة الشبلية ، وكان أبو المظفر يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية ، ومنها يصعد إلى الجبل وينزل إلى دمشق كل يوم بسبب مجلس الوعظ وما أكثر ما كنت أراه جالساً في شباك التربة أو في الصفة الخارجة في النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ . فما أطيب ما كانت تلك الأيام وما أرغد عيش تلك الأعوام . قال أبو المظفر : وكان للعادل عدة أولاد منهم : شمس الدين مودود والد الجواد يونس . والكامل محمد ، والاشرف موسى ، والمعظم عيسى ، والأوحد أيوب ، والفائز ابراهيم ، والمظفر شهاب الدين غازى ، والعزيز عثمان ، والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم ، والمغيث محمود ، والحافظ رسلان ، والصالح اسماعيل ، والقاهر اسحاق، ومجير الدين يعقوب ، وقطب الدين احمد ، وخليل اصغرهم ، وتقي الدين عباس . قلت : وهو آخر من بقي منهم وهو الآن في سنة تسع وخمسين وستمائة حي بدمشق قال :وكان الصالح اسماعيل، وقطب الدين احمد بدمشق لما مات العادل فأمر المعظم الصالح فتوجه إلى بصري . وأحمد فتوجه إلى مصر وكان للعادل عدة بنات أفضلهن صفية صاحبة حلب ام الملك العزيز الظاهر . قال: ولما دخل رجب رد المعظم المكوس والخمور وما كان أبوه أبطله . فقلت له : قد أخلفت سيف الدين غازى ابن أخي نور الدين فانه كذا فعل لما مات نور الدين. فاعتذر بقلة المال ودفع الفرنج . قال : وسار المعظم إلى بانياس وارسل الصارم التبنيني وهو بتبنين في تسليم الحصون فاجابه فاخرب بانياس وسار إلى تبنين فاخربها وهدمها وكانت قفلا للبلاد وملجأ للعباد وأعطى جميع بلاد سركس (١) لأخيه العزيز عثمان وزوجه ابنة سركس ونزل الصارم وولده واصحابه من الحصون فاكرمهم المعظم واحسن اليهم واظهر أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفا من استيلاء الفرنج عليهما قال :وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع وقال: ادركني. وجاءت الفرنج فنزلوا على سرمساخ فأخلا لهم المسلمون الخيام فطمعوا ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا فعادوا إلى دمياط .

وفيها : توفي ملك الروم كيكاوس ولقبه عز الدين وكان جباراً ، ظالما ، سفاكا للدماء ، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب اتهم قوما من أمراء دولته أنهم قصروا في قتال الحلبيين فسلق بعضهم في القدور ، وجعل آخرين في بيت فاحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكران ، وقيل ابتلي في بدنه فتقطع وكان أخوه علاء الدين كيقباد محبوساً في قلعته وقد أمر بقتله فبادر الأمراء فأخرجوه ، وأقاموه في الملك وكانت وفاة كيكاوس في شوال وهو الذى اطمع الفرنج في دمياط .

وفيها : توفي نجم الدولة نجاح بن عبد الله شرابي الخليفة مملوك الإمام الناصر. وكان جواداً سمحاً عاقلا ديناً كثير الصدقات حسن المحضر ، محسناً إلى الناس يحب المساكين ، ويعظم أهل الدين . ويأخذ

(١) يعني اقطاع الأمير فخر الدين اياز الجركسي مقدم الصلاحية (ز).

الضعيف من القوى، وكان يسمى سلمان دار الخلافة؛ وكان ملازما للخليفة لا يغيب عنه ساعة واحدة، وكان اسمر اللون جميل الصورة لحلا ولما توفى فى هذه السنة أمر الخليفة أن لا يتخلف عن جنازته أحد لا وزير ولا غيره وصلى الخليفة عليه تحت التاج، وحزن عليه حزنا كثيراً وأخرج تابوته من البدرية ومشى العالم بين يديه إلى جامع القصر وكان بين يدى جنازته مائة بقرة، وألف شاة. ومائة فوجرة تمر ومائة حمال على رؤوسهم الخبز، وعشرون حمالا على رؤوسهم ماء الورد. ومماليكه قد جزوا شعورهم، ولبسوا المسوح والضجيج والبكاء قد ملأ بغداد، ولم ير فى الاسلام مثل ذلك اليوم، وعبروا به إلى الجانب الغربى إلى تربة أم الخليفة، ودفن بين يدى القبة التى فيها أم الخليفة، وتصدق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد. مشهد على، والحسين، وموسى بن جعفر رضى الله عنهم، وبعث بمثلها إلى مكة، والمدينة، واعتق الخليفة مماليكه، وكانت له خمسمائة مجلد فوقفها فى تربة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشرابى. ذكر الشيخ عز الدين بن الأثير فى تاريخه الكبير فى حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة ان الأمير العباسى احمد بن الخليفه يعنى المستضىء وأحمد هو الامام الناصر لدين الله قال ابن الأثير: وهو الذى صار خليفة بعده سقط من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فالقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجاح. فقيل لنجاح لم القيت؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مولاى. فدعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابياً، وصارت الدولة جميعها بحكمه. ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ فى الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع امراء العراق والوزراء وغيرهم

وفيها: توفى القاهر صاحب الموصل وترك ولداً صغيراً اسمه محمود، وكان طفلا فأخرج بدر الدين لؤلؤ زنكيا أخا القاهر من الموصل واستولى عليها. واسم القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ابن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى، ثم ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ ويسمى بالملك الرحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن، وبلغنى ان لؤلؤ سقى القاهر سما فمات. ثم أدخل ابنه محمود بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاستكربه وعطشه فاستغاث أخرجونى واسقونى ماء ثم اقتلونى، فأخرج وقد تغيرت خلقته وكان من أحسن الناس صورة فأسقى ماء ثم خنق بوتر. قلت: كان اسم ولده الذى ولى بعده نور الدين أرسلان شاه وكان قد سماه أبوه عليا فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه فى سنة سبع وستمائة سموه باسم جده أرسلان شاه، وأقام قليلا ومات فى سنة خمس عشرة أيضا، وتولى أخوه محمود وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ اتابكه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب اربل فى شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة فانقطع خبر محمود واستولى بدر الدين بالأمر.

قال أبو المظفر: قدم الصاحب صفى الدين عبد الله بن على المعروف بابن شكر وزير العادل، كان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق فمضى إلى آمد فأقام بها فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر اليه يطلبه، فقدم دمشق فى هذه السنة ونزل بظاهرها ببيت دانس فى دار المؤيد العقربانى. فخدم المؤيد وكان قد قل نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر. قلت: وقيل أن قدومه من المشرق كان بعد هذه السنة وقرأ بهاء الدين بن أبى اليسر بين يديه مقامة ببيت دانس فى مدحه من انشاء الشيخ أبى الحسن البخارى رحمه الله سماها : محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء فى أوحد الكبراء وسيد الوزراء، وهى مقامة جليلة

حسنة لفظا ومعنى ، وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله ، وكان متواضعا يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب . ويكرم الفقهاء ويحترمهم ، ويعمر أوقافهم ويثمرها ويوسع لهم فى الجامكيات وفى أيامه بنيت العمارة بفوارة جيرون ، والمسجد ، والبركة والشادروان وغير ذلك رحمه الله وتوفى سنة ثلاثين وستمائة كذا ذكر سبط ابن الجوزى وهو وهم . وانما توفى سنة اثنتين وعشرين كما سنذكره .

وذكر العز بن تاج الأمناء : انه فى سنة تسع وستمائة عزل الوزير الصفى بن شكر وزير السلطان بمصر فى غضون غضب واظهره ادلالا على السلطان ، وسعى العادل فيه وتحرر أمره والزامه بيته ، ثم ورد كتاب الكامل من مصر إلى أخيه المعظم بالحوطة على أملاك الوزير ابن شكر بها سابع جمادى الأولى من السنة . قال : وفى سابع عشرين رمضان من السنة عزل ابن الوزير بن شكر من ديوان دمشق وقد كان مستمراً به فى نيابة والده ، وتولاه الشمس بن النفيس مستقلا بأموره بكتاب عادلى وصل من مصر . قال : وفى رابع شعبان ورد الخبر من مصر باخراج الصفى بن شكر من القاهرة موكلا به واعتقاله بظاهر بلبيس فى دار الجاولى ثم ارساله إلى دمشق . قال : ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفيا من الديار المصرية الى الكسوة فأقام بها بقدر ما قضيت له اشغاله بدمشق ، وتولى المعتمد القيام بها وكان تقدم من العادل كتاب الى المعتمد بان لا يمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضى أشغاله ، فلما تحقق ذلك لم يدخل البلد ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشهر فبات بلدة من الغوطة ورحل منها الى القصير فى الغد ، ومن القصير إلى جهة الفرات على طريق البرية ، وخرج اليه جماعة من أعيان البلد سراً وجهراً إلى الكسوة وإلى القصير ، ولما قطع الفرات لم يمكنه الاشرف من المقام ببلاده فرجع إلى سلميه والتجأ إلى صاحب حماة فآواه وأحسن اليه فانكر السلطان ذلك عليه ، وأمره بابعاده عنه فلم يمكنه مخالفته . وتولى قاضى العسكر خليل الرسالة فى اخراجه من حماة فأخرج موكلا به إلى أن عاد قطع الفرات قاصداً صاحب آمد فتلقاه بنفسه وبالغ فى اكرامه .

سنة ٦١٦ هـ .

ثم دخلت سنة ستة عشرة وستمائة ففى أول المحرم وقيل فى سابع المحرم أخرب المعظم ابراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه ، فاضطرب الناس وخرجوا منه متفرقين فى البلاد ، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم ، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة ، وكثرة السكان . قال ابو المظفر : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط وبلغه ان طائفة من الفرنج على عزم القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام . وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان ، وعز الدين ايبك استاذ الدار فكتب المعظم اليهما بخرابه : فتوقفا وقالا : نحن نحفظه . فكتب اليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه ، وحكموا على دمشق وبلاد الشام ، فالجأت الضرورة الى إخرابه فشرعوا فى السور أول يوم من المحرم ، ووقع فى البلد ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات ، والبنات ، والشيوخ ، والعجائز ، والشبان ،

والصبيان الى الصخرة والأقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور ، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلأت بهم الطرقات . فبعضهم الى مصر ، وبعضهم الى الكرك ، وبعضهم الى دمشق . وكانت البنات المخدرات تمزقن ثيابهن وتربطها على أرجلهن من الحفا . ومات خلق كثير من الجوع والعطش. وكانت نوبة لم يكن فى الإسلام مثلها . ونهبت الأموال التى كانت لهم فى القدس . وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم . ورطل النحاس نصف درهم . وأكثر الشعراء فى ذمها ودعوا عليها فقال بعضهم :ـــ

فى رجب حلل الحميا   وأخرب القدس فى المحرم

قال وأنشدنى قاضى الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى لنفسه :ـــ

مررت على القدس الشريف مسلما   على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة   على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفى رسومه   وشمر عن كفى لئيم مـــذمم
فقلت له شلت يمينك خلها   لمعتبر أو سائل أو مســلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته   بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم

وفيها : نفى الملك المعظم الأمير عماد الدين بن المشطوب من مصر إلى الشرق . وكان قد اتفق مع الملك الفائز بن العادل على أخيه الملك الكامل واستحلف للفائز العساكر . وعرف الكامل فرحل الى اشمون وعزم على التوجه الى اليمن من البلاد . وعلم أخوهما المعظم فقال الكامل لا بأس . وركب آخر النهار وجاء إلى خيمة ابن المشطوب وقال : قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير فأخبروه فخرج من الخيمة بغير (أخفاف) صباغات ولحق المعظم فابعد به عن العسكر وقال له أخى الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج اليك فتسير اليه الساعة. فقال: ما فى رجلى صباغات ولا معى أحد من غلمانى ولا قماشى فوكل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار وقال : كل مالك يلحقك . والله ما يضيع لك خيط واحد وسار به الموكلون ورجع المعظم إلى خيمته، وجاء اليه الكامل فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفا عظيما . أما ابن المشطوب فاجتاز دمشق ومضى الى حماة فأقام بها . فبعث اليه الأشرف منشوراً بأن جيشاً من بلاد خلاط مع الخلع فسار إلى الأشرف فأكرمه وأحسن اليه وصار يركب بالشبابة . ويعمل له سلطنة أعظم من الاشرف . وتجبر وطغى وبغا، وخامر على الأشرف وكاتب صاحب الروم فبعث له مائة الف واربع الف درهم وطلع الى ماردين ثم قصد ناحية سنجار ثم جرى عليه مما سنذكره الى أن مات فى حبس الأشرف بحران هو وابن خشترين الأزكجى .

وفيها : فى شعبان سحر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان استولى الفرنج على دمياط وكان المعظم قد جهز اليها ابن الجرخى الناهض فى خمسمائة راجل فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخى ومن كان معه وصفوا رؤس القتلى على الخنادق . وكانوا قد حموا الخنادق وضعف أهل دمياط ووقع

فيهم الوباء والفناء . وعجز الكامل عن نصرتهم فراسلوا الفرنج على أن يسلموا اليهم البلد ويخرجوا منه بأهاليهم وأموالهم فاجتمع الاقسا (١) وأحلفوهم على ذلك ، فركبوا فى المراكب وزحفوا فى البر والبحر وفتح لهم أهل دمياط الأبواب فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور . وغدروا أهلها ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسراً وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء وأخذوا المنبر وكان من أبنوس ، والمصاحف ورؤس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر ، وجعلوا الجامع كنيسة . وكان الشيخ أبو الحسن بن قفل بدمياط فسلمه الله تعالى منهم فسألوا عنه فقيل هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى اليه الفقراء فما تعرضوا له بعد . وقد رأيته أنا بعد ذلك بثغر دمياط فى سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو يحكى للناس صورة ماجرى على البلد من الفرنج خذلهم الله تعالى ، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة وبكى الكامل ؛ والمعظم ، بكاء شديداً ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة . ثم قال الكامل للمعظم لما رأى أعلام الفرنج على دمياط وقد سقط فى يده : قد فات ما ذبح ، وجرى القدر بما هو كائن ، وما فى مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج ، وتستجلب العساكر من المشرق.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : فكتب الى المعظم وأنا بدمشق قد جرى على دمياط ما جرى وأريد أن يحرض الناس على الجهاد فانى كشفت ضياع الشام فوجدتها التى قريه منها الف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربع مائة سلطانية وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر وأريد أن يخرج الدماشقة ليذبوا من أملاكهم . فجلست بجامع دمشق وقرأت كتابه عليهم فتقاعدوا فكان تقاعدهم ثمنا لأخذه الثمن والخمس من أموالهم وكتب الى اذا لم يخرجوا فسر أنت الينا فخرجت الى الساحل وهو نازل على قيسارية فاقمنا حتى فتحها عنوة ثم سرنا الى الثغر ففتحه وهدمه وعاد إلى دمشق

وفيها : فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول البس الملك المعظم قاضى القضاة زكى الدين أبا العباس الطاهر بن محى الدين القباء والكلوتة (٢) بمجلس الحكم من داره بباب البريد قال أبو المظفر : كان فى قلبه منه حزازات يمنعه من اظهارها حياؤه من والده العادل وخوفه من الشناعات وكان يشكو الى من القاضى مراراً ويقول : انه لاينفذ الأحكام ؛ ولايقيم معالم الاسلام ، واتفق موت العادل ومرض اخته ست الشام عمة المعظم وكانت قد أوصت بدارها مدرسة وأحضرت القاضى الزكى والشهود واشهدتهم عليها وأوصت إلى القاضى . وبلغ المعظم فعز عليه وقال : يحضر إلى دار عمتى من غير اذنى ويسمع كلامها هو والشهود . ثم اتفق أن القاضى احضر جابى المدرسة العزيزية وطلب منه حسابها فاغلظ له فى القول فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة فوجد المعظم سبيلا الى اظهار ماكان فى نفسه وكان الجمال المصرى وكيل بيت المال عدو القاضى فجاء فجلس عند القاضى فى مجلس الحكم والشهود حاضرون والناس فبعث المعظم ببقجه فيها قباء وكلوتة وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه فقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين . قلت : جابى المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا

---

(١) هكذا فى الأصل . وفى نسخة (القساوسة)

(٢) نوع من القلبق (ز) .

واسمه : سالم بن عبد الرزاق بن يحيى بن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقرباني ، وكانت الخلعة إشارة إلى انك تفعل فعل والى الشرطة فالبس لبس من يفعل ذلك . وسمعت الذى البسه الخلعة وهو بعض أجناد الأمير عماد الدين بن موسك يعرف بالشمس صادف عقيب اباها فى ذلك اليوم فانه دخل الجامع وجاء يسلم على شيخنا علم الدين السخاوى رحمه الله وحدثه بالقضية فتأوه الشيخ وضرب باحدى يديه على الأخرى . وكان مما حكى أن قال : أمرنى السلطان أن أقول له : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة سلام الله عليه اذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه ونحن نسلك طريقه وقد أرسل اليك من ملابسه وأمر أن تلبسها فى مجلسك وأنت تحكم بين الناس وكان المعظم أكثر مايلبس قباء أبيض وكلوتة صفراء . قال : وفتح البقجة فلما نظر اليها وجم فأعدت الكلام بأن يلبسها وأمرته أن يترك التوقف فى ذلك وكنت قد أمرت بان البسه إياها بيدى ان امتنع أو توقف فمد يده فوضع القباء على كتفيه ونزع عمامته ووضع الكلوتة على رأسه ، ثم قام ودخل بيته . قلت : ومن لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم فى داره والا والعياذ بالله لو كان فى مكان آخر لتكلف المرور فى الطرقات بذلك الزى الشنيع فى حق مثله إلى بيته اللهم عفوك وعافيتك . ثم أن القاضى لزم بيته بعدها ولم تطل مدة حياته فرض مرضة رمى كبده فيها قطعاً ومات فى الثالث والعشرين من صفر سنة سبع عشرة وستمائة ودفن بمقبرة أبيه بالجبل ويأسف الناس لما جرى عليه ، وكان رحمه الله يحب أهل الخير ويزور الصالحين فى أماكنهم والمرء مع من أحب ، وقد ذكره القوصى فى معجمه وقال : كان متورعا ، متثبتا ، ناظراً فى مصالح اليتامى .

وإذا رأيت اسى امرء أو صبره يوما فقد عاينت صورة عقله

ولم يخرج عن الرضى والتسليم فى حالتى ولايته وعزله رحمه الله ، وبقى نوابه يحكمون بين الناس منهم : شمس الدين بن الشيرازى وكان يجلس بالجامع فى حافة الرواق الملاصق لخزانة الشريف موضع المقصورة الغربية ، وتارة يجلس فى شباك مشهد على . ومنهم : شمس الدين بن سنى الدولة وكان يجلس بشباك الكلاسة المحاذى للتربة الصلاحية . ومنهم : شرف الدين الموصلى وكان يجلس بالشباك الكمالى وهو الذى يصلى فيه القضاة الجمع فى هذه الأزمان . قال ابو المظفر سبط ابن الجوزى : وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجرى فى الاسلام أقبح منها ، وكانت من غلطات المعظم . ولقد قال له ما فعلت الا بصاحب الشرع ولقد وجبت عليك دية القاضى . فقال : هو الذى أحوجنى إلى هذا ولقد ندمت . واتفق أن المعظم بعث إلى الشرف (١) بن عنين الشاعر حين تزهد خمراً ونرداً وقال سبح بهذا إشارة إلى أن هذا ليس له صحة فكتب اليه ابن عنين.

يا أيها الملك المعظم سنة أحدثتها تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها خلع القضاء وتحفة الزهاد

(١) وكان قبل التزهد يرمى بشرب الخمر واللعب بالنرد فعد تزهده تصنعاً (ز) .

قال : وأخبرنى الشرف بن كلاب : قال كنت حاضراً ذلك المجلس وكان القباء والكلوتة لونا واحداً أحمر ماطى ، ومن أعجب الأمور أن الذى أتاه بالخلعة طلب من غلمان القاضى ماجرت به العادة من اعطاء من يأتى بخلعة سلطانية إلى حاكم أو غيره فأخرجوا له من وراء القاضى خمسين درهما ، وما زال قاعداً على باب القاضى بعد دخوله بالخلعة حتى أخرجوا له الدراهم فقبضها : وحج بالناس فى هذه السنة من العراق آقباش الناصرى . ومن الشام مملوك المعظم يقال له شفينات ، وفى هـذه السنة حج والدى رحمه الله ، وأبو المظفر سبط ابن الجوزى ، وعز الدين بن القيسرانى ، والصفى بن مرزوق.

وفيها : توفى الشيخ أبو البركات داود بن احمد بن محمد بن ملاعب البغدادى الملقب . بالزبيب سمع الكثير من بغداد من أبى الوقت ، وأبى الفضل الأرموى ، وأبى الكرم الشهرزورى وغيرهم . وسكن فى دمشق واسمع بها الكثير وتوفى بها فى جمادى الآخرة ودفن بجبل قاسيون ، وكان أحـد الوكلاء بمجلس الحكم ، سمعت عليه صحيح البخارى وغيره ، وكان ثقة متحرزاً.

وفيها : فى ذى القعدة توفيت بدمشق ست الشام بنت أيوب بن شادى اخت الملوك صلاح الدين والعادل ذكر الحافظ زكى الدين انها توفيت فى سادس عشر ذى القعدة من السنة ، وزاد غيره آخر نهار الجمعة وهى التى تنسب اليها المدرستان بدمشق إحداهما : قبلى البيمارستان النورى . والأخرى : ظاهر دمشق بمحلة العونية ،وتعرف أيضا بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لاجين ، وكانت دفنته بها ودفنت هى بالقبر الذى هو فيه ، وهو الذى يلى باب القبو من القبور الثلاثة ، والقبلى هو قبر أخيها تورانشاه المذكور ، والأوسط قبر ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى وكان تزوجها بعد لاجين. قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : كانت سيدة الخواتين، عاقلة ، كثيرة البر والصلات والاحسان والصدقات ، وكان يعمل فى دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير فى كل سـنة بالوف من الدنانير وتفرقها على الناس ، وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعا للمكروبين ووقفت على المدرستين أوقافا كثيرة وكانت لها جنازة عظيمة . قلت : والملوك بنو ايوب إلى آخر من ولى منهم السلطنة فى بلد من البـلاد المشهورة كلهم محارمها لأنهم إما اخوتها وإما بنوا إخوتها وهم إلى الآن خمسة وثلاثون ملكا إخوتها الأربعة المعظم ، وصلاح الدين ، والعادل ، وسيف الإسلام ؛ وأولاد صلاح العزيز ، ثم ابنه المنصور ، والأفضل والزاهر ، والظاهر ، وابنه العزيز ، وابن ابنه الناصر يوسف ، وأولاد العادل ، الكامل وأولاده الثلاثة المسعود ، والصالح ، والعادل . وأبناء الصالح المعظم المقتول بمصر ، والموحد صاحب حمص ، وابن العـادل بن الكامل المغيث صاحب الكرك الآن . والمعظم بن العادل الأكبر ، وابنه الناصر داود ، والأشرف بن العادل ، والصالح بن العادل ، والأوحد . والحافظ ، والعزيز ، وابنه السعيد ، وشهاب الدين غازى ؛ وابنه الكامل محمد ، وابن سيف الإسلام اسماعيـل الذى ادعى الخلافة باليمن ، وفرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب ، وابنه الأمجـد صاحب بعلبك ، وتقى الدين ، وابنه المنصور ، ثم ذريته ملوك حماة إلى اليوم .

وفيها : فى ربيع الآخر توفى ببغداد الشيخ أبو البقاء العكبرى النحوى الحنبلى واسمه : عبد الله بن الحسين بن عبد الله ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وقرأ القرآن على أبى الحسن البطايحى ؛ والنحو على

أبى محمد الخشاب . واللغة على ابن العصار وسمع الحديث منهم ومن غيرهم ، وقرأ الفقه والأصول وصنف عـدة مصنفات منها : اعراب القرآن ، واللبـاب فى النحو ، وحواشى على المقامات ، وديوان المتنبى ، ومفصل الزمخشرى ، ومقـدمات فى النحو ، والحساب وغير ذلك ودفن بباب حرب رحمه الله وكان صالحاً ديناً .

وفيها : توفى بحلب الشريف مختار الدين عبد المطلب بن الفضل العلوى البلخى المدرس بمدرسة الحلاوية . كان عارفا بمذهب أبى حنيفة وشرح الجامع الكبير وغيره وكان يروى كتاب الشمائل للترمذى وغيره وكان سيداً ، فاضلا ، ورعا ، ديناً .

وفيها : توفى ببغـداد عماد الدين على بن الحافظ أبى محمد القاسم ابن الحافظ الكبير أبى القاسم على ابن الحسن العساكرى قدم بغداد وسمع بها ؛ ثم توجه إلى خراسان وسمع بها ، واستجاز لطائفة كثيرة من الدمشقيين وغيرهم لعموم من أدرك ذلك الوقت من جميع من اجتمع به من مشايخ تلك البلاد شكر الله سعيه ، ثم عاد إلى بغداد فوقع عليه قطاع الطريق فأخذوا ما كان معه وجرحوه فأقام ببغداد يعالج الجراحات فمات بها يوم السبت ثالث جمادى الآخرة ودفن بالشونيزية وخلف ولدين مات بعده أحدهما المسمى باسم جده بهاء الدين القاسم كان فى صحبته فرجع إلى دمشق بعد موت أبيه . والآخر أبو حامد الحسين ولم يبق من نسله إلا ولد صغير من ابنه الأصغر أبى حامد .

وفيها : توفى ببغداد محمد بن جميل صاحب مخزن الخليفة ومولده بهيت ، وكان فاضلا بارعا ، وقدم علينا دمشق ابن ابنته وهو شاب فاضل يلقب فخر الدين له خط حسن وصورة جميلة ونزل عندنا بالمدرسة العزيزية ، ثم توجه الى الحجاز مع جماعة فضلاء شرف الدين المرسى ، ومحب الدين بن هلال . وشرف الدين بن الزيات ، وفخر الدين بن المالكى وغيرهم فجاوروا .

وفيها : توفى صاحب سنجار المنصور محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى . وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكى على ابنته ، وكان هذا المنصور ملكا عادلا ، وهذا الذى حصره العادل أبو بكر بن أيوب ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الامام الناصر وخلف المنصور عدة أولاد : سلطان شاد وزنكى ، ومظفر الدين وغيرهم ، وحج بعضهم معنا فى سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ذكر الحافظ زكى الدين فى الوفيات ما مثاله . وفى الثامن من صفر سنة ست عشرة وستمائة توفى قطب الدين محمد ابن زنكى بن مودود صاحب سنجار وملك ولده عماد الدين شاهنشاه .

وفيها : توفى محمد بن محمد بن محمود الكشميهنى ، وكان صالحاً صاحب رياضات ومجاهدات . وأوصى أن يكتب على كفنه طلباً لاصلاح حاله :ـــ

يكون اجاجا دونكم فاذا انتهى اليـــكم يلقى نشركم فيطيب

وفيها : توفى ببغداد فى رمضان أبو بكر زكريا يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتى . ولى القضاء بتكريت ، ثم ولى تدريس النظامية ببغـداد ودفن بالشونيزية وكان فاضلا وأنشد أبو المظفر من شعره :ـــ

من شعره : —

كم يأمـل المرء آمالا ويخلفه ... وكم يرى آمنا والموت يردفه
وطالما سالك الانسان شاكلة ... يظن فيها نجاة وهى تقتله

سنة ٦١٧ هـ:

ثم دخلت سنة سبعة عشر وستمائة وفى هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها : يوم الأحد ثانى شعبان توفى امام المالكية بدمشق برهان الدين على علوش بن عبدالله المغربى ودفن بجبل قاسيون ، وكان عالما بالأصول ، والفروع ، والعربية ونشأ له ابن فاضل فى علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن على توفى أيضاً وهو شاب رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى فى رجب تقى الدين عبد الرحمن بن أبى منصور بن نسيم بن الحسين بن على المقدسى أبو الوحسن سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبى القاسم بن عساكر ، وأكثر طباق السماع عليـه فى الأجزاء وغيرها موجودة بخطه .

وفيها : فى جمادى الآخرة توفى زين الدين أبو البركات داود بن احمد بن محمد بن ملاعب البغدادى، المدبر لمجالس الحكام بدمشق ، وكان شيخاً معمراً مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعـين وخمسمائة يروى عن أبى الوقت وغيره. سمعت عليه صحيح البخارى سنة أربع عشرة وستمائة ، ويروى أيضا هو وأخته حفصة عن أبى الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموى رحمهما الله.

وفيها : توفى الشيخ عتيق بن سـلامة الأندلسى ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفيـة على حافة الطريق وكان شيخا صالحا مشهوراً زرته فى مرضه مع شيخنا أبى الحسن السخاوى رحمه الله وطلب لى منه الدعاء فدعا لى ووجدت بركة دعائه وكانت له عبادة جميلة

وفيها : يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفى الحـافظ عماد الدين أبو القاسم على ابن الحافظ بهاء الدين أبى محمد القاسم ، ابن الحافظ الكبير أبى القاسم على بن الحسن الدمشقى خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين فى توجهه للسماع بتلك البلاد ، ثم حمل إلى بغداد فتوفى فيها . ودفن بالجانب الغربى منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله ، ومولده فى ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة قال : انشـدنا الخشوعى . أنشدنا ابن الأكفانى فى المروحة : —

ومروحـة تروح كل هم ... ثلاثة أشهـر لا بد منهـا
حزيران وتمـوز وآب ... وفى ايلول يغـنى الله عنهما

وفيها : نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وأغار فى أرض سنجار وساعده صاحب ماردين . فسار اليـه الأشرف فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر فانزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان وحمله معه إلى الموصل ثم قيده وبعث به إلى الأشرف فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع ؛ وكان نورالدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه ؛ واتفق مع

ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وأعانه فعلق نور الدين رجليه تحت القلعتين وعذبه فسلمت الى تعاسيف جميع بلاده ، وأراد الأشرف أن يرميه فى الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم فشفع فيه فأطلقه الأشرف وسار نورالدين إلى دمشق وأحسن المعظم اليه فاشترى بستان ابن حيوش بنواحى العقيبة وبنى فيه وأقام به .

وفيها : قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف اليها فأخذها وعوض صاحبها الرقه .

وفيها : فى رجب كانت وقعة البراس بين الكامل والفرنج وكانت وقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف وغنم خيولهم وسلاحهم ورجعوا إلى دمياط منهزمين .

وفيها : عزل المعظم المبارز المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا ؛ وحج المعتمد بالناس من الشام فى هذه السنة ، ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار فى البلاد . وحج من بغداد آقباش الناصرى وقتل بمكة ؛ وعاد حاج العراق على طريق الشام ، واستفحل أمر التاتار فى هذه السنة . ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش وقد ذكرنا صفة موته وما تم له مع التاتار فى هذه السنة وقبلها فى الكتاب الذى اختصرت فى سيرة الدولتين العلائية والجلالية . وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزى : انه توفى فى سنة خمس عشرة ووهم فى ذلك وقال : قصد العراق فى أربع مائة الف ووصل إلى همذان يريد بغداد ، وقيل كان بمعه ستمائة جتر تحت كل جتر الف ، وكان قد أفنى ملوك خراسان ، وما وراء النهر وقتل صاحب سمرقند وكان حسن الصورة وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها ، وكان ذلك سبباً لهلاكه . قال : ولما نزل بهمذان كان فى عسكره سبعون الفا من الخطا فكاتب العلقمى يعنى وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد فاتفقوا مع الخطا على قتله وبعث العلقمى اليهم بالأموال والخيول والخلع سراً فكان ذلك سببا لوهنه . ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همذان طالبا خراسان ونزل مرو والتقى فى طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره ، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه ان لايطلعه على مادبروا عليه . فجاء اليه فى الليل وكتب فى يده صورة الحال ووقف بازائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول : خذ لنفسك فالساعة تقتل . فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولداه جلال الدين وآخر فركب وسار بهما . ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم انه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزائن ، والخيول ، والجوارى . فيقال انه كان فى خزنته عشرة آلاف الف دينار ، والف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون الف فرس وبغل وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك فتمزق الجميع ونهب وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر (١) وركب فى مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر وهرب ولده جلال الدين وأخوه الى الهند وجاء الخطا فدلوا عليه فنبشوه وقطعوا رأسه وأخذوه وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد .

وفيها : توفى الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن العادل بن أبى بكر بن أيوب وكان قد حالف ابن المشطوب والامراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط ولولا أخوهما المعظم يمسك ابن المشطوب

---

(١) بحر الخزر (ز) .

وينفيه إلى الشرق على ماسبق ذكره لتم لهم ما أرادوا ولما كانت وقعة البرلس. قال الكامل للفائز : هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم وما لملوك الشرق غيرك فقم وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة فسار إلى الشرق وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل وقيل انه سم فمات فردوه إلى سنجار فدفن عند تربة عماد الدين زنكى رحمه الله قيل انه مات فى شعبان من السنة

وفيها : توفى أبو عزيز قتادة بن ادريس أمير مكة الشريف العلوى الزيدى الحسينى . كان عادلا منصفاً(١) نقمة على عبيد مكة والمفسدين ، والحاج فى أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وكان شيخا مهيبا طوالا ، وماكان يلتفت إلى أحد من خلق الله ، ولا وطىء بساط الخليفة ولا غيره ، وكان يحمل اليه فى كل سنه من بغداد الخلع والذهب وهو فى داره . وكان يقول : أنا أحق بالخلافة . ولم يرتكب كبيرة على ما قيل وكان فى زمانه يؤذن فى الحرم بحي على خير العمل على مذهب الزيدية . وكتب اليه الخليفة يستدعيه ويقول : انت ابن العم والصاحب وقد بلغنى شهامتك ، وحفظك للحاج ، وعدلك ، وشرف نفسك ، وعفتك ، ونزاهتك ، وقد أحببت أن أراك ، وأشاهدك ، وأحسن اليك فكتب اليه : —

ولى كف ضرغام أذل ببطشها	فاشري بها بين الورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها	وفى وسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغى	خلاصاً لهـا إنى اذا لرقيع
وما أنا إلا المسك فى كل بقعة	يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها : توفى آقباش بن عبد الله الناصرى . كان مملوكا للخليفة الناصر بن المستضىء اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار ، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه ؛ ثم قربه الخليفة ولم يكن يفارقه . فلما كبر ولاه امرة الحاج وكان عاقلا متواضعاً محبوبا إلى القلوب ، حج فى هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة ، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا فلما وصل آقباش الى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن وسأله أن يوليه إمارة مكة وقال : أنا أكبر ولد قتادة . فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فاغلق أبواب مكة ، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالسبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه ، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين ، فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه فقال : ماقصدى القتال فلم يلتفتوا اليه وانهزم أصحابه وبقى وحده وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه وحملوا رأسه إلى حسن ابن قتاده على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس ، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى ، وأراد حسن نهب

(١) ثم عكس الأمر فظلم (ز) .

الحاج العراق فمنعه أمير حاج الشام المبارز وخوفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكى مصر والشام فأجابه وكف عن ذلك ، ووصل الخبر إلى بغداد لحزن الخليفة حزنا عظيما ، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج . وادخل الكوس والعلم فى الليل ، وكان سادس عشر ذى الحجة . قلت : وكان فى حج الشام فى هذه السنة شيخنا فخر الدين أبومنصور بن عساكر فأخبرنى بعض الحاج فى ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء اليه وهو نازل داخل مكة فقال له:قد أخبرت انك خير أهل الشام فأريد أن تصير معى إلى دارى فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا . فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش وزال ذلك الاستيحاش .

وفيها : مات الوزير ناصر الدين بن مهدى الذى كان وزير الخليفة ببغداد وقبض عليه كما ذكرنا فى سنة أربع وستمائة واعتقل بدار طاشتكين وبها مات فى جمادى الأولى وفتح له جامع القصر ، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر وكان جبارا قاسيا وكان يدعى أنه شريف علوى . وقد طعن فى نسبه .

وفيها : توفى الملك المنصور صاحب حماة . واسمه محمد بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكان شجاعا محبا للعلماء والفضلاء ، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب وصنف كتابا سماه « المضمار » جمع فيه جملة من التواريخ واسماء من ورد عليه وأقام عنده فى عشر مجلدات ، وكان حفظ المسلمين لما هاجم الفرنج حماة فى سنة إحدى وستمائة وثبت ووقف هو وكانت وفاته بحماة فى شوال ودفن عند أبيه وقام بعده ولده الأكبر الملك الناصر قليج أرسلان ، ثم أخذ الكامل منه حماة وأعطاها لأخيه المظفر بن المنصور ، واعتقل قليج أرسلان فى الجب بمصر فمات به على أقبح حال .

وفيها : توفى صاحب آمد الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قره أرسلان بن أرتق . وكان شجاعا ، عاقلا ، جوادا ، محبا للعلماء . وكان الأشرف بن العادل يحبه وجاء غير مرة إلى خدمة الأشرف الى دنيسر وغيرها ، ومات بآمد فى صفر . وقام بعده ولده المسعود وكان بخيلا فاسقا ، وهو الذى أخذ منه الكامل آمد وحمله إلى مصر فحبسه فى الجب مدة ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت . قلت : ذكر الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى رحمه الله تعالى فى كتاب الوفيات : أن صاحب آمد المذكور توفى سنة تسع عشرة وستمائة وهو الصحيح . وقد تصحف على صاحب هذا التاريخ سبع عشرة من تسع عشرة والله أعلم . ولقد رأيت بخط الشيخ زكى الدين أيضا فى كتاب «الفوائد السفرية» أن الملك المسعود سلمان بن محمد وهو أخو الصالح المذكور كان متولى آمد وسقط من سطح فمات سنة ست وتسعين وخمسمائة وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيها : توفى أبو عبدالله بن الخبازى واسمه :الحسين بن احمد بن الحسين من أهل باب البصرة ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وسمع الحديث وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح . قال أبو المظفر : وكان يتردد إلى جدى ويعجبه كلامه وسمعه يوما يحكى له أن ابن عقيل سئل فقيل له ان الحمار يرد له فى السنة فى ليلة واحدة فانما هى هذه الليلة. فقال ابن عقيل : مايعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا . قال

ودخل رجل إلى الكرخ فلقيته امرأة فقالت له أبو بكر: كيف أنت؟ فقال: أهلا يا عيشة. قالت: فأنا اسمي عيشة. قال: فاقبل أنا وحدى. وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقتها وكان ثقة

وفيها: توفى شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمد بن حمويه والد أولاد شيخ الشيوخ الذين اشتهروا بالأمر والوزارة بمصر فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب وابنه الكامل محمد وذريته وكان أبوه عمر قد ولاه نور الدين بن زنكى رحمه الله خوانك الشام وكان يحترمه ويحبه ومات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصدر الدين بدمشق عند أبيه فولاه صلاح الدين المشيخة مكان أبيه وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابورى ابنته فأولدها ابنه شمس الدين توفى قديما ثم تزوج ابنة ابن أبى عصرون وأولدها أولاده الأربعة المشهورين عماد الدين عمر، وفخر الدين يوسف وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن وسيأتى ذكر كل منهم وكان صدر الدين قد ناب عن قطب الدين النيسابورى فى التدريس بالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسة جاروخ وانتفع بصحبته، وكان قد نفعه فى بلاد العجم، ثم ولاه العادل بمصر التدريس بالشافعى، ومشهد الحسين، والنظر فى الخانقاه الكبرى بدار سعيد السعداء بين القصرين، ودار الوزارة. وكان فاضلا فقيها لا يتكلم فيما لا يعنيه؛ وكانت له الحرمة الوافرة عند العادل بن أيوب وأولاده، ولما استولى الفرنج على دمياط بعثه الكامل إلى الخليفة الناصر يستنجده على الفرنج فمرض بين حران والموصل. ووصل إلى الموصل فى منتصف جمادى الآخرة فتوفى بها بعلة الذرب فى الرابع والعشرين منه ودفن إلى جانب قضيب البان وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها: فى العشر الأول من ذى الحجة توفى الشيخ عبد الله اليونينى أسد الشام أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين؛ وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات، واشارات وقد رأيته بجامع دمشق. قال سبط ابن الجوزى: كان لا يقوم لأحد من الناس تعظيما لله تعالى. ويقول: لا ينبغى القيام إلا لله تعالى صحبته مدة، وما كان يدخر شيئا ولا يمس بيده دينارا ولا درهما. كان زاهدا؛ ورعا، عفيفا وما لبس طول عمره سوى الثوب الخام وقلنسوة من جلد الماعز تساوى نصف درهم، وفى الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة يلبسها ثم يؤثر بها فى البرد، وكان اذا لبس الثوب يقول هذا لفلان. وهذا لفلان. وقال لى يوما ياسيدى: أنا أبقى أياما فى هذه الزاوية، وكنا ببعلبك ما آكل شيئا فقلت له: انت صاحب القبول فكيف تجوع؟ فقال: لأن أهل بعلبك يتكل بعضهم على بعض فاجوع أنا. قال: وحدثنى عبد الصمد خادمه قال: كان يأخذ ورق اللوز فيفركه ويسفه. وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يزوره ويحبه، وكان الشيخ يهينه فما قام له يوما قط. وكان يقول له يا مجيد أنت تظلم وتفعل وتصنع وهو يعتذر اليه؛ وكان العادل قد أظهر بدمشق ضرب قراطيس سود فقال الشيخ عبد الله: يامسلمين انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يفسد على الناس معاملاتهم؛ وبلغ العادل فأبطلها. وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلى فى وفيك نزل: (ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) أنا من الرهبان وانت من الأحبار، وكان يستوحش من الناس فتارة يكون بجبل لبنان، وتارة يكون بالغوطة، وتارة بثنية العقاب، وتارة بضمير، وكان

يأتى فى الشتاء إلى عيون الفاسريا وهى ظاهر دمشق بسفح الجبل المطل على قرية دومة لأجل سخونة الماء بها وبنى له على رأس العين مسجداً صغيراً يأوى اليه وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته قال : لحكت لى امرأة صالحة قالت : خرجت من دمشق بعد العصر فوصلت العيون بعد العشاء الآخرة فتوضأت وطلعت إلى زيارة الزاوية وكانت ليلة مقمرة واذا بالسبع قائمـا على باب الزاوية ورأيته على عتبتها فيبست ولم أقدر اتحرك فسحبت ركبتى إلى نحو القرية . فلما كان وقت السحر هرول السبع ومضى وخرج الشيخ فرآنى فقال : ويلك وإيش كان عليك منه . قال : وكان شجاعا لا يبالى بالرجال قلوا أو كثروا وكان قوسه ثمانين رطلا ، وما فاته غزاة بالشام قط، وكان يتمنى الشهادة ويلقى نفسه فى المهالك . حكى لى عنه خادمه عبد الصمد قال : لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صافيتا والعريمة كان الشيخ فى الزاوية ببعلبك فقال لى ياصميد انزل إلى الفقيه عبد الله اطلب لى منه بغلة . قال : فأحضرت البغلة فركبها وخرجت معه فبتنا فى ترمين وقمنا نصف الليل لجئنا إلى المحدثة قبيل الصبح فقلت له : لا تتكلم ها هنا . فهذا مكمن الفرنج . قال : فرفع صوته وقال : الله أكبر فجاوبته الجبال قمت أنا من الفزع ونزلت فصلى الفجر وركب وطلعت الشمس والطير لا يطير فى تلك الأرض وإذا قد لاح من ناحية حصن الأكراد طلب أبيض فظنهم الاسبتار . فقال : الله أكبر ما أبركك من يوم اليوم امضى إلى صاحبي وساق اليهم وقد شهر سيفه . فقلت فى نفسى شيخ وتحته بغلة وبيده سيف يسوق إلى طلب الفرنج فلما كان بعد ساعة وإذا بهم قد قربوا منا وهم مائة حمير وحش قال : فانكسر قلبي وفترت همتى فقلت له احمد ربك فان الله قد نظر اليك انت واحد تريد تلاقى مائة حمار وحش على بغلة . قال : وجئنا إلى حمص لجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه ودخل معهم فعمل العجائب . قال أبو المظفر : وحدثنى القاضى جمال الدين بن يعقوب قاضى كرك البقاع . قال : كنت يوما عند الجسر الأبيض فى مسجد هناك وقت الحر وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فنزل نهر ثورا يتوضأ وإذا بنصرانى عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس فى الطريق أحد فصعد الشيخ من النهر وصاح لى يافقيه تعالى لجئت فقال : عاونى فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل وراح النصرانى . فقلت فى نفسى مثل هذا الشيخ يفعل كذا ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة لجاء إلى دكان الخمار لحط الحمل وفتح الزقاق وقلب ليكيله واذا به قد صار خلا فقال له الخمار ويحك هذا خل فبكى وقال : والله ما كان إلا خمراً من ساعة وإنما أنا أعرف العلة ثم ربط البغل فى الخان وعاد إلى الجبل ؛ وكان الشيخ قد صلى الظهر فى المسجد الذى عند الجسر وقعد يسبح ، فدخل عليه النصرانى وقال ياسيدى : أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأسلم وصار فقيراً . قال أبو المظفر : وحكى لى جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالساً يوماً فى زاويته وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت اليه فسلمت عليه فقال لها : من أنت ؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة . قال : وما الذى جاء بك إلى عندى ؟ قالت : رأيت السيدة مريم فى المنام فقالت لى . اذهبى فاخدمى الشيخ عبد الله اليونينى إلى أن تموتى : قالت . فقلت لها ياستى فذاك مسلم . فقالت . ما الله صحيح انه مسلم ولكن قلبه نصرانى . فقـال لها الشيخ . أجادت مريم ما عرفنى غيرها .

فأعطاها بيتاً فى الزاوية فأقامت تخدمة ثمانيـة أشهر فرضت . فقال لها الشيخ : إيش تشتهين . فقالت : أموت على دين السيدة مريم. فقال . صيحوا بالقسيس . فجاء . فقال : خـذ هذه اليك ، وخذ قماشها ، وكان يساوى خمسمائة درهم فماتت عند القسيس . قال : وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلامسلمة عند الشيخ وتصدق الشيخ بما خلفت . قال أبو المظفر : كنت اجتمعت به فى الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة وكان له تلميذ اسمه توبة وكان من الصالحين الأجواد ، وسافرت إلى العراق فى سنة أربع وستمائة وحججت فلما كان يوم عرفة صعدت جبـل عرفات وإذا بالشيخ عبـد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الخام وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليـه فرحب بى وسألنى عن طريقى وقعدت عنده الى قريب الغروب ثم قلت له : ماتقوم نروح إلى المزدلفة. قال : اسبقنى أنت فلى رفاق ونزلت من الجبل وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم على فقلت : أين نزل الشيخ ؟ ظنا منى أنه قد حج معه فقال : أيما شيخ ؟ قلت : عبد الله . قال : خلفته ببعلبك ففطنت فقلت : مبارك . فلزم يدى وبكى وقال بالله حدثنى إيش معنى هذا . فقلت : رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق وحدث الشيخ عبد الله الحديث فحدثنى توبة قال : قال لى الشيخ ماهو صحيح منك فلان فتى والفتى مايكون غمازاً ، فلما عدت إلى الشام عتبنى الشيخ فقلت : توبة تلميذك . فقال : لا تعـد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة فى حال حياته . قال : حكى لى عبد الصمد خادمه . قال : لما كان يوم الجمعة فى العشر الأول من ذى الحجة نزل فصلى الجمعـة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شىء ودخل الحمام قبـل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد سماهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له . ويحك يا داود انظر كيف غداً . فما فهم داود وقال . ياسيدى كلنا غدا فى خفارتك . ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التى كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره ، وكان فى نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقى منها مقدار نصف ذراع . فقال لهم : لاتطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها . قال : وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم ويقول : يا سيدى فلانة اجتزت بها فى الموضع الفلانى اعطتنى مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلى فاحسن اليه ، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليهـا وفى يده مسبحته وقام الفقراء يتممون الصخرة وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعـــد نائم والسبحة بيده وجاء خادم من القلعة اليه فى شغل فرآه نائما قاعداً بحاله فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه . فقال : ياعبد الصمد ما أقدر أقعد أكثر من هذا . قال : فتقدمت اليه وقلت: سيدى سيدى. فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتاً وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح وكان صاحب بعلبك فى الصيد فارسلوا وراءه فجاء فرآه على تلك الحال لا وقع ولا وقعت السبحـة من يده وهو كأنه نائم . فقال : دعونا نبنى عليه بنيانا وهو على حاله ليكون اعجوبة للدنيـا ان الانسان يموت وهو قاعـد ولايتغير . فقالوا : اتباع السنة أولى وطلع داود فغسله ودفـع الثوبين الى المرأتين ولما ألحدوه قال له الحفار يا شيخ عبد الله اذكر ما عاهدتنا عليه . قال ففتح عينيه ونظر إلى شـــذراً

ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله

سنة ٦١٨ هـ :

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة وستمائة ففيها : توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى واجتمعا على حران . وكتب صاحب ماردين ناصرالدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم اليه فسأله فسار إلى ماردين فنزل صاحب ماردين والتقاه فى دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين . وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران

وفيها : وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى كرمان شاه قريبـاً من بغداد فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت فى الصلاة وحصن بغداد واستخدم العساكر

وفيها : فى جمادى الآخره استرد المسلمون دمياط من الفرنج وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة ، وكان مصافياً لأخيه الكامل وكان أخوهما الأشرف مقصراً فى حق الكامل ، وكان مباينا له فى الباطن فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف فى آثاره ، وجاء المعظم فنزل حمص ، ونزل الأشرف سلمية . قال أبو المظفر : وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فانهم كانوا على عـزم الدخول إلى طرابلس فاجتمعت بالمعظم على حمص فى ربيع الآخر . فقال لى : قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسنانى وهو كاره وكل يوم أعتبه فى تأخره وهو يكاشر . وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر وهو صديقك فاشتهى تروح اليه فقد سألنى عنك مراراً ثم كتب الى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطراً فأخذته ومضيت إلى سلمية وبلغ الأشرف وصولى فخرج من الخيمة والتقانى وعاتبنى على انقطاعى عنه وجرى بينى وبينه فصول وقلت له المسلمون فى ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت ، وعفوا آثار مكة ، والمدينة ، والشام وأنت بلعت . قم الساعة وارحل . فقال : ارموا الخيام والدهليز فسبقته إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق فلما قيل له وصل فلان ركب والتقانى وقال ما نمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئاً . فقلت : غداً بكرة يصبح أخوك على حمص فـدعا لى ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب (١) وجاءته طلب الأشرف والله ما رأيت أجمل ولا أحسن رجالا ولا أكمل عـدة ، فسر المعظم سروراً عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون فاتفقوا على الدخول فى السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم ياخوند : عوض ما ندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان ماتروح إلى دمياط ونستريح ؟ فقال له المعظم : قول رماة البندق . قال : نعم . فقبل المعظم قدمه وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضارى يصيح الرحيل الرحيل إلى دمياط وكان يظن أن الأشرف ما يسمح بذلك وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر ونام الأشرف فى خيمته إلى قريب الظهر وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحداً . فقال :

(١) جمع طلب بضم فسكون بمعنى الكتيبة فى مصطلح ذلك العهد (ز) .

وأين العساكر ؟ فاخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فاقام إلى سلخ جمادى وعرض العساكر تحت قلعة دمشق وكان هو وأخوه المعظم فى الطيارة فى القلعة ، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة قلت: كنت حاضراً تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميراً بعد أمير والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر ، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا بالظفر. ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة فى سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن (السخاوى) رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط : —

سرى الملك المولى المعظم فى الدجى ... فاطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الاسلام بعد كآبة ... سروراً وآوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها (١) واعتدى بها ... فريداً وأضحى بحرها من نصيبه

وسمعت من يوثق به فى مجلس شيخنا ابى الحسن السخاوى رحمه الله يقول : أنه رأى فى منامه فى بعض تلك الليالى كأن هاتفا يقول له : —

لاتيأسن لعسرة فوراءها ... يسران وعد ليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها ... لله فى أعطافها ألطاف

قلت : والبيتان لأبى الفتح البستى . قال أبو المظفر : وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فانهم خرجوا بالفارس والراجل وكان البحر زائداً جداً فجاؤا إلى ترعة فارسوا اليها وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان ، وأحدقت بهم عساكر الكامل فلم يبق لهم وصول إلى دمياط وجاء اسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم أن يصل اليهم ميرة من دمياط ، وكانوا خلقا عظيما، وانقطعت أخبارهم عن دمياط وكان فيهم مائة كند (٢) وثمانمائة من الخيالة المعروفين ، وملك عكا والدوك ، والدوكات ، ونائب البابا ، ومن الرجالة ما لايحصى فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم . ولو أقاموا يومين أخذهم برقابهم. فبعث اليهم الكامل ابنه الصالح أيوب ، وابن أخيه شمس الملوك وجاءت ملوكهم إلى الكامل فالتقاهم وانعم عليهم وضرب لهم الخيام ووصل المعظم والأشرف فى تلك الحال إلى المنصورة فى ثالث رجب فجلس الكامل مجلسا عظيما فى خيمة كبيرة عالية ومد سماطا عظيما وأحضر ملوك الفرنج والخيالة ووقف فى خدمته أخواه المعظم والأشرف وغيرهما وقام راجح الحلى الشاعر فانشده : —

هنيئا فان السعد راح مخلدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعداً

---

(١) أى انجلى غم دمياط بعيسى الملك المعظم (ز).
(٢) مستحفظ (ز) .

حبانا آله الخلق فتحاً بدا لنا ... مبيناً وانعاماً وعــزاً مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام مجرداً
فلم تر إلا كل شلو مجـــدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيداً
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا ... عقيرته فى الخافقــين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه ... وموسى جميعاً . ينصران محمدا

قلت : وبلغني انه وقت الانشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم ، وعند قوله موسى إلى الأشرف وعند قوله محمداً إلى الكامل . وهذا من أحسن شيء اتفق.

قال ابو المظفر : ووقع الصلح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب وسار بعض الفرنج فى البر ، وبعضهم فى البحر الى عكا ، وتسلم الكامل دمياط ووصلت العساكر الشرقية والشامية وقد أخذ الكامل دمياط ، وعاد المعظم إلى الشام ، وأقام الأشرف بمصر عنـد الكامل فغير الله سبحانه القلوب فصارا متصادقين واتفقا على المعظم .

وفيها : حج بالنـاس من الشام أمير يقال له شقيقات ، وحج أبي اسماعيل معـه تلك السنة . وحج بالناس من العراق ابن أبى فراس ومعه كتاب الخليفة إلى مكة والمدينة باعادة ولى العهد أبى نصر محمد إلى العهد وكتب إلى الآفاق بذلك .

وفيها : ولى المعظم جمال الدين المصرى الوكيل (١) قضاء الشام وكان يكتب فى السجلات قاضى قضـاة الشام وذلك فى رجب

وفيها : توفى الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلى احد الشيوخ الصالحين الساكنين بالدير بسفح جبل قاسيون وكنت أراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر السفلى بجامع الجبل وبيده كتاب من كتب الحديث وأخبار الصالحين يقرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة . قال أبو المظفر : وكان زاهداً ، عابداً ، ورعاً ، فاضلا فى فنون العلوم وسافر إلى بغداد وسمع الكثير من شهدة وابن البطى ، ومشايخ الشام وغيرهم . وحفظ مقامات الحريرى فى خمسين ليلة فتشوش خاطره وكان مما يغسل باطن عينيه قد قل نظره ، وكانت وفاته يوم الأحد سلخ صفر ودفن بقاسيون عند أهله وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحداً قط ، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان : ماتروح الى بعلبك . فقال : بلى . فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب . قلت : وسيأتى ذكر ولديه القاضى نجم الدين احمد ، والصلاح موسى .

---

(١) وكيل بيت المال (ز)

وفيها : توفى صاحبنا ضياء الدين على بن عبد السيد بن ظافر القوصى ابن اخت الشهاب القوصى. كان من أصحاب شيخنا السخاوى ، وشيخنا فخر الدين بن عساكر ، وله شعر حسن ومولده بقوص سنة سبعين وخمسمائة وأجاز لى من الشيخ علم الدين فى القرآن عندى بخطه.

وفيها : فى ليلة الجمعة الحادية والعشرين من رجب توفى خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسى وكان شيخا صالحا وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعى فى الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق رحمهما الله .

وفيها : أو فى السنة التى بعدها فى ثالث عشر رجب توفى الحافظ المحدث تقى الدين ابو طاهر اسماعيل ابن عبد الله بن عبد المحسن المصرى المعروف بابن الأنماطى كان فى زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته وافادة الشيوخ وحسن كتابة طبقات السماع وحصل كتباً كثيرة ، وكتب بخطه أجـــزاء عديدة وكان سريع الكتابة والقراءة جداً مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه ، وكانت كتبه تكون فى البيت بالكلاسة الذى كان بيـد الملك المحسن احمد بن صـــلاح الدين قبله ، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالى الزاهد به ، ثم بقى بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن . وسمعت الشيخ التقى عمر بن الصلاح رحمه الله يثنى عليه بعد موته فى معرفة الحديث ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنـده . قال أبو المظفر : سمع الكثير ولقى الشيوخ وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفيـة فى طريق المنيبع وصلى عليه الموفق الحنبلى بجامع دمشق ، والفخر بن عساكر بباب النصر والجمال المصرى قاضى القضاة عند قبره ، وكان سمع بمصر من البوصيرى ، وابن المقدسى وبدمشق من بركات بن ابراهيم الخشوعى ، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميدانى ، وابن عبد السميع الهاشمى وابن طبرزد ، وابن سكينة ، وابن الأخضر ، وحنبلا . وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندى بدمشق تاريخ الخطيب ، وطبقات ابن سعد وشيئا كثيراً وكان ثقة . قلت : وقرأ على القاضى أبى القاسم بن الحرستانى من كتب البيهقى كثيراً مثل السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار ، والدلائل النبوية والآداب والدعوات

سـنة ٦١٩هـ :

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة ففيها : ظهر بالشام جراد كثير لم يعهـــد مثله فأكل الزرع والشجر والثمر فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيراً يقال له السمرمر (١) يأكل الجراد فارسل الصدر البكرى محتسب دمشق ورتب معه صوفية وقال : يمضى إلى العجم فهناك عين يجتمع فيها السمرمر فتأخذ من مائها فى قوارير وتعلقه على رءوس الرماح فكلما رآه السمرمر تبعك وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكرى إلى جلال الدين خوارزم شاه واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه فاجتمع البكرى بالخوارزمى وقرر معه الأمور وجعله سنداً له ، وكان الجراد قد قل فلما عاد البكرى كثر الجراد .قال الناس فى ذلك أشعاراً وظهر فعل المعظم للناس وعلم الكامل والأشرف وشاع الحديث

---

(١) وهو معروف إلى اليوم فى بلاد الأناضول(ز).

فقيل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى ولما عاد البكرى من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيها : حج من العراق ابن أبى فراس مستقلا ، ومن الشام كريم الدين الخلاطى ومعه الركن الفلكى وخلق كثير وكانت الوقفة الجمعة وازدحم الناس فى المسعى فمات جماعة . قال ابو المظفر: وكنت على عزم الحج فخرجت على هجين إلى مسجد القدم فجاء حورانى عليه فروة ليصافحنى فنفر منه الهجين فاقمت شهرين أداوى ظهرى . وحج بالناس من اليمن اطسيس (١) ابن الكامل واقبه الملك المسعود فى عسكر عظيم فجاء إلى الجبل وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه وقال لأصحابه ان أطلع البغاددة علم الخليفة فاكسروه وانهبوهم ووقفوا تحت الجبل من الظهر الى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقى وينادون ياثارات ابن المقدم فارسل ابن أبى فراس أباه وكان شيخاً كبيراً الى اطسيس وأخبره بما يجب من طاعة الخليفة ومايلزمه فى ذلك من الشفاعات. فيقال انه أذن فى صعود العلم قبيل المغرب . وقيل لم يأذن . قال : وبدا من اطسيس فى تلك السنة جبروت عظيم. حكى لى شيخنا جمال الدين الحصيرى رحمه الله قال: رأيت اطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمى حمام مكة بالبندق . قال :ورأيت غلمانه فى المسعى يضربون الناس بالسيوف فى أرجلهم ويقولون : اسعوا قليلا . قليلا . فان السلطان نائم سكران فى دار السلطنة التى فى المسعى والدم يجرى من ساقات الناس . قلت : واستولى أطسيس على مكة واعمالها وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم وهو الذى بنى القبة على مقام ابراهيم عليه السلام وكثر الجلب الى مكة من مصر واليمن فى أيامه فرخصت الأسعار ، ولعظم هيبته قلت الأشرار وأمنت الطرق والديار .

وفيها : نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقى اخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى برقعة وأرباب الدولة حوله ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع فى صحن الجامع قبالة حائط النسر وصلى عليه هناك ، وأمهم فى الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعى ، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفانيين شمالى الجامع خوفا من زحمة الناس فى الطريق ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك ، وبقى القراء ، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرؤن القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها وعين لها قراء مخصوصون ، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها . والقى فيها الدرس فى هذه السنة القاضى جمال الدين المصرى وحضر درسه أعيان الشيوخ ، والقضاة، والفقهاء. وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم فى الدرس مع الجماعة وكان الاجتماع بايوان المدرسة وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيرى ، ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ، ثم القاضى محيي الدين ابن الشيرازى ، ثم القاضى محيي الدين بن محيي الزكى . وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة

---

(١) بمعنى ماله اسم كان لايعيش لوالده ولد فقيل له اذا خليته من غير اسم يعيش ففعل نعاش واشتهر بهذا الاسم ويقال فى اللهجة الحديثة (آتسز) ويصحف إلى شتى الألفاظ (ز) .

قاضى القضاة جمال الدين المصرى ، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدى ، ثم القاضى شمس الدين بن سنى الدولة ، ثم القاضى نجم الدين خليل قاضى العسكر ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون مل ء الإيوان ، وكان فى دور تلك الحلقة أعيان المدرسين ، والفقهاء . وقبالة السلطان فيها شيخنا تقى الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة كما سيأتى ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله .

وفيها : توفى قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل الى القاهرة قرأت على عمود قبره فى تربة شمس الدولة ران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر : انه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس احمد بن الملك العادل بن أيوب توفى يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها : توفى إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبى الفرج المعروف بابن الحصرى أقام بمكة مجاوراً مدة ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به . سمع أبا الوقت ، وابن البطى، وابن المقرب وغيرهم قال أبو المظفر : سمعت منه الحديث بمكة فى سنة أربع وستمائة وكان متعبداً لايفتر من الطواف ، صالحا ثقة.

وفيها : فى ربيع الأول توفى بدمشق الشهاب عبد الكريم بن نجم الدين الحنبلى اخو البهاء والناصح وهو أصغرهم والبهاء هو الأكبر بين كل واحد والذى قبله فى الولادة تسع سنين ، وكان الشهاب أعلمهم فى الفقه والمناظرة ، والمحاكمات ، بصيراً بما يجرى عند القضاة فى الدعاوى والبينات لكنه كان تعصب على شيخنا أبى الحسن فى اخراج مسجد الوزير المزدقانى (١) من يده ، وجرت أمور ربما نذكر بعضها فى ترجمته رحم الله الجميع وإيانا فهو ذو رحمة واسعة . قلت : وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب من هذه السنة استقل القاضى جمال الدين أبو الفضائل يونس بن بدران بن فيروز الشافعى المعروف بالمصرى بالقضاء فى دمشق وما معها من البلاد الشامية ، وصار يدعى قاضى القضاة وقد تقدم ذكره فى سنة ست عشرة وستمائة .

وفيها : توفى المحدث أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنماطى ليلة الاثنين ثالث عشر رجب بدمشق ، ودفن من الغد بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

سنة ٦٢٠هـ

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة ففيها : عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق فابقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه وبدت الوحشة بين الاخوة الثلاثة الكامل ، والأشرف ، والمعظم وأصبح الأشرف فى وقت السحر فساق ونزل ضمير ولم يعلم المعظم برحيله ، وصار يطوى البلاد الى حران ، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين على خلاط لما سافر إلى مصر وجعله ولى عهده بعد أن عينه ومكنه فى جميع بلاده فسولت له نفسه العصيان ، وأعانه عليه قوم آخرون ، أخوه المعظم

(١) نسبة إلى بليدة بالرى وقتل الوزير طاهر بن سعد هذا سنة ٥٢٣ هـ ومسجده على « شرف البعل » شمالى دمشق (ذ) .

وابن زين الدين صاحب اربل ، والمشارقة ، وقالوا : نحن من ورائك ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازى يطلبه فامتنع من المجيء اليه فكتب اليه : يا أخى لاتفعل أنت ولي عهدى والبلاد والخزائن بحكمك لا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله مايتفعونك فاظهر العصيان فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للسير إلى خلاط وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف فسار المعظم إلى حمص ووصل الى حماة ونزل على تفرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها فلم ينزل اليه ولا فتح له الباب فاقطع بلاد حماة وعاد الى حمص وخرج اليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه فعاد الى دمشق ولم يظفر بطائل .

وفيها : حج بالناس من العراق ابن أبي فراس ، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب سركس.

وفيها : توفيت والدتى رحمها الله ودفنتها بالجبل فى طريق قريب الاماج والمغر الى جانب الوادى وأرجو أن أدفن عندها ، وكانت وفاتها يوم السبت سادس رجب وكانت دينة صالحة رضى الله عنها .

وفيها : توفى الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي الصلاحى والد الظهير بن سنقر . قال أبو المظفر : كان مقيما بحلب ثم اتصل الى ماردين فخاف الأشرف منه فبعث الى أخيه المعظم وقال ما دام المبارز فى الشرق ما آمن على نفسى ، فارسل المعظم ابنه الظهير غازى بن سنقر الى أبيه وقال : أنا أعطيه نابلس وأى شيء أراد . فجاء الظهير الى ماردين وعرف المبارز رغبة المعظم وأنه يقطعه من الشام أى شيء أراد فقال له صاحب ماردين : لاتفعل فهذه خديعة . فأبى وسار الى الشام فى سنة ثمانى عشرة ووصل الى دمشق وخرج المعظم للقائه ولم ينصفه ، وجاء فنزل فى دار شبل الدولة الحسامى التي انتقلت الى الصوفية عند مدرسته بجسر كحيل فأقام بها والمعظم يعرض عنه ويماطله باليوم وغد حتى تفرقت عنه أصحابه وكان معه جملة من المال ، والخيل العربية المنسوبة ، والجمال ، والبغال ، والسلاح والمماليك شيء كثير ففرق الجميع فى الأمراء والأكابر قال : وكان جارى لانى كنت مقيما بتربة بدر الدين حسن على ثورا ، وكان يزورنى وأزوره ويشكو الى اعراض المعظم عنه وما فعل به ولده الظهير وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليه ووقع الى كتاب فيه حديث ملوك اليمن فبينا أناقاعد اقرأه دخل فقال : ايش تقرأ؟ قلت: أخبار ملوك اليمن. فقال اقرأ على. فقرأت فلان الملك عاش الف سنة ومات بالغم، وفلان عاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت من هذا الجنس. فقال: وأنا أموت بالغم وكان طول النهار يجلس مغموماً مهموماً ونمافيه العذل حتى انقطع أكله فأقام عشرين يوماً لايدخل فى فيه إلا الماء ومات كدا فى شعبان فى دار شبل الدولة كافور . فقام كافور بأمره أحسن قيام وجهزه أحسن جهاز ، وكان صديقه من أيام شمس الدولة اخى ست الشـام لابيها . ويقال أن المبـارز كان مملوك شمس الدولة . اشـترى له كافور تربة على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف درهم ، وحضر جنازته خلق كثير عظيم لأنه كان محسناً إلى الناس ولم يكن فى زمانه من الصلاحية وغيرهم أكرم منه ولا اشجع ، وكان له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره ولما مات وجدوا فى صندوقه دستوراً فيه ما أنفق فى نعال الخيل وذلك ثمانية عشر الف درهم فسألت كاتبه عن ذلك فقال: ما يتعلق هذا بنعال دوابه. وانما كان يستعرض الفرس السمين بخمسمائة دينار وأكثر فينعله أولا قبل أن يركبه ، ثم يركبه فان صلح اعطى صاحبه ثمنه وخلع عليه وان لم يصلح أعطى صاحبه

مائتى درهم واعتذر اليه .

قال أبو المظفر : وجرت عقيب ذلك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثم ركبه فلم يصلح وجاء صاحبه يطلبه فقال الأمير لغلامه : اقلع نعاله واعطه صاحبه . قال : وما كانت الدنيا تساوى عند المبارز قليلا ولا كثيراً . ولقد حكى لى ابنه الظهير قال : وصل مع أبى الى الشام ذهب ، وجمال ، وخيل ، وغيرها ماقيمته مائة الف دينار ، ومات وليس له كفن . ما كفنه إلا شبل الدولة

وفيها : توفى عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمى المعروف بابن القلانسى من رؤساء الشام وجده أبو يعلى حمزة . هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه . سمع عز الدين الحافظ أبا القاسم بن عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاج الدين الكندى ملازما له وانتفع به ، وكان كيسا متواضعاً وتوفى فى شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيها : توفى محمد بن سلدان بن قتلمش بن تركانشاه أبو منصور السمرقندى ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وبرع فى علم الأدب وولى حجبة الباب للخليفة ومن شعره :—

سئمت تكاليف هذه الحياة وكر الصباح بها والمساء
وقد صرت كالطفل فى عقله قليل الصواب كثير الهراء
أنام اذا كنت فى مجلس وأسهر عند دخول الفناء
وقصر خطوى قيد المشيب وطال عنائى عناء
وغودرت كالطفل فى عيشه وخلفت حلمى ورائى وراء
وماجر ذلك غير البقاء فكيف ترى فعل سوء البقاء

وكانت وفاته فى ربيع الآخر ودفن بالشونيزية

وفيها : توفى الضياء بن الزراد الدمشقى كان قارئا طيب النغمة صيتا عالما بالقراءات ، وكان فقيراً سافر من دمشق الى ميافارقين واتصل بصاحبها شهاب الدين بن العادل وأقام عنده ، ثم اتصل بالأشرف ابن العادل قال أبو المظفر : واجتمعنا بخلاط سنة ثلاث عشرة وستمائة وكان يتردد الينا ويقرأ طيبا صحيحا ثم خالط ودخل معهم فى ما هم فيه ، جاءنى يوما وهو نادم حزين يبكى فسألته عن حاله فقال : البارحة حضرت عند الأشرف وناولنى قدحا من الخمر فامتنعت من شربه والأشرف ساكت ينظر إلى ومازالوا بى حتى شربته فلما حصل فى جوفى عض الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: والله فعلتها خطيئة . الخمر على مائة وأربع عشرة سورة والله لو خيرت أن احفظ القرآن كما تحفظ وادع ملكى لاخترت حفظ القرآن . ثم نزلت حرمته بعد ذلك فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له عليهم فخرج من حراب فى هذه السنة قاصداً السويداء ومعه غلامان مردان ثلاثة فنام فى واد وقت الظهيرة فقتلوه واخذوا خيله وقماشه وما له فبلغ الحاجب علما فأرسل خلفهم فجىء بهم فقتلهم.

وفيها : توفى الشرف محمد بن عروة الموصلى المنسوب اليه المشهد بغربى الجامع بدمشق وانما نسب اليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه وجدد فى قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ووقف فيها كتبا وجعله دار حديث ووقف على الشيخ المسمع به وعلى السامعين وقفا وذلك قبل سنة عشرين وستمائة . ثم بعد ذلك أمر المعظم بجمع الخزائن المفرقة فى الجامع فنقل ما فيها من الكتب الموقوفة الى المشهد المذكور وبنى لها خزائن فى شرقه وغربه . وجدد ابن عروة المذكور فى المشهد المذكور بركة على يمين الداخل اليه . قال أبو المظفر : كان ابن عروة مقيما فى القدس ويداخل المعظم واصحابه ويعاملهم ويؤذى الفقراء والمشايخ وخصوصا الشيخ عبد الله الأرمنى فانه انتقل عن القدس بسببه . لما خرب القدس نزل ابن عروة إلى دمشق فأقام بها يسيراً ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين .

وفيها : توفى فى المحرم الشيخ عبد الرحمن اليمنى الذى كان مقيما بالمنارة الشرقية بجامع دمشق وكان أحد المشايخ القوالين الحق عند الملوك وغيرهم على وجهه انوار الخير ، ولقد بلغنى انه سنة خرجت الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب للانكار عليه فى عدم حفظ ثغور المسلمين

وكان هذا اليمنى ابلغ الجماعة كلاما فى ذلك . قال أبو المظفر : كان زاهداً ، ورعا ، فاضلا منقطعا عن الناس وكان العادل يبعث اليه بالمال فلا يقبله ودفن بمقابر الصوفية .

وفيها : فى ربيع الآخر توفى الشيخ أبو الحسن الروزبهارى المدفون خارج باب الفراديس الأول فى البرج المستجد رحمه الله .

وفيها : فجع الناس بوفاة امامين كبيرين شيخى مذهبى الشافعيـــة والحنابلة علما وعملا . أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبدالرحمن بن محمد بن الحسن بن هبه الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقى المعروف بابن عساكر وليس فى أجداده من اسمه عساكر وانما هى تسمية اشتهرت عليهم فى بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم وهذا البيت بيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا وأجلهم فى زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر وفى القرن الذى قبله عماد الضائن هبة الله ، والحافظ أبو القاسم ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبى القاسم وابنه العماد بن القاسم ، وأخو الفخر تاج الأمناء احمد ، وزين الأمناء حسن ، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبى البركات بن الرائى وهو الذى جدد عمارة مسجد القدم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبر وقبر الواعظ أبى الحسن احمد بن عبد الله بن احمد بن الرائى وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيراً ما يكون زائراً لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضاً أخوه تاج الأمنا . وأسماء المذكورة هى أخت آمنة أم القاضى محيى الدين محمد بن على ابن الزكى فهو ابن خالتهم اهتم الشيخ فخر الدين رحمه الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى حتى برع فى ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل اليه من الأقطار وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابنا سماه باسم جده قطب الدين مسعود ولو عاش خلف

جده ووالده لأنه كان مهتما بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفى قبل والده بزمان ، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية وهى لها قاعتان احداهما :التى كان هو ساكنها وبها توفى ، وهى التى لها باب فى الحائط الغربى من ايوان المدرسة ، والأخرى: لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد نسله على المدرسة ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية وكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً ، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها . ثم ولاه العادل ابن أيوب التدريس بالمدرسة التقوية وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام ، وكان اذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق فى البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى ومتى احتاج الى طهارة خرج منه الى المئذنة الشرقية فقضى حاجته بمكان الطهارة المجدد بها خارج حائطها القبلى وبها الماء الجارى ثم يرجع الى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به ولا يملون من النظر اليه لحسن سمته واقتصاده فى لباسه ولطفه ونور وجهه وكان لايخلو لسانه من ذكر الله تعالى فى قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر فى كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث وهو المكان الذى كان يجلس فيه عمه الحافظ ابو القاسم إلى أن توفى عم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفى ثم ابنه العماد على إلى أن سافر إلى العراق وخراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده ، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة » للحافظ أبى بكر البيهقى وغيره وكان رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده فى أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكى عند سماع مايبكى منها ، ويردد مواضع المواعظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :ــ

فى الذاهبـــين الأولـ ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـــوارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قـــومى بعدها تمضى الأصاغر والأكابر
ايقنت انى لا محـــا لة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكى سألته مسائل من الفقه وكتبت اليه أبياتاً أطلب منه فيها أجازة برواية مايجوز له عنه روايته وذلك فى سنة ست عشرة وستمائة فاجابنى نظما أيضاً بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لى فيها وما أعلمه فعل ذلك مع غيرى وكتبها بخطه وهى :ــ

أجزت له قولى وفق الله قصده وأسعده بالعــــلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم بصير بما فيه طريق سداده
فهناه ربى بالعلوم وجمعهـــا وبلغــه فيها ســـنى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية ، وبمشهد أبى عروة أول ما فتح وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضى زكى الدين الطاهر بن محيى الدين عن قضاء الشام أرسل اليه أن

يتولاه فأبى فطلب عنده ليلا فجاء فالتقاه وأقعده إلى جانبه فجلس محتسبا مستوفزاً فاحضر الطعام فلم يمد يده اليه ولم يأكل منه شيئا فسأله أن يتولى القضاء وكثر عليه القول فى ذلك. فقال: حتى استخير الله تعالى. فاخبرنى من كان معه ملازما له. قال: فلما رجع الى بيته جدد الوضوء ووقف يصلي ويتضرع ويبكى إلى الفجر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عادته ثم دخل بيته الصغير الذى فى الحائط وهو الباب الذى كان يخرج منه خلفاء بنى أمية وامراؤها إلى الصلاة من لدن معاوية بن أبى سفيان إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان فلما أخذ الوليد من النصارى جهتهم الغربية وبنى القبة والنسر جعل المحراب فى وسط ذلك فهو الذى مقصورة الخطابة اليوم، والباب الأصغر فيها الذى بين المحراب وخزانة مصحف عثمان رضى الله عنه هو الباب الذى كان يخرج منه الوليد ومن بعده من الخلفاء والأمراء إلى الصلاة بالناس، وأما الباب الكبير الخارج من المقصورة الذى منه الخلفاء ثم كان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يؤذن لهم فى ذلك من جهة الجامع وقد بينا ذلك أيضا فى مختصرنا لتاريخ دمشق فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسل السلطان قد جاءوا فى كشف مافارقهم الشيخ عليه. الجمال المصرى، والنجم خليل وغيرهما فردهم وأصر على الامتناع وأشار بتولية الشيخ جمال الدين بن الحرستانى فولى وكان قد خاف أن يتأذى من جهة السلطنة فجهز أهله للسفر وخرجت المحاير إلى ناحية حلب فردها العادل وعز عليه ما جرى فقيل له احمد الله تعالى ان فى بلادك وفى زمانك من امتنع من ولاية القضاء واختار الخروج من بلده على التولية دينا وزهداً، وكان رحمه الله كثيراً إذا قام من الليل يؤذن للفجر بنفسه كان فى مدرسته أو خارج البلد من بستان وغيره. وبلغنى انه كان لا يأكل وحده وإذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مدرسته ممن حضر من يأكل معه، وكان يتورع من المرور فى رواق الجامع الذى فيه حلقة الحنابلة خوفا من أن يأثموا بالوقيعة فيه، وذلك ان الجهال منهم والعوام كانوا يبغضون شيوخ بنى عساكر لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأشعرية، وكان اذا جاء الى الجامع من ناحية باب البريد يمر فى صحن الجامع أو فى الرواق الأوسط إلى المقصورة. أو قام من إسماع الحديث تحت قبة النسر ينعطف ويخرج من باب البرادة ويقول لمن سأله عن ذلك ياولدى: أخاف أن يأثموا بشىء وبلغنى عنه أنه كان يقول: من طلب من غيره مالا يعطيه من نفسه فهو داخل فى المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. وهذا كلام فى غاية الجودة. وكان العادل لما أمر ببناء مدرسته المشهورة قد عزم على انها تكون للشيخ الفخر واتفق أن العادل توفى قبل كمال عمارتها وكان ابنه المعظم حنفى المذهب وكان فى نفسه من الشيخ الفخر لما انكر عليه اظهار الخمور (١) وتضمينها فتركه حتى حج فى ولايته فأخذ منه المدرسة التقوية، وأخذت منه قبيل ذلك الناصرية التى بالقدس، ولم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلة جاريها مع كثرة مصروفها ثم لما تكاملت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصرى وتركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ والفقهاء بعده. قال ابو المظفر سبط ابن الجوزى: ولد فخر الدين فى سنة خمس وخمسمائة. وكان زاهداً، عابداً،

(١) لعله يريد بها النبيذ العراقى فانه فى حكم الخمور عندهم بخلاف أهل العراق (ز).

ورعا منقطعا إلى العلم والعبادة ، شيخا حسن الأخلاق قليل الرغبة فى الدنيا ، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر رجب ودفن على الشرف القبلى عند مقابر الصوفية (١) وكانت له جنازة عظيمة وقبره ظاهر يزار وصلى عليه الملك العزيز بن العادل ولم يتخلف عن جنازته الا القليل سمع عميه أبا القاسم الحافظ ، والصائن هبة الله ، والقطب النيسابورى وغيرهم قلت : اخبرنى من حضر وفاته . قال : صلى الظهر يوم توفى ثم جعل يسأل عن العصر فقيل له لم يقرب وقتها فدعا بماء ثم تشهد وهو جالس . وقال : رضيت بالله ربا . وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا لقننى الله حجتى ، وأقال عثرتى ، ورحم غربتى ، وآنس وحدتى . ثم قال: وعليكم السلام فعلمنا انه حضرته الملائكة حينئذ وسلموا عليه ثم انقلب على قفاه عقيب قوله وعليكم السلام ميتا رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكى ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمناء وغيره ، وكان قد اجتهد فى مرضه فى تملك المكان الذى دفن فيه من مستحقيه ، حفر له القبر وهو حى ، وكان مرضه بالاسهال ، وكانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب واحتشد الناس من الغد لجنازته ، وخرجوا به من المدرسه الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فاذا الناس فى الجامع كهيئتهم يوم الجمعة فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلى قريب الازوردة ، وتقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمناء ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الاخضر بالشرف القبلى وقد امتلأت الطرق بالناس ومن الذى قدر على الوصول الى حمل سريره ولولا كان الأمير عز الدين إيبك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع اصحابه وأجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدبابيس والعصى يمنعون الناس من قربه لتعذر وصوله الى حفرته فى يومه . وقبره على يسار المار مغربا فى طريق الشرف القبلى مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول الى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى بقليل ، وجعل على قبره بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى .

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسى الملقب بموفق الدين أخو الشيخ ابى عمر . كان إماماً من أئمة المسلمين ، وعلماً من أعلام الدين فى العلم والعمل ، صنف كتباً كثيرة حسانا فى الفقه وغيره ولكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد فى مسائل الصفات والكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه فسبحان من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته فى العلم ومعرفته بمعانى الأخبار والآثار ، وسمعت عليه مسند الإمام الشافعى رحمه الله وفاتنى منه نحو ورقتين عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبى زرعة ، وسمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين وغير ذلك ، ومولده فى شعبان

---

(١) ولم يكن بها غير قبره وقبر ابن تيمية حين زرت الشام سنة ١٣٤٧ هـ وكانت سائر القبور أزيلت لبناء معهد للطب هناك ، ولا أدرى ماذا تم بعد ذلك مع انه كانت فى تلك المقبرة قبور أساطين أهل العلم من مفاخر الشام فكأن الأرض ضاقت لبناء معهد للطب غير هذه البقعة . ولو كان هذا العمل من الأجانب المستولين لكان هناك بعض عذر . لكن هذا العمل المزرى من أحفاد رجال ذلك البلد التاريخى العظيم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (ز) .

سنة احدى وأربعين وخمسمائة بأرض نابلس ووهم ابن الدبيثى فى ذكر مولده وقال : سمع ببغداد سعد بن نصر بن الدجاجى ، وأبا الفضل احمد بن صالح بن شافع ، وأبا الحسن على بن عبد الرحمن بن تاج القراء ، والكاتبة شهدة وغيرهم . وحصل طرفاً صالحاً من الفقه ، والأصول ، وعاد إلى دمشق وتوفر على الاشتغال بالفقه وتدريسه وحدث بشيء من مسموعاته . قال ابو المظفر : ولد فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وسافر إلى بغداد مرتين . احداهما : مع الحافظ عبد الغنى سنة احدى وستين . والأخرى : سنة سبع وستين وحج سنة ثلاث وسبعين وسمع خلقاً كثيراً ، وتفقه على مذهب الامام احمد ، وعاد إلى دمشق وكان إماما فى فنون ولم يكن فى زمانه بعد أخيه أبى عمر والعماد أزهد ولا أورع منه ، وكان كثير الحياء عزوفا عن الدنيا وأهلها ، ليناً متواضعاً ، محبا للمساكين حسن الأخلاق جواداً سخياً من رآه فكأنه رأى بعض الصحابة . وكان النور يخرج من وجهه كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعاً من القرآن ، ولا يصلى ركعتى السنة فى الغالب إلا فى بيته اتباعاً للسنة ، وكان يحضر مجالسى دائما فى جامع دمشق وقاسيون ، وحكى أبو عبدالله بن فضل الأعناكى(؟) قال : قلت فى نفسى لو كان لى قدرة لبنيت للموفق مدرسة وأعطيته كل يوم الف درهم . قال : ثم جئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلى وتبسم وقال : إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها . وحكى أبو الحسن على بن حمدان الجراحى قال : كنت أبغض الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد فرضت مرضا شج أعضائى وأقمت سبعة عشر يوما لا أتحرك وتمنيت الموت فلما كان وقت العشاء جاءنى الموفق وقرأ على آيات ورقانى وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومسح على ظهرى فأحسست بالعافية وقام . فقلت ياجارية : افتحى له الباب . فقال : أنا أروح من حيث جئت وغاب عن عينى فقمت من ساعتى إلى بيت الوضوء فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدى وقال أحذر أن تقول شيئا فقلت : أقول . وأقول . وقال قوام جامع دمشق كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها . قلت : كان الموفق بعد موت أخيه أبى عمر هو الذى يؤم بالجامع المظفرى ويخطب يوم الجمعة إذا حضر فان لم يحضر فابنه عبد الله بن أبى عمر هو الخطيب والامام وإمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلى فيه الموفق إذا كان فى البلد ، وإذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغنى ، وبعد موت العماد كان يصلى فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغنى مالم يحضر الموفق وكان بين العشائين يتنفل حذاء المحراب , وجاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلى فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته ثم اجتمع به ولم يتجوز فى صلاته ، وكان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضى إلى منزله بدرب الدولعى بالرصيف ويمضى معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ماتيسر ليأكلوه معه ، ومن أظرف ماحكى لى عنه انه كان يجعل فى عمامته ورقة مصرورة فيها رمل يرمل به مايكتبه للناس من الفتاوى والإجازات وغيرها فاتفق ليلا أن خطفت عمامته فقال لخاطفها : يا أخى خذ من العمامة الورقة المصرورة بما فيها ورد العمامة أغطى بها رأسى وأنت فى أوسع الحل مما فى الورقة . فظن الخاطف أنها فضة ورآها ثقيلة فأخذها ورد العمامة ، وكانت صغيرة عتيقة فرأى أخذ الورقة خيراً منها بدرجات ، فخلص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف وكانت وفاته يوم السبت يوم عيد

الفطر أول شوال ودفن بجبل قاسيون خلف الجامع المظفرى فى مقبرتهم المشهورة ؛ وكانت أيضا جنازة عظيمة ذات جمع وافر امتد الناس فى طرف الجبل فلؤها . قال أبو المظفر : حكى اسماعيل بن حماد الكاتب البغدادى قال : رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رفع من جامع دمشق إلى السما فلحقنى غم شديد فتوفى الموفق يوم العيد . قال : ورأى أحمد بن سعد أخو محمد بن سعد الكاتب المقدسى قال وكان احمد من الصالحين . قال : رأيت ليلة العيد ملائكة يتزلون من السماء جملة وقائل يقول : أنزلوا بالنوبة فقلت : ماهذا ؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة فى الجسد الطيب قال : وقال عبد الرحمن ابن محمد العلوى : رأيت كأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيون يوم عيد الفطر . قال : وكنا بجبل بنى هلال فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءاً عظيماً فظننا أن دمشق قد احترقت وخرج أهل القرية ينظرون اليه فوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد ودفن بقاسيون وقال : وكانت وفاته بدمشق وحمل إلى قاسيون وكان له جمع عظيم ، سمع الشيخ عبد القادر ، وأبا الفتح محمد بن عبد الباقى بن احمد بن سلمان ، وأبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى ، وأبا بكر عبد الله بن محمد بن احمد بن النقور ، وأبا محمد ابن الخشاب ، وجدى يعنى أبا الفرج بن الجوزى وغيرهم ببغداد . وسمع بمكة أبا محمد المبارك بن الطباخ . وبالموصل أبا الفضل عبد الله ابن احمد الطوسى الخطيب . وبدمشق والده أحمد ، وأبا المكارم عبد الواحد بن المسلم بن هلال ؛ وأبا المعالى عبد الله بن عبد الرحمن بن احمد بن صابر السلمى وخلق كثيراً قال : وأنشدنى لنفسه :—

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا	سوى القبر انى ان فعلت لاحمق
يخبرنى شيبى بأنى ميت	وشيكا وينعانى الى فيصدق
يخرق عمرى كل يوم وليلة	فهل مستطيع رفو ما يتخرق
كأنى بجسمى فوق نعش ممدد	فمن ساكت أو معول يتحرق
اذا سألوا عنى أجابوا وأعولوا	وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت فى صدع من الارض ضيق	وأودعت لحداً فوقه الصخر مطبق
ويحثو على الترب أوثق صاحب	ويسلمنى للقبر من هو مشفق
فيارب كن لى مؤنساً يوم وحشتى	فانى بما أنزلته مصدق
وماضرنى انى إلى الله صائر	ومن هو من أهلى أبر وأوثق

قال : وكان له أولاد . أبو الفضل محمد ، وأبو العزيحى ، وأبو المجد عيسى ماتوا كلهم فى حياته ولم أدرك منهم غير عيسى وكان من الصالحين . وأم الجميع مريم بنت أبى بكر بن عبد الله بن سعد المقدسى ؛ وكان له منها بنات صفية ، وفاطمة ولم يعقب من ولد الموفق سوى عيسى خلف ولدين صالحين وماتا وانقطع عقبه وتقلبت من خطه :—

لا تجلسن بباب من يأبى عليك دخول داره

وتقول · حاجاتى اليـه يعوقها إن لم أداره
واتركه وأقصد ربها يقضى ورب الدار كاره

سنة ٦٢١ هـ :

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة . ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازى وسلمها إلى مملوكه إيبك وإلى الحاجب على ونزل غازى إلى ميا فارقين .

وفيها : ظهر جلال الدين خوارزم شاه فى أذربيجان وأستولى عليها فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاة السميساطى يقال له الملق فى رسـالة واتفق المعظم ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل مع الخوارزمى على الأشرف وبعث المعظم ولده النـاصر داود إلى ابن زين الدين رهينة وعبر الفرات عند الحديثة ومضى إلى أربل .

وفيها : استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل وأظهر أن محمود بن القاهر قد مات وقد أمر بخنقه كما سبق ذكره .

وفيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التى بين القصرين بالقاهرة وجعلها بيـد الشيخ الحافظ أبى الخطاب بن دحية وقد اجتمعت به فيها فى سنة ثمان وعشرين كما سنذكره .

وفيها : قدم الملك المسعود أطسيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعاً فى أخذ الشـام من عمه المعظم وكان معه من الهدايا شىء عظيم من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير ويدعى بالملك وعليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، وقباله راكب على رقبته وبيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد وخرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواسها فوضعت رءوسها بين يدى الكامل خدمة له وكان فى الهدية مائتا خادم وأحمال عود وند ومسك وعنبر وتحف اليمن

وفيها : جرت بالعراق واقعة عجيبة . ببغداد قرية يقال لها بعقوبا فيها نخل كثير ولها ناظر متشيع وكان بها رجل من أهلها له نخل فصادره الناظر وأخذ منه ألفى نخلة فجعل يسب الناظر ويدعو عليـه ؛ وبلغ الناظر فاحضره وأمر بضربه فقال له : بالله عليك انصفنى . فقال : قل . قال : أنتم تسبون أبابكر وتقولون أخذ فدك من فاطمة وانما فى فدك نخيلات يسيرة . تأخذ أنت منى ألفى نخلة وأسكت فضحك الناظر ورد عليه نخله . وفيها : حج بالناس من بغداد ابن أبى فراس ومن الشام شجاع الدين على بن السلار

وفيها : حججت من الشام مع والدى رحمه الله على طريق تبوك والعلاء وهى أول السنين الأربـع المتصلة التى وجد الحج فيها هنيئا مريئا من رخص الأسعار والأمن فى الطريق الشامية وبالحرمين . أما فى المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم عيسى فكان يدبر الحرس على الحاج الشامى ليلا . وأما مكة فبسبب أنها صارت فى المملكة الكاملية المسعودية فانقمع بها المفسدون وسهل على الحاج أمر دخول الكعبة فلم يزل بابها مفتوح ليلا ونهاراً مدة مقام الحاج فيها ، وكان الكامل قد أرضى بنى شيبة سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عوضا عما كانو يأخذونه باغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا

وكان الناس ينالون من ذلك شدة ويزدحمون عند فتح الباب ويتسلق بعضهم على رقاب بعض لأن الباب مرتفع عن الأرض بنحو قامة رجل فيقع بعضهم على بعض فيموت بعض. وينكسر بعض ويشج بعض فزال ذلك عن الناس بتلك السنة وما بعدها مدة بقاء مكة فى المملكة الكاملية، وكان قد بلغنى صعوبة ذلك وكنت حاملا همه فلما دخلت من باب بنى شيبة ووقع نظرى على البيت شرفه الله تعالى إذ الباب مفتوح والسلم منصوب والناس طالعون اليه ونازلون من غير ازدحام فمن فرحى بذلك وخوفى من أنه لايدوم عجلت فى طواف القدوم ؛ ودخلت البيت عظمه الله تعالى ؛ وقضيت منه وطرى اللائق بذلك الوقت ، وعندى من الشوق المبرح ما كفى ، ثم كررت الدخول اليه ليلا ونهاراً فكنت أصادف فيه نحو العشرة وما دونها . ومن أعجب ماسمعت من بعض الحجاج انه قال ؛ دخلته ليلة فوجدت فيه امرأتين قاعدتين يتحدثان كأنهما فى بيت لهما قدامنا! من يزعجهما عن ذلك لامن سادن ولامن زحمة . واجتمعت فى هذه السنة بالشيخ الحجة أبى طالب عبد المحسن بن أبى العميد خالد بن عبد الغفار الحنفى (١) الأبهرى وسمعت عليه وعلى غيره بالمسجد الحرام وكان يقدم كل عام من بغداد على بعض سيلانات (؟) الخليفة ثم بلغنى أنه تولى إمامة المقام بمكة وتوفى بها رحمه الله واجتمعت بها أيضا بالشيخ المقرىء عثمان بن احمد بن بذال الأربلى الحنبلى وأنشدنى بالمسجد الحرام :—

أيا نائما فى ظلام الدجى ... تيقظ فصبح الدجى قد أضا
أتاك المشيب ولوعاته ... وولى شبابك ثم انقضى
فلو كنت تذكر ماقد جنيت ... اضاق عليك اتساع الفضا

ونظمت فى طريقى فى تلك السفرة قصيدة ميمية ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها :—

ما زلت أشتاق حج البيت والحرم ... وأن أزور رسول الله ذا الكرم

وهى طويلة أقول فيها تعبيراً عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعا

وشرعوا نحو ذاك البيت حاسرة ... رءوسهم بين مطواف ومستلم
والباب اطلقوه للحجيج فلم ... يروا به مانعا طولى مقامهم

وفيها : توفى ببغداد أحمد بن محمد بن على القادسى الضرير الحنبلى والد صاحب الذيل على تاريخ أبى الفرج بن الجوزى . قال أبو المظفر : كان حنبليا خشنا طلب الخليفة المستضىء من يصلى به التراويح فى رمضان فاحضروا القادسى وقالوا إيش مذهبك ؟ قال : حنبلى قالوا : ما يمكن أن يصلى بدار الخلافة حنبلى . فقال القادسى : أنا حنبلى وما أريد أن اصلى بكم . وسمعه الخليفة فصاح صلى على مذهبك قال : وكان ملازما لمجالس جدى ونراه هزه كثيرا ويستحسن الكلام وكلما ذكر جدى شيئا يصيح والله ان ذا مليح فبعث اليه جدى يستقرض منه عشرة دنانير فاعتذر وقال ماهى عندى . وصار محضرا لمجالس

(١) وفى الشذرات أنه شافعى (ز) .

ولايرى هزه فسمعت جدى يقول فى داره هذا القاضى مايقرضنا شيئا ولا يقول والله ان ذامليح وكانت وفاته فى شوال ودفن بباب حرب .

وفيها : توفى بدمشق الشيخ عبد الرحمن اليمنى فى المحرم ودفن بمقابر الصوفية وقد سبق ذكرنا له فى سنة عشرين متابعة لأبى المظفر سبط ابن الجوزى وانما كانت وفاته فى سنة احدى وعشرين

سـنة ٦٢٢هـ :

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ففيها : فى ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين الى دقوقا ففتحها عنوة وأوقع السيف فى أهلها ، ونهب أموالهم ، وسبى حريمهم ، وهتك نساءهم ، وأحرق البلد ، وهدم سوره وكانوا قد صعدوا عليه وسبوه من الأسوار وبالغوا فى شتمه ، وعزم على قصد بغداد فانزعج الخليفة واخرج المال وفرق فى العساكر الف الف دينار ونصب المجانيق على الاسوار ، وفرق السلاح ، وفتح الاهراء . قال أبو المظفر : حكى لى المعظم عيسى رحمه الله قال : كتب إلى يقول تحضر أنت ومن عاهدنى واتفق معى حتى نقصد الخليفة فانه كان السبب فى هلاك أبى ومجىء الكفار إلى البلاد وجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع قال المعظم : فكتبت اليه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فانه امام المسلمين قال وبينا هو على قصد بغداد وكان قد جهز جيشا الى الكرج إلى تفليس فكتبوا اليه ادركنا فما لنا بالكرج طاقة وبعدما تفوت فسار إلى تفليس فخرج اليه الكرج فضرب معهم مصاف فقتل منهم سبعين الفا وفتح تفليس عنوة وقتل منهم سبعين الفا فصار مائة الف وذلك فى سلخ ذى الحجة .

وفيها : صلب المعظم فى سوق الغنم العتيق فى طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكى رأس حزب ، وخلفه جماعة ورفيقا له منكسين على رءوسهما ، وكانو ينزلون على الناس فى البساتين ويقتلون وينهبون والمعظم فى الكرك ، وبلغه أن ابن الكعكى قال لأخى المعظم الصالح اسماعيل وكان صاحب بصرى انا آخذ لك دمشق فكتب إلى والى دمشق بأن يصلب ابن الكعكى ورفيقه منكسين فصلبهما فى العشر الأواخر من رمضان فأقا أياما فى حر الشمس يسفى الريح والتراب على وجوههما ورءوسهما ولايقدران على طعام ولاشراب الى أن ماتا . مات ابن الكعكى أولا وكان يستغيث كثيراً ويقلق وكان رفيقه أجلد منه وأصبر وكان رجلا خياطا آدم اللون ، وقيل أنه كان بريئاً مما رمى به فمات بعد ابن الكعكى بيوم أو نحوه ، وكان ابن الكعكى من المترفين ذوى الثروة وله أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك . قال أبو المظفر : وقدم المعظم دمشق بعد ما ماتا فمرض مرضا عظيما اشفى منه ثم أبل ولم يزل ينتقص عليه حتى مات . وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ومن الشام الشجاع على ابن السلار

وفيها : حججت أيضا راكباً فى المحمل السلطانى المعظمى وكان أيضـا حجا مباركا كثير الخير والأمن فى الطريق والحرمين وباب الكعبة مفتوح للحاج مدة مقامهم ليلا ونهاراً . وخرجت يوم التروية وبت أنا ورفيق الشهاب غازى الناسخ الفقيه رحمه الله ليلة يوم عرفة بمسجد الخيف بمنى ؛ ثم أصبحنا وتوجهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات فمررنا على تلك الآبار بمنى والمزدلفة وحدود الحرم

وحدود عرفة والمسجد الذي بعضه من ارض عرفة و بعضه من أرض عرنة ثم توجهنا الى الموقف شر الله تعالى فنحن بعرفات وقد جاءنا الخبر مع حاج العراق بوفاة الخليفة الناصر احمد بن المستضيء فى اواخر شهر رمضان وأقام فى الخلافة ما لم يقم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة الا قليلا ، وتولى بعده ولده ولى عهده أبو نصر محمد ولقب بالظاهر بأمر الله . فاظهر العدل ، وأحسن السيرة ، ثم لم تطل مدته فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتى ذكره . ولما دخلنا مكة لطواف الافاضة وقد البست الكعبة الكسوة السوداء التى يرسلها الخليفة كل سنة من بغـــداد وفى أعلاها الطراز الأبيض المكتوب فيه اسم الخليفة الذى نسجت فى أيامه فتأملت الطراز فوجدت فيه اسم الناصر فى جانبين من جوانب الكعبة الاربعة ، وفى الجانبين الأخرى اسم الظاهر فعلمت انهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبـــين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقى باسم الظاهر ونظمت فى هذه السنة ايضا قصيدة على قافيـة الهمزة وصفت فيها أمير الحج ومنازل الطريق التبوكية أيضا أولها: —

يا حبذا وطن الحبيب النائى

قال ابو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وبويع بالخلافة غرة ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وكان له خادم اسمه رشيق قد استوى على الخلافة وأقام مدة يوقع عن الخليفة ، وكان قد قل بصره وقيل ذهب جملة ،وكانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . والحصاة ولقى منه شدة ، وشق ذكره مرارا ، وما زال يعتريه حتى قتله . وغسله خالى أبو محمد يوسف وكان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل فى تابوت ودفن عند أهله وكان قد خطب للظاهر بولاية العهد فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة وعمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده فى المحرم سنة سبعين وخمسمائة ؛ ثم عزل عن العهد فى سنة احدى وستمائة ثم أعيد إلى العهد فى سنة ثمانى عشرة وستمائة ، ولما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية فشاهدوا الناصر ميتـا مسجى فبـايعوا أبا نصر ولقبوه بالظاهر ، وكان جميل الصورة ابيض مشربا بحمرة حلو الشمائل شـديد القوة افضت الخلافة اليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهوراً فقيل له : ألا يتفسح ؟ فقال : قد فات الزرع . فقيل له يبارك الله فى عمرك . فقال : من فتح دكانا بعد العصر إيش يكسب . ولما بويع احسن الى الناس ولم يؤاخذ أحداً ممن سعى فى خلعه فقابل الإساءة بالاحسان وصلى على أبيه بالتاج وفرق الأموال وأبطل المكوس وأزال المظالم .

وفيهـا : توفى الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى كان ولى عهد أبيه ومملكته دمشق واعمالها ، والأرض المقدسة واعمالها . ومولده بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة . وكان فاضلا شاعراً حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر فى سميساط . وبهـا توفى فى ربيع الأول ونقل إلى حلب فدفن بظاهرها .

وفيهـا : توفى بحلب فى أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين على بن علم الدين سليمان بن جندر

وكان من أكابر أمراء حلب ، كثير الخير والصدقات الدارة ، والبر الوافر ، وبنى بحلب مدرستين إحداهما: لأصحاب أبى حنيفة بظاهر حلب ، والأخرى : للشافعية داخل حلب . ووقف عليها الأوقاف وبنى الخانات فى الطرقات وله الغزوات المشهورة والمواقف المذكورة رحمه الله

وفيها : توفى على الكردى الموله الذى كان مقيما ظاهر باب الجابية بدمشق واختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم انه كان صاحب كرامات وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلى ولا يصوم ولا يلبس مداسا بل كان يدوس النجاسات و يدخل المسجد على حاله . وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه . قال أبو المظفر: وحكت لى امرأة صادقة قالت ماتت أمى باللاذقية ولم أصدق وجاء قوم فقالوا : ماتت ، وجاء آخرون فقالوا : ما ماتت . قالت : فخرجت الى باب الجابية وهو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه وقال : ماتت. ماتت: ايش تعملين . وكان كما قال. وحكى لى عبدالله صاحبى قال جعت يوما وما كان معى شىء فاجتهدت به فدفع الى نصف درهم وقال : يكفى هذا للخبز والسعتربس (١) قال : ودخل يوما على جمال الدين الدولعى خطيب دمشق المقصورة وكان يغشاه فقال له : ياشيخ على قد أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتنى . فقال له : وما تطلب نفسك شيئا آخر قال : لا . قال : يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه فى هذه المقصورة ولا يقضى مافرضه الله عليه من الحج :

وفيها : توفى خطيب حران الفخر بن تيمية وهو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الحرانى فقيه حران بها ولد ، وقدم بغداد وتفقه بها على أبى الفتح بن المنى ، ووعظ فى رباط محمود النعال ، وسمع الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، وصنف الخطب والتفسير وغير ذلك . وكان فاضلا فصيحا سمع شهدة ، وابن المقرب ، وابن البطى وغيرهم . قال أبو المظفر: وكان خطيبا بحران حتى اذانبغ فيها أحد لايزال وراءه حتى يخرجه منها ويبعده عنها ومات فى خامس صفر وسمعته ينشد فى جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر :ـــ

أأحبابنا قـــد نذرت مقلتى ... ما نلتقى باليـــوم أو نلتقى
رفقا بقلب مغرم واعطفوا ... على سقام الجسد المعرق (٢)
كم تمطـــلونى بليالى اللقا ... قد ذهب العمـــر وما نلتقى

وفيها : توفى عبد المنعم بن على بن عبد الغنى القرشى الصقلى . كان رجلا صالحا خيرا ، وكان مقرئا حسنا قد قرأ على تاج الدين الكندى . وعلم الدين السخاوى وغيرهما وكان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا مايطلبه ليصلى به من عقيدته فى صلاحه ، وكان قد حج معى فى سنة إحدى وعشرين فلما رجع إلى دمشق توفى عقيب قدومه من الحج ودفن بجبل قاسيون وهو: أخو الزين الضرير . كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

(١) وفى تاريخ ابن كثير : الفت بدبس (ز).
(٢) أى المهزول ، وفى لفظ المحرق (ز) .

وفيها : فى شعبان توفى بمصر الوزير صفى الدين عبد الله بن على بن عبد الخالق بن شكر أبو محمد ومولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية فى سنة أربعين وخمسمائة ودفن بتربته التى انشأها جوار مدرسته بالقاهرة حكى عنه القوصى فى معجمه . وقد سبق من أخباره فى حوادث سنة خمس عشرة وستمائة وهى سنة نكبته بعد وزارته وله بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، وتبليط الجامع ، وعمارة مسجد الفوارة . وتجديد مسجد حرستا ، وجامع المزة وغير ذلك . وبلغنى أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفى لنفسه :—

مهما تهاون فى أمرى امرؤ وغدا مصارما لا أرى الا مبجله
وان أساء مسىء فوق طاقته أحسنت مجتهداً حتى أخجله

وقال أنشدنا الحافظ السلفى لابن رشيق وقد قيل له: لم لا تركب البحر للحج ؟ فقال معتذرا :—

البحر صعب المرام هولا لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين فهل ترى صبرنا عليه

ولعبد الجبار الكاتب

لا أركب البحر خوفا عليه من المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب

ولأبى الفتح البستى :—

ان ابن آدم طين والبحر ماء يذيبه
لولا الذى فيه يتلى ما جاز عندى ركوبه

وله أيضاً :—

واخضر لولا آية ماركبته ولله تصريف القضاء بما شاء
اقول حذار من ركوب عبابه أيارب ان الطين قد ركب الماء

سنة ٦٢٣ هـ :

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة . ففيها : قدم من بغداد محى الدين يوسف بن الجوزى رسولا الى المعظم ومعه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالاة الخوارزمى . قال أبو المظفر : وحكى لى المعظم صورة الرسالة ، قال : قال لى خالك : المصلحة رجوعك عن هذا الخارجى الى اخوتك ونصلح بينك وبين اخوتك — والمعظم قد بعث بملوكه الركين إلى الخوارزمى فرحله من تفليس فانزله على خلاط والأشرف بحران — قال : فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمى وقصدنى اخوتى ينجدونى . قال نعم . قلت : مالكم عادة تنجدون أحداً هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط ونحن نكتب نستصرخ به ونقول : انجدنا . فيجىء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا . وقد اتفق اخوتى على وقد انزلت الخوارزمى على خلاط ان

قصدنى الأشرف منعه الخوارزمى، وإن قصدنى الكامل كان فى له .

وفيها : قدم الأشرف دمشق وأطاع المعظم وسأله أن يسأل الخوارزمى أن يرحل عن خلاط . وقال : نحن مماليكك وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت . فبعث المعظم فرحل الخوارزمى عن خلاط وكان قد أقام عليها أربعين يوما ونزل الثلج وأقام الأشرف عند المعظم بدمشق . وكان المعظم يلبس خلعة الخوارزمى ويركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه وعنده الأشرف من هذا المقعد المقيم(؟) وهو ساكت . قال : وتوجه خالى الى مصر الى الكامل وهذه أول سفرة سافرها خالى الى الشام ومصر قال : وفيها : حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام على بن السلار .

وفيها : فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون الى وقلت وفى يوم جلوسى للتدريس بها توفى شمس الدين محمد ابن شيخنا علم الدين السخاوى رحمه الله بدمشق ودفن بالجبل .

وفيها : فى آخر ربيع الأول توفى بدمشق قاضى قضاتها جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصرى ودفن بداره بدرب الريحان ، وكان فقيها كثير الاشتغال واختصر كتاب « الأم » للشافعى رحمه الله وصنف فرائض كثيرة تحتوى على مسائل كثيرة وكان قد اعتنى به الوزير صفى الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، وفوض اليه التدريس بالمدرسة الأمينية بعد تقى الدين الضرير ثم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة والى الملوك بالروم وبلاد الشرق وحلب وغيرها ، ثم ولاه المعظم بعد الزكى الطاهر قضا قضاة الشام وفوض اليه التدريس بالمدرسة العادلية ، فهو أول من ذكر قبل الدرس وكان يذكر بها قبل درس الفقه درساً من تفسير القرآن طويلا ويجرى فيه مباحث حسنة فانه كان يحضره معنا جماعة من الفضلاء فاتفق أن فرغ من ذكر التفسير من أول القرآن الى آخره فلما تم له ذلك توفى بعد ذلك بقليل رحمه الله . وكان فى ولايته عفيفاً فى نفسه نزها ملازما لمجالس الحكم بالشباك الكمالى بالجامع وغيره ، وكان إذا جلس فيه بعد العصر لايزال إلى أن يصلى المغرب ، وفى بعض الليالى يصلى العشاء الآخرة فكان إذا فرغ من الحكم بين الخصوم تجرى بحضرته المذاكرة فى العلم الى حين انفصاله ، ويجلس بكرة كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بايوان المدرسة العادلية لاثبات الكتب . ويصطف شهود البلد فى جوانب الايوان. وكان مجلساً غايه بجلاله ، ولم يكن يضيع فيه الزمان فى غير ماهو بصدده بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت وغيره ولم ينقم عليه شىء فى ولايته سوى أنه كان إذا ثبت عنده وراثة شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال ، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شىء من ذلك ، ونقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد ولم يكن طريقته مستقيمة وكان يذكر أنه قرشى فتكلم الناس فى ذلك . وتولى القضاء بعده شمس الدين احمد بن الخليل الخوبى والمدرسة العادلية والله أعلم . قلت : وشمس الدين الخوبى هو أبو العباس احمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى باشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وستمائة نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصرى المذكور باشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكى المذكور ثم استقل بالحكم فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة تسع عشرة وستمائة .

وفيها : فى شهر رجب أو شعبان توفى الشيخ تقى الدين خزعل بن عسكر بن خليل الشنائى المصرى النحوى ودفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتياً متواضعاً قاضى الحاجة لكل من يقصده أقام بالقدس الشريف زمانا يقرىء الناس به حتى كان يعرف بنحوى القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم وهى سنة خمس عشرة فاعطى امامة مشهد على بن الحسين رضى الله عنهما بالجامع وأنزل فى المدرسة العزيزية فكان يقرىء بها ويتولى عقود الأنكحة وكنت إذ ذاك ساكناً بالمدرسة وأتردد اليه فقرأت عليه عروض الناصح بن الدهان الموصلى . أخبرنى عن مصنفه ، وقرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنبارى . وأخبرنى به أيضا عن مصنفه . وأنشدنى لنفسه ميمية فى حصر أقسام الواو وغير ذلك ، وكان يحثنى على حفظ الحديث والتفقه فيه خصوصا صحيح مسلم . ويقول : إنه أسهل من حفظ كتب الفقه وأنفع وأصدق رحمه الله ، وحث على مسح جميع الرأس فى الوضوء احتياطا وبحث فى دليله فأعجبنى وأستقر فى نفسى فما أعلم أنى تركته من ذلك الزمان إلى الآن والله المستعان فيما بقى لنا من الزمان . وكنت أرى منه مروءة تامة فى توليه عقود الأنكحة وفى فسخها وفى فعله فيما يحصل منها فكان إذا غلب على ظنه فقر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، وأما عند الطلاق والفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كانوا فقراء أو أغنياء وكان مايتحصل له من ذلك يتصدق بجملة منه فلا رد سائلا ، وربما جاءه من يطلب منه شيئا فيقول أقعد فما يأتى فهو لك فأول شغل يأتيه يعطى ذلك القاصد مايحصل منه كائنا ما كان ، ومن مروءته انه فوض اليه المسجد الذى قبلى قيسارية الفرش وكان لصاحبنا شمس الدين محمد بن عبد الجليل واتفق أنه فارقه وسافر عنه متزهداً الى العراق ثم اتفق رجوعه فنزل له عن المسجد ورده اليه فاستحسن ذلك منه .

وفيها : توفى فى رجب زكى الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة من أكابر العدول والتجار أولى الثروة وبنى بحلب مدرسة للشافعية ، وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس . ووقف عليهما أوقافاً حسنة وقنع بعد ذلك باليسير وكان يسكن فى بيت المدرسة الدمشقية وهو الذى فى إيوانها من الشرق ويقابله من الغرب خزانة الكتب التى وقفها وهى كتب جليلة ، وكان رحمه الله تام الخلقة طويلا وعريضاً إلا أنه كان لا لحية له أصلا ، وكان مبجلا عند القضاة ، وكان قد أسند النظر الذى فى مدرسته التى بدمشق إلى الشيخ تقى الدين بن الصلاح ثم أنه بعد موته شهد عليه بالعزل له الشيخان تقى الدين خزعل المقدم ذكره ومحيى الدين محمد العربى وكانا ساكنين قريبا من المدرسة فزعما أنه استدعى بهما ليلا وأشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة وجرت فى ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها وكأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة فى ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له فغلب على وقف المدرسة وتدريسها بغير أهلية ، ولا استحقاق ، ولا أمانة ، ولا عدل ، ولا إشفاق والأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان ودفن الزكى بن رواحة بمقابر الصوفية .

وفيها : توفى فى رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر احمد ولى تسعة أشهر وأيام قام فيها بالعدل حسب طاقته وغسله محمد الخياط الشاعر . قال أبو المظفر : وحكى لى أنه دخل يوماً إلى الخزائن فقال له خادم : فى أيامك تمتلىء . فقال له : ماجعلت الخزائن لتمتلىء بل لتفرغ وتنفق فى سبيل

الله؟ فان الجمع شغل التجار . وولى بعده ابنه جعفر منصور بن محمد ولقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة وتوفى سنة أربعين وسيأتى ذكره .

وفيها : فى رجب أيضا توفى شبل الدولة كافور الحسامى نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ولد ست الشام بنت أيوب . كان خادما ، عاقلا ، دينا ، صالحا ، مهيبا له حرمة وافرة فى الدولة ومنزلة عالية عند الملوك اعتمدت عليه سيدته ست الشام فى بناء تربتها ، ومدرستها الشافعية بمحلة العونية . وكان حنفى المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبى حنيفة عند جسر كحيل فى طريق الجبل ولصقها تربته والخانقاه ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، وبنى المصنع قبالة ذلك والقناة والسـاباط المظلل للطريق والمصنع الآخر الذى برأس الزقاق الطويل ، وفتح للناس طريقا للجبل من عند المقبرة التى غرب المدرسة الشامية تفضى إلى عين الكرش ، ولم يكن إليها طريق قبل ذلك الامن جهة مسجد الصفى المجاور لمقبرة باب الفراديس ، وله صدقات دارة ، واحسان كثير . ودفن بتربته إلى جانب مدرسته المذكورة . وكان قد سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندى وغيره رحمه الله .

وفيها : توفى المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد والى دمشق . ولد بالموصل وقدم الشام بخدم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وتقلبت به الأحوال واستنابه أخو فرخشاه لامه بدرالدين مودود الشحنة بدمشق ثم ولاه العادل الشحنكية استقلالا فأحسن السياسة ، ولطف بالرعية ، وكان بين يديه نقيب له يعرف بسويد من أحذق الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية : وكان المعتمد دينا ، ورعا ، عفيفا ، نزها اصطنع عالما عظيما من النسـاء والرجال ، وستر عليهم كبائر الأحوال . وكانت دمشق وأعمالها فى أيام ولايته لها حرمة ظاهرة وهى حسنة . قال أبو المظفر : ومما جرى له أنه كان فى دمشق رجل فاتك والى جانب بيته قوم لهم ولد صغير فى آذانه حلق من ذهب فاغتاله الرجل يوما فخنقه وأخذ الحلق من أذنه وأخرجه فى قفة ودفنه فى باب الصغير . وفقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز عذابا أليما فلم يقر وأطلق . وفى قلب المرأة النار من ولدها . فطلقت زوجها وتزوجت الرجل القاتل وأقامت معه مدة . فقالت له يوما وهى تداعبه : قد مضى الابن وأبوه وكان منهما ما كان ، وكان الزوج قد مات انت قتلت الصغير ؟ فقال : نعم وأخذته ودفنته فى الباب الصغير . فقالت : قم فأرنى قبره فأخذها وخرج بها الى المقابر وحفر القبر فرأت ولدها فلم تتمالك وضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه ودفعته فألقته فى القبر . وجاءت الى المبارز فحكت له الحكاية فقام وخرج معها الى القبر فكشفته له . فقال لها : أحسنت والله ينبغى لنا كلنا أن نشرب لك فتوة . قال : وحكى لما حرم العادل الخمور ركبت يوماً وخرجت من باب الفرج وإذا برجل فى رقبته طبل وهو يتمايل تحته فقلت امسكوه وشقوا الطبل فشقوه وإذا فيه ركوة خمر فبددتها وضربته الحد قال : فقلت له من أين علمت ؟ قال : رأيت رجليه وهى تلعب فعلمت أنه قد حمل شيئا ثقيلا . قال : وكان لداره بابان الباب الكبير عليه الغلمان والبواب ، وباب السر فى زقاق آخر . فكان البواب إذا مسكوا فى الليل امرأة من بيت معروف وجاوها اليه على حالها يقول لهم انزلوا حتى أقررها . ثم يقول لها يابنتى انت من بيت كبير وأهلك رجال معروفون فما الذى حملك على هذا ؟ فتقول ياسيدى قضاء الله . فيقول لها

ستر الله عليك . وبعث معها الخادم من باب السر الى بيتها فأقام على هذا نحواً من أربعين سنة . قال : وكان فى قلب المعظم له شحناء لأنه كان يشفق عليه ويحفظه فى أماكن يدخل اليها بدمشق فى الليل وهو شاب فأمر غلمانه أن يتبعوه من بعيد ، وكان العادل بن مصر يكتب اليه بذلك . فلما مات العادل أظهر ما كان فى قلبه منه فاعتقله مدة فى القلعة فلم يظهر عليه وعلى أحد من أولاده وحاشيته انه أخذ من الرعية ما مقداره مثقال حبة من خردل ولا غير ما كان عليه من العفة ، والأمانة ، والصلاح ، والديانة . ثم أنزله من القلعة الى داره وحجر عليه فيها وبالغ فى التشديد عليه وكانت وفاته يوم السبت الحادى والعشرين من ذى القعدة وعمره نحو ثمانين سنة ، ودفن بجبل قاسيون فى التربة التى أنشأها فى الجبل . قال : وحكى لى أنه ولى دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين ، ثم اشتغل بالولاية الى أن عزل فى سنة سبع عشر وستمائة ، وكانت ولايته نيابة واستقلالا قريبا من خمسين سنة . قالوا : ولم يؤخذ على المبارز شىء إلا أنه كان يحبس وينسى فعوقب بمثل ذلك وأقام محبوسا خمس سنين إلا أياما . قال : وجرت لى معه واقعة عجيبة كنت فى كل ليلة جمعة أزوره وانقطعت عنه مدة بسبب اغلاق باب داره فى بعض الأوقات فرأيت فى المنام كأن قبره فى روضة خضراء والقبر معمول بالفص الأخضر وليس هو من جنس فصوص الدنيا فطربت لحسنه ورونق المكان فهتف بى هاتف لو رأيت ما فى باطن القبر . قلت : وما فى باطنه ؟ قال : الدر ، والياقوت ، والمرجان وما يستغنى عن قرآة كتاب الله . فانتبهت وفهمت الإشارة فانا فى كل ليلة أقرأ ماتيسر من القرآن وأهديه اليه والى أهلى وأصحابى ومعارفى رحمهم الله .

وفيها : توفى البدر الجمبرى والى قلعة دمشق أقام واليها مدة فى أيام المعظم وخدم الظاهر بحلب وغيره وحمل الى نابلس فدفن عند أهله .

سنة ٦٢٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة . ففيها : قدم رسول الانبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل يطلب منه البلاد التى كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله . فاغلظ له وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ماله عندى الا السيف .

وفيها : فى آخر شعبان سافرت أنا الى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام وغيره على سبيل الزيارة للأقصى والخليل وما بتلك الديار من الآثار ورجعنا الى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

وفيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار وهى آخر أمرته على الحاج وآخر السنين التى كان الحج فيها رضياً طيباً وانقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف والفتن .

وفيها : حج من ميافارقين سلطانها شهاب الدين غازى بن العادل . قال أبو المظفر : وكان ثقله على ستمائة جمل ومعه خمسون هجينا على كل هجين مملوك وجهزه الأشرف جهازاً عظيما وسار غربى الفرات ، على قرقسيا ، والرحبة ، وعانة ، والكبيسات ، والمعمر . والعين ، وشفاتا وكلها قرى فيها عيون جارية ونخل كثير . ومنها يجلب التمر الى الشام وعبر على كربلاء فزار المشهد ، ثم الكوفة وزار مشهد

أمير المؤمنين . وحج بالناس من العراق شمس نبزار(؟) مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين وبغلة وألفى دينار . وقال : هذه من ملكى أنفقتها فى طريق الحج . وأوصى أمير الحاج بخدمته ، وتصدق فى مكة والمدينة وعاد إلى العراق ولم يصل الكوفة بل سار غربى الطريق التى سلكها وكاد يهلك هو ومن معه عطشا حتى وصل إلى حران .

وفيها : توفى بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب . ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ومابين الأرض المقدسة ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم من الكرك ، والشوبك ، والعلاء وكان قد سير فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة وهى السنة التى حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية الى جبل عرفات وكتبها له منزلة منزلة وسهل فى طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيرة الصوان وكثر المير لهم فى اراضى الكرك ، والشوبك ، وتبوك ، والعلاء ، والمدينة على ساكنها السلام . وكان الحجاج يجدون بذلك رفقا عظيما وبالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بانواع العلوم والحج الى الحرمين بنفسه ، وإعانة غيره عليه وكان عديم الالتفات الى مارغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح وغير ذلك ، فكان ينهى نوابه عن إمرة الحاج الشامى من مزاحمة الملوك فى إطلاع الأعلام الى رأس جبل عرفات . فكنت ترى علمه مركوزاً الى جانب محمله تحت الجبل ، وكان يركب وحده مراراً كثيرة ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه وكان اذا كان بدمشق يأتى كل جمعة فى الساعة الرابعة أو نحوها الى تربة والده قبالة دار العقيقى يجلس فيها هو ومن معه من أمرائه وخواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حينئذ ماشياً الى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجاورة للكلاسة فيصلى الجمعة بها مع الناس . أقام على ذلك زمانا ، وكان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفا لهم ، كأنه واحد منهم . أنشدنى المحب بن أبى السعود البغدادى الحجازى وكان من الملازمين خدمته قال : نظمت فيه لما توفى رحمه الله تعالى :ـــ

لئن غودرت تلك المحاسن فى الثرى ... بوال فما وجدى عليك ببال

ومذ غبت عنى ما ظفرت بصاحب ... أخى ثقة الا خطرت ببالى

سـنة ٦٢٥هـ:

ثم دخلت سنة خمس وعشرين فى دولة المستنصر بالله . فى ثامن عشر صفر جاء منشور الولاية لداود من عمه الكامل محمد بن أبى بكر ، وكانت الفرنج لعنهم الله وخذلهم قد تحركوا وانبثوا ببلاد الساحل لأن الهدنة كانت قد تمت وبقى المسلمون منهم فى خوف ، فرأيت فى المنام ليلة الثلاثاء تاسع صفر كأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد جاء للنصرة وعليه رديمان فرجية مفتوحة . وقال : سنأمر من ينادى بالرحيل الى الساحل ، ووعد بأن يستخلف على الشام اذا عاد رجلا شريفا شجاعا فاستبشر الناس لهذه الرؤيا . فلما كان أوآخر ربيع وذلك فى أيام عيدهم الذى بعد صيامهم اغار المسلمون على بلاد صور فغنموا غنيمة كبيرة من ابل ، وبقر ، وغنم مقدار ستة آلاف رأس وغير ذلك . وخرج اليهم من الفرنج نحو مائتين فكانوا بين قتل وأسير وغريق فى البحر وما نجا الا القليل ومن جملة

الأسرى ابن والى صور وقيل الوالى وقيل خلصه المركب ، وخبرت أن بعد الوقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

وفى هذه السنة نزل العزيز عثمان بن أبى بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها وفيها ابن عمه الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب فأعان الناصر داود الأمجد على العزيز وأمره بالرحيل عنها فرحل واشتد حنقه على الناصر . قالوا : وكاتب العزيز الكامل وحثه على الإتيان الى بلد دمشق ليتسلمه وأوهمه أنه فى يده فجاء الكامل وانضاف اليه العزيز وجاءهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بن شادى وقد كانت له بمحاصرة والده ضغينة على عيسى بن أبى بكر لأنه كان نازل بلدة حمص وخرب ما حولها ونهبه فأراد استيفاء ما جرى على بلده بمحاصرة ولده فحسن ذلك فى رأى الكامل واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبى الفتح موسى بن أبى بكر فجاءه وأكرمه غاية الاكرام ، وذلك فى أواخر رمضان ثم دخل الأشرف الى الكامل واجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من داود ابن عيسى وأن دمشق تكون للأشرف وانضاف اليهما من عسكر الناصر عمه الصالح إسماعيل بن أبى بكر وابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبى بكر بن أيوب وجماعة من الأمراء مثل : عز الدين أيدمر ، والكريم الخلاطى وغيرهما . وجاء أخو الأشرف المظفر شهاب الدين غازى بن أبى بكر واجتمع الجميع بارض فلسطين وقد كان الناصر خرج لأجل عمه الكامل وخدمته وظن أن الأشرف عنده قد أصلح أمره فوصل الى الغور وسمع باجتماع أعمامه عليه وانهم عازمون على القبض عليه فرجع الى دمشق وأخذ فى الاستعداد خوف الحصار وسنذكر ماجرى من ذلك فى سنة ست وعشرين .

وفى هذه السنة فى المحرم توفى جمال الدين عبد الرحيم بن على بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ولد باسنا من أعمال قوص سنة سبع وخمسين وخمسمائة ونشأ بقوص وتأدب فيها بفنون العلوم . كان دينا حسن النثر والنظم وتولى الديوان ببلاد قوص ، ثم بالأسكندرية ، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشاء للملك المعظم عيسى حكى عنه القوصى فى معجمه .

وفى هذه السنة توفى الشيخ الصوفى هندولا فى السابع والعشرين من احدى شهرى ربيع ودفن بمقابر الصوفية . وفى أواخر جمادى الأولى توفى الشمس احمد بن القواص ، والشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل . وفى أوائل رجب توفى الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن على المراكشى المقيم بمدرسة المالكية ودفن بالمقبرة التى وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلى مقابر الصوفية وكان أول من دفن بها . وفى سادس عشر رجب توفى المحب الليلى المعروف بالمغربى ودفن بمقبرة ابن زويزان أيضا . وفى سادس عشر رمضان توفى الفقيه ضياء الدين بن عبد الكافى ودفن بالجبل . وفى يوم عيد الفطر توفى التقى أبو عبد الله المغربى الجابرى ودفن فى مقبرة ابن زويزان وقد كان معنا فى المدرسة . وفى مستهل ذى القعدة توفى القابسى عبد الرحيم الذى كان يحفظ الوجيز ودفن بالجبل . وفى سادس عشر ذى الحجة توفى الجمال ابن القفصى المعروف ودفن بالجبل .

وفى هذه السنة توفى الفقيه عبد المحسن الحنبلى ، وموسى الموصلى بمصر ومعرفتنا شهوان السواق فى الدقيق بدمسيق وخلق كثير غيرهم رحمهم الله

وفيها : فى صفر عزل الصدر بن البكرى عن مشيخة الشيوخ بدمشق وولها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، وفى سادس رمضان عزل ابن البكرى عن الحسبة أيضا ووليها الرشيد بن عبد الهادى .

وفيها : فى شعبان توفى الأمين نفيس الدين أبو محمـــد الحسن بن على بن الحسن بن الحسين بن محمد الأسدى المعروف بابن اللبن حكى عن جـده الحسن وغيره. ولم يدخل ركب الحجاز فى هذه السنة من طريق الشام .

وفيها : قدم قاضى البلقاء عبد الحق المالكى فى أول رمضان واجتمعت به .

سـنة ٦٢٦هـ :

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة فى دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر وسلطان دمشق داود بن عيسى . ففى أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله بن محفوظ ابن الحسن بن محمد بن صصرى التغلبى ، وكان له روايات كثيرة وعمر وأجاز لى بجميع مايرويه ولم أسمع عنه شيئا .

وفيها : فى أواخر صفر عزل القاضى نجم الدين احمد بن محمد بن خلف المقدسى ، وكان نائباً وتولى استقلالا مشاركا لشمس الدين الخوبى ، وتولى القـاضى محي الدين أبو الفضائل يحيى بن محـمد بن يحيى القرشى ، وجلس بالكلاسة فى الشباك الذى يلى المحراب الشرقى منهـــا اماماً . قلت : كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر المذكور ، ثم جلس فى داره وكل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق . وكذا من قبله أخوه زكى الدين الطاهر بن محمد بن على .

وفيها : فى أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه إلى الفرنج وصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ، وكانت هذه من الوصمات التى دخلت على المسلمين وكانت سببا فى أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه ، ووجد بها الناصر طريقا فى الشناعة عليهم ، وفى هذه الشهر تقدمت جيوش الكامل مع اخوته الأشرف والمظفر ، والعزيز ، والصالح ، وابنى أخيـه الجواد بن محمد ، وداود بن المغيث ومعهم صاحب حمص وعسكر حلب وحماة فنزلوا عنـد الجسور وراء مسجـد القـدم ، وقطعوا عن دمشق أنهارها بانياس ، والقنوات ، ثم يزيد ، وثورا ، ونهبت البساتين ، واحرقت الجواسق ، وخربت رباع ، وبادت الأشجار بانقطاع الماء ، وجرت وقعات فقتل قوم وجرح آخرون ، وتهدم كثير من الرباع والخانات حول البلد من خارج لاسيا على كل باب . ولما كان يوم السبت الرابع والعشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير وجرح جم غفير ، ونهب قصر حجاج والشاغور ، وأطلق فيهما النيران ووصلت خيل المحاصرين إلى دور البلد من جوانبه ودخلوا الميدان الأخضر ، ثم رجعوا آخر النهـار إلى خيامهم وقد كثرت القتلى والجرحى فى الفريقين ، وكثر الحريق والنهب ، ثم تسلموا حصن عزتا بما فيه من سلاح وغيره صلحا مع متوليه . وفى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة وصل الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب إلى دمشق ، ونزل بالقرب من مسجـد القدم . وأمر باجراء نهرى يزيد ، وثورا

لأجل سقى الأراضى . وخرج اليه الفاضل احمد بن عبد الرحيم بامان منهما ، وأنفذ الناصر من جهته فى اواخر النهار جماعة من كبراء البلد من العلماء ، خطيب الجامع جمال الدين الدولعى ، وقاضى القضاة شمس الدين الخوبى والقاضى شمس الدين الجوينى ابن الشيرازى ، وجمال الدين الحصيرى شيخ الحنفية إلى الكامل نيابة عنه فى الخدمة والسلام ثم عاودوا من الغد . وخرج يوم الثلاثاء حادى عشر الشهر عز الدين ايبك استاذ الدار الى الكامل باستدعائه وجرى الحديث فى الصلح وعاد ليلا ومضى وعاد مرات ، وكان يأتى اليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينتظم صلح فى الظاهر . ولما كان خامس عشر جمادى يوم السبت وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد وفى الميدان وما بين ذلك وكان النصر فيه لأهل البلد . وفى الغد يوم الاحد وقع الحريق والنهب من ناحية باب توما ، واحرقت الطاحونة الأحد عشرية والحرشنية ، والتى فى مرج الشيخ ، وطاحونة الأشنان احرق بعضها ثم اطفىء ، ونهبت الدور حول ذلك ووقع الجرح والقتل ، وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة واخرجوا أهلها منها : جوبر ، وجديا ، وزملكا ، ثم خربت سقبا وغيرها والاسعار كلما مرت تغلوا ، والخوف حول البلد ، وقد انقطع عنه الجلب ، وبلغت أوقية الاشنان تسعة افلس . وحكى لى والدى أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، وبلغت أوقية الخبز نصف درهم ، ورطل اللحم ستة دراهم . وأما الخبز فكان بحمد الله موجوداً كثيراً ، وكان أطيب شىء فيه وهو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، وسمعت والدى وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة فى دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم مارأو أشد من هذا الحصار ، ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك وهو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من أنضاف اليهم من العرب وكبس العسكر الذى نازلهم من جهة الكامل فأخذوهم برقابهم وفازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مراراً والكرة عليهم ، واتخذوا مسجد خاتون ومسجد الشيخ اسماعيل وخانقاه الطاحون ، والجوسق ، الذى فى الميدان الاخضر حصونا وظهوراً لهم ، وأحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور وبستان ابن يمن والحمام وخربت خانقاه الطواويس وذلك فى أوائل رجب وزحفوا يوم الأحد تاسع رجب آخر النهار الى أن وصلوا محاذاة الباب الحديد ، ورأى شيخنا أبو الحسن على ابن محمد السخاوى ليلة السبت خامس عشر رجب كان قائلا يقول له بعد شهر تكون دمشق كانها جنة الخلد وكان تمام الشهر ليلة نصف شعبان وكان الناس فيها فى أطيب عيش لأن الصلح انتظم أول شعبان ومازال البلد والناس فى ترف من زوال الشعث وكثرت الخيرات ، ولهم فى ليلة النصف من شعبان موسم معلوم يحتفلون فيه ويكثرون الوقيد فى المساجد لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب والنهب والعياط ولم يكن فى هذا النصف مثل ما كنا نعرف فى غيره بل كان الناس فى سكون مع قلة زحمة وهم فى سرور والصلح والرخص . فقلت : هذه الجنة التى أشار اليها المنام .

وكان سبب الصلح أن الناصر خرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب الى الكامل واجتمع به ثم اجتمعا مرات حتى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان فى يده بلاد الكرك ، وبلد نابلس ، وقرايا من الغور والبلقاء . ودخل عسكر الكامل دمشق يوم الاثنين مستهل شهر شعبان ، ورحل الناصر يوم الجمعة ثانى عشر شعبان من دمشق الى بلاده التى بقيت عليه ، ودخل الكامل وأخويه يوم الثلاثاء سادس عشر

الشهر فزار قبر والده ثم خرج الى مقامه بجوسق العادل ثم دخل هو والأشرف القلعة يوم الخميس ثامن عشر شعبان . ثم توجهت عساكر الكامل صوب حماة فنزلوا عليها يحاصرونها ومعهم صاحب حمص شيركوه والمظفر والمنصور بن تقى الدين وهو أخو سلطانها حينئذ : وتسلم الأشرف دمشق فى أواخر شعبان واعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها . حران ، والرها ، ورأس عين ، والرقه ، والمؤزر . ثم دخل الكامل فى تاسع رمضان صوب الشرق فنزل إلى خدمته صاحب حماة المحاصر بها حينئذ وهو الناصر صلاح الدين قليج أرسلان بن المنصور محمد بن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وتسلم نواب الكامل حماة فى آخر رمضان ، وسار الكامل إلى بلاده التى جعلت له فى الشرق وانتقل عسكره فنزل على بعلبك ورحل الأشرف من دمشق اليها وحاصروها .

وفيها : قدم الامجد بن فرخشاه وهو ابن عم الكامل فتسلموا البلد وبقى الحصار على القلعة ثم رجع الأشرف الى دمشق . وفى هذه السنة أهين جماعة من المتجبرين . ففى يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة علق هبة الله النصرانى الذى كان متولى خزانة السلطان علق بيده اليمنى على باب كنيسة مريم وفى رجليه لبنة من حديد وكان قد عزل عن الخزانة وحبس ، ثم اركب على بغل واتى به من الحبس مهانا والحديد فى رجليه والناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة وطلب منه أموال عظيمة وهرب أهله وقد كان الملعون تمكن من المسلمين وآذاهم ورفع منار النصارى وتسلطوا بجاهه على المسلمين ، وجدد لهم بناء كنيسة مريم ، وشيد بنيانها . ورفع بابها ، وحسن عمارتها . ثم هدم ما زاده وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه فى شعبان بأمر السلطان الكامل ؛ وحضر ذلك جماعة من العلماء ، والعدول ، والشيوخ وخلق كثير من العامة وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم ، وكتب لهم بذلك مكتوب وقد كان اشتهر الاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق فى أواخر دولة المعظم بن أبى بكر ، وفى دولة ابنه داود وكثر ذلك حتى أخمده الله بالدولة الأشرفيه .

وفيها : يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم علينا دمشق الشيخ الامام الزاهد الورع رشيد الدين عبدالعزيز ابن محمد بن الطاهر المعروف بابن عوف من ذرية عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك بن انس رحمه الله لشغل عرض له ، واجتمعت به الغد من مجيئه بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبى عمر ، وحكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ؛ وكان يصوم يوما ويفطر يوما كصيام داود عليه السلام وأتى معه بدقيق من الاسكندرية فلم يزل يأكل منه حتى رجع ولا يتناول من غيره .

وفيها : مات جماعة من أصحابنا ومعارفنا وغيرهم فنهم : سبعة كانوا من سكان مدرستنا ، وجماعة من الفقهاء المالكية ومن جملة من توفى من أصحابنا اثنان كانا من أعزهم على ، وأكثرهم لى اجتماعا أحدهما : زين الدين بن احمد بن يوسف الفرغانى اصابته نشابة فى كتفه يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الاولى ومات يوم الاثنين السادس والعشرين منه ودفن فى مقابر الصوفية المشرفة على نهر بانياس . وكان رحمه الله فاضلا دينا خيراً حسن الأخلاق من أحسن ما رأينا من الأصحاب ، وكان قد زار كثيراً من البلاد وهو فى زى الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عرضه عليه وقدم علينا دمشق فى سنة خمس وعشرين وكان

قد حج من العراق فلما قضى حجه أتى مصر ثم جاء إلى الشام وكان رحمه الله قد عزم معى على المجاورة بالحجاز وكنا على هذا العزم فى هذه السنة فاخترمته المنية وكان مولعاً كثيراً بانشاد الأشعار الرقيقة أنشدنى فى عشية يوم أصابه السهم قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردى ينشده : —

شربت الهوى والخمر صرفا كليهما فكان الهوى عندى أشدهما سكراً

أما والهوى لوذقت طعما من الهوى لما كنت من بعد الهوى تشرب الخمرا

والثانى : ظهير الدين عبد الغنى بن حسان بن عطية بن مخلف الكنانى المصرى النحوى توفى عاشر شوال ودفن الغد فى مقابر بن يزوزان وكان من خيار من صحبت من الأصحاب له أخلاق حسنة وتعصب وقيام فى حق من يعرفه ولديه فضل وعلم وعبادة وأما كرمه وسخاؤه وجوده وأفضاله فشائع عنه مشتهر يعرفه الخاص والعام رحمه الله ورضى عنه أردت فى طريق الحجاز فى رجوعى منه سنة اثنتين وعشرين وستمائة أن أسير اليه كتابا فى أوله : —

أنت الظهير على المكارم كلها من رد ذلك فهو عين معاند

عبد الغنى ولست عبداً للغنى بحر الفرائد حبر كل فوائد

ولم يكن لى صاحب أخص منه كنت آنس به وبحديثه وفى أضيق ما أكون من الهم أجتمع به فيزول عنى برحمة الله وكان اشتغل بالعربية على شيخنا أبى عمر وصحبه فى الديار المصرية وفى سفره إلى الشام ولم يزل يعلق عنه ويشتغل عليه بالعربية والاصول إلى أن توفى وكان كثير الاعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد وقد حصلت والحمد لله بخطه فى ملكى . ومن جملة من توفى من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ الصالح أبو الحسن على المغربى المالقى وكان لديه علم وعمل رحمه الله توفى فى الثالث والعشرين من رمضان ودفن بمقبرة ابن زويزان وكان عازما على الرجوع الى المغرب إلى أهله ثم على الاقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآذان فى منارته . وفى التاسع والعشرين من شعبان توفى فخر الدين على بن بكمش التركى النحوى تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبى اليمن الكندى . وقال غيره توفى الشيخ فخر الدين ابو الحسن على بن بكمش بن عبد الله التركى النحوى البغدادى يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة بدمشق والله أعلم . وفى رابع عشر رمضان مات أبو الحسن على بن أبى بكر الشاطبى التجيبى المقرىء ودفن بباب الفراديس وكان كثير التعبد وكان قد اشتغل بالقراءآت والنحو بالمغرب ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبى صاحب القصيدة وكان يكرمه لأجل انه من بلده . وفى يوم الاربعاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتى النجار ودفن بالجبل وكان الجمع فى تشييعه متوفراً وكان رحمه الله كثير الاحسان لاسيما فى حق الغرباء والواردين ساعياً فى مصالحهم وكان محباً لأهل الخير متقرباً اليهم وجدد المسجد فى أول الشارع الذى هو غربى دار الزكوة على يسار الداخل إلى الشارع من ماله . وأخبرنى صاحبنا أبو حفص عمر بن محمد الموصلى . قال : حدثنى الشيخ أبو الحسن على المصمودى الضرير انه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالى كان مجاوراً بالكلاسة ، وكان معدوداً من الصالحين يقول كلاما ما معناه : ها هنا رجلا من الأبدال . يع

محمد السبتى ، ولم يبينه المصمودى لعمر الموصلى إلا بعد موت السبتى قال : وكان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحداً . وفى هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أطسيس بن الكامل صاحب مكة واليمن ودفن بالمعلى وكان عسوفا لكنه قمع الخوارج ونفى الزيدية من مكة وأمن الحاج بها ، وكان الناس بمكة فى أيام دولتهم فى أمن وخصب ، وكان ملكها سنة تسع عشرة وستمائة وبنى القبة التى على المقام . وجاءنا الخبر من المدينة شرفها الله فى آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبى عبد الله محمد الغمارى ، وكان مجاوراً بالحرمين من صغره ، وكان كثير الاحسان إلى الفقراء . وجاءنا الخبر من مصر بوفاة أبى الحسن على بن صالح القلينى من قرية بمصر يقال لها قلين وكان من أصحاب الشيخ الشاطبى وحج مع شيخنا أبى الحسن السخاوى وهو الذى أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قصيدة شيخنا الميمية وإياه عنى شيخنا بقوله : —

(واعفر لمنشدها على ذنبه)

وانقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام ومصر

وفيها : توفى البهاء ابن الحنبلى اخو الناصح والشهاب وهو الأكبر والناصح بعده بتسع سنين ، والشهاب بعد الناصح بتسع سنين . ومات الشهاب سنة تسع عشرة وستمائة فى شهر ربيع الأول .

سنة ٦٢٧ ﻫ:

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة : فى خلافة المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب . ففى ليلة الجمعة سادس عشر صفر توفى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة بن عبد الله بن الحسن الشافعى المعروف بزين الأمناء بن عساكر رحمه الله . وكان شيخا صالحاً كثير الصلاة والذكر وعمره نحو ثلاث وثمانين سنة إلا شهراً وأربعة عشر يوماً لأنى رأيت بخطه أن مولده سلخ ربيع الأول سنة أربع وأربعين وخمسمائة وكانت له روايات كثيرة لكتب الحديث وغيرها عن غير الحافظ أبى القاسم على ، والصائن أبى الحسن هبة الله بن الحسن ، وأمه أسماء بنت أبى البركات محمد بن الحسن بن الدان خالة محيى الدين القاضى ولم يزل الناس ينتفعون عليه بالسماعات حتى توفى . وكان قد أقعد فى آخر عمره وكان يحمل فى محفة إلى الجامع وإلى دار الحديث التى انشأها نور الدين بن زنكى رحمه الله ليسمع عليه . أجاز لى جميع مايرويه وسمعت عليه طائفة من كتب الحديث ودفن رحمه الله عند قبر أخيه الفقيه المفتى أبى منصور عبد الرحمن بن محمد المعروف بالفخر بن عساكر بالشرف القبلى ظاهر دمشق واجتمع فى جنازته خلق كثير حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله .

وفيها : فى ربيع الآخر تسلم الأشرف بن العادل بن أيوب قلعة بعلبك من ابن عمه بهرام شاه ابن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وقد كان حصارها قد طال ثم دخل الأشرف الى بلاد الشرق واستخلف على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب .

وفيها : فى حادى عشر شهر جمادى الأولى توفى الشيخ بيرم المارديني صليت عليه بجامع دمشق وخرجت

فى جنازته الى الجبل فدفن شرق مقبرة ابن شيت على تل هناك . وكان شيخاً صالحاً ، محبا للعزلة والانفراد، صابراً على الفقر والجوع ، كثير الصوم والمجاهدة . وكان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاويه الدولعى ؛ وتعرف قبله بزاوية القطب النيسابورى ، وقبله بزاوية نصر المقدسى ، واسمه : بيرم أوله باء معجمة بواحدة من تحتها وهى مفتوحة وبعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها . وبعدها راء مفتوحة . وفى جمادى الآخرة جاء الخبر بان خوارزم شاه ملك بلاد خلاط واستولى عليها ، وقتل كثيراً من أهلها . وجاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة وقتلوا خلقا كثيراً ، وأسروا كذلك وقدموا ببعض الأسرى الى ساحل الشـــام فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم . وفى آخر شعبان المعظم حوط احمد بن عبد الرحيم بن على بن الحسن بن احمد البيسانى المعروف بابن القاضى الفاضل درابزيناً شمالى بركة الكلاسة شمالى جامع دمشق وجعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب فى المقصورة التى تليها التى أنشأها والده ثم خرب ذلك جميعه وأضيف الى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية وبقى ذلك يقرأ فيـــه الحديث وفيه خزائن الكتب . وفى سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب بأنه التقى الخوارزمى وكسره وذلك فى أواخر رمضان ، وقد كان الخوارزمى قد استولى على بلاد خلاط فسار الأشرف من دمشق واتفق هو وملك الروم على لقائه فجمعوا العساكر والتقوا معه والتقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان . وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه : ان ذلك كان فى الثامن والعشرين وانكسرت الخوارزمية ووقع منهم فى واد خلق فهلكوا . وهبت عليهم رياح ، ونهبوا وأخذوا وتبعوا الى يوم عيد الفطر ، وانبثت البشائر فى البلاد لأن هذا الخوارزمى كان لا يأخذ بلداً إلا قتل أهله وسبى وسلب الأموال ، وفسقوا بنسائهم وأولادهم ، وقد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فوعده بالنصر عليهم . فقال : ياموسى انت منصور عليهم ، ومظفر بهم . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم سار الأشرف فاسترد بلاد خلاط وأوغل فى طلب الخوارزمى فى بلاده ثم رجع وانقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام فصارت ثلاث سنين متوالية لانقطاع الحاج من الشام .

سنة ٦٢٨هـ:

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة فى خلافة المستنصر بالله أبى جعفر بن الظاهر وسلطان دمشق الأشرف بن العادل بن أيوب ونائبه فيها أخوه الصالح بن العادل فنى أولها : أحدثت الأمامة للصلوات الخمس بمشهد أبى بكر شرق جامع دمشق جعل له امام راتب .

وفيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية فان نيلها نقص فى شوال سنة سبع وعشرين وهو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط .

وفيها : فى صفر توفى الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق فى زمانه . وهو الذى وقف داره مدرسة للأطباء وهى بنواحى الصاغة العتيقة . ومولده بدمشق سنة خمس وستين وخمسمائة . قال القوصى أنشدنى الحكيم الفاضل أبو الحسن (١) بن التلميذ فى

(١) هو هبة الله بن صاعد الطبيب النصرانى لكن الشعر ليس لنفسه بل لابن أفلح كما فى أخبار الحكماء (ز).

الاسرائيلى صاحب المعتبر :ـ

لنا صديق يهودى حماقته اذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

وفى صفر هذه السنة توفى أيضا مجد الدين البهنسى . واسمه : الحارث بن مهلب بن حسن المهلى حكى عن والده مقطعات من شعره وغير ذلك . وكان والده نحوياً أديباً فقيهاً ، وكان قد وزر للأشرف بالشرق ، ثم نكب بحران واعتقل مدة وكشف عليه فى حلب نعمته ثم أفرج عنه وأقام بدمشق الى أن توفى بها ودفن فى التربة التى وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون .

وفيها : فى آخر ربيع الآخرة سافرت الى الديار المصرية فدخلت دمياط فى جمادى الأولى ، والقاهرة ومصر فى جمادى الآخرة ، والاسكندرية فى ذى الحجة (١) .

وفيها : ولد أخى أبو محمد بن اسماعيل . وفيها:فى مستهل ذى الحجة توفى الزين النحوى يحيى بن معطى الزواوى رحمه الله بالقاهرة وأنا بها وصلى عليه بجنب القلعة عند سوق الدواب وحضر الصلاة عليه السلطان الكامل بن العادل ودفن بالقرافة فى طريق قبة الشافعى رحمه الله على يسار المار اليها على حافة الطريق محاذياً لقبر أبى ابراهيم المزنى رحمه الله . حضرت دفنه والصلاة عليه . وكان آية فى حفظ كلام النحويين .

وفيها : توفى الزين الكردى أبو عبد الله محمد المقرئ، وكان من أصحاب الشيخ أبى القاسم الشاطبى رحمه الله توفى بدمشق وأخذ مكانه فى الجامع شيخنا أبو عمرو بن الحاجب . وحج الناس فى هذه السنة من الشام ، ومصر . وفيها حج شيخنا ابن الصلاح ثم انقطع الحاج بعد هذه السنه .

وفيها : توفى الملك القاهر تاج الملوك اسحاق بن العادل والله أعلم .

سنة ٦٢٩ هـ :

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة وأنا بالاسكندرية فى خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر وسلطان دمشق الأشرف بن العادل ، وفى الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل.

ففيها : رجعت الى دمشق فى سابع ربيع الآخر فوجدت العماد المحلى مريضاً ومات فى تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر واسمه : حسام بن غزى بن يونس وكان ظريفا شاعراً حسن المحاضرة ودفن فى مقابر الصوفية حضرت دفنه وله ترجمة حسنة فى معجم القوصى . وفى مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم المعروف بالعلم ابن النحاس ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه وكان شابا حسنا دينا حسن الخلق والسمت رحمه الله .

---

(١) وفى شوال من هذه السنة توفى بدمشق بهرامشاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك كما استدرك ابن كثير (ز) .

وفيها : فى تاسع جمادى الأولى توفى القاضى شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن احمد الشيبانى الحنفى المعروف بابن الموصلى ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ومولده فى رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وخمسمائة وأجاز لى جميع مايرويه وكان شيخاً ديناً لطيفاً .

وفيها : فى إحدى الجماديين عزل القاضيان الشمسان الخوبى وابن سنى الدولة وولى مكانهما قاضى القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستانى وعزل فى سنة احدى وثلاثين وستمائة ، وتولى ابن السنى .

وفيها : وصل الينا الخبر بوفاة الشيخ ابن عيسى بالاسكندرية وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السلفى وغيره وأجاز لى جميع مايرويه .

وفيها : توفى الجمال بن الحافظ عبد الغنى الحنبلى ودفن بالجبل . وفيها : توفى ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبى الحسن بن سيدهم المصرى ويعرف أبوه بصمد(؟) يعقوب بدمشق عند يوسف بن أبى الحسن. وكان كما أخبرنى أديباً فاضلا ومن شعره :—

أرسلت من كبد لما رميت به ... ما سار من كبد إلا الى كبد

وهذان المستنصر بن الظاهر بن الناصر وأنا بدمشق . ففيها أنشئت دار تعرف أولا بدار قايماز النجمى وولى الاشتغال فيها مستهل رمضان قدومه من الحاج ولبث اذ ذاك بمصر وكان قد أنشدنى لأخيه : —

القوس ابنها ؛ فغـدت تهن ... والأم قد تحنو على الولد

من الأبيات الفائقة .

سنة ٦٣٠ هـ:

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة . فى خلافة المستنصر وفيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التى أنشأها الأشرف موسى بن أبى بكر بن أيوب . وفى هذه السنة توفى جماعة من السلاطين منهم : المغيث بن المغيث بن العادل ، والعزيز عثمان بن العادل وابنه. توفى العزيز عثمان ليلة الحادى عشر من رمضان وتوفى المغيث فى حصار حصن كيفا فى المحرم ومظفر الدين صاحب أربل وغيرهم. مولد العزيز عثمان فى ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ومات بالنعيمة .

سنة ٦٣١ هـ:

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة ففيها : توفى بهاء الدين بن أبى اليسر فى خامس عشر المحرم ومولده سنة خمس وستين وخمسمائة .

وفيها : مات الشيخ أبو الحسن على بن أبى على بن محمد بن سالم التغلبى المعروف بالسيف الآمدى ودفن بجبل قاسيون رابع صفر وكان حسن الأخلاق ، كبير القـدر فى معرفة الأصولين ، والجدل ، والخلاف ، والمنطق ، وعلوم الأوائل ، وصنف فيها كتبا كثيرة .

وفيها : فى شعبان توفى القاضى عبد الرحيم بن محمد بن الحسن بن عساكر . روى عن محمد وغيره ومولده سنة تسع وخمسين وخمسمائة بدمشق فى رمضان المبارك .

وفيها : فى شعبان أيضا توفى بالموصل العز على بن محمد بن عبد الرحيم الجزرى المعروف بابن الأثير المؤرخ (١) صاحب المصنفات ولد سنة خمسين وخمسمائة . وفيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن ابن اسماعيل فى الثالث والعشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

وفيها : جاءنا الخبر الى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبى عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبى بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر صفر من هذه السنة وصلى عليه الشرف محمد بن أبى الفضل المرسى وأخبرنى بدمشق ان وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة احدى وثلاثين وستمائة ودفن بالبقيع قريبا من قبر عثمان رضى الله عنه . وكنت اجتمعت به بالمدينة وبمصر وأجاز لى رواية مايصح عنه روايته ، وكان اماما قدوة له قبول عند أهل الآخرة وأهل الدنيا .

وفيها : توفى عندنا بدمشق النجم التفليسى واسمه ثابت بن ناوان وكان كبير المحل ، حسن الاخلاق مشتغلا بعلم الشريعة والطريقة ودفن فى مقابر الصوفية . وفيها : توفى الزين بن قفرجل (؟) والشمس ابن قوام . وكانا من خيار عدول البلد . وفى ليلة الجمعة خامس شوال توفى البرهان أبو الحسن اسماعيل ابن أبى جعفر بن على القرطبى أمام الكلاسة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون عند قبر والده وكانت له جنازة عظيمة . سمع على الحافظ أبى القاسم بن على وعلى غيره وحضرت دفنه والصلاة عليه ، وكان فى حياته منقطعا بالمنارة الشرقية مشتغلا بالطهارة والصلاة . ثم مات الشيخ عبد الله الأرمنى وكان شيخاً صالحا منقطعا بالجبل بعد البرهان بخمس عشر ليلة أو نحوها . وكانت له جنازة حفلة رحمه الله . ثم جاءنا الخبر فى هذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، وكان مشهوراً بالعلم ، واللطف ، والتواضع رحمه الله . وفى هذه السنة أحدثت القيسارية التى وراء سوق النحاسين بفتح بابها الى الزيادة ونقل اليها سوق الصاغة وكذلك ما أحدث من الدكاكين فى وسط الزيادة وكان فى هذه السنة.

وفيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم وبين ابن أيوب ، ولم يحج فى هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

سـنة ٦٣٢ هـ:

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . ففيها : توفى الشهاب ابن عصرون فى ليلة الثامن والعشرين من المحرم وهو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبى سعد . وفى المحرم توفى البدر الوكيل بمجلس الحكم واسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ودفن بالجبل . روى عنه والقصى فى معجمه .

---

(١) مؤلف الكامل وأسد الغابة (ز) .

وفيها : توفى القاضى بهاء الدين بن شداد بحلب واسمه يوسف بن رافع بن تميم ، وكان من رؤسائها وكان للناس به نفع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لى جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر وعندقبة الشافعى رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وستمائة . وفى هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفى الدين حسن بن أبى طالب البغدادى المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شاباً فاضلا ، أديبا . كتب لصاحب المدينة ثم وزر له . واشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذى الحجة سنة احدى وثلاثين جماعة من السفهاء على باب مسجد المدينة على ساكنها السلام قبيل العشاء الآخرة فضربوه باسيافهم حتى قتلوه وهو داخل من باب المسجد . أخبرنى بذلك الشيخ أبو الفضل المرسى قدم علينا فى هذه السنة . وكنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مراراً وبالمدينة فى حجتى سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين وستمائة .

وفى مستهل سنة اثنتين وثلاثين توفى الشهاب السهروردى ببغداد ، وكان كبير القدر والشأن ؛ وله تصانيف فى علم التصوف وقدم دمشق مراراً وأنا بها صغير ، وعقد بها مجلس الوعظ ولم أره رحمه الله ومولده سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . واسمه : عمر بن محمد بن عبد الله البكرى .

وفيها : فى ثالث جمادى الأولى ولد أخى عبد الحليم بن اسماعيل جعله الله مباركا . وفيها : فى سادس عشر شهر رجب المرجب توفى الشيخ العدل أبو على الحسن بن يحيى بن صباح المصرى ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بظاهر دمشق خارج باب الفراديس سمعت عليه أكثر الخلعيات ولى منه أجازة ومولده بمصر فى جمادى الأولى سنة احدى واربعين وخمسمائة . وكانت له ديانة ؛ واصالة ، وأمانة ، وعدالة رحمه الله . وفى هذا الشهر خرب خان بالعقيبة . كان كثير الفسق والفساد ليجعل مسجداً يصلى فيه الجمعة ثم جامعا كبيراً حسنا سمى بجامع التوبة وذلك فى أيام الاشرف أبى الفتح موسى بن أبى بكر بن أيوب . وهو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير . وفى ليلة الاحد تاسع شعبان توفى التقى بن ماسويه واسمه : أبو الحسن على بن أبى الفتح المبارك بن الحسن بن احمد بن ماسويه بدمشق ودفن بباب الصغير وكنت مريضا تلك الايام فلم يقدر لى شهود جنازته. وكان شيخا خيراً حسن الاخلاق متواضعا لطيفا مشهورا بالقراآت سمع من الحازمى وغيره وأجاز لى رواية جميع ما يرويه ، وذكر لى انه ولد سنة ست وخمسين وخمسمائة رحمه الله .

سنة ٦٣٣ هـ :

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . ففيها : توفى أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث فى ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ولى منه اجازة

وفيها : توفى البهاء الأرانى واسمه عبد الخالق بن الشافعى وكان شيخاً متديناً عالماً مشهوراً ببلاده ثم انتقل إلى دمشق فى آخر عمره ومات بها فى خامس عشر شوال من هذه السنة ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس.

وفيها : فى ذى القعدة وصل الينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين أبو الطاهر محمد ابن عبد الرحمن الجابرى من ولد جابر بن عبد الله الانصارى رضى الله عنه . واشتهرت نسبته بالمحلى

وكان من أصحاب الشيخين الشاطبى ، والقرشى وكنت اجتمعت به فى مصر غير مرة رحمة الله عليه . وله سنة أربع وخمسين وخمسمائه .

وفيها : مات أبو على الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوى البغدادى ذكره القوصى فى معجمه .

سـنة ٦٣٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ففى ثالث منها توفى الناصح بن الحنبلى الواعظ . واسمه : عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الانصارى . وكان واعظا متفننا ، وله مصنفات . وله بنيت المدرسة التى بالجبل (١) للحنابلة رحمه الله ومولده سنة أربع وخمسين وخمسمائة . ومات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع وعشرين وستمائة ومولده سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

وفيها : جاءنا الخبر بموت ابى عمر وعثمان بن دحية بالقاهرة وهو أخو أبى الخطاب المقدم ذكره رحمه الله .

وفيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضى أبو مروان محمد بن احمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن احمد بن عبد الله بن محمد بن على بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمى الاندلسى الاشبيلى من بيت كبير من الأندلس يعرف ببيت الباجى مشهور به . كثير العلماء والفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان وليس منهم أبو الوليد الباجى الفقيه ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس . قدم أبو مروان حاجا من بلاده فى البحر إلى عكا من ساحل دمشق ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية وجده الأعلى احمد بن عبد الله بن محمد بن على قدم الديار المصرية وحج منها ومعه ولده محمد بن احمد ويعرف بصاحب الوثائق وسمعوا بها جماعة من العلماء . وذكر أبو عبد الله الحميدى احمد بن عبد الله هذا فى تاريخه « جذوة المقتبس » وكناه أبو عمر وذكر أنه سكن اشبيلية واثنى عليه كثيراً وقال مات فى حدود الأربعمائة . روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ، وأبوه عبد الله بن محمد بن على يعرف بالراوية . وذكره الحميدى أيضا . وذكر ابن بشكوال فى كتاب الصلة : عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأثنى عليه وقال : توفى فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان هذا أبو مروان سلمه الله حسن الأخلاق ، فاضلا ، متواضعا ، محسنا . وسمعته يقول وقد سئل فى إعارة شىء فبادر اليه بنفسه ثم قال : أنا عندى فى قوله تعالى : (ويمنعون الماعون) هو كل شىء . واستفدنا من هذا الباجى فائدة جليلة وهو معاينة قدر مد النبى صلى الله عليه وسلم فانه عندهم متوارث . وقد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم فى كتابه « المحلى » عايرته الحمد لله أنا بدمشق حينئذ وهو الكيل الكبير فوجدت مدنا يسع صاعين إلا يسيراً ووجدته ممسوحا يسع صاعا ونصفاً أو شيئاً فيكون مدان ممسوحان ثلاثة اصبع زائدة . عندى طاسة بيضاء صغيرة عايرتها به فوجدتها تسع مدين وهما نصف

(١) فى الصالحية بنتها الصاحبة ربيعة خاتون اخت العادل وبها دفنت .

صاع . قرأت فى كتاب « المحلى » لابن حزم : وخرط لى مد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله ابن على الباجى ، وهو عند أكبرهم لايفارق داره . اخرجه الى يحيى الذى كلفته ذلك عبد الله بن احمد ابن عبد الله بن على المذكور . وذكر أنه مد أبيه ؛ وأن جده أخبره وخرطه على مد أحمد بن خالد واخبر أحمد بن خالد انه خرطه على مد يحيى الذى أعطاه إياه ابنه عبيد الله بن يحيى . وخرطه يحيى على مد مالك . قال أبو محمد : ولاشك أن أحمد بن خالد صححه أيضاً على محمد بن وضاح الذى صححه ابن وضاح بالمدينة . قال أبو محمد : ثم ملأته بالقمح الطيب ثم وزنته فوجدته رطلا واحداً ونصف رطل بالفلفلى لايزيد حبة وكلته بالشعير إلا انه لم يكن بالطيب فوجدته رطلا واحدا ونصف أوقية سألت عن الرطل الفلفلى فقيل لى هوست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم وفى تقدير ابن حزم نظروالله أعلم توفى هذا الشيخ رحمه الله بمدينة القاهرة سنة خمس وثلاثين بعد رجوعه من الحج أتانا خبره بدمشق .

وفى هذه السنة جاءنا الخبر بأن الكفار من الترك وهم التاتار خذلهم الله ملكوا مدينة اربل وفعلوا فيها ما هى عادتهم فى البلاد التى أخذوها قبل وكان دخولهم أيضاً فى التاسع والعشرين من شوال سنة أربع وثلاثين ، ثم هزمهم الله وشردهم على يدى عسكر الخليفة المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر ابن الناصر .

وفيها : فى الساعة الأولى من يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة أربع وثلاثين وستمائة ولد لى مولود سميته محمد وكنيته أبا الحزم جعله الله مباركا ذرية طيبة . ثم مات فى أواخر جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة وله ثمانى سنين ونصف رحمه الله .

وفى هذه السنة : توفى جماعة من الملوك منهم : ملك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . ومنهم : صاحب بلاد الروم علاء الدين فى خامس شوال . وانقطع الحاج هذه السنة من ناحية العراق ، وخرج الحاج من الشام وجرت عليه نكبة شديدة من جهة العطش بأرض بسيط قبل وصولهم شجر بنحو ثلاث مراحل .

سـنة ٦٣٥ ﻫ :

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائه ففى رابع المحرم منها توفى بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ودفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل اليها وتولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب.

وفيها : توفى الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكى النحوى فجأة رحمه الله ورضى عنه وفى أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق وفيها الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب حاصره الكامل أخوه وابن أخيه الناصر داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست وعشرين إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا فى ظاهر البلد وحريقا ومصادرة وأقل غلاء ولم تطل مدته فان الصلح جرى فى أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء ووافق اليوم الذى كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذى فتحت فيه آمد. كل ذلك يوم الأربعاء ، وفى يوم الاحد الآتى بعد يوم الصلح

توفى خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبى الفضل بن ياسين الدولعى . قلت : وتوفى الدولعى يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة . ودفن بجيرون فى مدرسته التى أنشأها وتولى مكانه فى التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام وولى الخطابة بعد الكمال بن طلحه فى أواخر شعبان

وفيها : فى ليلة الخميس ثانى عشر جمادى الآخرة توفى القاضى شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازى ودفن من الغد فى الجبل وقد بلغ من العمر ستا وثمانين سنة أو نحوها . وكان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبى القاسم بن عساكر حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله ورضى عنه . ولقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا . عالما بمذهب الشافعى مفتيا فيه . تولى القضاء ببيت المقدس ثم بدمشق مرارا .

وفى ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لاتصلى فى المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد وهو خطيب الجامع وأبطل ما عداه من أئمة الحنفية والحنابلة والمشهدين . وذلك لما كان فى امامتهم من التشويش على المصلين فى صلاة المغرب لأنهم يسرعون فى الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات لأنهم يكونون فيها مترون .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفى ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن على بن نصر الله بن على بن الحسن بن الحسن بن أحمد الكلالى الدمشقى بمصر . وكان فقيها . فاضلا من أهل بيت علم دمشقى الأصل ، وكان قد ولى التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

وفيها : يوم الجمعة سادس رجب توفى أمين الدين بن قوام وكان من خيار عدول البلد وأصله من الرصافة . وفيها : ليلة الخميس الثانى والعشرين من رجب توفى بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبى بكر بن أيوب وكان مدة ملكه بدمشق شهرين ونصف شهر تقريبا وكان بينه وبين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوما فسبحان من لايزول ملكه . ودفن بقلعة دمشق إلى أن بنيت تربته جوار الجامع شماليه بين دويرتى السميساطى . ونقل اليها ليلة الجمعة الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وستمائة . وتولى دمشق والديار المصرية بعده ولده العادل . وكان نائبه بدمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل بن أبى بكر بن أيوب ، وتولى بلاد الجزيرة ، وديار بكر ، وربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد .

وفيها : فى سادس عشر شعبان توفى القاضى زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدى . عرف بابن الأستاذ بحلب وهو قاضيها يومئذ بعد القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد الموصلى رحمه الله ، وكان فاضلا ، عالما ، رئيسا حسن السمت والخلق عفيفا قدم دمشق مرات وكان أبوه من الصالحين .

وفيها : فى خامس ذى القعدة توفى القاضى شمس الدين يحيى بن هبة الله المعروف بابن سنى الدولة قاضى قضاة دمشق يومئذ ودفن بالجبل وكان كبير السن وله جنازة حفلة حضرت الصلاة عليه بالجامع

وشيعته إلى مصلى باب الفراديس رحمه الله وكان تولى القضاء بالقدس الشريف قديما . ثم تولى نيابة القضاء بدمشق مرات من قبل الزكى الطاهر بن محمد بن على ومن قبل الجمال عبد الصمد بن الحرستانى . ثم وليه شركة مع الشمس الخوبى مدة ، ثم عزلا ... إلى العماد عبد الكريم بن عبد الصمد بن الحرستانى ، ثم عزل ابن الحرستانى وولى ابن سنى الدولة استقلالا فلم يزل قاضيا حتى توفى فى التاريخ المذكور . وتولى بعده استقلالا شمس الدين أحمد بن الخليل الخوبى فعدل جماعة من أهل البلد منهم كاتب هذه الأحرف أى منشىء الكتاب ، تولى الخوبى يوم الاثنين سابع ذى القعدة المذكورة.

وفيها : توفى الشيخ أبو العباس بن القسطلانى بمكة شرفها الله تعالى ودفن بالمعلاة رحمه الله :

وفيها : تولى كمال الدين بن طلحة الخطابة بجامع دمشق وخطب يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان . وفى آخر سنة خمس قبض على الصفى ابراهيم بن مرزوق واستصفى جميع ماله واودع السجن ثم نقل إلى سجن حمص وانقطع خبره إلى جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة . ثم أنه أخرج من سجن حمص وقدم إلى دمشق . وفيها : قدم دمشق أبو الفضل جعفر الهمذانى من أهل الاسكندرية من أصحاب السلفى وسمع عليه بها

سـنة ٦٣٦ هـ

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبى بكر بن أيوب. وبالأراضى المقدسة وأعمالها الناصر داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب . وبالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبى بكر بن أيوب .

وفيها : توفى شيخ أصحاب أبى حنيفة بدمشق جمال الدين محمود بن احمد بن عبد السيد البخارى المعروف بالحصيرى وكان رحمه الله مسناً فقيهاً ديناً متواضعاً مولده ببخارى فى جمادى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، وقدم دمشق فتولى تدريس النورية فى سنة إحدى عشرة وكان بها الشرف داود بعد برهان الدين مسعود وتوفى ثامن صفر من هذه السنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق وبنى قبره بحجارة. حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع المعمور ، وكانت له جنازة حفلة رحمه الله .

وفيها : فى السادس والعشرين من صفر توفى بدمشق الشيخ أبو الفضل جعفر بن على بن أبى البركات ابن جعفر بن يحيى الهمذانى المقرىء المحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبى الطاهر السلفى، وكان قدم دمشق فى صحبة الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب وبلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة ودفن بمقابر الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان(؟) التفليسى رحمهما الله . حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر وشيعته الى المقبرة المذكورة المظلة على وادى البردى ، وكنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله سنة كنت بها وهى سنة ثمان وعشرين وستمائة فى آخرها ، ثم رأيته بدمشق وأجاز لى ولولدى محمد وفاطمة رواية جميع مروياته .

وفيها : فى السادس والعشرين من جمادى الأولى توفى الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ

صدر الدين على بن حمويه قفز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق فقتله أحدهم ودفن فى الغد بجبل قاسيون حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته الى مسرح سوق الخيل والغنم . وكانت له جنازة حفلة . وكان من بيت علم وتصوف وإمرة رحمه الله ، وكان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعرى ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة احدى وثمانين وخمسمائة بدمشق .

وفيها : فى مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب واستوزر الصاحب جمال الدين على بن حرير وحاصر حمص وقصـد الديار المصرية .

وفيها : توفى السديد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصى الى فى حق ولده عبد الله يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ودفن على أبيه بباب الصغير ، وكان حج سنة عشر وستمائة صحبة والدى رحمه الله ، وهى حجة والدى الأولى من أربع حجات . ومولده على ما رأيته بخط عمى أبى القاسم رحمه الله قال : ولد أبو الفتيان بن الشيخ الامين السديد أبى القاسم بن عبد الرزاق فى العشر الأول من رجب سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وفى الليلة المذكورة حج والده الى مكة حرسها الله .

وفيها : يوم الجمعة سابع وعشرين جمادى الآخرة توفى الصاحب جمال الدين على بن سلامة بن البطين ابن جرير (١) الرقى ، وكان وزيراً للاشرف ثم وزر للصالح بن الكامل ودفن بمقابر الصوفية .

وفيها : ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ماذكره المشايخ بلغت غرارة الحنطة خمسة وعشرين ديناراً بالمصرية وذلك مائتا درهم وخمسة وعشرون درهما ، وزاد رطل الخبز الخرجى على درهم وجميع أنواع المطعومات غلت ، ثم ان الأسعار أخذت فى الارتخاء فى أواخر هذه السنة والحمد لله تعالى .

وفيها : توفى الحافظ زكى الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالى الاشبيلى بحماة رابع عشر رمضان جاءنا خبره الى دمشق ، وكان رحمه الله معتنياً بعلم الحديث ، مفيداً لأصحابه متواضعا أقام بدمشق سنين كثيرة بمسجد فلوس وغيره ، وكان شيخ الزاوية بمشهد ابن عروة فى الحديث ثم سافر فى هذه السنة الى حلب فلما رجع الى حماة توفى رحمه الله .

سـنة ٦٣٧هـ:

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب ، وبمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين . ففيها : فى أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد الله بن صابر السلمى . عرف بابن سيده من أهل بيت كبير من دمشق من أهل العلم والحديث والتصوف وصحب الشيخ عتيقا وغيره رحمه الله كان يخضب . وليلة عاشوراء مات التقى محمد بن طرخان بن أبى الحسن الصالحى الحنبلى ، وكان من المشهورين برواية الحديث.

---

(١) وفى ابن كثير (ابن حديد) (ذ) .

وفيها : توفى الضياء بن الأثير بالموزرقة من بغداد وهو مرسل اليها ، وهو صاحب « المثل السائر » و«الوشى المرقوم» وكان قد وزر للأفضل .

وفيها : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق الى تربته شمالى الجامع فى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الأول .

وفيها : يوم الثلاثاء التسع والعشرين من صفر قدم دمشق صاحب بعلبك وحمص الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شادى ، والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى فدخلاها بعسكر وجند عنوة من غير حصار ، وفى الغد ملكا القلعة ، وخربت بذلك دار الحديث الاشرفية وغيرها من الدور والحوانيت تحت القلعة ؛ وكان بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب ، وكان أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس فى عسكر له تقدم أوله الى غزة على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده ورجعوا الى دمشق وبقى فى جمع قليل فأخذه ابن عمه الناصر داود بن عيسى بن أبى بكر فسجنه بقلعة الكرك الى أواخر رمضان من هذه السنة فاخرجه الناصر واتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذاها وقبضا على العادل بن الكامل وكان دخولهما مصر فى ذى القعدة من هذه السنة ثم رجعوا الى دمشق فى ذى القعدة سنة اثنتين واربعين وستمائة .

وفيها : توفى فى المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبى النجم بن البطريق الشاعر الجزرى الأديب وله شعر حسن فائق رحمه الله .

وفيها : فى شهر رجب المرجب توفى صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى بحمص وجاء الخبر الى دمشق وعمل له العزاء بها بجامع دمشق فى الحادى والعشرين من رجب رحمه الله .

وفيها : توفى بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضى القضاة بالشام يومئذ شمس الدين احمد ابن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوبى الشافعى بالمدرسة العادلية ودفن من الغد بجبل قاسيون ، حضرت دفنه والصلاة عليه وكان مولده سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فيما قرأته بخط ولده محمد وكان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا كثير الانصاف عالماً فاضلا فى علوم متعددة جمة محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا الى الناس ، وكانت له جنازة حفلة . وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندى بخطه فقلت فيه :—

احمد بن الخليل أرشده الله	لما أرشد الخليل بن أحمد
ذاك مستخرج العروض وهذا	مظهر السر منه والعود أحمد

ومن لطفه ماقاله بالمئذنة الشرقية من اجتماع الفقر والقناعة انه قال : ما أقدر على امساك المناصب .
وتولى القضاء بعده بدمشق والتدريس بالمدرسة العادلية رفيع الدين عبدالعزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل ابن عبد الهادى بن عبد الله الجيلى الشافعى . وكان قاضى بعلبك قبل ذلك لكن ظهر منه سوء سيرة .

وعسف وفسق وجور ومصادرة فى الأموال لا سامحه الله .

وفيها : فى العشر الآخر من ربيع الآخر تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالامامة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم السلمى مفتى الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامع البدعة . قلت : ذكر العز بن عساكر فى المقاومات أنه تولى ابن حلكان خطابة دمشق فى يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة والله أعلم . وفى ربيع الآخر يوم الاحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوى مع الفرنج على غزة وقتل ابن علكان .

وفيها : توفى العلم العطار الأشبيلى المحدث وكان فاضلا دينا فى شوال من هذه السنة ، والصفى ابن المركب فى يوم واحد ، ودفنا بمقبرة الصوفية خضرت دفنهما والصلاة عليهما .

وفيها : فى سادس عشر ذى القعدة فى شهر حزيران فى أيام المشمش جاء مطر عظيم نهاراً جرت منه سيول عظيمة هدمت كثيراً من الحيطان والبيوت ، وكنت يومئذ بارض المزة . وفيها : توفى بمكة الفقيه على الطبرى خطيب مكة وامام المقام رحمه الله تعالى .

سنة ٦٣٨ هـ:

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة فى خلافة المستنصر بالله وسلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب ، وبمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب .

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون الى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق وأنكر ذلك عليه شيخا الشافعية والمالكية بدمشق ابن عبد السلام وأبو عمرو فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب وسجنا بقلعة دمشق وتولى الخطابة بجامع دمشق ، والتدريس بالزاويه الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسى الشافعى .

وفيها : فى ثانى عشر ربيع الأول توفى الملك المظفر أبو الخطاب تقى الدين عمر بن الملك الأمجد صاحب بعلبك بارض نوى وحمل الى دمشق ودفن بتربة والده وجده بالشرف الشمالى وكان له نظم حسن كأبيه . ذكره القوصى فى معجمه .

وفيها . فى ثالث عشر ربيع الأول توفى والدى رحمه الله ودفن على أبيه بباب الفراديس . وفيها : فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر توفى بدمشق المحيى بن العربى واسمه : محمد بن على بن محمد بن العربى أبو عبد الله الطائى الحاتمى قرأته من خطه وذكره الزينى فى تاريخه ودفن بمقبرة القاضى محيى الدين بجبل قاسيون حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة وشيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، وكانت له جنازة حسنة ، وله تصانيف كثيرة ، وكانت عليه سهلة ، وله شعر حسن ، وكلام طويل على طريق التصوف وغيره ، وهو من بلاد الأندلس طاف البـلاد شرقا وغرباً وأقام بمكة مدة . وفى ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحى حلب .

وفيها : أسمعت ولدى محمد الحديث فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة .

وفيها : توفى القاضى نجم الدين أبو العباس احمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسى الشافعى المعروف بابن الحنبلى بدمشق فى يوم الجمعة سادس شوال سنة ثمان وثلاثين وستمائة ودفن بجبل قاسيون حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، وكان شيخا ، فاضلا ، دينا عارفا فى علم الخلاف وفقه الطريقة حافظاً للجمع بين الصحيحين للحميدى وكانت له رحلة فى طلب العلم إلى بلاد خراسان والعراق ، وكان متواضعا حسن الخلق رحمه الله . وكانت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن يونس بن بدران المصرى ، واحمد بن الخليل الخوبى ، وعبد الكريم بن أبى الفضل الحرستانى ، ويحيى بن هبة الله بن سنى الدولة ، وعبد العزيز الجيلى الى أن مات . ودرس بالمدرسة العذراوية ، والصارمية ، والحسامية ، والصالحية .

وفيها : توفى الشيخ سالم المغربى الهكورى الهيلانى هيلان نجد من قبيلة هكورة المقيم ببيت الآبار ، ودفن بها فى الرابع والعشرين من ذى الحجة وكان من الصالحين . وفى آخر هذه السنة وأول التى بعدها ظهر نقصان المياه من السماء والأرض ، نقصت الأنهار ، ونقصت الآبار وهلك الزرع والثمار .

سنة ٦٣٩ هـ :

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة فى دولة المستنصر بالله وسلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب ، وبمصر الصالح أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب. وعلى الأرض المقدسة الناصر داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب . ففيها : توفى العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغورى وكان شيخا مبنا ، عدلا ، مرضيا ، فقيها رحمه الله . وذلك فى عاشر شهر صفر المظفر. وفى ذلك اليوم أيضا توفى العفيف عرب بن عمر بن على الشافعى ودفنا فى مقبرة باب الصغير بعد صلاة الظهر ، حضرت دفنهما والصلاة عليهما :

وفيها : فى نصف ربيع الآخر توفى المعلم الذى كان بمكتب جاروخ جوار المدرسة العادلية وكان يروى الثمانين للآجرى عن الحافظ أبى الطاهر السلفى سماعا ، وقرأها لابنى فسمعها عليه بقراءتى . وكان شيخا ، أديبا ، شاعراً له شعر لابأس به رحمه الله .

وفيها : فى الثالث والعشرين من جماذى الأولى توفى المجد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعى ودفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

وفيها : وصل الى الديار المصرية شيخنا عز الدين بن عبد السلام وحصل له من سلطانها الصالح بن الكامل قبول عظيم على ما بلغنا وتولى الخطابة والقضاء بمصر .

وفيها : توفى الشيخ أبو طاهر اسماعيل بن ظفر (١) بن احمد النابلسى بجبل قاسيون فى رابع شوال وكان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبى على الحداد ، وعنده عن أبى سعيد الصفار ، عن الفراوى أسمعت ولدى عليه من الطريقين فى ثانى شوال ثم توفى بعد الغد منه رحمه الله .

---

(١) وفى الشذرات (ظفر) (ز) .

وفيها: توفى بالموصل الشمس بن الخباز النحوى الضرير فى سابع رجب المرجب، والكمال بن يونس الفقيه فى النصف من شعبان رحمهما الله. وكانا فاضلى بلدهما فى فنهما.

وفيها: توفى بدمشق عبد الواحد الصوفى الذى كان قساً راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة أسلم قبل موته بأيام ثم توفى شيخا كبيراً بعد أن أقام بخانقاة السميساطى أياماً ودفن بمقابر الصوفية وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: فى يوم عرفة تولى قاضى القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام؛ وجمع له بين الخطابة والقضاء وذلك بعد وفاة القاضى شرف الدين الموقع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع فى بيته.

سنة ٦٤٠ هـ:

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة فى خلافة المستنصر أبى جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر. وسلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب، وبمصر ابن أخيه الصالح أيوب ابن محمد بن أبى بكر، وبالأراضى المقدسة ابن أخيه الناصر داود بن عيسى بن أبى بكر. ففيها: فى سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف. واسمها: بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكى، وفى ليلة وفاتها كان وقف تربتها والمدرسة بالجبل.

وفيها: توفى الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن يعرف بابن الدجاجية، ويعرف جده بابن أبيه. توفى ليلة الأحد الخامس والعشرين من المحرم أحد الرواة عن الحافظ أبى القاسم بن عساكر محدث الشام سمع منه وهو ابن خمس ونحوها. سمعت منه أنا وولدى محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبى القاسم ومروياته بسماعه لها منه ولله الحمد. وفى ثالث عشر صفر توفى كمال الدين بن احمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه بأرض غزة؛ وكان مقدم العساكر الصالحية يومئذ. جاءنا خبره الى دمشق.

وفى يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين وستمائة خطب بدمشق للامام المستعصم بالله احمد ابن المستنصر بالله أبى جعفر المنصور لوفاة أبيه وعقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله.

وفيها: توفى زين الدين أبو زكريا المالقى بمدينة غزة رحمه الله، وكان أديبا فاضلا وأسمعت عليه ولدى محمد صحيح مسلم.

وفيها: توفى يوم الجمعة سلخ رجب الشيخ الزكى ابو اسحاق ابراهيم بن الشيخ المسند أبى طاهر بركات ابن ابراهيم الخشوعى القرشى ودفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه وجده حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى قبره رحمه الله. وكان شيخاً مسنداً صالحاً، ولم يخلف بعده من يروى عن الصائن بن أبى الحسن هبة الله بن الحسن باجازة، ولا من يروى عن أخيه الحافظ أبى القاسم على بن الحسن مثله فى الكثرة. سمعت عليه أنا وولداى أبوالحرم محمد وأم الحسن فاطمة أشياء من آمالى الحافظ وغيرها ولله الحمد.

سـنة ٦٤١هـ:

ثم دخلت سنة إحدى واربعين وستمائة فى خلافة المستعصم بالله. ففيها: استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم سهل الله عودها إلى المسلمين.

وفيها: خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الأول السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب ثم قطع ذلك من السنة المذكورة.

وفيها: فى سابع عشر ربيع الآخر توفى الشمس بن المنجى واسمه: أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجى الحنبلى قاضى حران قديما وكان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية وتولى خدماً ديوانية فى الأيام المعظمية، وكان يروى عن أبى المعالى بن صابر. والقاضى الشهرزورى، وابن أبى عصرون. اسمعت عليه ولدى محمدا عنهم.

وفيها: فى ثامن عشر ربيع الآخر توفى الشيخ أبو البركات ميمون الدمورى (١) المغربى الضرير وكان من عباد الله الصالحين، فاضلا، عالما بعلم الطريقة، حسن المحاضرة. وصلى عليه بجامع دمشق ودفن بجبل قاسيون شمالى مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالى فى مغارة الدم وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة حضرت الصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: توفى العز بن المنجى أخو الشمس فى ذى القعدة من السنة ودفن بمدرسته بالجبل. ففيها: فى خامس عشر جمادى الأولى توفى الشيخ الحافظ تقى الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفنى رحمه الله ودفن بجبل قاسيون حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته إلى مصلى باب الفراديس، وكان عالما بالحديث دينا، متواضعا رحمه الله. سمع عليه ابنى محمد.

وفيها: توفيت الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب فى خامس عشر جمادى الآخرة. سمع عليها ابن محمد صحيح البخارى وغيره بقراءتى وقراءة غيرى.

وفيها: فى الحادى والعشرين من رجب توفى الخاص عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد ابن هلال العدل الدمشقى بها وكان أحد أصحاب الحافظ أبى القاسم وتوفى بجبل قاسيون سمع عليه ابنى محمد أجزاء بقراءتى عليه وقراءة غيرى.

وفيها: يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على أعوان القاضى الرفيع الجيلى الظلمة الأرجاس وكبيرهم الموفق حسين بن عمر بن عبد الجبار الواسطى المعروف بابن الرواس لارحمهم الله وسجنوا ثم عذبوا بالضرب، والعصر، والمصادرات ولم يزل ابن الرواس فى الحبس والعذاب إلى أن فقد فى أواخر جمادى الأولى من سنة اثنتين واربعين وستمائة. وبلغنى أنه أخرج ليلا وخنق عند تل اليهود والنصارى ورمى ثم. وفى يوم الجمعة ثامن عشر ذى الحجة تحقق صرف هذا القاضى الظالم وعزله ثم اخرج من داره وسجن بالمدرسة المقدمية بباب الفراديس ثم اخرج ليلا وذهب به فسجن فى مغارة

---

(١) وفى بعض الرموزى (ز)

افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره . وذكروا أنه توفى لا رحمه الله، فمنهم من قال : القي من شاهق، ومنهم من قال :خنق . وفى يوم الجمعة الآتى الخامس والعشرين من ذي القعدة قرىء منشور ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن على بن محمد بن يحيي القرشي بالجامع فى الشباك الكمالى .

سـنة ٦٤٢ هـ :

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصم بالله . ففيها : توفى شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الله بن حمويه رحمه الله فى سادس صفر ودفن على أبيه بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنه والصلاة عليه بجامع دمشق . وكانت له جنازة حفلة ، وكان رحمه الله سخيا ، متواضعا ، عالما ، فاضلا ، دينا صحيح الاعتقاد . سمع الحافظ أبا القاسم ابن عساكر ، والفقيه مسعود النيسابوري وأبا الفرج الثقفى . وأبا طاهر الخشوعي وغيرهم . سمعت عليه أنا وابنى محمد كثيراً وأجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

وفيها : تحقق موت القاضى الظالم الوضيع الملقب بالرفيع وأعوانه على ما سبق ذكره .

وفيها : مات جماعة من أصحابنا ومعارفنا منهم : الكمال مسعود بن احمد الحوراني الفقيه الشافعى توفى فى خامس جمادى الأولى ودفن فى مقبرة الصوفية . وبعده بيومين توفى الشمس محمد بن الجابى ودفن بمقبرة الصوفية أيضاً حضرت دفنهما والصلاة عليهما رحمهما الله تعالى . وفى هذا الشهر من السنة المذكورة كسرت الافرنج لعنهم الله ومن انضم اليهم من منافقى المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان وغزة وغنم منهم أموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وذهب رؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر ووقع الرعب فى قلب صاحب دمشق فتهيأ للحصار وخرب رباعا كثيرة حول البلد ، وغرقت المساكن التى على حافة بردى بين جسرى باب توما والسلامة بسبب خراب جسر باب توما وسده فرجع الماء وارتفع وصار بحراً فوقع ما كان على حافته والله المستعان . قلت : كانت هذه الوقعة بين عسكر مصر ومقدمه ركن الدين بيبرس الصالحى وبين عسكر الشام ومقدمه المنصور صاحب حمص ومعهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الأولى .

وفيها : فى نحو النصف من شعبان توفى الجمال سليمان بن عبد الكريم ابن اخت عبد العزيز الشيبانى، والشمس احمد بن محمد بن عمارة العرجي رحمهما الله

وفيها : فى خامس شهر رمضان توفى تاج الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا القاضى شمس الدين أبى نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازى رحمه الله ودفن بالجبل ، وكان خيرا ، متواضعا ، فاضلا ، امينا ثقة . سمع جده هبة الله بن محمد بن جميل ، وأبا عبد الله محمد بن على بن الحسن بن صدقة الحرانى وغيرهما ، وأجاز له الحافظ أبو طاهر السلفى ، قرأت لولدى محمد عليه أشياء من ذلك فسمعها عليه وحضرت الصلاة عليه بجامع دمشق صلى الامام عليه ; وعلى المؤذن المعروف بديك العرش مؤذن بيت المقدس فى ساعة واحدة . وكان هذا المؤذن مسنا وابتلى بمرض طويل رحمه الله وقبره بمقابر الصوفية . ومما سمعه ابنى محمد على ابن الشيرازى المذكور صحيح مسلم ، بسماعه من الحرانى ، عن أبى عبد الله الفراوي ، عن الفارسي، عن الجلودى ، عن ابراهيم، عن مسلم .

سنة ٦٤٣ هـ :

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، ومدينة دمشق يومئذ محاصرة . ففى الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم . ففى تلك الليلة احرق قصر حجاج ، والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ، ودور عظيمة ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، وكان جامعاً تقام فيه الجمعات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق ورميت به بين بابى الجابية والصغير ، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد وترامى الفريقان وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس ، وباب السلامة ، وباب الفرج ، واحرق حكر السماق خارج باب النصر ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء وزادت أوقية الخبز على نصف درهم وبلغ التبن أن بيع كل أوقيـــة بقرطاس ، ثم احرقت العقيبة فى أول ربيع الأول .

وفيها : فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر توفى صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهرى رحمه الله ، وكان فاضلا خيراً متواضعا مفضلا مفيداً حريصاً على تحصيل المسموعات ، رحل فى طلب الحديث وسمع وحصل الأصول ثم توفى رحمـــه الله ودفن بالجبل صلينا عليه بجامع دمشق وشيعناه إلى داخل باب الفرج ولم يمكن الخروج لوجود الحصار المذكور ، ثم توفى بعده فى سادس شهر ربيع الأول القوام الاصبهانى ، وكان كاتباً ، فاضلا ، شاعراً ، والمعين الأرموى وكان شيخاً ظريفا ، معمراً فى ثامن ربيع الأول ، ثم توفى فى ثالث عشر ربيع الأول المنتخب الهمذانى المقرىء بالمدرسة الزنجيلية رحمه الله ، وكان مقرئا مجوداً قرأ على الشيخ أبو الجـــود بمصر . وانتفع بشيخنا أبى الحسن فى معرفة قصيدة الشاطبى ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، وجحد حق تعليم شيخنا له وأفادته فالله يعفو عنا وعنه . حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته إلى داخل باب الفرج ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفى فى الثالث والعشرين منه التاج عبد الجليل الابهرى الصوفى وكان من أهل الحديث ذو سماعات كثيرة ، وبخطه طبقات جمة ، ونسخ كثيراً من كتب الحديث والفقه أسمعت عليه ابنى محمداً وله أجازة .

وفى ذلك اليـوم مات الصفى القارىء امام الجنـــائز ، وقبلهما بيوم توفى النـــاصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفى الشيخ حسن الصقلى القزاز وكان من المشهورين بالصلاح كل ذلك فى ربيع الأول .

وتوفى فى ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه الصـــوفى كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزمارى رحمه الله وكان شيخاً ، صالحاً ، فقيهاً ، مشهوراً ، من أصحابنا الشافعيين متضلعا من نقل وجوه المذهب وفهم معانيه . وهو أحـد من قرأت عليـه المذهب فى صباى وكان كثير الحج والخير . وقف جميع كتبه وفيها مصنفات جليلة تقبل الله منه . وهو الذى ذكره شيخنا أبو الحسن فى خطبة تفسيره وأثنى عليه وكان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير وفى أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

وفى يوم الأربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفى الشيخ الفقيه الامام مفتى الشام تقى الدين

أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، وحمل على الأصابع الى الجامع فصلى عليه بعد صلاة الظهر ، وكانت على جنازته هيبة ووقار ، وجمع متوفر ، ورقة شديدة واخبات وخشوع ثم خرج به الى باب الفرج ورجع النـــاس بسبب الحصـــار وخرج معه نفر دون العشرة الى مقابر الصوفية فدفن بها رحمه الله وانضاف اليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع وشيعته الى باب الفرج . ومنه استفدت على الحديث والفقه صغيراً وكبيراً وسمع عليه ابنى محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقى وغير ذلك ؛

وبعده بيومين توفى التقى احمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى بجبل قاسيون . وتوفى قبله بنحو من شهر ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبـــد الغنى وكانا من ائمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، وكان أبو سليمان من الصالحين ، وفى جمادى الأولى توفى شرف الدين بن قريش بدمشق . والقاضى الأشرف بن القاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، وفى ثالث جمادى الأولى لمـا فتح دمشق توفى العز محمد بن تاج الأمناء أحمد بن محمد بن عساكر ، وكان كبير بيته يومئذ ، وله عناية بعلم التاريخ . ومات فى ذلك اليوم العز محمد بن الخيسى شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبى الحسن واعزهم عليه رحمه الله . شهدت الصلاة عليهما وشيعتهما إلى داخل باب الفرج وذهب به إلى الجبل . وبابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

وفى خامسه يوم الجمعة توفى الشيخ المسند تاج الدين ابو الحسن محمد بن أبى جعفر امام الكلاسة كان مسند وقته ذو سماعات جمة صحيحة ، وأصول جليلة . وكان متواضعا خيراً دينا رحمه الله . سمعت عليه أنا وابنى محمد كثيراً . سمع من عبد المنعم الفراوى ، وأبى البركات الخشوعى ، وأبى الفرج الثقفى . والحافظ أبى محمد ؛ وعبد الوهاب بن سكينة ، وابن طبرزد ، وحنبل ، والقاضى أبى القاسم . وأبى اليمن الكندى وغيرهم حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صـــلاة الجمعة وشيعته إلى باب الفرج وكانت له جنازة حفلة وحمل على الأيدى ودفن بجبل قاسيون عند أبيه وأخيه .

وفى ثامنه تحقق الصلح وزال الحصر عن البلد ورحل ليلتئذ عن دمشق سلطانها الصالح اسماعيل بن العادل بن أبى بكر بن أيوب . وصاحبه المنصور ابراهيم بن أسد الدين إلى بعلبك وحمص ، ودخل البلد من الغد فى تاسع الشهر نائب صاحب مصر وهو الصاحب معين الدين حسين شيخ الشيوخ صدر الدين ونزل فى دار أسامة وهى الدار المعظمية الناصرية . وزال الخوف والظلم عن البلد والمصادرات والوجل جعله الله فتحا مباركا برحمته .

وفى يوم الجمعة آخر جمعة فى الشهر توفى ولدى أبو الحرم محمد جمعنى الله وإياه فى الجنة ودفنته عند أمه بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفية على حافة الطريق اليها رحمهما الله وايانا وأنا كنت قابله وغاسله وبلغ من العمر ثمانى سنين ونصفا وسمع من كتب الحديث وأجزائه ومن سائر العلوم شيئا كثيراً على جملة من المشايخ نحو مائة وأربعين شيخا . ثم توفيت أخته زينب بعده باربعة أيام . وفى ثالث جمادى الآخرة توفى الشهاب محمد بن على بن منصور اليمنى المعروف بابن الحجازى رحمه الله وكان من فضلاء الشبان . هو وأبوه من أصحاب شيخنا أبى الحسن المختصين به ودفن بجبل قاسيون ولم أشهده

لأنى كنت مريضاً

وفيها : ليلة الأحد ثانى عشر جمادى الآخرة توفى شيخنا علم الدين أبو الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله علامة زمانه ، وشيخ عصره وأوانه بمنزله بالتربة الصالحية وصلى عليه بعد الظهر بجامع دمشق ثم خرج بجنازته فى جمع متوفر إلى جبل قاسيون فدفن بتربته التى فى ناحيـة تربة بنى صصرى خلف دار ابن الهادى حضرت الصلاة عليه مرتين بالجامع وخارج باب الفرج وشيعته إلى سـوق الغنم ثم رجعت لضعف كان من أثر مرض قريب العهد . وكان يوما مطيراً وفى الأرض وحل كثير . وكان على جنازته هيبة ، وجلالة ، ورقة ، واخبات وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ ، وفقد الناس بموته علما كثيراً ومنه استفدت علوما جمة ، كالقراءات والتفسير ، وعلوم فنون العربية وصحبته من شعبان سـنة أربع عشرة ، ومات وهو عنى راض والحمد لله على ذلك رحمه الله وجمع بيننا وبينه فى جنته آمين

وفى يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفى الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردى والشيخ أيوب المعروف بالمراوحى ، والعماد على بن الحجة الحنفى ، والصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم وصلينا على الجميع جملة بعد الظهر بالجامع وشيعت جنازة الزين الكردى إلى نحو باب الصغير رحمهم الله ثم توفى خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبى عمر محمد بن احمد بن قدامة ، والضياء محمد بن عبد الواحد . والضياء محاسن ، والسيف احمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة ، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفى الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة وهو : محمد بن عبد الواحد بن احمد المقدسى ، وفى ليلة ثامن عشر شعبان توفى الفخر محمد بن عمر بن عبد الكريم الحزيرى عرف بابن المالكى الساكن بالمنارة الشرقية فى بيت أبى جعفر ودفن من الغد فى مقبرة الصوفية رحمه الله .

وفيها : توفى النجم بن سلام وكان متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ودام عليه وله احسان وخير ، وصدقة ، وتعصب ، وضيافة . وفى شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث وأربعين وستمائة توفيت الصاحبة ربيعة خاتون ابنة نجم الدين أيوب اخت صلاح الدين والعادل وغيرهما من الملوك وعمة الكامل ، والأشرف ، والمعظم وغيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب اربل رحمهم الله ودفنت بتربتها بالجبل . وتوفى فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج ودفن بمدرسته التى وقفها بمسكنه بدار الفلوس .

وفى السابع والعشرين من شعبان توفى الفقيه الشيخ الصالح علاء الدين بن الكردى عمر بن أبى بكر ابن جعفر وكان جارى بالمدرسة العادلية ودفن بمقابر ابن زويزان حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله وفى ليـلة الأحـد الثانى والعشرين من شهر رمضان توفى بدمشق الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه وكان نائب السلطنة بهـا وهو الذى فتحها للملك الصـالح أيوب بن الملك الكامل وأخذها من عمه اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب صاحب بعلبك وصلى عليه بجامع دمشق جمال الدين ابن محي الدين بن الجوزى ودفن بالجبل عند أخيه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ رحمهم الله . ومولد معين الدين فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وفى يوم الجمعة العشرين من رمضان توفى شرف الدين محمد بن

القاضى شرف الدين أبى طالب عبد الله بن زين القضاة ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بالجامع. وفى ثانى شهر شوال توفى الأمير نجم الدين القيمرى عمر ناصر الدين ودفن بالجبل.

وفيها : اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات . فنى ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية نصفها بثلاثمائة درهم ، وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت الأخبار والله يكشف هذا الضر برحمته وكان ذلك فى تاسع شهر آذار وبقيت الصعاليك مرميين فى الطرقات . كانوا يطلبون لقمة ، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج ؛ وشاهدت ذلك بعينى ، ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ فى آخر شهر شوال المذكور كل غرارة حنطة بمائة دينار صورية ثم ناصرية ، ثم سمعت انه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم وكتب بها وثيقة على المشترى إلى أجل شهرين ، واشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر فى حادى عشر ذى القعدة فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم ، وخبز الشعير كل أوقيتين ونصف بدرهم ، وبلغت الغرارة فى ثانى عشر ذى القعدة الفا ومائتى درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، وبيع الدقيق كل أوقية وربع أوقية بدرهم كل رطل بنحو عشرة دراهم . وبيع الشعير كل كيل بخمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، والزبيب كل أوقيتين بدرهم ثم بيع أوقية ونصف بدرهم ، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادى عليها وقد نزل السعر بباب الجامع الغربى من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاساً . فقال بعض السامعين: كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية واليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا وبيع الباقلا الاخضر كل رطل بدرهم وربع ، والرز باللبن ثلاث أواق ونصف بدرهم ، والارز اليابس كل أوقيتين ، والفحم الردى كل رطل بستة دراهم ، ولم تزل الأسعار فى اشتداد وارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها وبلغت الغرارة الفا وخمسمائة درهم وبيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم والرطل بسبعة دراهم فى يوم عيد النحر وقبله: ثم أن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى . ولم يزل يأخذ فى النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين . واللحم كذلك وفى سلخ المحرم بيع كل رطل وثلث بدرهم : وفى جمادى الآخرة رطل ونصف بدرهم

سـنة ٦٤٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة أولها يوم الجمعة ، ففيه كسرت الخوارزمية أشد كسرة وقتلت ملوكهم وسبيت نساؤهم وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومعه جيوش حلب وحماة وغيرها من البلاد ، وجاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثانى الشهر إلى دمشق فبيع الخبز كل رطل بدرهم ونصف ، والحمد لله على هذه النعمة ونسأله المزيد بفضله ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . وممن قتـل فى تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية وسلطانهم وحمل رأسه إلى حلب.

وفى حادى عشر صفر توفى الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفى

بالنيرب ظاهر دمشق ونقل إلى حمص . وقبله بأيام توفى الضياء محمد بن حسان بن رافع العامرى بقصر حجاج. وكانت له سماعات كثيرة بالحديث . سمع الخشوعى ، والحافظ أبا محمد ، وأبا اليمن الكندى ، والقاضى أبا القاسم ، وأبا حفص بن طبرزد ، وحنبلا وغيرهم . وسمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفى الركن بن سلطان الحنفى ، والقاضى شرف الدين الحنفى الحورانى ،والكمال ابراهيم بن البانياسى وغيرهم فى العشر الأوسط من صفر .

وفى ثامن عشر ربيع الأول توفى العز الأربلى عبد العزيز بن عثمان بن أبى طاهر امام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر وحمل إلى مقابر الصوفية ، وكان شيخا حسنا مسندا مكثرا عن أبى طاهر الخشوعى ، وأبى محمد الحافظ ، وأبى اليمن الكندى ، وأبى حفص بن طبرزد ، وأبى القاسم القاضى ، وفاطمة بنت سعد الخير وغيرهم . اسمعت عليه ابنى محمداً كثيراً من الكتب والأجزاء .

وفى ربيع الآخر توفى الفقيه الحنفى المعروف بالعز عرفة مدرس الصادرية ، والمجد بن البعلبكى ، والجمال بن البلان (؟) وفى أول جمادى الآخرة توفى الحكيم سعد الدين الطبيب ، وبعده بثلاثة أيام توفى البدر العلائى الأشرفى الخادم . وفى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة توفى الفقيه الامام تقى الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبى الحنبلى رحمه الله ودفن بالجبل حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى خارج باب الفرج ؛ وكان عالما ، فاضلا ، ذا فنون ولى به صحبة قديمة وبعده لم يبق فى مذهب احمد مثله بدمشق .

وفى رجب ولد بمنزلى عبد العزيز بن احمد بن عبد الجبار الزينبى أخو ابنتى من أمها جعله الله موفقا سعيداً ، وفى أول شعبان توفى الضياء عبد الرحمن المالكى العمادى الذى جلس مكان الشيخ أبى عمر وفى حلقته بالجامع ، وفى زاوية المالكية ومدرستهم رحمه الله وكان كريما شاعراً .وقبله الأمير عماد الدين داود بن موسك بن جكو . وجاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهبل رحمه الله بحلب وكان فقيها ديناً كريماً سليم الصدر . وتوفى فى ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكورانى المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفية بجامع دمشق ، وفى شهر رمضان توفى النجم عبد الكافى ، والشريف هاشم بن الشريف البهاء ، وجمال الدين محمد القلعى ، والمخلص أبو بكر بن حماد الحنبلى ، وفى ذى القعدة توفى الناسخ احمد الصيداوى المشتغل بعلوم الفقه والحديث والرقائق .

وفى تاسع عشر ذى القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب ابن محمد بن أبى بكر بن أيوب وكان يوما عظيما بكثرة الخلق والزينة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل بن عبد الجبار يعرف بابن أبى الحجاج المقدسى ؛ وصهره الأمير العالم الفاضل شمس الدين بن الجناب فاقام بها خمسة عشر يوما ثم رحل إلى بعلبك فكشفها ثم رجع ومضى نحو صرخد وتسلمها من صاحبها عز الدين ايبك المعظمى ؛ ورحل إلى بلاد بانياس وتسلم حصن الصبيبة من الملك السعيد بن العزيز بن العادل وهو ابن عم السلطان وفى خدمته ثم تسلم حصن الصلت من ابن عمه داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب ، وفرق بدمشق نحو تسعين الف درهم على الفقراء نخان فيها المفرقون فنظمت فيهم قصيدة نحو أربعمائة بيت فى شرح حالهم فيها .

سـنة ٦٤٥ هـ :

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة أولها يوم الأربعاء فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر وأبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، لجاء الخبر بفتح طبرية فى عاشر صفر من هذه السنة ، وجاء الخبر بفتح عسقلان فى أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفى النظام عبد الله بن زين الأمناء بن عساكر ، وفى العام قبله توفى أخوه الركن عبد اللطيف وكان متزهداً ذا وسواس .

وفيها : عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الآبار من خطابة جامع دمشق وامامته ومن التدريس بزاويته الغربيه وولى ذلك القاضى عماد الدين عبد الكريم بن الحرستانى وذلك فى أواخر رجب ؛ وفى سلخه توفى المجد بن نظيف ، وفى شعبان توفى الشمس بن هلال ، وفى رمضان توفى الكمال على بن يعقوب الدولى القاضى الشافعى وكان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة وبها توفى . قلت : وجدت بخط الدولى المذكور انه على بن يعقوب بن اسحاق بن عبد الله بن أبى الحسن وهو كردى بالجوزقانى رحمه الله تعالى ، وكان شيخا فى الفقه.

وفى رمضان أيضا توفى الشيخ على المعروف بالحريرى المقيم بقرية بسر فى زاويته وكان يتردد إلى دمشق ، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بالحريرية أصحاب الزى المنافى للشريعة ، وباطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم ، وكان عند هذا الحريرى من الاستهزاء بامور الشريعة والتهاون بها من اظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شىء كثير وانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق ، وصاروا على زى أصحابه وتبعوه بسبب انه كان خليع العـذار ويجمع بمجلسه الغناء الدائم ، والرقص والمردان وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثرة النفقات فأضل خلقا كثيراً . وأفسد جما غفيراً ، وقد افتى فى قتله جماعة من علماء المسلمين ثم أراح الله منه .

سـنة ٦٤٦ هـ :

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة ففيها : استولى صاحب حلب على حمص ، وفى يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركى صبى بالغ كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعى السقسقينى زعموا أنه قتل سيده لأمر ما فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة فى آخر سوق الدواب وجعل وجهه مقابل الشرق ، وسمرت يداه ، وعضداه ؛ ورجلاه وبقى من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ثم مات ، وكان يوصف بشجاعة ، وشهامة ، ودين وأنه غزا بعسقلان وقتل جماعة من الفرنج ، وقتل أسداً على صغر سنه وكان منه فى صلبه عجائب . فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع ، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه وهو ينظر لم يتأوه ولم يتغير وجهه ، ولا حرك شيئا من أعضائه . أخبرنى من شاهد ذلك منه جماعة وبقى إلى أن مات صابراً ساكناً لم يئن ؛ ولم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه ، تارة يمينا وتارة شمالا ، وتارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسق ؛ وتألمت قلوب من عندهم رحمة وشفقة على خلق الله تعالى من أنه صبى صغير وقد ابتلى بمثل

هذا البلاء والمياه تتدفق بجوانبه وهو ينظر اليها ويتحسر على قطرة منها وهو صابر على ذلك فسبحان من له الامر والحكم . وأخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة ونور غشاه قبل موته ، وان شكواه للعطش كان فى أول يوم ثم سكن ذلك فقواه الله تعالى وثبته وصبره . وأخبرنى من سمعه يقول فى اليوم الثانى : سقيت البارحة ما أذهب عنى العطش . ثم لم يطلب الماء حتى مات . وضار يبصق بصقة رجل ريان الكبد ويحذف بها بعيداً : وبقى بعد موته معلقا تمام يوم الاحد وانزل ضحوة يوم الأثنين من الغد رأيته اتفاقا وأنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله ، فشاهدتة وقد اسودت أعضاؤه ، وتغيرت محاسنه وكثر الترحم والدعاء له . ولعله كان شهيداً رحمه الله . فانى اخبرت أنه دافع عن نفسه امراً لم يرض وقوعه به والله يغفر لنا أجمعين . ومنها : أنه أسرع اليه الموت تخفيفاً من الله تعالى عليه فانه بقى يومين وليلتين . وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة فى عذابهم وكان قد أصابه فى اليوم الثانى اختلال فلم يبق يحس بالألم والعطش ولم ينتظم كلامه بل صدرت منه الفاظ داله على اختلاله خفف الله تعالى بذلك عنه ، وقد كان يغنى (١) أحيانا ، ثم ينتبه مرعوبا لشدة الألم فتتقطع لذلك قلوب الناظرين اليه غير أنه يذكر الله تعالى .

وأخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله فى غداة يوم الأحد أو السبت وكان جوابه أن قال : طيب مع الله . وبلغنى لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة وذلك أن الذى سمره لما وضع المسمار فى العضد صادف العظم فقال له : يا فتى تجنب العظم . وبلغنى أن الذى سمره توفى ذلك اليوم أو الذى بعده وهذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبى بذلك ارادة اعلامه أن الله تعالى جازاه بفعله . فقال الصبى وهو فى تلك الشدة : هو فى حل لاذنب له لكن الذنب لمن أمره بذلك . وكان رحمه الله من اجمل الصبيان ، واحسنهم وجها ، واطولهم شعراً ، قد كان ثمنه الوفا من الدراهم ، وكان فى قتلته مكشوف الرأس ، والذوابه من شعره مسترسلة خلفه ، ولعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقى يتناولها بولع بها ويتشاغل بالعبث بها . وبلغنى أنه قال : لى يومان ماصليت كالمتأسف على ما فاته من الصلاة وبعضهم قال يوم علقوه كان صائما ، وأخبرنى من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين اليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، وكانت له نفس أبية ، وقوة شديدة أخبرنى جماعة أنه كان يحرك رجليه وهما مسمرتان فلم يزل يولع بتحريكهما إلى أن اتسع نخش المسمارين عليهما وصار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة ومما قيل فيه : —

ومنفرد من فوق أعواد حتفه   يجود بنفس صانها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق   سجوداً فأومأ للسجود بقلبه
تمكنت الآلام منه مسمرا   كثيراً وكان الموت أيسر خطبه
يرى واحداً والناس من حوله جذعه   وعطشان والأمواه تجرى بتحته
فيا حسرة منه على شرب قطرة   لقد طار ذياك الشراب بلبه
وعريان إلا فى غلالة حسنه   ومكشوف رأس سائبات برحبه

(١) ينعس (ذ)

تحول رياح الجو فيه وتعصف السوافى عليه كل ترب بقربه
وتشرق شمس الصيف من حر وجهه لقد زال ذاك الحسن مذ أشرقت به
مغيرة تلك المحاسن اذ غدا أحق بها منها فنادت بحربه
فيالك ممنوعا من الماء ضلة تفتت الأكباد من عظم كربه
ويالك مصلوبا بظلم وقسوة تقطعت الأحشاء من سوء صلبه
ويبرد فى الليل البهيم فيشتكى نهاراً فلا يسلى المقر بذنبه
فياعجباً ممن أشار بصلبه ألا اعجب وأخبر عن قساوة قلبه
صبي صغير فائق الحسن ناسك شجاع له الاقدام فى يوم حربه
صبور على هذى الشدائد كلها إلى أن أتاه الموت قاض لنحبه

وفى سنة ست وأربعين وستمائة سقطت قنطرة عظيمة رومية كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير فانهدم بسببها حوانيت ودور كثيرة كانت عليها ومتصلة بها وقعت نهاراً . وفى ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع الحريق فى المئذنة الشرقية بجامع دمشق فاحرق أعلاها وجميع مافيها من البيوت والمطلع جميعه فانه كان سقالات من خشب وسلم الجامع بفضل الله تعالى ورحمته . وبعده بايام يسيرة قدم السلطان الصالح أيوب بن الكامل مدينة دمشق فاقام بها وجهز العساكر الى حمص .

وفى شعبان توفى القاضى عز الدين محمد بن أبى الكرم الحنفى السخاوى وكان نائبا فى الحكم زمن الجمال المصرى قاضى القضاة الى أن مات . وفى الخامس من شهر رمضان توفى بمصر الأفضل الخونجى قاضى قضاة مصر وكان حكيما منطقياً ، وكان الحديث عنه فى مدة ولايته القضاء حسناً ، سمعت الشيخ ابن أبى الفضل وغيره يثنى عليه فى ذلك رحمه الله . وجاءنا الخبر فى ذى القعدة أن الشيخ أبا عمرو عثمان بن الحاجب رحمه الله توفى بالاسكندرية فى شعبان فساء ذلك من سمعه من البرية فانه رحمه الله كان ركنا من أركان الدين فى العلم والعمل ، بارعا فى العلوم الأصولية وتحقيق علم العربية ، متقنا لمذهب مالك بن أنس رحمه الله . وكان من أذكى الأمة قريحة ، وكان ثقة حجة متواضعا ، عفيفا ، كثير الحياء ، منصفا ، محبا للعلم وأهله ناشراً له ، محتملا للأذى ، صبوراً على البلوى . قدم دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة فاقام بها مدرسا للمالكية ، وشيخاً للمستفيدين عليه فى علمى القراآت والعربية . ثم خرج هو والشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر وكان خروجهما من دمشق سنة ثمان وعشرين وستمائة وأخبرنى صهره الكمال احمد بن سليمان انه دفن خارج الأسكندرية فى المقبرة التى بين المنارة قريب قبر الشيخ ابن أبى شامه رحمه الله .

سنة ٦٤٧ هـ :

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصم . وسلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل مقيم بها . قدم اليها فى أول شعبان من سنة ست فاقام بها خمسة أشهر ورحل منها يوم

الأثنين رابع المحرم طالباً الديار المصرية . وأمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع وهى التى احترقت فعمرت على ماهى عليه الآن . وفى ذلك العام (١) وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى اليها (٢) فى البحر ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، واستشهد من المسلمين جماعة النجم ابن شيخ الاسلام ودخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائباً للسلطنة فى عاشر ربيع الأول (٣) منها ونزل بدرب الشعارين ووصل الخبر باخلاء دمياط من المسلمين ودخول الفرنج خذلهم الله اليها فى البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤنة والاقامة . وجرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية (٤) الفرنج ؛ ثم ورد كتاب من مصر الى بعض أصحابنا تاريخه حادى عشر ربيع الأول قرأت فيه : وصل الفرنج فى العشرين من صفر ونزلوا فى الحادى والعشرين الى البر ، وفى الثانى والعشرين أخليت دمياط ودخلها الفرنج وهم فيها الى الآن .

وفى ربيع الآخر توفى العدل صفى الدين عمر بن محمد بن عبد الوهاب يعرف بابن البرادعى وكان أحد من يروى عن الحافظ أبى القاسم بن عساكر رحمه الله . وتوفى فيه أيضاً الشيخ اسماعيل مقدم الخدام النبوية . وجاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدرى بالقاهرة رحمه الله . وفى خامس جمادى الأولى توفى بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازى الزاهد المقيم بالمسجد الذى بين التصاعين والفيسيقار رحمه الله وشهد جنازته خلق كثير ، وحمل على أيدى الرجال وأصابعهم ، وكان على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعد الظهر بالجامع وشيعته إلى المقبرة بين باب الجابية وباب الصغير رحمه الله . وعبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد وشاهد ما أحدث من الحوانيت بطريق المسلمين فى رحبة الجامع فأمر بازالته والاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبين ، وكان قد أزيل ذلك مرة أخرى فى زمن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ثم رد بعد ثم أزيل هذا الوقت المذكور والله تعالى يجرى الخير على يد من يشاء من عباده .

وفيها : شرع فى بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكى المسامت للجسر الأبيض. وفى ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفى بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب وأخفى بها وأرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا وهو الملك المعظم توران شاه بن أيوب فتنكر وقدم مع النجابين على زيهم وعبر على البلاد ولم يزل ملوك الأطراف حوله حتى وصل عانة وعدا الفرات ودخل البرية ودخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان فنزل بالقلعة وأقام بها وأحسن الى أهلها ثم سافر إلى مصر يوم الأثنين فى السادسة والعشرين من شوال فوصل المنصورة ثامن عشر ذى القعدة وبها عسكر المسلمين سحراً فى قبالة الفرنج الذين استولوا على دمياط وقبل وصول السلطان بايام ركب الفرنج وحملوا على المسلمين سحراً على غرة فدهموهم فى بيوتهم وخيامهم وتفرقوا فى أزقة المنصورة وبين بيوتها . وأيقظ الله تعالى المسلمين فاجتمعوا عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة منها الف وخمسمائة فارس ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا .

---

(١) يعنى فى صفر (ز) . (٢) أى إلى الديار المصرية (ز) . (٣) وفى ابن كثير صفر (ز).
(٤) هكذا فى الأصل .

وفيها : قتل فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ وهو آخر أخوته موتا ، وقتل أيضا صاحبنا الشيخ الفاضل ضياء الدين محمد بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ختم الله له بالحسنى وهى الشهادة على ما كان فيه من فضل وتواضع ولم ألق أحداً يعرف علم التاريخ مثله ، وحصل كتبا عظيمة وكانت له همة عظيمة فى تحصيل الكتب، والفوائد، والفضائل إلى آخر عمره رحمه الله، وقدم دمشق مرات فى زمان شبيبته وحياة والده وفى زمان شيخوخته ، وكان قدم بغداد وسمع العلامة تاج الدين الكندى ، وأباحفص عمر بن طبرزد ، والقاضى أبا القاسم الحرستانى وغيرهم وأنشدنى لنفسه ولغيره .

سنة ٦٤٨ هـ :

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة . ففى ثانى المحرم وهو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه بن الصالح بن الكامل الفرنج الذين كانوا استولوا على دمياط وحاصروه بالمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها وأسر قريب من ثلاثين الفا ، وأسر ملك الفرنسيس وأخوه وجماعة من خواصه كانوا اختفوا فى منية عبد الله من ناحية شرمساح فاخذوا برقابهم ، وفى سادس عشر المحرم وصل الى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها ورأيتها عليه وهى اسكر لاط (١) أحمر تحته فرو سنجاب وفيها بكلة ذهب فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثاً ارتجالا كل مقطعة بيتين فى مدح السلطان والأمير أحدهما :ـــ

ان غفـــارة الفرنسيس التى ... جاءت حبـــاء لسيد الأمراء
ببياض القرطاس فى اللون لكن ... صبغتها سيوفنـــا بدماء

والثانية مخاطبة للأمير :ـــ

يا واحـــد العصر الذى لم يزل ... يحوز فى نيل المعـــالى المدى
لا زلت فى عز وفى رفعـــة ... تلبس أسلاب ملوك العـــدى

والثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب الى السلطان :ـــ

اسيد أملاك الزمان بأسرهم ... تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى ... ويلبس أسلاب الملوك عبيـــده

وفى العشرين من المحرم دخل الناس كنيسة مريم بفرحة وسرور ومعهم مغانى ومطربون فرحا بما جرى وهموا بهدم الكنيسة ، وبلغنى أن النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور فى كنيستهم حزنا على ماجرى على الفرنج فعلم بهم الوالى فجناهم جناية شديدة وأمر اليهود بصفعهم وضربهم واهانتهم.

---

(١) ملابس صوفية مدفئة .

وفى صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الخبر بقتل المعظم توران شاه (١) بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل فى دهليز الخيمة بعد مده السماط ضرب بسيف فانهزم ودخل برج الخشب فاحرق، فرمى نفسه إلى ناحية النيل فادرك وقطع ثم بقرية فارسكور وكان ذلك من غلمان أبيه البحرية واستبدوا بالأمر بعده وأمروا عليهم أم ولد لأبيه الصالح، وأخبرنى من شاهد قتله أنه ضرب أولا فتلق الضربة بالسيف فجرحت يده واختبط الناس وذلك بعد فراغهم من الأكل على السماط فاظهر أن ذلك من بعض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقين باتمام الأمر فيه وقالوا : بعد جرح الحية لاينبغى إلا قتلها . فركبوا ولبسوا السلاح وأحاطوا بخيمته وبرجه الخشب لأنه كان فى الصحراء بازاء الفرنج خذلهم الله فدخل البرج خوفا منهم فأمروا زراقا باحراق البرج فامتنع فضربت عنقه ثم امروا زراقا آخر فرمى البرج بنفط فأحرقه فخرج من بابه وناشدهم الله فى الكف عنه والاقلاع عما نقموا عليه وطلب تخلية سبيله فلم يجب إلى شىء من ذلك فدخل فى البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه فرجع فضربه البندقدارى بالسيف فوقع فى الماء ثم ضربه بالسيف ضربة أخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت أبط اليد الأخرى فوقع قطعتين وكان قتله فى أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقى مكانه ذلك اليوم والغد إلى ليلة الاربعاء ونقل إلى الجانب الآخر من النيل مجروراً بطرف ثوبه فى الماء فحفر له فى الرمل ودفن وتغيب قبره . فانظر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين كيف اتفقتا فى شهر واحد إحداهما فى أوله : وهى الكسرة العظمى الذى استأصلتهم . والثانية : قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع .

وأخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والى القاهرة كان أبوه : انه لما قتل رمى فى جرف على حافة البحر وأردم عليه التراب فبقى هناك ثلاثة أيام ثم كشفه الماء فنقل من ثم الى الجانب الآخر من البحر فدفن هناك .

وحكى لى قصة قتله عجبا وهو : أنه جرى فى الماء بصنارة والجارله راكب فى مركب والصنارة بيده تجره فى الماء كأنه حوت إلى أن عدا به إلى الجانب الآخر فدفنه هناك . فكان قتله والناس فى غفلة وبهتة من امرهم وعوجل فلم يجد ناصراً . ولقد حكى لى المذكور أنه بقى يستغيث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الدين ادركنى وتكرر ذلك فركب فى أمره وكلمهم فيه فتركوه وخوفوه من القتل وخرق حرمة الخلافة فرجع . ولما فرغ من قتله نادوا لا بأس . النـــاس على ماهم عليه انما كانت حاجة فقضيناها . واستبدوا بالأمر وأمروا عليهم عز الدين أيبك التركمانى (٢) الملقب الآن بالملك المعز صاحب الديار المصرية وهو واحد منهم . ورجعوا إلى القاهرة وكاتب امراء الشام باتباعهم فجرت فى ذلك فصول

---

(١) كان سيىء التدبير والسلوك ذا هوج وخفة راجع مرآة الزمان (ز) .

(٢) وفى خطط المقريزى (٣ — ٣٨٥) : كان قد انتقل الى الملك الصالح من أولاد ابن التركمانى فعرف بالتركمانى اه فيكون تركمانيا ولاء لانسبا لكن أستاذه المعروف بالتركمانى كان يدعى أنه غسانى النسب، راجع تاريخ آل رسول فى اليمن فلا يكون تركمانيا لا نسبا ولا ولاء، فيكون تركيـــا بالمعنى الأعم والنسب الواسع (ز) .

استقرت آخراً على أن قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بنى أيوب مع سلطانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن محمد بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لأخذ البلاد والانتقام ممن أفسد هذا الأمر وقتل السلطان فنزلوا على الغوطة والبلد فى أوائل ربيع الآخر ، وفى يوم الأحد سابع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبى مدينة دمشق نحوة النهار . وفى يوم الأربعاء عاشر الشهر دخل السلطان وأمن الناس وأزال عنهم البأس وهو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس ، ثم أرسل إلى القلاع المجاورة لها فسلمت كبعلبك . وبصرى . وصرخد وأعمالها ثم سلمت عجلون والسلط وتقدمت العساكر إلى صوب غزة . وامتنع حصنا الكرك والشوبك بالمغيث بن العادل ابن الكامل وكان قبل ذلك فى حبس الصالح أيوب بن الكامل بحصن الشوبك وأطلق فى أيام هذه الفتنة وتسلم الحصنين . وبلغنى أنه طلب فأبى يخاف مما جرى على ابن عمه المعظم بن الصالح ثم سار الملك الناصر يوسف لأخذ الديار المصرية ووصل سلخ شوال الى العريش وخرج اليه عسكر الترك الذين بمصر فوقعت بينهم وقعة بسموط بين الخشبى (١) والعباسة فانهزم منها العسكر المصرى ونهب ثم انقطعت منهم طائفة وانهزم الشامى وذلك فى ذى القعدة وسلم السلطان وفقد جماعة كثيرة من أقاربه وأمرائه بين قتل وأسر وهرب ووصلوا الينا فى أواخر الشهر . وممن قتل ضياء الدين القيمرى . وشمس الدين لؤلؤ . وحسام الدين القيمرى ، وتاج الملوك ، وأسر المعظم (٢) . والنصرة (٣) ابنا صلاح الدين . والصالح بن العادل والأشرف بن المنصور بن أسد الدين . ثم خلص المأسورون وفقد الصالح اسماعيل ليلة الأحد عشرين ذى القعدة سنة ثمان وأربعين وستمائة ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وفى تاسع عشر ذى القعدة توفى المجد الاسفرايينى قارىء دار الحديث الأشرفية من أول ما فتحت والى الآن . وهو : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر بن الصفار من أهل بيت كبير باسفراين وكان المجد رحمه الله من أهل العلم والدين مقيما بخانقاة السميساطى سمع المؤيد الطوسى وغيره . حضرت جنازته والصلاة عليه ظاهر باب النصر ومضوا به الى مقابر الصوفية رحمه الله ورجعت لأنى كنت ناقهاً من من مرض والحمد لله على العافية وعلى كل حال .

وفى الثالث والعشرين من ذى القعدة توفى عندنا بالمدرسة العادلية بدمشق الشيخ الصالح العالم أبو الحسن على بن عبد الله بن الهادى الضرير الأندلسى الأشبيلى رحمه الله وكان ساكنا بالبيت الملاصق لباب السقاية وكان رجلا ، صالحاً ، تقياً ، فاضلا فى علوم شتى مقبلا على شانه مشتغلا باوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصوفية حضرت دفنه والصلاة عليه وكان ذلك بعد العصر من يوم الخميس . ورد من الأندلس فى سنة احدى وعشرين وستمائة فى البحر فأسرته الفرنج ثم نجاه الله منهم ووصل الى الديار المصرية وحج وجاور وسافر الى بلاد اليمن ثم ورد مكة ومنها الى الشام . وسكن دمشق وأقرأ بها القرآن وحفظ التنبيه فى مذهب الشافعى وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله .

---

(١) راجع السلوك (١ — ٣٧٤) (ز) . (٢) تورانشاه (ز) .
(٣) نصرة الدين محمد (ز) .

سـنة ٦٤٩ هـ :

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة فى خلافة المستعصم وسلطان دمشق الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب . ففيها : توفى سعيد بن عبد الله بن جهير القرشى صاحبنا فى ربيع الأول ، ونجم الدين عثمان بن عمر بن عمر المراغى الشيخ الصالح فى ربيع الآخر ،دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله .

وفيها : مات الموفق الخوبى فى خامس شعبان ودفن بالجبل . وفيها : فى الثانى والعشرين من ذى القعدة توفى الحسام أبو بكر الحموى الواعظ بمسجد أبى اليمن ودفن بالجبل ، وقبلها مات أخوه البدر بن الحموى الواعظ . وبلغ الحسام نيفاً وتسعين سنة . وفى ذى الحجة مات الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الكافى الربعى وكان قد درس بالكلاسة والأمينية وناب فى القضاء مدة بدمشق وحمص ودفن بالجبل .

وفيها : ولدت ابنتى رقية فى جمادى الأول بالنصف منه . وفيها : فرغ اسماعى التاريخ والروضتين .

وفيها : مات بالديار المصرية نائب القاهرة الشيخ بهاء الدين على بن هبة الله . وكان أولا معيداً لشهاب الدين الطوسى بمنازل ، ودرس بزاوية الامام الشافعى بجامع مصر ، وهو ابن بنت الفقيه أبى الفوارس بن الجميزى رحمه الله وكان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفى بالشام ومصر ، ومن شهدة ببغداد .

وفيها : مات صاحبنا العفيف يعقوب الميمونى بمنية ابن خصيب ، وكان قاضيها ومدرسها . وفيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم بمسجد باب الزهومة رحمه الله .

سـنة ٦٥٠ هـ :

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة ففيها : توفى الرشيد بن مسلمة فى ثامن عشر ذى القعدة ودفن بالجبل ، وفيها : توفى بمصر ابن مطروح ، وفى الثالث والعشرين من ذى القعـدة توفى الشريف عدنان ، والفقيه كمال الدين اسحاق بن احمد المقرىء المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، وكان رحمه الله جامعاً بين العلم والعمل ، زاهداً ، مؤثراً ، متواضعاً حسن الأخلاق ، ودفن عند قبر شيخه تقى الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلى بدمشق .

سـنة ٦٥١ هـ :

ثم دخلت سنة احدى وخمسين وستمائة فنى سـادس المحرم توفى الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد خطيب زملكا رحمه الله . وكان فاضلا . عالماً ، خبيراً ، متميزاً فى علوم متعددة ، وتولى قضاء صرخد ، ودرس ببعلبك ثم توفى بدمشق ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله .

وفيها : فى شوال توفيت ابنتى رقية رحمها الله وعمرها سنتان وخمسة أشهر ودفنت بمقابر الصوفية عند قبر الجمال أبى الزهر خال أمها ، وكان أبوه الخطيب يعنى أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم هو

ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن احمد بن خليل بن حسن بن سعيد الانصارى السماكى توفى الخطيب المذكور فى ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة هكذا وجدت فى تاريخ وفاته وقيل فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

سنة ٦٥٢ ﻫ :

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة . ففيها : توفى السديد بن علان وهو آخر من روى عن الحافظ أبى القاسم سماعا بدمشق .

وفيها : توفى بحلب النصرة (١) بن صلاح الدين ، والشيخ كمال الدين بن طلحة وكان فاضلا ، عالماً ، تولى القضاء ببلاد بصرى ، والخطابة بدمشق ، ثم طلب لمنصب الوزارة فايقظه الله تعالى وزهد فى رئاسات الدنيا وتزهد وانقطع وحج فى هذه السنة ولما رجع من الحج أقام بدمشق قليلا ، وسمع عليه فيها رسالة القشيرى ثم سافر إلى حلب فتوفى بها فى السابع والعشرين من رجب من السنة المذكورة رحمه الله . وفيها : توفى فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق ، وقيل بمصر فارس الدين اقطاى الذى تغلب على البلاد وقهر أهلها وتقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس واستقر ملك الديار المصرية لأيبك التركمانى ويلقب بالملك المعز .

وفيها : توفى العفيف احمد الصيداوى وكان شيخاً مشتغلا بالبحث فى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم، والفقه ، وكتب الرقائق إلى أن مات رحمه الله فى شعبان . وفيها : توفى الكمال بن تميم . وفيها : فى رابع شوال توفى الناصح فرج بن عبد الله الحسينى المعروف بفتى الشيخ أبى جعفر رحمه الله وكان يسند كثير السماع ، خبيراً ، صالحاً ، مواظبا على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية

وفيها : فى الخامس والعشرين من شوال توفى بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب وكان شيخاً نبيها ، فاضلا ، متواضعاً حسن الظاهر .

سنة ٦٥٣ ﻫ :

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة . ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفى بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سقر بن يحيى بن سقر رحمه الله وكان فاضلا ، دينا ، ورعا ومن شعره :ـ

من أدعى أن له حاجة ... تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا ... فانه ضر بلا نفع

وله معجم حكى فيه عن شيوخه وعمل فيه بعض الفضلاء :ـ

كم معجم طالعته مقلتى فبدا ... للحظها منه فضل غير منقوص
فلا سمعت ولا عاينت فى زمنى ... أتم فى فضله من معجم القوصى

(١) يعنى نصرة الدين محمداً (ز) .

قلت : طالعته فرأيت فيه أغاليط كثيرة وتصحيف أسماء وتبديلها ، وأول ذلك فى نسب نفسه بأنه انتسب إلى سعد بن عبادة الانصارى ، وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت ، وإنما هو غبادة ابن دليم ، وعبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا . وصحف فى سند خرقة التصوف حبيباً أبا محمد حسينا رأيت كل ذلك بخطه .

وفيها : يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفى الشهاب القوصى بدمشق أبو العرب اسماعيل ابن حامد بن عبد الرحمن الانصارى ودفن بداره بالقرب من الرحبة وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله . وكان ظريفا حسن المحاضرة .

وفيها : فى الثالث والعشرين من شوال توفى الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ولجده ذكر فى تاريخ دمشق رحمه الله . وفيها : بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لى ولد ذكر وأمه قرشية من بنى عبد الدار بن قصى فاسميته احمد وكنيته أبا الهدى جعله الله بفضله هاديا مهديا وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقنى ولداً ذكراً . وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله . ومن مصر بموت أبى العباس بن ثابت المقرىء .

سـنة ٦٥٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة . ففيها : توفى الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله ، وكان زاهداً ، خيراً من كبار الناس ونبلائهم وكان فى أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس ، فانتفع بالعبادة معتكفا بمسجده ، تاليا فى مصحفه ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيها : فى ربيع الآخر توفى الزكى بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة . وفى غد يوم السبت توفى الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن ابراهيم المقدسى الشافعى مدرس الرواحية بعد شيخه التقى بن الصلاح ودفن فى أول مقابر الصوفية فى ثامن الشهر المذكور . وبلغنى أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائبا عنها رحمه الله . وكثر موت الفجأة فى تلك الأيام فمات بها جماعة منهم : مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمى وغيره .

وفيها : توفى صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيبك المعظمى أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله . وتوفى أبوه قبله بالديار المصرية ثم نقل إلى تربته فى القبة التى بناها بمدرسته التى على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالى وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديما بدار ابن منقذ .

وفيها : ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل وكان شديد الحمرة ثم انجلى وكسفت الشمس فى غده احمرت وقت طلوعها وقريب غروبها وبقيت كذلك أياما متغيرة اللون

ضعيفة النور والله تعالى على كل شىء قدير . واتضح بذلك ما صوره الشافعى رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد (١) واستبعده أهل النجامة . وجاء الى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم فى خامس جمادى الآخرة وكتبت الكتب فى خامس رجب والنار بحالها ووصلت الكتب الينا فى عاشر شعبان . وفى أول يوم رمضان شنق العز الخلاطى نفسه فى بيته بالمدرسة العادلية أعاذنا الله تعالى من البلاء . بسم الله الرحمن الرحيم ورد الى مدينة دمشق حرسها الله تعالى فى أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى » . فاخبرنى بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا فى بيوتنا تلك الليالى ، وكأن فى دار كل واحد منا سراجا ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها وانما كانت آية من آيات الله تعالى وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة دوى عظيم ثم زلزلة عظيمة رجفت منها المدينة ، والحيطان ، والسقوف ، والأخشاب ، والأبواب ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ثم ظهرت نار عظيمة فى الحرة قريباً من قريظة نبصرها من دورنا بداخل المدينة كانها عندنا . وهى نار عظيمة اشعالها أكثر من ثلاث منائر وقدسالت أوديةمنها بالنار الى وادى شظا سيل الماء . وقد سدت سيل شظا وما عاد بسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فاذا الجبال تسير نيرانا وقد سدت الحرة طريق الحاج العراق فسارت إلى أن وصلت الحرة فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجىء الينا ورجعت تسير فى الشرق ويخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز فقال عز من قائل : (انها ترمى بشرر كالقصر كانه جمالات صفر) . وقد أكلت الأرض وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار فى زيادة ماتغيرت وقد عادت الى الحرار فى قريظة طريق عير الحاج العراق الى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها فى الليل من المدينة كانها مشاعيل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهى جبال نيران حمر والأم الكبيرة التى سالت النيران منها من قريظة وقد زادت وما عاد الناس يرون أى شىء بعد ذلك والله يجعل العاقبة الى خير وما أقدر أن أصف هذه النار .

وفى كتاب آخر : ظهر فى أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة فى شرق المدينة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ثم وقفت وعادت الى الساعة ولاندرى ماذا تفعل ، ووقت ماظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم

---

(١) قول الفلكيين مبنى على الواقع فى جارى العادة . وقول الإمام على الاحتمال العقلى المجرد ، واما قول المؤرخ فى حادثة الخسوف والكسوف هنا ففى حاجة إلى حسن ضبط وتوثيق بل ظن بالنيرين الكسوف والخسوف ، من نار الحجاز الخارجة فى تلك المدة (ز) .

عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم وهذه دلائل القيامة .

وفى كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة وقع صوت يشبه الرعد البعيد تارة وتارة أقام على هذه الحال يومين فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذى كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام يقع فى اليوم والليلة أربع عشرة زلزلة فلما كان فى يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى برأى العين من المدينة نشاهدها وهى ترمى بشرر كالقصر كما قال الله تعالى وهى بموضع يقال له اجلين ، وقد سال من هذه النار واد يكون مقـداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف وهى تجرى على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار ويسير على الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الانك ، فاذا خمد صار أسود . وقبـل الخمود لونه أحمر ، وقد حصل بطريق هذه النار اقلاع عن المعاصى والتقرب الى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها .

ومن كتاب شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن تميلة الحسينى قاضى المدينـة الى بعض أصحابه : لما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة حدث بالمدينة فى الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت باقى تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا (١) منه صوتا للحديد الذى فيه واضطربت قناديل الحرم الشريف النبوى ودامت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة فى طريق الحرة فى رأس اجلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة وما بانت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير وكلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب أرجع الى الله فاعتق كل مماليكه ورد على جماعة أموالهم فلما فعل هذا قلت له أهبط الساعة معنا الى النبى صلى الله عليه وسلم فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم . والنسوان وأولادهم ولا بقى أحد لا فى النخيل ولا فى المدينة إلا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشفقنا منها وظهر ضوءها الى أن أبصرت من مكة ومن الفـــلاة جميعها . ثم سال منها نهر من نار وأخذ فى وادى اجلين وسد الطريق ثم طلع الى بحرة الحجاج وهو بحر نار يجرى وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الوادى وادى الشظاة ، وما عاد يجىء فى الوادى سيل قط لأنها حرة تجىء قامتين وثلث علوها . وبالله يا أخى ان عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقى تسمع فيها رباب ، ولا دف ، ولا شرب . وتمت النـــار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج وجاء فى الوادى منها الينا قتير وخفنا أنها تجيئنا ، واجتمع النـاس ودخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة . وأما قتيرها الذى مما يلينا فقد طفىء بقدرة الله سبحانه وتعالى وإنها الى الساعة مانقصت إلا ترمى مثل الجمال حجارة من نار ولها دوى ما يدعنـا نرقد ، ولا نأكل ، ولا نشرب ، وما أقدر أصف لك عظمها ، ولامافيها من الأهوال ، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا اليها وما أصبح يقدر أن يصفها من عظمها . وكتب الكتاب

(١) أى سمعنا (ز) .

يوم الخميس من رجب وهى على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلا كاسفين فنسأل الله العافية .

قلت : بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورهما على الحيطان وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار . ومن كتاب آخر من بعض بنى القاشانى بالمدينة يقول فيه : وصل الينا فى جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد الى البلد وغرق كثير من البلد ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شىء كثير بل تلف كله ، وأشرف الناس على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتخترق أزقة بغداد . قال : وأما نحن فانه جرى عندنا أمر عظيم لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتا مثل الرعد ساعة بعد ساعة وما فى السماء غيم حتى نقول انه منه يومين إلى ليلة الأربعاء ، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس ، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوى الرعد فانزعج لها الناس كلهم وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار الى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة الى الصبح وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها ، ويوم الخميس وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن أضطرب منار المسجد بعضه ببعض وسمع لسقف المسجد صرير عظيم وأشفق الناس من ذنوبهم وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة الى قبل الظهر ، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح الى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض فارتاع الناس لها روعة عظيمة ، ثم ظهر لها دخان عظيم فى السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض الى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت لها ألسن تصعد فى الهواء الى السماء حمراء كأنها العلقة وعظمت وفزع الناس الى المسجد النبوى وأقروا بذنوبهم وابتهلوا الى الله سبحانه ، واستجاروا بنبيه عليه السلام ، وأتى الناس الى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان واجتمعوا كلهم فاخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقى الناس فى مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل ، وتال للقرآن ، وراكع ، وساجد ، وداع الى الله ، ومتنصل من ذنبه ، ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها ، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها ، وصعد الفقيه والقاضى الى الأمير يعظونه ، فطرح المكس ، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا . وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا وهى كالجبل العظيم ، وكالمدينة العظيمة ارتفاعا وعرضا ، تخرج منها حصى يصعد فى السماء ويهوى فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمى كالرعد وبقيت كذلك أياماً ، ثم سالت سيلانا فى وادى أجيلين تنحدر مع الوادى الى الشظاة حتى كادت تقارب حرة العريض . ثم سكنت ووقفت أياما ، ثم عادت النار تخرج وترمى بحجارة خلفها وأمامها حتى بنت لها جبلين خلفها وأمامها ، وما بقى يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً . ثم أنها عظمت الآن وسناها الى الآن وهى تتقد كاعظم مايكون ، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل الى ضحوة ، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال . وانما هذا طرف منها كبير يكفى . والشمس والقمر كانهما

منكسفان الى الآن ، وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهى فى مكانها ماتتقدم ولا تتأخر حتى قال فيها بعضهم أبياتا : —

ياكاشف الضر صفحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو اليك خطوبا لا نطيق لها ... حملا ونحن بها حقاً أحقاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لها ... وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً ترج الارض فانصدعت ... عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار يجرى فوقه سفن ... من الهضاب لها فى الأرض ارساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة ... كأنها ديمة تنصب هطلاء
ينشق منها قلوب الصخر ان زفرت ... رعبا وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف فى الجو الدخان الى ... ان عادت الشمس منه وهى دهماء
قد اثرت سفعة فى النار لفحتها ... قليلة التم بعد النور ايلاء
تحدث النيرات السبع ألسنها ... بما يلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج الى ... ان كاد يلحقها بالأرض إهواء
فيالها آية من معجزات رسول الله ... يعقلها القوم الألباء
فبأسمك الأعظم المكنون ان عظمت ... منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وأمح واعف ... وجدواصفح فكل لفرط الجهل خطآء
فقوم يونس لما آمنوا كشف الـ ... عذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هـذا المصطفى ولنا ... منه الى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذى لولاه ماسلكت ... محجة فى سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ماخطبت ... على علا منبر الأوراق ورقاء .

ونظم بعضهم فى هذه النار وغرق بغداد بيتين : —

سبحان من أصبحت مشيئته ... جارية فى الورى بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما ... أحرق أرض الحجاز بالنار

قلت : كان ينبغى أن ينبه على أن الأمرين فى سنة واحدة وإلا فالاغراق والاحراق يقعان كثير فالصواب أن يقال : —

فى سنة أغرق العراق وقد ... أحرق أرض الحجاز بالنار

وفيها : فى ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان هذه السنة وهى سنة أربع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينة على ساكنها السلام ، ابتدأ الحريق من زاويته الغربية من الشمال وكان دخل أحد القومة الى خزانة ثم ومعه نار فعلقت فى الآت ثم واتصلت بالسقف بسرعة ثم دبت فى السقوف آخذة قبلة فاعجلت الناس عن قطعها فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها ، ووقع أساطينه وذاب رصاصها وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، واحترق سقف الحجرة النبوية على ساكنها السلام ، ووقع ما وقع منه فى الحجرة وبقى على حاله لما شرع فى عمارة سقفه وسقف المسجد ، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس فعزلوا مواضع للصلاة وعدوا ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات وكانها منذرة بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره انشاء الله تعالى . ونظمت فى حريق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم :ـــ

لم يحترق حرم النبى لحادث   يخشى عليه ولا دهاه العـــار
لكنما أيدى الروافض لامست   ذاك الجناب . فطهرته النـّـار

وقلت أيضا لسبب السنة :ـــ

بعد ست من المئين وخمســين   لدى أربع جرى فى العــام
نار أرض الحجاز مع حرق   المسجد مع غريق دار السـلام
ثم أخذ التاتار بغـداد فى   أول عام من بعـد ذاك العـام
لم يفن أهلها وللكفر أعوان   عليهم يا ضيعة الاسـلام
وانقضت دولة الخلافة منهـا   صار مستعصم بغير إعتصام
رب سلم وصن وعاف بقايا   المدن ياذا الجلال والاكرام
لحنانا على الحجاز ومصـر   وسلام على بلاد الشـام

وفى ذى القعدة توفى مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى يوم الأربعاء سادس عشر الشهر المذكور ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية .

وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة توفى معين الدين محمد بن عبد الله بن عصرون ، وكان أيضاً شاباً حسناً فاضلا متميزاً أحد من اشتغل على رحمه الله . ومات قبله بايام ابن عمه مجير الدين بن محيى الدين ابن عصرون . وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق .

وفى يوم الجمعة ثالث ذى الحجة توفى العز عبد العزيز بن أبى طالب بن عبد الغفار التغلبى يعرف بابن الحنوى وجده لأمه هو القاضى جمال الدين أبو القاسم الحرستانى الانصارى رحمه الله تعالى .

وفى يوم الخميس تاسع ذى الحجة وهو يوم عرفة توفى شمس الدين محمد بن المبارك السنجارى وكان سخيا فاضلا ، سمع معى كثيراً من كتب الحديث وغيرها لما أسمعت ولدى محمداً رحمه الله . واسمه نعمة فى طباق كثيرة . ثم سافر الى مصر وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين ، ثم قدم دمشق فاقام بها نحو

عامين وتوفى رحمه الله تعالى .

وفيها : ليلة الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى الحجة توفى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الإمام أبى الفرج بن الجوزى الواعظ رحمه الله بمنزله بالجبل ودفن هناك وحضر جنازته خلق عظيم سلطان البلد فمن دونه وكنت مريضاً حينئذ فلم يقدر لى حضورها ، ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا انى رأيته فى حالة منكرة ورأى غيرى كذلك نسأل الله العافية . ودرس بالمدرسة الشبلية مدة كان سكنه يومئذ بالتربة البدرية الحسنية قبالتها على ثوراء . وكان فاضلا، عالما ، ظريفا منكراً على أرباب الدولة ماهم عليه من المنكرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركوب الحمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل ونازلا عليه الى مدرسة العزية بالشرف الشمالى والى غير ذلك مقتصداً فى لباسه ، مواظبـا على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف منصفا لأهل العلم والفضل مباينا لأولى الجبرية والجهل يأتى الملوك وأرباب الدول اليه زائرين وقاصدين ، وربى طول زمانه فى جاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة ، وكان مجلس وعظه مطربا وصوته فيما يورده فيه حسنا طيبارحمه الله ورضىعنه.

وفيها : يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ذى الحجة توفى الشيخ بدر الدين المراغى شيخ خانقاه الطاحون وقع به سلم من أعلاها الى الوادى ، وكان شخصاً حسناً صالحاً فقيهاً تولى العقود مدة ،والقضاء بوادى بردى ، ثم انقطع فى هذه الخانقاه فى آخر عمره إلى أن توفى بها رحمه الله ورضى عنه .

سـنة ٦٥٥ هـ :

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة ففى أول ربيع الأول توفى الأمير بدر الدين بن الحسن المعزى الميروقى . وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروقى الملك المشهور ببلاد الغرب .

وفيها : فى ثامن ربيع الأول توفى الشيخ تقى الدين عبدالرحمن بن ابى الفهم اليلدانى بقرية يلدا ودفن بها ، وكان شيخاً صالحاً مشتغلا بالحديث سماعا إلى أن توفى وله نحو من مائة سنة. أخبرنى أنه كان مراهقا فى سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر(١) نور الدين بن زنكى ولده وانه حضر الطهور ولعب الأمراء بالميدان فى فرشة مع الصبيان . وأخبرنى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يارسول الله بالله ما أنا رجل جيد ؟ فقال : بلى أنت رجل جيـد . أسمعت عليه ولدى أبا الحرم محمدا رحمه الله كثيراً بقراءتى عليه وقراءة غيرى ، وأجاز لابنى أبى الهدى احمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع مايجوز له عنه روايته رحمه الله .

وفيها : فى منتصف ربيع الأول توفى الشيخ شرف الدين محمد بن أبى الفضل المرسى رحمه الله فى طريقه من مصر إلى الشام ودفن بمنزلة الزعقه بين العريش والداروم ، وكان شيخا فاضلا مفتياً كثير الحج محقق

(١) أى ختانه (ز) .

البحث مقتصداً فى أموره ، كثير الكتب معتنيا بالنفيس منها محصلا لها ، وقد كان أعطى قبولا بالبلاد الاسلامية، لايحل فى بلد إلا ويكرمه رؤساؤها وأهلها وا كثر مقامه بالحجاز ومصروالشام ، وفى أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين إيبك التركمانى أحد مماليك نجم الدين ايوب بن الكامل بن العادل بن ايوب وهو الذى غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل ويلقب بالملك المعز وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية فى أموال المسلمين ونسائهم وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين آقطاى ثم مات هذا التركمانى بداره بغتة ولا يعلم سبب موته وتعصب أصحابه لاقامة ابنه مقامه ولقبوه بالملك المنصور نور الدين على وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركمانى انها قتلته فاعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل تكنى ام خليل بابن له منها درج ويلقب شجر شاه . الله يصلح امور المسلمين . وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضى الأسعد شرف الدين الفائزى

وفى هذه السنة نظمت قصيدتى فى أم ولدى احمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن على بن دنو القرشى العبدرى الأندلسى المرسى وكان من أهل الفضل والرئاسة فى الدنيا ومن وجوه بلده :ـــ

تزوجت من أولاد دنو عقيلة ... بها من خصال الخير ماحير العقلا
مكملة الأوصاف خلقا وخلقه ... فاهلا بها أهلا وسهلا بها سهلا
ولود ودود حرة قرشية ... مخدرة مع حسنها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفة ... من اظرف انسان وأحسنهم شكلا
صبور شكور حلوة وفصيحة ... ومتقنة أى تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها ... وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر ... قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقظى أديبة ... موافقة قولا وفعلا فما أعلا
صغيرة سن فى الكلام كبيرة ... نهاها يرى بالها الحلم والجهلا
يشرن عليها بالتفرج مرة ... فتأبى وقعر البيت فى عينها أحلى
مدارية للأهل ان عتبت وان ... احبت فلا عقد لديها ولا غلا
رقيقة قلب مع سلامة دينها ... فلست ترى شبهاً لها فى النسا أصلا
خدوم بقلب فى جميع أمورها ... مباشرة للكل ما دق أو جلا
ملازمة للشغل فى البيت دائما ... على صغر من سنها لاتنى فعلا
مطرزة خياطة ذهبية ... مفصلة خطاطة تحكم الغزلا
تنقل فى الأشغال من ذا وذا وذا ... وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسلا

وما ذاك من عدم فلم يخل بيتها ... من امرأة يكفى إذا شاءت الفعلا
ولكنها اعتادت نظافة شغلها ... فعافت فعال الكل واحتملت فعلا
خفيفة روح مع وقار ذكية ... فتفهم ما يلقى لديها وما يتلى
وان نظرت مالم تعرفه صممت ... عليه إلى أن تحتويه وما اختلا
لها همة عليا تطول روحها ... على صعب الاشغال تتركه سهلا
مربية حنانة ذات رحمة ... فكل يتيم واحد عندها فضلا
نفور إذا ارتابت ألوف لأهلها ... فهلا إذا قيس النساء بها مهلا
كذلك كان الحظ لما تعرضت ... له حاصلا فيها صحيحا وما اعتلا
سريعة دمع العين من رقة بها ... فيابعد أن تلقى لها فى النسا مثلا
عديمة لفظ والتفات إذا مشت ... صموت فلا قطعا ترد ولا وصلا
ولم ينكشف منها بنان بجار من ... مشى معها فى حفظها يدها قبلا
يعز على من يطرق الباب لفظها ... جوابا فلا عقد تراه ولا حلا
يطيل وقوفا لايجاب محرم ... عليها كلام الأجنبى وان قلا
تميز حتى فى الكلام فلا ترى ... لها لفظة إلا وقد وقعت فصلا
ولست ترى من لثغة فى كلامها ... فألفاظها در ينضد أو أغلا
إذا أبصرت مافيه عيب لها أبت ... وتفعل ماتهوى طريقتها المثلى
وحافظة للغيب صالحة أتت ... لحق إذا كانت مناقبها تتلى
وقانتة صوامة ومدلة ... بعقل وتدبير تراه العدا بخلا
يقر لها بالفضل فى العقل كل من ... يراها من النسوان ما تعرف الهزلا
من المحصنات الغافلات فمن رمى ... حصانتها يلعن وذاك به أولى
تجمع فيها عفة ونزاهة ... وعزة نفس فهى تكلا ولاتقلا
واحسن من ذا كله ان هذه ... الخصائل طبع لم تكلف لها حملا
تقل نظير فى نساء زماننا ... فلا تعذلونى فى محبتها عذلا
بنيت بها بنتا لأربع عشرة ... وهذه الخصال الغر فى ذاتها تحلا
واوصافها فى كل عام تزايدت ... ولم تتغير قط سيرتها الأولى
وحسبك عشر من سنين لها انقضت ... معى لم أقل أف لديها ولا كلا

لقد جملت لا غير الله ما بها   عشيرتها والامر من بعد ذا أعلى
فلله حمـــد دائم ونسائله   مزيد الذى أسدى وتتميما أولى
ولـكن فيهـا نفرة وتغيضـا   وسرعة غيظ عند لفظ لها يعلا
فوالله ما أدرى اذ لك مسقط   مناقبها عند الجحود لها أم لا

وفى خامس عشر جمادى الآخرة توفى بدمشق الشيخ ابو العبـــاس احمد بن يوسف التلمسانى المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة ، وكان شيخا معمراً منقطعاً عن الناس محباً للعزلة ودفن بالجبل وكان يروى كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلى عن البرهان بن غلوش مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى الحجة عمل صلاة الغائب عن الشيخ نجم الدين البادرائى هو : أبو محمد عبد الله بن أبى الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان بن أبى الحسن حسون مولده يوم الجمعة بعد العصر سلخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة . وتوفى يوم السبت مستهل ذى الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة ببغداد ودفن قريبـا من الجنيد رضى الله عنه . درس بالنظامية وبمدرسته التى أنشأهـا بدمشق فى موضع دار أسامة ، وكان شيخا فاضلا صالحا ، فقيها ، كريما ، متواضعا وكان يقدم الشام والديار المصرية رسـولا من قبـل آخر خلفاء بغداد وهو : المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ابن المستضىء ، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهى مدرسة حسنة للفقهاء الشافعية ، ووقف عليها وقوفا حسنة ، وجعل بها خزانة كتب جيدة ثم رجع إلى بغداد فى هذه السنة فولى قضاة القضاة بها على كره منه لذلك . واخبرنى من حضر موته ببغداد أن وفاته كانت أول يوم من ذى الحجة ودفن بمقبرة الشونيزى وبقى فى القضاء سبعة عشر يوما وبعد موت البادرائى بأيام قلائل نزلت التاتار خـذلهم الله على بغـداد والخليفة بهـا يومئذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضىء بن المستنجد واستولوا عليها فى السنة الآتية كما سيأتى ذكره .

وفى ذى الحجة من هذه السنة توفى الشيخ يوسف الواسطى الأعرج المقرىء كان بجامع دمشق تحت قبة النسر وكان أحد القراء بالتربة الاشرفية وكان أحد الشيوخ الصلحاء الصابرين على البلاء كان مصابا بيديه ورجله ومع ذلك هو مرابط على الطهارة ، والصلاة ، وقراءة القرآن وايثار الفقراء ، وهو من أصحاب الطائفة الرفاعيـة الواسطية ومن مشايخهم بدمشق ، وكانت وفاته بالمدرسـة الصـادرية بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله . ومات سيف الدين المشد (على بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان) فى تاسع المحرم .

سـنة ٦٥٦ هـ:

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة . ففى أولها فى المحرم استولى التاتار خـذلهم الله على بغـداد فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما جرت عادتهم عند استيلائهم على بلاد العجم على ما ذكرناه فى

كتاب السيرة العلائية والجلالية والاخبار فى تفصيل ذلك كثيرة استولى على الخليفة وأهله بمكيدة دبرت مع وزير بغداد فمن احسن ما أنشد فى ذلك بيت لابن التعاويذى :—

بادت وأهـلوها معاً فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب

وجاء كتاب من بعض من سلم منهم ببغداد يقول : والأمر أعظم مما بلغكم من الأخبار اللهم عافنا وبلادنا من كل سوء .

وفى صفر توفى صاحبنا الشيخ شمس الدين محمود النابلسى وكان شيخا صالحا مرتاضا حسن الصحبة والأخلاق فقيراً فاضلا ناب عنى فى الصلاة بالمدرسة العادلية مدة فى مرضى ، وفى غيبتى زمن الخروج إلى البساتين ثم قرأ القرآن بجامع التوبة بالعقيبة إلى أن توفى ودفن بمقبرة ابن زويزان حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله .

وفى صفر أيضاً توفى الشيخ الصالح خليل يعرف بالشيخ يوسف الكردى كان أكثر مقامه بمسجد الربوة ويدخل إلى الجامع بدمشق ويخرج إلى الربوة عشية منفرداً دائم الذكر والصلاة والانقطاع عن الناس ، وكان الله قد ألبسه الهيبة والوقار وذلك من علامات الأبرار رحمه الله ورضى عنا به وبأمثاله

وفى أوائل ربيع الاول توفى علاء الدين حمزة بن الحجاج أحد الشهود المعدلين بدمشق من أهل البيوتات وكان فقيها دينا بقى عندنا بالمدرسة العادلية مدة بعد مقامه بحلب ثم صار من الشهود المرتبين بباب الجامع رحمه الله . وفى هذا الشهر توفى الموفق محمد بن بنت البكرى، شاب شريف حسنى صالح فقيه بار بوالديه رحمه الله .

وفيهما : توفى عون الدين بن العجمى ناظر ديوان الجيش . والنور الأسعردى الشاعر . والمجير الكتبى وعبد الله البعلبكى أحد رجال الحكم وكان يبذل نفسه لقضاء حاجة من يشدبه بالمدرسة رحمه الله . وفى أول ربيع الاول توفى الشمس على بن النشبى نائب الحسبة كان فى زمن ولاية الصدر البكرى لها . وكان من أهل سماع الحديث واسماعه وقرأ منه كثيرا على شيوخ ابن العساكر العماد بن الحافظ ، وشيخنا الآخران الفخر وزين الأمناء وغيرهم . ومات أيضا القاضى احمد من باب شرق . والبرهان السويدى بمدرسة العادلية ووقف كتبه بمدرسة ابن رواحه . ومات النجم اخو البدر ، وكان يسمع برواية ابن الفاضل بالكلاسة باجازته من السلفى . وفى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر توفى الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع التوبة بالعقيبة ودفن بباب الصغير على قبر جده وكان الجمع فى جنازته كثيراً . وفى ذلك اليوم مات الفخر بن عوضة .

وجاءنا الخبر من حلب بموت الشيخ أبى عبد الله الفاسى . وكان صالحا . عالما ، فاضلا ، وشرح قصيدة الشيخ الشاطبى شرحا حسنا . وفى شهر جمادى الأول توفى الشمس أبو القاسم بن اللهيب متولى الحشرية بدمشق ودفن بجبل قاسيون حادى عشره . وقال فيه صاحبنا الكمال على بن الظهير لما كان ينال الناس منه —

اليـوم زار ابن اللهيب أباه ورأى الذى قد قدمته يداه

لم ينتفع بالظلـم لكن ضره إذ كان حسب الظالمين الله

وفى ثانى عشره توفى الكمال بن الاريسى أحد متولى الدواوين السلطانية بقلعة دمشق كان مشكوراً فيها . وفى ثالث عشر توفى الفخر الياس عتيق الشيخ تاج الدين الكندى وكان مشرفا بالجامع على فرشه وزيته ، وكان لنا رفيقا عام حججنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة رحمه الله . ووقع وباء كثير فى زمن الربيع وهو من أعجب مايؤرخ فعم الناس المرض وكثر الموت. فممن مات فيه الفقيه البغدادى المعروف بالنكرة الشافعى ، والزين بن عبد الملك المقدسى الحنبلى وكيل المجير بن صارم الدين. والمنتجب عباس الحنفى الساكن بالمدرسة الصادرية ، ومكى خطيب زملكا ، وسيف الدين بن صبرة والى شرطة دمشق، وذكروا أن حية عظيمة خرجت عليه عند موته فضربته بين أفخاذه وقيل غير ذلك . وقيل انها اندرجت معه فى أكفانه . وسألت عنه فقيل لى كان نصيريا ، رافضيا ، خبيثاً ، مدمن خمر نسأل الله تعالى العافية.

ومات أيضا أبو كامل محمد الحورانى جارنا بحارة الخاطب ، ومحمد بن الزين خالد . والشيخ ابراهيم الاسود خادم قبر الشيخ رسلان ، والملك الصالح ابن أخى صاحب الجزيرة المعظم سنجر شاه وكان أبوه يلقب الناصر سنجر شاه بن مودود بن زنكى . والملك الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن ايوب وكان سلطان دمشق بعد أبيه نحواً من سنة ثم اقتصر له على الكرك وأعماله ثم سلب ذلك كله وصار متنقلا فى البلاد موكلا عليه وتارة فى البرارى إلى أن مات موكلا عليه بالبويضا قرية قبلى دمشق كانت تكون لعمه مجير الدين بن العادل وحمل منها فصلى عليه عند باب النصر ودفن بجبل قاسيون عند أبيه بالمقبرة المعظمية بدير مران . وخلف أولادا كثيره واتباعا من أهله . ومات أيضا النجم بن أخى نقيب الأشراف يومئذ بهاء الدين على وكان متجاهراً بالرفض .

وفى مستهل جمادى الآخرة توفى محتسب دمشق فتح الدين بن العدل بمنزله بالجبل . وكان خيراً وقوراً متواضعاً رحمه الله . وتولى مكانه الحسبة أخوه ناصر الدين . وفى ذلك اليوم أيضا توفى سعد الدين محمد بن الشيخ محيى الدين محمد بن العربى رحمه الله وكان من الفضلاء العقلاء كتب الى من نظمه يستعير منى الروضتين الذى صنفته :ـــ

بك ملة الاسلام عاد شبابها	يامن بفتياه استبان صوابها
هـذى ثمار الروضتين زكاتها	وجبت عليك غداة تم نصابها
فامنن على بها لعلى اجتلى	ثمرات علـم راحتاك سحابها
وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها	ويكون أسرع من نداك إيابها
وأجل قدرك أن أرى متحيراً	طلباً لها وتكون أنت شبابها

وفى ثالث جمادى الآخرة توفى نظام الدين المولى الحلبى وكان كاتب الانشاء لدمشق وحلب الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان الكبير صلاح الدين يوسف بن أيوب كان كاتبه وصاحب سره ، وكان عاقلا ، ثابتا متواضعا مشكوراً فيما كان فيه ودفن بالجبل . ومات فى الشهر الماضى جمادى الأول شخص زنديق يعرف الشهاب النقاش ، وكان يتعانى الكلام على طريقة الحكماء وانكار النبوات والازراء بما أهل الاسلام عليه ، وكان يسكن بالمدرسة النورية ويجلس كثيراً على باب مشهد

على فى قبة يزيد بالجامع ويجتمع اليه عدد من جنسه الزنادقة لا رحمه الله .

وفى سادس جمادى الآخرة توفى النجيب بن الشقيشقة أبو الفتح نصر الله بن أبى العز بن أبى طالب الشيبانى المعروف بابن الصفار أيضاً ، كان قد سمع كثيراً لكنه لم يكن بحال أن يؤخذ عنه . كان مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك نعوذ بالله من شرور أنفسنا . وهو أحد الشهود المقدوح فيهم ، فمن استشهده احمد بن يحى بن هبة الله الملقب بالصدر بن سنى الدولة فى حال ولايته قضاء القضاة بدمشق ، وكان مراعياً لأرباب الجاهات كثيراً . فانما استشهده لأجل جاه كان النجيب متصلا به ، وميزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق فعجب الناس منه وانكروا ما فعله وأنشدنى البهاء الحافظ لنفسه فى ذلك أبياتاً منها :—

جلس الشقيشقة الشقى ليشهدا ... بابيكما ماذا عـدا مما بدا

هل زلزل الزلزال أم قد اخرج الـ ... دجال أم عدم الرجال ذوو الهدى

عجباً لمحلول العقيـدة جاهل ... بالشرع قد اذنوا له أن يعقدا

وفى سادس عشر جمادى الآخرة توفى النجم محمد بن خضر المعروف بابن طاوس ، كان نقيب القاضى صدر الدين بن سنى الدولة فاثرى بعد فقر كحال مخدومه . ومات الشيخ يوسف النوزرى الذى كان مقيما بشرقى الكلاسة ويقرأ عليه القرآن وكان منسوبا إلى الصلاح رحمه الله .

وفى أواخر شهر رمضان توفى جمال الدين ابراهيم المعروف بصهر المكرم وكان يومئذ خطيب دومة توفى بها وحمل إلى جامع التوبة فصلى عليه به وذهب به الى الجبل وكان شيخاً بهيا متودداً رحمه الله. وفى آخر رمضان توفى العز بن القيسرانى متولى ديوان المظالم بالقلعة بدمشق . ومات أيضا الرشيد النهاوندى الصوفى الذى كان مقيما بالكلاسة قديما زماناً طويلا . وفى ثالث ذى القعدة توفى الشرف الأربلى واسمه الحسين بن ابراهيم ، وكان شيخا مسنداً له سماعات كثيرة عن الخشوعى ، والحرستانى ، والكندى والحافظ البهاء وغيرهم . وفى رابع ذى القعدة توفى الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى بالقاهرة رحمه الله ورضى عنه . وفى العشرين منه توفى الأمير سيف الدين استاذ الدار الناصرى . والتاج الساوى بعده بيومين . وجاءنا الخبر من مصر بموت صدر الدين الحسنى بن محمد البكرى توفى فى حادى عشر ذى الحجة . وبهاء الدين زهير الكاتب . والمعين بن وردان وكثرت الرجعات بقصد التاتار بلاد الشام ونزولهم على الفرات الى بلاد آمد وغيرها . وفتك فيهم صاحب ميافارقين الكامل بن شهاب الدين غازى بن العادل أيده الله بنصره لما حاصروها وصبر على مجاهدتهم أكثر من سنة ونصف ورحلوا عنها بالخيبة والعجز .

سـنة ٦٥٧ هـ :

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة . فى رابع المحرم توفى البهاء بن الحافظ المعروف بابن الدجاجية وكان شيخا فاضلا ، شاعراً رحمه الله . وفى سابع صفر توفى المعين المؤذن العادلى وكان

معمراً ممن أدرك دولة نور الدين زنكى رحمه الله ، وخدم صلاح الدين فمن بعده من الملوك إلى أن قعد فى بيته زمنا قبل موته بسنين ، ثم توفى وقد جاوز المائة.

وفى خامس عشر صفر توفى المجد الأربلى النحوى المعروف بالمحلى وكان يشهد بباب الجامع ويقرىء فى حلقة ابن طاوس جوار البرادة بالجامع وهو الموضع الذى كان يقرىء فيه قبله الفخر بن المالكى وقبله الجمال الشاطبى ، وقبله الوجيه بن البنوى رحمه الله وكان موته لجأة . اللهم عافنا من بلائك . وفى سابع عشر صفر توفى الشمس أبو الفتح الذى كان يقرىء بالتربة الصالحية . هو : الشمس أبو الفتح محمد ابن على بن موسى بن معمر الأنصارى الدمشقى مولده سنة خمس عشرة وستمائة تقريبا ودفن من الغد رحمه الله . وفى العشرين من صفر توفى العماد يحيى بن عمر الحموى امام مسجد حارة الخاطب وكان قرأ معى القرآن العظيم على الشرف أبى منصور الضرير فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ونحوها رحمهما الله وتولى اشراف السبع مرة . وتوفى أيضا شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر فى علوم الأوائل ويسكن مدارس فقهاء المسلمين ، وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب المشتغلين فيما بلغنى ، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام لارحمه الله ولارضى عنه ولاعن أمثاله وهو يعرف بالفخر بن البديع البندهى . كان أبوه يزعم انه من تلامذة الفخر الرازى بن خطيب الرى صاحب المصنفات وفى حياة والده مات .

وفى عاشر جمادى الأولى توفى الزين بن مزهر الساكن بجبل قاسيون قبالة المدرسة البهنسية رحمه الله وكان قبل ذلك هو وأخوه المجد تاجرين معروفين وكان له لسان وبيان وقوة جنان وحسن توصل إلى أغراضه ، وفى خامس عشره توفى التقى يونس الاسود امام مسجد درب الحبالين وكان فقيها بالشامية ويتولى القرايا الموقوفة على المدينة النبوية واشتغل بعلم الفقه والنحو ودفن بباب الصغير رحمه الله ، وفى جمادى الآخرة مات النجم بن القيلوى وجدت بخط الحافظ اليغموزى سألت النجم أبا القاسم على بن القيلوى عن مولده فقال : يوم السبت ثانى المحرم سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالمأمونية من أعمال بغداد والمجد الواسطى , والنجم الكنجى المولد وكلاهما من سكان المدرسة العادلية ; والمخلص الصوفى بخانقاه السميساطى مات لجأة ونظمت فى آخر جمادى الآخرة :ــ

الثوب واللقمة والعافيـة لقانع من عيشة راضيه
وما يزد فالنفس ليست به وان تكن مملكة راضية

وفى شهر رجب تولى القاضى محيي الدين بغزة تدريس المدرســة الناصرية بالقدس الشريف وتولى شهاب الدين محمد بن القاضى شمس الدين احمد بن الخليل الخوبى قضاء القدس الشريف وسافرا من دمشق الى ولايتهما . وفى سادس عشر شعبان توفى بدمشق شخص يعرف بيوسف القميني كان يأوى دائما الى القمامين والمزابل وغالب مأواه قمين حمام نور الدين الذى بسوق القمح العتيق بدمشق ويلبس ثيابا طوالا تكنس الأرض وهو حاف حاسر طويل الصمت قليل استعمال الماء والناس فيه اعتقاد صلاح ويحكون عنه عجائب لم يظهر لى انا منه شىء غير ملازمته لهذه الطريقة الشاقة على النفس مدة سنين كثيرة وعقله ثابت . وعوام الناس يتقربون اليه بالمأكول والمشروب فيتناول بعد جهد مقدار حاجته ويترنح ،

فى مشيته مسبلا اكمامه مع طولها وفى الجملة كان أمره عجيبا . اللهم انفعنا بعبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين ودفن رحمه الله بالجبل بمقبرة الموطهين .

وفى أول شهر رمضان جاء الخبر بموت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مملوك بنت أتابك زنكى ، وفى تاسع عشر رمضان توفى سيف الدين بن الغرس خليل وكان أحد حجاب السلطان مشكوراً فى ذلك وكان أبوه والى شرطة دمشق فى زمن المعظم عيسىٰ بن أبى بكر بن أيوب . وفى ذلك اليوم أيضا توفى صدر الدين أسعد بن المنجا الحنبلى أحد عدول دمشق المتمولين بها وبنى مدرسة للحنابلة بدمشق مقابلة لتربة سيف الدين قليبج مجاورة لتربة القاضى جمال الدين المصرى . وفى عاشر شوال توفى الجمال عثمان بن يوسف ، والقاضى عزالدين محمد ابن القاضى الأشرف احمد ابن القاضى عبد الرحيم البيسانى رحمهما الله . وفى رابع عشره توفى الفخر بن هلال رحمه الله تعالى . وفى رابع ذى الحجة توفى الرضا بن النجار أحد أعوان القضاة المذكور في قصيدة الصدقات منهم ابن النجار الأعرج سمار (؟) القضايا فى دار قاضى القضاة . وفى سابع عشر ذى الحجة توفى الشيخ صالح الأمشاطى ابوسعيد صهر الشيخ عثمان الرومى الساكن بالجبل رحمه الله . وفى سلخ ذى الحجة توفى نجم الدين المظفر بن محمد بن الياس الشيرجى أحد العدول الكبار من الدمشقيين ، وتولى الحسبة بها ونظر الجامع رحمه الله .

وفيها : ورد الخبر من مصر بالقبض على ملكها الصبى نور الدين على الملقب بالمعز بن التركمانى واستيلاء مملوك أبيه قطز على الملك . وفى هذه السنة كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار اهلكهم الله ووردت الأخبار بأنهم قطعوا الفرات وأغاروا على بلاد حلب فهرب كثير من الدمشقيين وباعوا حواصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين فى البرارى والجبال والحصون وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وثبت فى البلد من قوى الله قلبه وايمانه وبالله التوفيق .

سـنة ٦٥٨ هـ :

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة يوم الخميس . ففى يوم الأحد بعد العصر ثامن عشر المحرم ولد لى مولود ذكر سميته باسم والدى اسماعيل وكنيته أبا العرب جعله الله مباركا ووافق يوم مولده كانون الثانى فى قوة البرد وكانت تلك الأيام كثيرة الأراجيف والتخويف من جهة التاتار خذلهم الله، وفى منتصف صفر ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار على حلب بالسيف وهرب صاحبها من دمشق بامرائه الموافقين له على سوء تدبيره وزال ملكه عن تلك البلاد . وكان نزول التاتار على حلب فى ثانى صفر واستولوا عليها بعد سبعة أيام فى تاسع صفر وأمنوهم ثم غدروا بهم فقتلوهم وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرستا فادخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر وقرىء فى غدها يوم الاثنين بعد صلاة الظهر بالجامع فرمان جاء من عند ملكهم معهم فيه أمان أهل دمشق وماحولها،وشرع أكابر أهل دمشق فى تدبير أمرهم معهم . وفى يوم قرىء الفرمان صلى بالجامع على جنازة الشريف بن عصرون . وفى سابع عشر ربيع الأول وصل إلى دمشق نواب التاتار ولقيهم كبراء البلد بأحسن ملق وقرىء مامعهم من الفرمان المتضمن للأمان بالميدان الأخضر ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارين من وراء الغوطة الى جهة الكسوة واهلكوا فى مرهم جماعة كانوا تجمعوا وتحزبوا ، وعدم بسبب ذلك

غيرهم منهم : جماعة من أهل قرية حزرما ، وشجاع ابو هرماس المؤذن ، وصالح ، وقاسم وغيرهم.

وفى السادس والعشرين جاء منشور من هولاكو ملك التاتار للقاضى كمال الدين عمر بن بندار التفليسى بتفويض قضاء القضاه اليه بمدائن الشام ، والموصل ، وماردين، وميافارقين، والاكراد وغيره. كتب له بحلب فى خامس عشر الشهر ، وقرىء المنشور المذكور بالميدان الأخضر وفيه تفويض جميع الوقف إلى نظره وخاصة وقف الجامع المعمور بدمشق المحروسة ، وكان قاضى قضاة دمشق وأعمالها قبله احمد ابن السنى وليه من جمادى سنة ثلاث وأربعين الى الآن وذلك خمس عشرة سنة إلا شهرين أو نحوها . وكان كمال الدين هذا نائبه ويفعل الله فى خلقه ما يشاء ، وفى الثالث والعشرين من ربيع الأول توفى بالجبل الشيخ عماد الدين عبد المجيد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسى رحمه الله وكان شيخا حسنا لطيفا ، علم جماعة كثيرة كتاب الله العزيز وابتلى بمرض مزمن فى آخر عمره وكان له رواية للحديث عن الثقفى وغيره . وقد أجاز أولادى رواية ما يجوز له عنه روايته . وهم محمد رحمه الله ، واحمد ، واسماعيل ، وفاطمة جبرهم الله .

وفى الخامس والعشرين توفى الجمال بن الخطيرى الذى كان مصاهراً المحيى القاضى ، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين بن قوام قتلته التاتار بارض الغور رحمه الله . وفى أوائل ربيع الآخر فى العشرين من آذار توفى الأوحد الدوبى بحلب الذى كان قبل مدرسا بمنبج وقاضياً وكان مشهوراً وفى ربيع الآخر رجعت عساكر التاتار التى كانت عبرت على دمشق بعدما عاثت فى بلاد حوران ، وأرض نابلس وما حولها وقيل بلغت غاراتهم أرض غزة وبيت جبريل ، والخليل ، والصلت ، وبركة زيزى ، وموجب الكرك ونحو ذلك فقتلوا على عادتهم الرجال ، وسبوا الصبيان والنساء واستاقوا من الأسارى والغنائم من البقر والغنم والأسلاب شيئا كثيراً ووصلوا بذلك الى دمشق فاشترى من الأسرى شيء كثير وهرب بعضهم واستحيوا خلقا كثيرا ، والله تعالى يديم علينا ستره وعافيته بمحمد وآله . الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به غيرنا . وممن قتل فى هذه الكرة بنابلس الامير مجير الدين بن سيف الدين بن أبى زكرى وكان شجاعا بلغنى أنه قتل من التاتار قبل أن يقتل جماعة بسيفه ومازال يضرب به حتى خطف النصل من يده فصار يقاتلهم بنفسه يضرب بالدبوس ويتقى به الضرب ويرفس برجله من يصل اليه من الفرسان حتى قتل سبعة عشر أو تسعة عشر ثم قتل رحمه الله . وكان التاتار يتعجبون منه وأتوا بنصل سيفه الى دمشق ووقف عليه أمراؤهم وقد كانت قلعة دمشق امتنع بها الوالى والنقيب فى جمع كثير بها فاحتيج الى حصارها فجاءها من التاتار خلق كثير وصلوا يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا اليه وكانوا استصحبوا معهم المجانيق تجرها الخيل وهم ركاب عليها ، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل ، وأصبحوا يوم الأثنين يجمعون الحجارة لرمى المجانيق فاخربوا حيطانا كثيرة وأخذوا الحجارة من أساسها ، وأخربوا طرقا من القنوات بسبب الحجارة وهيأوها للرمى ونصبت المجانيق فى ليلة الثلاثاء وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً وأصبحوا يرمون بها رميا متتابعا كالمطر فاخرب كثيراً من القلعة من غربها فما أمسوا حتى طلبوا الأمان فاومنوا وخرجوا من الغد ونهب ما فى القلعة وأحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها ثم ساروا الى بعلبك فتسلموها

وحاصروا القلعة وأخذوها ، وساروا الى نابلس وغيرها ووكلوا بخراب كل مدينة بين رجين من قلعة دمشق ففعل ذلك . الحكم لله العلى الكبير . وأما السلطان الملك الناصر يوسف كان بعساكره بغزة فلما بلغه خبر نابلس توجه الى مصر فنزل العريش ثم قطيا ثم تفرق عسكره فتوجه الترك الى مصر مع الأثقال وتوجه هو مع خواصه الى وادي موسى ثم نزل بركة زيزى وكبسه نائب التـاتار كتبغا بها فهرب ثم استأمن له بعض أصحابه هو حسين الطبردار وصار اليهم وكان معهم فى ذل وهوان ثم قتلوه ببلادهم .

وجاءنا الخبر عن الهاربين من دمشق الى مصر بموت الجمال يوسف الدبابيسى أحـد المعدلين ؛ وشرف الدين بن العز المؤذن ، وقبض على خواص السلطان . وفى يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى طيف بدمشق برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره فوق قطعة شبكة زعموا أنه رأس الكامل محمد بن شهاب الدين غازى بن العادل صاحب ميافارقين الذى دام التاتار على حصاره أكثر من سنة ونصف ولم يزل ظاهراً عليهم إلى أن فنى أهل البلد لفناء زادهم وبلغنى أنه دخل عليه البلد فوجد مع من بقى من أصحابه موتى أو مرضى فقطع رأسه وحمل الى البلاد فطيف به بدمشق ثم علق على باب الفراديس الخارج رحمه الله وقلت فى ذلك : —

ابن غاز غزا وجاهد فى ا　　لله قوما أثخنوا فى المشرقين
والعراقين ظاهرا غالبا وبها ما　　ت شهيداً بعـد صبر عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منـه　　فله اسوة برأس الحسين
وافق السبط فى الشهادة والحمـ　　ـل لقد حـاز أجره مرتين
جمـع الله حسن دين الشـهيدين على قبح ذينـك الفعلين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك الـ　　ـرأس فاستعجبوا من الحالتين
وارتجوا أنه يحيي لدى البعـ　　ـث رفيق الحسين فى الحسنيين

رضى الله عنه ثم وقع من الاتفاق العجب أن دفن فى مسجد الرأس داخـل باب الفراديس شرق المحراب فى أصل الجدار . وغربى المحراب طاقة يقال ان رأس الحسين رحمه الله دفن بها . وفى غده يوم الأربعاء قرىء فرمان القاضى محيى الدين بالجامع تحت قبة النسر وفيه توليته القضاء من قنسرين الى العريش ونائبه أخوه لأمه شهاب الدين اسماعيل بن أسعد بن حبش وحضر قراءة الفرمان نائب ملك التاتار من المغل (ايل سبان) وزوجته قعدت معه على طراحة نصبت لها بين زوجها والقاضى الى جانب العامود الشرقى الكبير الأوسط من أبواب النسر بالجامع وشرع القاضى فى جر الأشياء الى نفسه وأولاده ومن يتعلق به عدم الأهلية ، وأضـاف الى نفسه ، وأولاده وأخيه ونحوهم عدة من المدارس ، كالعذراوية ، والسلطانية ، والفلكية ، والركنية ، والقيمرية ، والكلاسة انتزعها من الشمس الكردى ، وانتزع منه أيضا الصالحية ، وسلمها إلى العماد بن العربى ، ونزع الامينية من العلم القاسم وسلمها الى ولده عيسى . ونزع الشومانية من الفخر النقجوانى وسلمها إلى الكمال بن النجار ، ونزع الربوة من الجمال محمد اليمنى وسلمها إلى الشهاب محمود بن القاضى شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان وهو

ابن عمه كل هذا مع ماعرف منه من التقصير فى حق الفقهاء فى المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان العزيزية والتقوية ، وعدم انصافه فيهما ، وولى ابنه عيسى مشيخة الشيوخ بخوانق الصوفية واستناب اخاه لأمه فى القضاء ومعه من المدارس ، الرواحية ، والشامية البرانية مع أن شرط واقفيها أن لايجمع المدرس بينها وبين غيرها . وبقى كذلك إلى أن ملك المسلمون فى أواخر رمضان فبذل أموالا كثيرة على أن يقر القضاء والمدارس المذكورة فى يده ويد أخيه وولديه ففعل ذلك فبقى نحو شهر ثم سافر مع السلطان إلى مصر وتولى القضاء نجم الدين أبو بكر بن صدر الدين رحمه الله ابن سنى الدولة وقرىء منشوره بشباك الحكم بالجامع يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة .

وفى عاشر جمادى الآخرة توفى الفقيه شرف الدين عبد الواحد بن الحسام الواعظ المعروف بابن الحموى ودفن من الغد بالجبل رحمه الله . وفى يوم الأثنين صبيحة الأحد جاءنا الخبر من بعلبك بوفاة القاضى صدر الدين احمد بن يحيى بن هبة الله المعروف بابن سنى الدولة وكان قد سافر مع القاضى محيى الدين المذكور إلى ملك التاتار ثم رجعا على طريق بعلبك فرض صدر الدين فاقام بها وتوفى بعد صلاة الجمعة ثامن جمادى الآخرة رحمنا الله واياه وأخبرنى العلاء على بن الشيرازى أنه رآه فى المنام فسأله عن حاله فقال : لما وصلت قيل هاتوا الدرة .اللهم عفوك وعمل عزاؤه بالجامع يوم الثالث عشر من جمادى الآخرة ، ووصل الخبر باستيلاء التاتار على قلاع الصلت ، وعجلون ، وصرخد ، وبصرى والصبية وهدم الجميع ووقعوا على العرب عند زيزى وحسبان فهزموهم وغنموا أولادهم ، ونساءهم ، وأنعامهم شيئا كثيراً واستاقوا الجميع وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد إلى البرارى فساقوا خلفه فاخذوه وقد بلغ شربة الماء نحو مائة دينار وأتوا به الى نائب التاتار كتبغا فوقفه وأهانه وقرعه ثم أتوا به دمشق مع من قدم من الكرك من الدمشقيين الذين كانوا هربوا اليها قدم بهم القاضى كمال الدين التفليسى بعد مشقة شديدة وجدوها فى الطريق من ترددهم مع التاتار كيفما داروا فبقوا فى الطريق من الكرك إلى دمشق نحواً من خمسة وثلاثين يوما ثم وصلوا فى سادس رجب ، وسار جماعة من التاتار بالملك الناصر صاحب الشام إلى هولاكو وذلك فى رابع عشر رجب ومعه ابنه العزيز فاقام عندهم إلى أن قتلوه فى سنة تسع وخمسين الآتى ذكرها لما بلغ هولاكو كسرة التاتار الذين كانوا بالشام مع ملكهم كتبغا فضربوا رقبته ، ورقبة أخيه ، والصالح بن شيركوه وغيرهم على مابلغنا . وفى أواخر جمادى الآخرة توفى النجيب بن النحاس نقيب القاضى نجم الدين بن الصدر سنى الدولة ، ثم توفى المهمندار سيف الدين غلام النظام بن المولى .

وفى نصف شعبان أغارت العرب على خيل الجشار (١) التى للتاتار ومن يتعلق بهم فاستاقوها وكانت ترعى بالمرج بتل راهط وما حوله . وخرج التاتار من دمشق وما حولها خلفها ، وكان قد وصل دمشق الأشرف بن المنصور ابن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى صاحب حمص كان نزل فى داره وقرىء فرمانه بتسليم نظره فى البلاد فخرج مع التاتار خلف خيل الجشار ثم رجعوا ولم يقعوا عليها .

(١) مرعى الخيول (ذ) .

وفى شعبان ضربت رقبة والى قلعة دمشق بدر الدين بن قراجا ، ورقبة النقيب جمال الدين بن الصيرفى الحلبى بالمعسكر وغيرهما . وجاءنا الخبر من مصر فى شهر رمضان بوفاة الحكيم جمال الدين بن الرحبى الطبيب ابن الطبيب وكان دينا خيراً فاضلا فى المعالجة الطبية مصليا جيد العقيدة رحمه الله . وفى خامس رمضان توفى الشيخ محمد المعروف بالأكال . قلت : هو محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر البيطار من جبل بنى هلال مولده بقصر حجاج خارج دمشق سنة ستمائة كما ذكر وهو الذى كان يأكل من أطعمة الناس بالاجرة ، وكان يتم له فى ذلك نوادر وعجائب قد ذكرت طرفا منها فى موضع غير هذا . وكان حسن الأخلاق محسنا إلى الفقراء صالحا رحمه الله . وتوفى أيضا النجم بن الوجيه بن البونى . وكان رجــلا حسنا ، صالحا ، وأبوه شيخ مشهور بالقراءآت ، قرأت عليه فى صغرى الجزء الأول من سورة البقرة وكان إمام مقصورة الحنفية التى خلف مقصورة الخضر رحمهما الله . ومات أيضا فى رابع رمضان الشيخ سليمان المعرى المقيم بالكلاسة فى زاوية الشيخ عبد الصمد الدكالى شيخ المغاربة وكانا من أهل الخير رحمهما الله .

ووصل الخبر فى ثامن رمضان باستيلاء التاتار على صيدا من بلاد الفرنج ونهبها وثلاثمائة أسير منها . وفى أواخر شهر رمضان مات الرشيد من بنى الحنبلى ، وجاءنا الخبر من بعلبك بوفاة الشيخ محمد اليونينى شيخ الحنابلة ببعلبك وكان شيخا ضخما واسع الوجه كبير اللحيــة يلبس على رأسه قبع فرو أسود صوفه إلى الخارج بلا عمامة ونفق على جماعة من الملوك والأمراء وحصل منهم دنيا واسعة ورفاهية عيش وهو الذى صنف أوراقا فيما يتعلق باسراء النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وأخطأ فيه أنواع من الخطأ الفاحش ، فصنفت أنا فى الرد عليه كتابا سميته « الواضح الجلى فى الرد على الحنبلى » وكان موته على ما أخبرنى به ولده يوم السبت تاسع عشر رمضان رحمــه الله . والله تعالى يرحمنا واياه وسائر المسلمين .

تمام ماجرى فى سنة ثمان وخمسين وستمائة

من ذلك كسرة التاتار خرج عساكر أهل مصر مع من انضوى اليهم من العرب وغيرهم لقصد التاتار الذين بالشام وملكهم يومئذ الملك المظفر قطز بن عبد الله التركى مملوك التركمانى الذى كان قبــله ملك مصر فاجتمع معه خلق عظيم ، ولما كان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان جاءنا بدمشق الخبر بأن عسكر المسلمين وقع على عسكر التاتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عند عين جالوت وما قاربها من البلاد فهزموهم وقتلوهم وأخذوهم ومعهم ملكهم كتبغا فقتل وأخذ رأسه وأسر ابنه فانهزم تلك الليلة من كان بدمشق من التاتار ايل سبان نائب الملك وأتباعه وتبعهم الناس وأهل الضياع ينهبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم ولله الحمد والشكر . وممن قتل بعد المعركة الملك السعيد بن العزيز بن العادل صاحب الصبيبة وبانياس بقى محبوسا بقلاع الشام بعد موت الصالح أيوب وابنــه تورانشاه وكسر الفرنج بالديار المصرية سنين كثيرة وآخرها بقلعة البيرة على الفرات . فلما وصلت التاتار اليها أخرجوه وصار معهم ثم قدم مع مقدمهم كتبغا دمشق وحضر فتح قلعتها وتسلم بلاده فلما قدم العسكر المصرى فى هذه الكرة قاتل مع التاتار فلما وقعت الكسرة عليهم جاء الى الملك المظفر قطز

وفى ظهر تاريخ الأحد سابع عشرى رمضان ورد كتاب وهو أول كتاب ورد منه إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة ويمواصلة الزحف اليهم بعدها. وفى التاسع والعشرين من رمضان قتل بالجامع الفخر محمد بن يوسف الكنجى وكان من أهل العلم بالفقه والحديث لكنه كان فيه كثرة كلام وميل الى مذهب الرافضة جمع لهم كتبا توافق أغراضهم ويقرب بها إلى الرؤساء منهم فى الدلتين الإسلامية والتاتارية . ثم وافق الشمس القمى فيما فوضه اليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم فانتدب له من تأذى منه والب عليه بعد صلاة الصبح فقتل وبقر بطنه كما قتل أشباهه من أعوان الظلمة مثل : الشمس بن الماسكينى وابن البغيل الذى كان يسخر الدواب ، ومن العجائب أن التاتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقلت فى ذلك :ـ

غلب التاتار على البلاد فجاءهم من مصر تركى يجسود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شىء آفـة من جنسه

وجاءنا الخبر بوفاة الأمير حسام الدين بن أبى على بالديار المصرية فى أواخر شعبان من هذه السنة وقد كان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التاتار وتردد ايل سبان وغيره من كبارهم الى كنائسهم وذهب بعضهم إلى الملك هولاكو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية فى حقهم ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام ، ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد فركب المسلمين من ذلك هم عظيم فلما هرب التاتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان اصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها وكانت النصارى قد عبروا من باب توما قاصدين درب الحجر ووقفوا عند رباط الشيخ أبى البنان ونادوا بشعارهم ورشوا الخمر بباب الرباط وفعلوا مثل ذلك على باب مسجد الحجر الصغير والمسجد الكبير والزموا الناس من دكاكينهم بالقيام للصليب ومن لم يفعل ذلك اخرقوا به وأقاموه غصبا وشقوا به السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم ، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربى بين القناطر وخطب وبجل دين النصارى ووضع من دين الإسلام ثم عطفوا من خلف السوق إلى الكنيسة التى أخربها الله بعد ذلك وكان ذلك فى ثانى عشرى رمضان ، وفى الغد صعد المسلمون مع قضاتهم وشهودهم الى ايل سبان بالقلعة فاهانوهم ورفعوا قسيس النصارى عليهم وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة وفى غد حضر ايل سبان فى الكنيسة وفى الغد كانت الكسرة واخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة واحرقوا كنيسة مريم حتى بقت كوماً والحيطان حولها تعمل النار فى أخشابها وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين وهموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لانهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى .

وفى يوم الجمعة ثانى شوال خطب بجامع دمشق الأصيل المسعودى الذى كان خطيبا به أول دولة نجم الدين أيوب ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم خطب عماد الدين بن خطيب بيت الأبار ، ثم خطب القاضى عماد الدين بن الحرستانى نحو ثلاث عشرة سنة ثم عزل بهذا الأصيل.

وكان له صوت حسن فى الخطابة والقراءة فبقى متوليا للخطابة والإمامة بجامع دمشق الى سلخ شوال مدة شهر واحد ، ثم سافر مع السلطان الملك المظفر الى مصر واعيد منصب الخطابة والإمامة الى القاضى عماد الدين بن الحرستانى الذى كان به من قبل ، وجاءنا الخبر بأن المنهزمين من رجال التاتار ونسائهم لحقهم الطلب من المسلمين بأرض حمص ونحوها فسيبوا ما كان معهم من اسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا مما معهم حتى انهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم وعرجوا نحو طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس وأسر جمع والطلب خلفهم ليستأصلوهم ان شاء الله .

وجاءنا الخبر فى سادس شوال بموت العماد أبى حامد الحسين بن عماد الدين على بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم على بن الحسين المعروف بالحافظ بن عساكر ، وكان قد خرج من دمشق الى مصر أيام الجفلة من التاتار ولما بلغه استقامة الشام وأمنه خرج مع غيره من مصر على طريق الشوبك والكرك فمرض وتوصل الى نحو زرع فمات رحمه الله . وفى رابع عشر رمضان جرت على حكاية من نائب التاتار المذكور واسمه ايل سبان لعنه الله وإياهم اهانة وتهديدا بضرب الرقبة على أن وضعت خطى لهم بمبلغ كبير من المال ظلما وقهراً فلم تمض بعد ذلك اليوم الا عشرة أيام حتى كسر التاتار بأرض كنعان بعين جالوت وما والاها كسرة عظيمة مشهورة كسرهم الملك المظفر المذكور كما تقدم وهرب ايل سبان ومن كان بدمشق معهم ليلة جاءهم الخبر وعجب الناس من سرعة هذا الفرج وقيل فى ذلك : ـــ

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا	أبا شامــــة ظلماً وكدر ورده
ارادوا به كيداً وما هيب عله	فغار له الرحمن اذ هو عبده
فما كان بين الجور منهم وكسرهم	لدى رمضـان غير عشر نعده
فحاشى لمفتى الشام يهمل أمره	ويخفض ذو عــلم ويرفع ضده
له اســـوة بالانبياء وصالحى الـ	برية فيه ليس يخلف وعده
يمر علينا ما جرى غير أننا	نسر به حينا فلا كان فقـده

والحمد لله على النصرة عليهم والله المستعان . وفى شهر رمضان توفى الحاج سليم الفقيه كان بالمدرسة الشامية رحمه الله واسمه : سليم بفتح السين وكسر اللام . وفى ثانى ذى القعدة توفى امام المدرسة الحسامية جمال الدين النابلسى أخو الزين خالد المحدث ودفن بالجبل رحمه الله . وفى ثانى عشر ذى القعـدة توفى على ابن حديد بن عبيد السبنسى المصرى الفقيه المقرىء وكان من سكان المدرسـة الأمينية وهو من أصحاب الشيخ أبى عمرو بن الحاجب رحمه الله وممن خدمه كثيراً من حين جاء معه من مصر سنة سبع عشرة وستمائة إلى أن توفى وكان رجلا حسنا مشتغلا بنفسه صالحا دينـا ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله . وفى الحادى والعشرين منه قرىء منشور نجم الدين بن سنى الدولة بولاية القضاء بدمشق . وفى الثامن والعشرين من ذى القعدة توفى الجمال ابو الحرم مكى بن محمد بن المسلم بن أبى الخوف رحمه الله . وقبله

توفى من أهل حارة الخاطب أيضاً القطب ابن الليوانى وكان من مشايخ الفقراء منقطعا بمسجد الحارة ظريفا لطيفا كريماً رحمه الله ، وجاءنا الخبر بوفاة الزكى اللبنى ببعلبك وكان قاضيا بها وكان قبلها تولى القضاء ببانياس ثم ببصرى رحمه الله ، ووصل الخبر بأن الملك المظفر قطز الذى ملك مصر والشام وكسر التاتار قتل فى رجوعه من الشام الى مصر قبل دخوله مصر بين الغرابى والصالحية وكان مدة ملكه منذ قبض على ابن استاذه التركانى إلى أن قتل نحو من سنة واحدة والله تعالى يولى على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام وإقامة شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قطز هذا موصوفا بمواظبة الصلاة والشجاعة وتجنب شرب الخمر رحمه الله ، واتفق بين كسره لجيش التاتار وبين قتله قريب مما كان بين قتل المعظم ابن الصالح بن الكامل وكسره الفرنج الذين كانوا بدمياط على ماسبق ذكره فى أخبار سنة ثمان وأربعين هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشرة سنين إلا أن السابقة كانت فى أوائل سنة ثمان وأربعين وهذه المتأخرة كانت فى أواخر سنة ثمان وخمسين والله تعالى يحسن العاقبة .

وتولى السلطنة بدمشق عقيب ذلك الأمير علم الدين سنجر المعروف بالحلبى التركى وكان قطـز قد استنابه فيها فلما بلغه قتل قطز استحلف الناس وتسلطن وسكن القلعه . وفى رابع ذى الحجة توفى الشيخ ابراهيم الفارقى أبو صالح وكان شيخا كبيراً صالحا ملازما أكثر أوقاته المجاورة بالزاوية التى فيها الشباك الكمالى بجامع دمشق وهو الشباك الذى اعتاد القضاة الصلاة فيه يوم الجمعة واصله كان من اسعرد وكان يرعى بجانبه من جهة السلطان الأشرف بن العادل واخوته وبيتهم ودفن بالجبل رحمه الله . وفى سادس ذى الحجة يوم الجمعة خطب بدمشق لمن تولى السلطنة بالديار المصرية بعد قطز وهو: بيبرس البندقدارى التركى الموصوف بالشجاعة والاقدام ولقب بالملك الظاهر ركن الدين . وذكر بعده الذى تولى دمشق علم الدين سنجر الحلبى ولقب بالملك المجاهد وضربت الدراهم باسمهما . وفى سابع عشر ذى الحجة توفى العفيف بن رحمه شيخ صالح مجاور بالجامع يخيط فيـــه . وهو والد الشرف بن رحمه المشتغل بسماع الحديث ودفن بمقابر الصوفية العليا . صليت عليه إماماً خارج باب النصر وحضرت دفنه ، ولما رجعت مررت بدار الحديث الاشرفية فرأيت ما هى عليه من الشعث والخراب صورة ومعنى بسبب قـــلة الاشتغال بها وخراب وقفها فتذكرت ما كانت عليه زمان كنا بها فى سنى نيف وثلاثين وستمائه وشيخها يومئذ شيخنا الفقيه الحافظ تقى الدين عثمان بن الصلاح فقلت بيتيها مشيراً اليها :ـــ

من بعد ما مات رنطار والتقى بن الصلاح هذاك للوقف والشيخ للعلوم الصحاح

رنطار هذا كان يعرف بالحاج رنطار كان الملك الأشرف واقف دار الحديث قد اعتمد عليه فى عمارتها ووقفها والنظر فى ذلك فى خدمة الأثر الشريف النبوى بها وكان رزقها فى أيامه متوفراً.واختل ذلك بموته كما اختل الاشتغال فى الدار المذكورة بعد موت الشيخ بن الصلاح رحمهم الله ، ونظير ذلك لأن نجم الدين بن سلام كان ناظر التربة الصلاحية ، وكان الجماعة فى أيامه دارة أرزاقهم فلما توفى قال فيها شيخنا علم الدين السخاوى رحمه الله وكان يتولى الاقراء بها يومئذ مخاطبا للجماعة المشتغلين بها :ـــ

والله والله لا أفلحتم أبداً من بعد ماقد هوى النجم بن سلام

وكان الأمر على ما ذكر اختل الوقف بعده والله المستعان.

وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة توفى المجاهد قايماز الإقبالى أحد معتق جمال الدولة اقبال صاحب المدرستين بدمشق ، وكان هذا المجاهد رجلا ديناً خيراً رحمه الله ودفن بالجبل صليت عليه اماماً بجامع بنى أمية بدمشق وشيعته إلى مقبرة باب الفراديس ثم مضى به الى الجبل . وفى هذا الشهر توفى الحاج على الجمال المعروف بدويخ وكان أحد المقومين فى طريق الحج .

وفى هذه السنة كثر تغير الدول ومتولى الحكم بالشام فكان الشام أول السنة إلى نصف صفر فى مملكة الناصر يوسف بن محمد بن غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى ، ثم صار فى مملكة التاتار الى الخامس والعشرين من رمضان ، ثم صار فى مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل فى ذى القعدة ، ثم صار فى سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ويفعل الله ما يشاء . وكان القضاء فى أول السنة تولاه الصدر احمد بن سنى الدولة مستقلا به من خمس عشرة سنة إلى أن ولى التاتار كمال الدين محمود بن بندار التفليسى ، ثم ولوا محيى الدين يحيى بن الزكى ، ثم ولى قطز نجم الدين بن الصدر ابن السنى وابتلى الناس فى هذه السنة بغلاء شديد عام فى جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما . بلغ رطل الخبز درهمين ، ورطل اللحم خمسة دراهم ، وأوقية القنبريس درهما ، والجبن درهما ونصف ، والثوم أوقية بدرهم ، والعنب رطل بدرهمين ، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية وكانت كثيرة الغش بلغنى أنه كان فى المائة منها خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس ، وكثرت فى البلد كثرة عظيمة ، وتحدث فى ابطالها مراراً فبقى كل من عنده شيء حريصا على إخراجه خوفا من بطلانها فتراه يدأب فى شراء أي شيء كان فيتزايد فى السلع بسبب ذلك إلى أن بطلت فى أواخر السنة فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصرى مغشوش أيضا بنحو النصف .

سنة ٦٥٩ ﻫ :

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة أولها يوم الاثنين لايام خلون من كانون الأول ففى أول المحرم جاءنا الخبر بجفلة أهل حلب وما والاها الى دمشق بسبب تجمع التاتار الذين كانوا بحران وغيرها من بلاد الجزيرة ، وانضم اليهم من انهزم من وقعة كسرتهم وضعفوا بما كان عندهم من شدة الغلاء بحران وكانت البلاد قد خربت فاضطروا إلى الاغارة على بلاد حلب فانجفل الناس منهم ، ثم جاءنا الخبر فى سابع المحرم بانهم كسروا بارض حمص كسرة عظيمة فضربت البشائر بذلك وكانت الكسرة عند قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه الى قريب الرستن وذلك يوم الجمعة خامس المحرم وقتل منهم نحو الف رجل ولم يقتل من المسلمين سوى واحد ، وفى ثالث عشر المحرم طيف برؤوس طائفة منهم فى أسواق دمشق من القتلى مرفوعة على عصى بأيدى الصبيان يجبى عليها بالفلوس . وفى يوم تاسوعاء توفى الشرف حسن بن الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغنى المقدسى رحمه الله وكان رجلا خيراً ، ثم جاءنا الخبر فى نصف المحرم برجوع التاتار ونزولهم على حماة فجفل الناس الى دمشق وقدم صاحب حمص وصاحب حماة فى طلب النجدة واجتماع المسلمين على القتال ، ونزل المجاهد الحلبى الذى كان قد تسلطن بدمشق عن السلطنة وانقاد الجميع لسلطنة صاحب مصر لقوته بالمال والرجال ثم ورد الخبر برجوع

التاتار وتخلف صاحب صهيون منهم جماعة وقتل الحشيشية لصاحب سيس لعنه الله ووقع السيف بين التاتار وابن صاحب سيس الله يصدق ذلك ويتم نصر المسـلمين . وفى خامس صفر توفى جمال الدين يوسف بن الناصح على بن مرتفع بن افتكين وكان هو وأبوه وأخوه من عدول البلد ويتولون المدرسة السرورية رحمه الله ودفن على أبيه بالجبل . وفى ليلة الأحد ثانى عشر صفر هرب سنجر الحلبى الذى كان تسلطن بدمشق ونزل فى قلعة بعلبك وقبض على أعوان الظلمة الذين كانوا منصوبين لمصادرة الناس. فنهم : المجاهد سليمان، وغلامه سيف الدين ، والأسعد المسلمانى ، ثم قبض عليه من بعلبك وأرسل تحت الحوطة إلى مصر . وفى العشرين من صفر توفى الكمال القزوينى أحد القراء بالتربة الأشرفية وكان شيخا صالحا ومقرئا حسنا رحمه الله تعالى .

وفى الحادى والعشرين درس القاضى نجم الدين بن الصدر بن سنى الدولة بالمدرسة العادلية وعزل الكمال التفليسى عنها واعتقل بسبب الحياصة الناصرية التى تسلمها التاتار وكانت رهنا بمخزن الأيتام على الدين الذى اقترضه الناصر صاحب دمشق من ورثة عرفة الدنيسرى فبقى الكمال فى الاعتقال خمسة عشر يوما ، ثم ألجىء فى السنة الآتية إلى التحول من دمشق الى مصر ففارق ما كان فيه وسكن مصر . وفى يوم الجمعة ثانى شهر ربيع الأول توفى الخطيب زين الدين خطيب حماة رحمه الله وكان له معروف كثير ووقف أوقافا حسنة وكان حسن الخطابة كثير الخير والصدقة . وفى هـذا الشهر تجمع الفرنج وخرجوا على المسلمين وهم تسعمائة فارس قنطارية ، وألف وخمسمائة تركلى ونحو ثلاثة آلاف راجل وأخذ الجميع قتلا وأسرا ولم يفلت منهم سوى واحد وبعض من كان معهم وانضاف اليهم من رجالة تلك الضياع من ضعاف المسلمين فى الدين وأسر جماعة من ملوكهم .

وفى يوم الأثنين ثالث ربيع الآخر توفى ابنى الصغير اسماعيل جعله الله فرطا صالحاً لأبويه ورحمه وايانا وصليت عليه خارج باب النصر ودفنته تحت أخوته بمقبرة ابن زويزان المجاورة للصوفية وعمره يوم مات سنة واحدة وشهران ونصف شهر . وفى ذلك اليوم توفى الخادم سابق الدين الأشرفى المجاور بالتربة الأشرفية وكان خادما خيراً رحمه الله . وفى عاشر ربيع الآخر توفى التاج الساسى المغربى وكان شيخاً فيه خير وسكون وحياء مقربا عند الحاكم بدمشق الصدر بن سنى الدولة رحمه الله . وفى الخامس والعشرين من ربيع الآخر توفى الشريف المخلص من بنى أبى الحسن الحسينى التاجر بقيسارية الفرس وكان شيخا كبيراً وأحد عدول القاضى بدمشق رحمه الله . وفى تاسع جمادى الأولى عقد مجلس العزاء بالجامع المعمور بدمشق للسلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب الذى كان سلطان حلب ثم ملك دمشق وأعمالها وهرب من التـاتار وسلم اليهم بلاده ثم سلم نفسه اليهم فأهانوه ومضى إلى ملكهم هولاكو فجاءنا خبره أنه ضرب رقبته مع جماعة لما بلغهم أن العسكر المصرى كسر عسكر التاتار بعين جالوت وقتل ملكهم كتبغا فكأنهم اقتصوا منه رحمـه الله . ومات قبل ذلك بيومين الشجاع بن سنقر شاه الذى كان يتناول وقف بيس بقرية داعية رحمه الله .

وفى هذه الشهور توفى شهاب الدين الرفيع الشاهد تحت الساعات . وذبح زين القضاة عبد الرحمن ابن سلطان بالجبل ، ثم ورد الى دمشق أولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وهما صـاحب الجزيرة

يومئذ وصاحب الموصل بعيالهم وأموالهم ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر لخوف عرض لهم وساروا إلى مصر ثم رجعوا مع سلطانها فى آخر السنة ومضوا إلى بلادهم ظاهرين على العدوان ان شاء الله .

وفى تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم مصر أبو القاسم احمد بن الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد أمير المؤمنين وهو أخو المستنصر بالله الذى بنى المستنصرية ببغداد وانه جمع له الناس من مدينتى مصر والقاهرة من العلماء والأمراء والتجار وأثبت نسبه عند قاضى القضاة بذلك المجلس فلما ثبت بشهادة جماعة من الحاضرين عرفوه انه ولد الظاهر بن الناصر اسجل الحاكم عليه ثبوت ذلك ثم بايع له الناس بعدما بدأ السلطان له بمبايعته ورضوا جميعا بخلافته وأمر بنقش اسمه على الدينار والدرهم وأن يخطب له على المنابر وكان ذلك الاثبات والمبايعة فى رابع ساعة من يوم الاثنين ثالث عشر رجب وسر الناس بذلك سروراً عظيما وشكروا الله على عود الخلافة العباسية بعد ما كان الكفرة التاتار قطعوها بقتل الخليفة المستعصم بن الظاهر وهو ابن أخى هذا الذى بويع بمصر وبسبب تخريب بغداد وقتل أهلها وذلك سنة خمس وخمسين فبقى الناس بغير خليفة نحو أربع سنين ونصف وصورة الكتاب الوارد الى قاضى دمشق هذه المكاتبة الى القاضى نجم الدين يعلمه بما تجدد من أمر يبهج الأمة ويستدعى الرحمة ويأخذ الثار ممن هتك للاسلام حرمه وهو انه ورد علينا الامام أبو القاسم احمد بن الامام الظاهر بن الإمام الناصر سلام الله عليه فى أمر نسبه وأخذ البيعة له لحضر جماعة شهدوا بالاستفاضة انه ولد الإمام الظاهر وثبت ذلك عند قاضى القضاة لدينا ثبوتا شرعياً واسجل عليه بحضور العالم وعند ذلك بسطنا لمبايعته راحتنا واقتفى أثرنا الأمراء والحلقة والناس كافة فى مبايعته والرضى بخلافته وذلك فى رابعة يوم الاثنين ثالث عشر رجب وتقدمنا بأن يخطب له ويتوج مفرق الدينار والدرهم باسمه الشريف ونحن بصدد اهتمام نصرة الإسلام على يديه ، واهداء كرائم الأموال والذخائر اليه فليستند من منصبه الشريف الى إمام صحيح النسب شريف الحسب ويحمل استناد احكامه الى ولايته الصحيحة ومبايعته الصريحة وليعلن هذا الخبر السار فى البادين والحضار

وفى سابع عشر شعبان توفى بحماة الشيخ شرف الدين محمد بن (١) الجوبرانى كان مشهورا بالعلم . وفى خامس رمضان توفى الشهاب بن خواجا أخو الضياء المعروف بالجوبرانى أحد فقهاء المدرسة الحسامية وكان رجلا صالحا سليم الصدر به نوع اختلال يسكن فى تربة مثقال الجدار قبالة تربة سركس بجبل قاسيون فى قبالة تربة خاتون رحمهم الله تعالى . وفى شوال قتل قطب العالم أخو العز الخلاطى الذى شنق نفسه بالمدرسة العادلية . وفى يوم الاثنين سادس ذى القعدة وصل إلى دمشق العساكر المصرية مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى المعروف بالبندقدارى ومعهم الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم احمد بن الظاهر بن الناصر واحتفل الناس للقائهما وكان يوما مشهوداً ونزل الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة بالتربة الناصرية بجبل قاسيون . ثم يوم الجمعة عاشر ذى القعدة دخل الخليفة الى جامع دمشق من باب البريد وجاء السلطان من باب الزيارة ودخلا مقصورة الخطيب سبق الخليفة وبعده جاء

(١) بياض فى الاصل.

السلطان وحضرا الخطبة والصلاة ثم خرجا بعد الصلاة والناس يدعون لهما بالنصر والإعانة على قمع الكفرة أعداء الدين . وفى ثانى عشر ذى القعدة توفى الزين عمر بن عقيل التنوخى وكان قليل الدين مخلطا اللهم استرنا واغفر لنا . وجاءنا الخبر فى ذى القعدة من الديار المصرية بوفاة الصفى ابراهيم ابن مرزوق التاجر المحظوظ فى التجارة وكان فى زمن الملك الأشرف موسى يدعى بالصاحب وبقى بالشام مدة يتصدق عنه كل يوم بجملة من الخبز .

وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى القعدة سافر الخليفة بمن صحبه من العساكر إلى نحو العراق فى طريق البرية ، وسافرت قطعة من العساكر إلى أرض حلب وحران وطائفة ساروا إلى بلاد الفرنج نصر الله المسلمين فاغاروا ثم عادوا ووقع الصلح بينهم . وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سنى الدولة وتولى القاضى شمس الدين أحمد بن بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن أبى بكر بن خلكان الذى كان نائباً فى الحكم بالقاهرة سنين كثيرة وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادلية ثم وكل على النجم وأمره بالسفر إلى الديار المصرية وكان حاكما جائراً، فاجراً ظالماً متعديا فاستراح منه العباد والبلاد وهو الذى شاع عنه أنه أودع كيساً فيه ألف دينار فرد بدله كيساً فيه فلوس وذكر ذلك فى القصيدة التى هجى بها لما تولى الحكم ورفعت الى الملك المظفر ، والمولى الأمير المجير ، وابن وداعة. وفى الجملة تولى الحكم فى زماننا ثلاثة مشهورون بالفسق هذا الظالم ، والرفيع الجيلى ، وابن الجمال المصرى ، كان نائباً لأبيه وقلت فى حصر القضاة ونوابهم :ـ

دمشق فى عصرنا مع فضلها بليت من القضاة بجهال وأوقاح
باثنين ومصرى وصائغهم والأربلى وخياط وفلاح
هم ضعف ستة والنواب كلهم ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح

أى هم اثنا عشر : الزكى . وأخوه ؛ وابن الحرستانى ؛ وابنه. والجمال المصرى، والخوبى.والرفيع والتفليسى ، وبنو سنى الدولة ثلاثة ، وابن خلكان ، والبواب شرف الدين بن زين القضاة ، وابن الشيرازى ؛ والسراج مدرس القيمازية ؛ وابن الموصلى، والشرف الحورانى ، والنجم الحنبلى ، وابن المصرى ، والسنجارى؛ وملكشاه ، وعبد الله . والبكرى ، وقاضى العسكر ، وابن عبد الكافى ، وابن العجمى . واسحاق ، والبدر بن خلكان ، وأخوه المحيى . وابنه. وقلت فى نظم الاثنى عشر :ـ

هم الزكى والحرستانى معا وجمال مصر ثم الخوبى ثم ذو الراح
رفيعهم وبنو السنى ومحييهم وخلكان مع التفليس يا صاح

ثم سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة يوم الخميس خامس عشر ذى الحجة ، والدعاء عليه كثير ، والتظلم منه شائع والدعاوى عليه كثيرة .

وفى الغد يوم الجمعة قرىء بالشباك الكمالى بجامع دمشق وأنا حاضر فيه تقليد القضاء للقــاضى شمس الدين بن خلكان الأربلى ويتضمن أنه فوض اليه الحكم فى جميع بلاد الشام من العريش الى سلمية يستنيب فيها من يريده وفوض اليه النظر فى أوقاف الجامع والمصالح ، والبيمارستان ، والمدارس وغيرهما مما كان تحت يد الحاكم المعزول وفوض اليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول وهى : العزراوية ، والعادليـة ، والناصرية ، والفلكيه ، والركنية ، والإقباليـة ، والبهنسية ، وأنشدنى العماد داود بن الحموى لنفسه فى ذلك القاضى المعزول . —

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا	وراح فى لجج الادبار قد غرقا
ناحت عليه الليالى وهى شامتة	وعرفته صروف الدهر ما اختلقـا
وحدثتـه الأمانى وهى كاذبة	بأنه لايرى بعـد النعيم شقا
وجاد بالمال كى تبقى رياســته	وفتق الشرع والتقوى وما رتقـا
فجاءه سهم غرب جل مرســله	فات معنى وما اخطاه من رشقـا
وألقيت فى قلوب الناس بغضته	لكنهم قد غدو فى ذمه فرقا
ففرقة بقبيح الظلم تذكره	وفرقة حلفت بالله قد فسـقا
وفرقة سلبته ثوب عصمتــه	بانه من رباط الدين قد مرقا
وراح قسراً الى مصر على عجـل	موافقا للذى من قبله سبقا
مفارقا لنعيم كان منغمساً	فيــه ولذة يوم بدلت أرقا

وزدت أنا : —

وفرقة وصفته بالخــلاعة مع	خبث وكبر وكل منهم صدقا

وفى يوم السبت سارت العساكر مع سلطانها الظاهر راجعة إلى مصر، وجاءنا الخبر من عانة بوصول الخليفة اليها وأنه اتفق مع الخليفة الآخر الذى كان أقامه برلو بمدينة حلب ويلقب بالحاكم ونقش اسمه على الدراهم وخطب له على المنابر فلما قدم صاحب مصر والشام بالعساكر وتوجه الخليفــة إلى العراق تزلزل أمره ووفق بينهما فانصاع الحاكم المستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد . ثم جاءنا الخبر فى آخر السنة خرج عليهم طائفة من التاتار وأصحابهم قبـل وصولهم بغداد فقتلوا الخليفة وأكثر من كان معه وجاء الخليفة الأصغر هاربا الى العراق وقدم جماعة منهم دمشق هاربين وأخبروا بماجرى عليهم وممن كان معهم وفقد الكمال بن السنجارى ، وابن العمرى ، وعبد العزيز ابن عبد الملك بن عساكر وغيرهم .

سـنة ٦٦٠ هـ :

ثم دخلت سنة ستين وستمائة ففي يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية الملاصقة للمدرسة الفلكية , وابتدأت بها درسا من مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره . وفيها : في أوائل صفر توفي البرهان ابراهيم الصرخدي .

وفيها : في ثاني عشر صفر قتل الزين مظفر بن اسماعيل التاجر المعروف بالزين الصانع صاحب الأملاك بقريتي داعية وحورية وغيرهما قتل بعد صلاة الجمعة وهو داخل من جبل قاسيون قبل أن يصل إلى مقبرة ابن صاحب قرقيسيا على حافة الساقية المقابلة للمزرعة المعروفة بالسميرية . قتله شخص من أهل قرية تل منين متبعه من الجبل وقد عاينه باع شيئا واستوفى ثمنه ولم تمكنه الفرصة إلا هناك ، ثم مسك القاتل فاقر فشنق بعد يومين بين الميدانين يوم الاثنين ودفن الزين من الغد بجبل قاسيون رحمه الله يوم السبت ثالث عشر صفر .

وفيها : يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر . دخل الخليفة الحاكم الذي كان بايعه برلو بحلب وأنزل في قلعة دمشق مكرما وذلك بعد الوقعة التي قتل فيها الخليفة المستنصر وكان معه فهرب وسلم ثم سافر الى مصر يوم الخميس السادس والعشرين من صفر . وفي ذلك اليوم توفي عثمان الكيال الأحول الساكن بحضرة حمام الحين ودفن بباب الصغير .

وفيها : في أواخر ربيع الآخر توفي العز الضرير الأربلي الذي كان يقرىء علوم الأوائل في بيته لمن يتردد اليه من أهل الملك مسلمها ، وكافرها ؛ ومبتدعها ، من الرافضة ، واليهود ، والنصارى ، والسامرة وكان قليل الدين لكنه كان ذكيا فصيحا حسن المحاضرة والله تعالى يختم لنا بخير آمين . وفي أول جمادى الأولى توفي بمكة التاج أبو الحسن بن زين الأمناء وصلي عليه بجامع دمشق يوم الجمعة رابع عشر ربيع الخطيب عماد الدين بن الحرستاني عندما صح خبر موته رحمه الله .

وفيها : جاءنا الخبر من مصر بوفاة الشيخ عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله وعمل عزاؤه بجامع العقيبة يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الاولى سنة ستين وستمائة ؛ ثم جاء من حضر جنازته وأخبر أن وفاته كانت يوم الاحد عاشر جمادى الأولى أو حادي عشره وكان يوما مشهودا حضر جنازته الخاص والعام ، ونزل السلطان الظاهر بيبرس وصلى عليه مع الناس بالقرافة ودفن في آخر القرافة مما يلي الجبل من ناحية البركة , وصلي عليه في جامع دمشق وغيره من الجوامع بالشام يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى رحمه الله ، ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة : الصلاة على الفقيه الامام شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام .

وفيها : في حادي عشر جمادى الأولى توفي الجمال عبد الوهاب بن المصري الاعور وكان قديماً بالمدرسة الجاروخية في حياة شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم صحب بني سنى الدولة وانتفع بهم وكف بصره في آخر عمره ودفن. وفيها : في رجب من هذه السنة جرى على الشمس محمد بن مؤمن الحنبلي

أمر بتعصب أهل الجبل عليه بأن حمل والى دمشق على صفعه وتجريصه على حمار بدمشق وبالجبل .
وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الصاحب كمال الدين عمر بن أبى جراد الحنفى المعروف بابن العديم فى العشرين من جمادى الأولى وصلى عليه بجامع دمشق صلاة الغائب رحمه الله . وكان فاضلا متواضعا ، حسن المحاضرة ، كثير الإفادة . وسود تاريخا بحلب ، وبيض بعضه . وفى تاسع عشر جمادى الأولى توفى الجمال عبد الله بن عبد الملك الحنبلى المعروف بعفلق . وفى السادس والعشرين من جمادى الأولى توفى التاج عبد الرحمن بن عبد الباقى بن الخضر الحنفى المعروف بابن النجار ، وكان أحد شهود باب الجامع ، ومدرساً فى بعض مناصب الحنفية رحمه الله ، وهو الذى كان عقد نكاحا على مذهبه باذن الصدر بن سنى الدولة الحاكم الشافعى ثم أذن الصدر لنائبه الكمال التفليسى فى نقضه فنقضه وجرى فى ذلك انكار عظيم على الناقض والآذن وصنف فى ذلك تصنيفا فانتصر التفليسى لما حكم به بجمع جزء فنقضه عليه بتصنيف آخر .صليت عليه إماما ظاهر . الفراديس ، واتفق حينئذعبور نائب السلطنة بدمشق وأعمالها الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى فترجل وصلى معنا عليه ثم مضى به إلى جبل قاسيون .

وفيها : فى ثانى عشر جمادى الآخرة توفى البدر المراغى الخلافى المعروف بالطويل وكان قليل الدين تاركا للصلاة مغتبطا بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين رحمنا الله وجميع المسلمين .

وفيها : فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة توفى صاحبنا ناصر الدين محمد بن داود بن ياقوت الصارحى ودفن بمقبرة الباب الصغير حضرت دفنه والصلاة عليه ، وكان رجلا صالحا ، عالما مفيداً لطلبة الحديث باذلا كتبه وخطه فى ذلك ، اشتغل بسماع الحديث كثيراً ، وكتب مجلدات وأجزاء كثيرة ، وطباق السماعات المكتوبة بخطه من أحسن الطباق وأنورها وأصحها رحمه الله . وفى ذلك اليوم توفى جمال الدين محمد عبد الحق بن خلف الحنبلى بجبل قاسيون فلم أحضر جنازته لاشتغالى بجنازة ناصر الدين المذكور رحمهما الله ، وكان حسن الأخلاق ظريفا يتولى التوريق بالجبل وورخ الوقائع فى أيامه .

وفى ليلة الأحد سلخ جمادى الآخرة ولد ابن ابنتى حسن بن عبد الرحمن بن محمد البكرى جعله الله مباركا

وجاءنا الخبر من مصر فى رجب بانه شنق قاضى المقيس بها . كان ذلك فى عشية الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وهو : الكمال خضر بن أبى بكر بن أحمد الكردى أحد أقارب قاضى سنجار وذلك لأنه تعرض لإقامة دولة باجتماعه مع جماعة من الاكراد والشهرزورية فقبض عليه وعلق وفى رقبته تواقيع كان كتبها . وبنود من شعار الدولة التى كان قد رام اقامتها ، وكان قبل ذلك قد صنع خاتما وذكر انه وجده وجعل تحت فصه ورقة اسماء جماعة من أولى الثروة بما عندهم مودع ورام استئصال أموالهم والتقرب بها إلى ولاة الأمر فاطلع على محاله فاهين وصفع فقيل فيه :

ماوفق الكمال فى أفعاله	كلا ولا صدق فى أقواله
يقول من أبصره يصر	نادما على ما كان من محاله
قد كان مكتوبا على جبينه	فقلت لا بل كان فى قذاله

- وسألت الحاكم شمس الدين احمد بن محمد بن ابراهيم بن أبى بكر عن هذه القضية فاخبرنى ان هذا الكمال خضرا كان قد علق به حب التقدم عند الملوك بسبب انه كان قد تقدم عند عز الدين ايبك التركانى وهو الملك المعز ثم ابعد ، واتفق انه لما صنع الخاتم المذكور وحبس كان فى الحبس شخص آخر يدعى انه من بنى العباس ، وكانت الشهرزورية أرادت مبايعته بالخلافه وهيأوا الأمر لما بعده فلما تبددشملهم أخذ هذا وحبس واتفق خضر معه فى الحبس على أنه يسعى له فى ذلك الأمر ويكون هو وزيره فاتفق موت العباسى فلما خرج خضر سعى فى اتمام الأمر لابنه فتم ما تم . قال : وكان من زمن الامام الناصر أحمد قد ورد الى اربل شخص يسمى الأمير الغريب كان يدعى انه ولد الناصر ثم توفى سنة اربع عشرة وستمائة فادعى هذا الشخص انه ابنه عند الشهرزورية فقدموه لحبس ومات وخلف ولداً صغيراً فسعى الكمال فى المبايعة له لجرى ما جرى ، وقد خاب من افترى .

وفى ثامن رجب توفى الشرف عبد الرحمن بن صدقه وكان من أترابى ورفقائى فى تلقن القرآن العظيم عند العفيف الضرير محمود شيخ القاضى الخوبى . وفى المدرسة الأمينية أيام الجمال المصرى رحمه وفى ثالث عشر رجب توفى البرهان الخلخالى وكان فقيها مناظراً مقبول الشهادة رحمه الله. وفى رابع عشر رجب توفى الشمس الكردى الاعرج الذى كان يصحب الامير حسام الدين بن على وكان مدرساً بالكلاسة وغيرها ودفنه حموه تقى الدين بن أبى اليسر بالجبل عند قرابته وجده رحمهم الله .

وجاء الخبر إلى دمشق بالتقاء التاتار لعنهم الله المقيمين على بلاد الموصل بعسكر الامير برلو من المسلمين وجرت بينهم مقتلة عظيمة قتل فيها من أعيان فرسان المسلمين سنجر جكم الاشرفى وابنه ، وبكتوت الحرانى وغيرهم .

وفيها : يوم الاثنين الثانى والعشرين من رجب توفى نقيب الأشراف الطالبيين بدمشق وهو: بهاء الدين على من بنى أبى الجن، وتولى بعده النقـــابة الفخر بن النظام البعلبكى . وفيها : يوم الخميس خامس وعشرين رجب توفى الشيخ عبدالرحمن بن خطيب اربل الذى كان ساكنا بمنارة جامع دمشق الشرقية رحمه الله . وجاءنا الخبر من مصر بوفاة القاضى المكين بن كامل فى نصف رجب ، ومن تل السلطان بحلب بوفاة عز الدين ايبك المحيوى عتيق محي الدين بن المدرس وزير الجزيرة . وكان شابا ذكياً فاضلا حسن الخط وكان يقرأ على فى صغره بمصر شيئا من العربية رحمه الله . وفى هذه السنة نظر فى امر أئمة المساجد بدمشق فمنعوا من الاستنابة ورجع على بعضهم بما كان تناوله اذ لم يقم بالوظيفة. منهم التاج الشحرور ، والجمال الموقانى ، وابن بنت غانم ،وابن عبدالسلام وغيرهم ونقص كثيراً من جامكياتهم المقررة وكان المتولى لذلك والى الشرطة بدمشق وهو الافتخار اياز ، وكان شيخا كبيراً ولى دمشق فى أول هذه السنة ومكن من النظر فى المساجد لجرى ما جرى ، وامر اهل الاسواق بالصلاة وعاقب من تخلف عنها ، وكان يخدمه شخص من أبناء الحنابلة يعرف بالفخر بن الصيرفى وله مسجد بقبة اللحم له فيه كل شهر ستون درهما وتركه بحاله لم ينقصه من جامكيته مع نقص غيره فقال فيـــه بعض أئمة المساجد :ـــ

يا واليـا متزهداً متجنبـلا بتصلف

لم لاتساوى بالمساجد مسجد ابن الصـيرفى

فاجابه آخر على لسان الوالى لما كان مهتما بمراعاة الحنابلة فقال :ــ

قال الأمير الحنبـلى جواب من لم ينصف

أنا مبغض للشـافعى والمالكى والحنفى

فلذاك أقصـدهم وارعى جانب ابن الصيرفى

وفى شعبان توفى الحاج أبو بكر بن بطيخ التاجر برحبة دمشق . وفى هذه السنة سار عسكر الشام مع من قدم عليهم من عسكر مصر ونزلوا على مدينة أنطاكية فشعثوا منهـا ، ثم جاءهم أمر من مصر بالرحيل عنها فرحلوا ودخلوا دمشق فى سلخ سعبان ، وفى التاسع والعشرين من شعبان توفى النجم ابراهيم ابن الضياء يوسف بن خطيب بيت الأبار وكان من الشهود المتصرفين بديوان السبع رحمه الله .

وفى أول هذه السنة نزل التاتار لعنهم الله الذين كانوا هربوا من الشام مع من انضوى اليهـم من المفسدين على مدينة الموصل لحصروها إلى شعبان ، ثم جاءنا الخبر بأنهم دخلوا وفتكوا فيها على عادتهم وملكوها وقتلوا وأسروا صاحبها ابن لؤلؤ . وجاءنا الخبر بان الخلف وقع بين التاتار ببلاد العجم وموت ملكهم الأكبر ، وانتصار بركة على هولاكو لعنه الله . وفى النصف من رمضان وقع بدمشق ارجاف عظيم من جهة التاتار وتجهز الناس منها للهرب الى الديار المصرية وباع الامراء حواصلهم حتى حواصل القلعة وتهيؤا للهرب . والزم ولاة الأمر كبراء دمشق بالرحيل بأهاليهم الى مصر ورسموا عليهم بذلك ، وضيقوا عليهم بسببه ، وألزموا أرباب الدواوين المتصرفين لهم بارسال نسائهم الى مصر وبقائهم فى خدمتهم فى دمشق سواء فى ذلك القادر والعاجز ، وألزموا جمعاً كبيراً بذلك من أهل الأسواق الذين بالقيسارية الفخرية والخواصين وغيرهما من جماعة من صناع القواسين وغيرهم . وأطلقوا أصحاب الفراسين وكل من كان بينه وبين التاتار تعلق وأخرجوهم الى مصر كرهاً . منهم : القاضى التفليسى ، وابن عنتر، وقيدوا جماعة منهم مثل : ابن اللبودى ، وابن المسلم ، وابن الأردنى وجفل الناس من حمص وحماة وغيرهما الى دمشق ، ورحل من دمشق فى نصف شوال فما بعده قفل كبير الى مصر بعد قفل وأخذ بعضهم فى الطريق وجرح بعض ، وكان الماء عليهم فى الطريق قليلا والحر شديداً ، وبلغنا أن مثل هـذه الإرجاف وقع أيضاً فى بلاد العدو من التاتار ، وفى بلاد الفرنج أيضا . وفى الديار المصرية .

وفيها : توفى جمال الدين الواسطى الساكن بالعزيزية وكان يصلى بها التراويح رحمه الله ، وفى أوائل شوال قتل الشيخ اسكندر الواسطى بقرية زملكا من حرامية نزلوا عليه رحمه الله . وفى شوال أيضاً توفى حميد الأخرس بن أبى الفتح ، وتوفى فيه خميس الخفير الذى كان بمقبرة باب الفراديس . وفى سلخ شوال توفى عز الدين عبد العزيز بن الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى الواعظ الحنفى وكان قد درس مكان أبيه بعده بالمدرسة العزيزية التى فوق الميدان الكبير رحمه الله ودفن فى مقبرة أبويه بجبل قاسيون ، وفى أوائل ذى القعدة توفى العفيف بن الوزار .

وفيها : فى ثالث ذى القعدة وصل من مصر الى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطى وبكر للدخول الى دمشق فخرج الناس يتلقونه وفيهم الحاج علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بدمشق فلما وصل اليه وأهوى أن يكارشه على ما جرت به عادة الملتقين قبض الدمياطى بيده الواحدة عضد طيبرس وبيده الأخرى سيفه وأنزله عن فرسه وأركبه بغلا وشده عليه وقيده ثم تركه بمصلى العيد فلما دخل الليل وكل به وسيره الى مصر وكان القبض عليه عند ذيل عقبة شحورا وهرب من خرج معه من أصحابه ، ثم استخرجت أمواله التى تبقت بعد ماسير منها ما كان سير مع العرب وقبضت حواصله . وكان طيبرس المذكور قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم على الأكابر باخراج عيالهم وبأنفسهم واهانتهم وضيق على الناس بتمكين العرب من شراء الغلال من دمشق وتخويف الناس من التاتار ، وكان البدوى يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشترى به الغلة رخيصة لأن الناس بين خائف يبيع حاصله ليتجهز به ومحتاج الى الجمال لسفره وبين من هو موكل عليه ليسافر ولابد فهو مضطر الى كل ذلك وبلغ كراء الحمل بالمحارة من دمشق الى مصر نحو مائتى درهم والحمد لله على كشف تلك الشدة .

وفى الخامس من ذى القعدة مات الأمير المعروف بالاصبهانى مخموراً . وفيها يوم السبت السابع والعشرين من ذى القعدة وصل الى دمشق من عسكر التاتار لعنهم الله نحو مائتين مابين فارس وراجل بنسائهم وصغارهم هاربين الى المسلمين . وذكر أن سببه ان عسكر هولاكو كسره عسكر ابن عمه بركة (١) فهرب جماعة هولاكو وتشتتوا فى البلاد فقصد كل طائفة جهة وتوجهت هذه الطائفة إلى بلاد الشام ففرح المسلمون لهذا الخبر وزال عنهم ما كانوا فيه من الغم بسبب الأخبار السابقة التى أوجبت أن جفلوا الى مصر ، وأخبر بعض هؤلاء المنهزمين أن ملك التاتار الأعظم منكوبغان توفى وقام بالملك بعده أخوه الأصغر غزى بكو وكان الأخ الاكبر قبلاى غائباً بالهند فانف وقصد أخاه بعسكره فتقابلا ونصر بركة لغزى بكو فكسروا عسكر قبلاى فلما سمع هولاكو عز عليه وكره تملك غزى بكو وجمع العساكر وقصد بركة وسار بركة اليه ونزل فى أرض الكرج ونزل هولاكو بصحراء سلماس وخوى وأخبرنى من أثق به عن من يثق به انه اجتمع ببعض غلمان من كان فى أسر التاتار من الأمراء أنه أخبر بحضره الأشرف صاحب حمص أنه حضر كسرة بركة لهولاكو وقال : كان جيش بركة قد كسر عسكر هولاكو الذى سيره مع ابنه وقتل ابنه فجمع هولاكو بقية من قدر عليه من عساكر وسار الى بركة فلقيه بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق عظيم ووقعت الكسرة على عسكر هولاكو فبقى السيف يعمل فيهم أياما وهرب هولاكو الى قلعة بلا (٢) وهى فى وسط بحيرة باذربيجان فدخلها وقطع الطريق اليها فبقى كالمحبوس فيها .

وفيها : فى ثامن ذى الحجة توفى الأمير سيف الدين بلبسان المعروف بالزردكاش الذى كان استنابه طيبرس موضعه بدار العدل وعلى دمشق لما سافر إلى حصار انطاكية وكان دينا خيرا يحب العدل والصلاح رحمه الله .

---

(١) الملك المغولى المسلم حاكم ماوراء القوقاس وصديق الظاهر بيبرس (ز) .

(٢) لعله تلا (ز) .

وفيها : جاء يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة جماعة من المسلمين أعرف بعضهم معهم شيخ زعموا أنه نصرانى معروف بليع اللحم بدمشق وانه رأى رؤيا وقد جاء مسلما فاخبرنى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة جاءه وكان مضطجعاً من أثر مرض فقال له : قم وأخرج من الضلالة الى الهدى ومر الى أبى شامة واسلم على يده وأخبره أن الملك الأشرف يعنى صاحب حمص يملك بلاد سيس ويهلك العدو بها ، وان صاحب مصر فى السنة الآتية يهدم عكا ويملكها وتكون انت تخدم مسجد صالح بها ، ثم ارتفع صلى الله عليه وسلم الى نحو السماء وهو فى صورة لا أقدر أصفها ولا أشبهها بالقمر ولا الشمس هى أكمل من ذلك وأتم . فقلت الى أين يارسول الله ؟ قال : أسأل ربى فى الناس نصرهم على الكفرة أوكما قال . قال : فانتبهت وبقيت فى حيرة من أمرى فلما كان ليلة السبت رأيت مثل ذلك المنام ، ثم ليلة الأحـــد كذلك ثلاث ليال متوالية ثم صممت على الدخول فى الاسلام فسألت عن من يقال له أبو شـامة من المشايخ فدلونى عليك . فأمرته، بالاسلام فأسلم والحمد لله رب العالمين .

وفيها : توفى البدر احمد بن شرف الدين عمر بن الســـابق بارض نابلس رحمه الله . وفى أواخر ذى الحجة توفى العز التاجر المعروف بابن مشرف ويلقب بابن الجرذان . ووجد النظام قيس بن العربينى مقتولا بالصالحية وكان هذا المذكور ذكر عنه أنه قتل زوجة له وغيرها . وهو : أبوسعيد قيس بن عثمان ابن عمرو بن كامل هبة بن على الانصارى وعربين قرية بغوطة دمشق. وقدم الى دمشق والياعليها من جهة مصر الأمير جمال الدين اقوش المعروف بالنجيبى ورحل عـلاء الدين التركى الى مصر ، وتولى عز الدين ابن وداعة الوزارة على الدواوين وما يتعلق بهـا ، وتولى نظر الدواوين شمس الدين بن علان وانعزل عنه شرف الدين بن الوزان وتحرك سعر الغلة فى أواخر هذة السنة ، وطابت الأخبار من جهة التـاتار والحمد لله .

سنة ٦٦١ هـ :

ثم دخلت سنة احدى وستين وستمائة وسلطان الديار المصرية والشـــامية الملك الظاهر بيبرس الصالحى المعروف بالبندقدارى ولا خليفة للناس يذكر بل السكة تضرب باسم المستنصر بالله على ما كان الأمر عليه . والنائب بدمشق عن السلطنة جمال الدين اقش النجيبى وقاضيها شمس الدين ابن خلكان . وفى خامس المحرم توفى الزين بن أبى طالب الفراش صهر المجـد بن سنى الدولة وكان يتولى الدواوين مع الأمراء وغيرهم .

وفيها : يوم الجمعة سادس عشر المحرم خطب بجامع دمشق وسائر الجوامع للخليفة الحاكم أبى العباس احمد بن الحسين بن الحسن من أولاد المسترشد بتوقيع بقلعة القـاهرة ومصر فى ثامن المحرم من السنة التى كان سافر الى مصر .

وفيها : جاءنا الخبر بأن صـاحب مصر بايع له وأمر بالخطبة له فى البلاد . وفى ليلة الأحد ثالث صفر سمر شاب ذكر أنه كان يرسل زوجته وتدخل فى بيوت النساء فتحسن للمرأة الخروج معهـا لابسة أنخر ثيابها وحليها وتشوقها بأن تقول لها هاهنا عرس أو وليمة وقد اجتمع فيه جماعة من النساء الاكابر

فلا تتركن من الزينة شيئا ليحصل لك التجمل بينهن فتفعل تلك المغرورة أقصى ماتقدر عليه وتخرج معها فتجيء بها الى بيت زوجها فيأخذ جميع ماعليها ثم يخنقها ويرميها فى بئر فى داره فعل ذلك بجماعة من النساء ، وهو نظير ما فعله شخص يعرف بالمكحلة فى سنة ثمان وعشرين وستمائة وسمر وبقى أياماومات. ثم هتكه الله تعالى فاخذ هو وامرأته فضربا فاعترفا ، فأما المرأة فخنقت وجعلت فى جولق وعلق الجوالق تحت الخشب الذى سمر عليها . فأصبح الناس يوم الأحد فوجدوا الجولق المعلق والرجل المسمر خارج باب الفرج على يسار الخارج من الباب وكان الزمان فى سابع عشر كانون الأول وسمر وهو فى ثوب واحد خلق مكشوف الرأس فبقى ليلتين ويوما . وفى اليوم الثانى خنق بطرف الحبل وربط فى الخشبة التى سمر عليها وكان أبوه حيا وهو رجل حسن يعرف بعلى الصانع له ثروة وقدر بين الناس وجده أيضا حى . وتوفى ذلك اليوم نصر الفراش بالتربة العادلية سقط من سطح فمات رحمه الله . وفى العشرين من صفر توفى أبو الحرم العطار بباب البريد وهو ابن البدر بن مسلم العطار بالبادين .

تمام حوادث سنة احدى وستين وستمائة فيها نظمت قصيدة فى شرح الحال وكنت قد اشتغلت بزراعة ملك لى وعمارته فانقطعت عن المدرسة فعوتبت فقلت :ـــ

أيها العاذل الذى إن تحرى ... قال خيراً ونال بالنصح أجرا
لا تلمنى على الفلاحة واعلم ... انها من أحل كسب وأثرى
كيف لا ألزم الفلاحة باقى ... عمرى لا زال حصداً وبذرا
وبها صنت ماء وجهى عن الناس ... جميعا وعشت فى القوم حرا
اذ بها صار منزلى ذا غلال ... مع عيال من بعد ماكان قفرا
مشبع الأهل والأقارب والا ... زام منها فليس يشكون فقرا
ولكم واقف ببابى يعطى ... صدقات من الغل وبرا
كم فقير وكم يتيم وكم ... أرملة نال من نصيبى وفرا
وكذا الطير والبهائم ترعى ... من زروع ومن ثمار تترى
كل ذا فيه الأجر جاء ... أحاديث بهذا الذى الأئمة تقرا
اتخذ حرفة تعيش بها ... يا طالب العلم ان للعلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقـ ... ـف فيمضى الزمان ذلا وعسرا
انما تحصل الوقوف لشريـ ... ـر ونذل من العلوم مبرا
أو لمن يلزم الأكابر لاير ... برح فى خدمة لهم ومدح وإطرا
طالبا جاههم بجيبا الى كـ ... ـل أمور لهم عكوفا مصرا
فترى قاضى القضاة ومن يذ ... كر درسا يرعاه سراً وجهرا

قاصداً قربه فيصغى اليـه — فاعلا ما يريد نفعـا وضرا

والضعيف المشغول بالعـلم يلقى — من ولاة الوقوف هجرا وهجرا

وهو المستحق لو أبصروا الحـ — ـق ولكن عموا فيارب غفرا

انما كانت المدارس عونا — لأولى العلم حسب فى الناس طرا

درست فى زماننـا إذ تولا — ها أولوا الجهل والحماقة قهرا

قربوا شبههم وأقصوا وآذوا — حامل العـلم أسكنوه قبرا

وتراهم لا يحزنون لهـذا — انهم فى الضلال والغى سكرا

ياله منصباً تداوله من — ليس أهلا له دهاء ومكرا

جعلوا موضـع المفقه والمر — شد من لا يدرى وفى الشر يدرى

وأولوا الأمر المالكون يظنو — ن صوابا فيهم وخيراً وطهرا

فاذا ما رأوهم هكذا كا — ن لهم فعلهم على الظلم إغرا

ويظنون كل صـاحب علم — هكذا فعـله فيجعل جسرا

فعليك المعاش يا طالب العلم — ولا تترك المعيشـة كبرا

واقتنع بالذى تسهل واشكر — تجـد الرزق فاض فيضا ودرا

واترك الوقف اذ جرت صورة الام — ر كذا بينهـم فبئس المجرا

اجتنب فعلهـم توكل على الحـ — ـى الذى لايموت واسأله سترا

كن أبيـا لما يشين أما تأ — نف من أن يكون عيشك يزرى

اذ يقال الأوقاف أوساخ الأموا — ل كوقف الزمنى ووقف الاضرا

والمساكين واليتامى فكل — صدقات منها اللبيب تبرا

لايرى أنه يشارك ذى الأصـ — ـناف فيهـا يعيش عيشا مرا

لجفاها مع أنه مستحق الـ — ـوقف مايستغل منه ويكرى

فدع العجز يا أبى اذا أنـ — ـصفت فى الفكر لم تجد لك عذرا

لاتزاحم ولا تكاثر بما تأخـذ — منه فقـد عرفت الأمرا

وان احتجت خذ كفافاً بكره — وبعزم أن لايدوم العمرا

كان من قبلنا أئمة هذا الد — ين والوقف بعد ذاك استقرا

لم يكن ذاك مانعا طالب العلم … من العلم فاقف ذاك الاثرا
معطيا كن ودع من الوقف اخذا … إن يد الإعطاء اعلى وارفع قدرا
صدقات الوقوف ينفر منها … كل حر تأتيه صفواً ويسرا
كيف حال الذى يذل لها … بالقول والفعل كى يحصل نزرا
دائباً فى التردد آت صفيق الـ … ـوجه عند اللقاء شيئاً أمرا
ذاهب العمر فى النفاق وفى الـ … خدمة لا يالى ذهابا ومرا
بائعاً دينه بدنيا غيره … لقد خاب بائع الدين خسرا
لاحياء له ويطلب ما ليس … يحق له لقد جاء نكرا
فلهذا اعتزلت يا رب تم … ما به قد مننت انك أدرى
ثم لو لم يكن تصدق بالوقـ … ـف لقد كان البعد عنه أحرى
حين قد صار الأخذ منه يسمى … منصباً فيهم يباع ويشرى
فتعاطاه صاحب المال والجاه … فزال المقصود منه وضرا
وأقاموه فى المواريث حتى … أخذوه ارثاً صغاراً وكبرا
وغدا المستحق حيران ندما … ن من الغبن ينظر العيش شزرا
ثبت الله بعضهم بغنى النفـ … ـس فلم يكترث وقد عاش دهرا
حب هذه الدنيا أصم وأعمى … أخذ الوقف أغنياء وأغرى
وأولو اللب والعقول يرون الا … أخذ منه مع الغنى عين إزرا
والفقير الحريص منهم مكد … وكذا من يسالها مع الإثرا
غير أن الفقير يعذر فيها … والغنى الغبى يرى ويذرى
عجباً من مدرسين قضاة … يتبارون فى اللباس بطرا
وهم فى نفوسهم فى عظيم … يركبون البغال عزاً وزهرا
حق كل منهم يكون حزيناً … ان أجاد المعنى واحسن فكرا
ابدا ذا يعيش بصدقات الـ … ـناس باسم الوقف لا يتبرا
وعليه من الشروط تكاليف … فان لم يقم بها فهو أدرى
كم رأينا مدرسا ومولى … حقه أن يكون منه معرا
ضحكة للورى المدرس والحا … كم تلقى وليس يحسن يقرا

يالها وصمة على أهل ذا الـ معصر يكفيك ما رأيناه خبرا
ان منهم من كان يلثغ بالقاف ومنهم من كان يلثغ بالراء
وهما من أماثل القوم فاعجب واعتبر وانشر الغرائب نشرا
والذى ألبس القباء ذا الكـ ـنة والظالم المردى المهرا
والذى كاتب التاتار ومن سار اليهم قصداً فاثنى وأطرا
والذى قد أتى الفواحش واستكبر فاسأل ماذا جرى إذا تجرى
والذى ميله إلى نظم دو بيت وتقريب من يذاكر شعرا
وله فى أكل الحشيشة رأى وافق الفرع فيه ليلا وفجرا
ولديه - أبو الفوارس مهتر بما رمى الشباب عجبا وسكرا
فتولى المناصب والأشياخ قد عطلوا فيشكون صفرا
ورعاه العدل الرضى حاضرا مجلس الاثبات شاهدا مستمرا
قائلا ذا اثنى عليه بنو علا ان والأقربون أولاد صصرا
قيل لا تعتمد عليهم لهم أغ راض سوء زوراً وبهتا ووزرا
عد واسأل سواهم تعرف الحـ ـق فاذ أعذرتنى نلت إصرا
انت فى حق غيره واقف ان كنت بالشام أو تفارق مصرا
عجبــاً ما نراك به توقف لقد بث أمره منك سراً
كلما قلت دولة الحاكم الجابر زالت قامت علينا أخرى
وتصدوا لأكل الأوقاف حتى ذمهم عارفوه نظما ونثرا
فــلذا صارت المعيشة أولى بأولى العلم والصلاح وأحرى
ولقد كنت قبلها من غنى النفس مليا فالحمــد لله شكراً
بيــد انى أنفت من صدقات الفقه شبهتها بوقف الاسرى
وتأنفت من مزاحمة النــذ ل عليها يرى الوقاحة فخرا
فتمنيت مــنذ زمان أرى رزقى عنها بمعزل فاستدرا
بارك الله فى المعــاش كما شاء له الحمد إذ بدا واستمرا
فأنا اليوم أنزه القوم نفساً بخلاصي منهم واروح سرا

حسدتني جماعة قال منهم قائل ذا ومن أين أثرى
ويحهم ربنا هو الرزاق يعطى قلا ويعطى كثرا
عنده الملتقى فيا خجلة الـ ـمغتاب والمفترى الذى هو أجرى
مايبالى ماذا يقول سنجزى فى غد حين يحشر الناس حشرا
ولئن قلت الأصل كان من الوقف فما ضر ذا ولا بى أزرى
سيأ كان انما اتجه اللوم على من على الوقوف أصرى
كسلا غير عاجز عن معاش فهو كل على الورى ليس يبرى
صانني الله عن مزاحمة القوم على منصب فيارب صبرا
يارب سلم فيا تبقى ولا تحوج إلى من يستعبد الناس قسرا
فتراهم لأجل حاجتهم بين يديه فى قضيـة الذل اسرا
أقرب الناس عنده ذو نفاق حين يسقيه من محال الا طرا
من يخالف يقتضى ومن وافق القوم يكن مثلهم لحسبك شرا
جملة الأمر ذا فكم قد سررنا وشرحنا بما ذكرناه صدرا
كل من كان منصفا عرف الحق فقد شاع الأمر برا وبحرا
عد أبياتها هنيدة عمرة باعدادها وطولت عمرا
وأرى انها ستزاد عشرا فى أمور جرت وعشرا وعشرا

وفى أول صفر من سنة احدى وستين وستمائة توفى بديار مصر شرف الدين محمد بن أحمد بن عنتر الدمشقى الذى كان محتسبا بدمشق فى أيام التاتار ، وهو وأبوه من أولى الثروة بدمشق ومن المعدلين فيها رحمه الله . وفى ثانى ربيع الآخر توفى البرهان الطويل المتصرف فى الدواوين كان عاملا بديوان الجامع تارة ، وبالحشرية أخرى ، وبديوان المدارس المحدث فى الأيام المعظمية وبعدها رحمه الله . وفى الرابع والعشرين منه توفى النجم الكحال بن الصفى العبادى لجأة .كان أبوه مقرئا حسنا ضريراً وتعلم هو وأخوه قبله صناعة الكحالة فبرعا فيها وتوفى أخوه قديما فبقى هو كحالا بالبلادين، ثم بالبيمارستان وفى رابع جمادى الأولى توفى عبد العزيز المغربى إمام مسجد المجورة بالعقيبة رحمه الله . وفى الرابع والعشرين منه توفى العدل جمال الدين بن القلانسى بن أخى المؤيد رحمه الله . وقبله توفى الجمال الأنبارى الساكن بالجامع بالمنارة الغربية الحنبلى له سماعات كثيرة من عبد القادر الرهاوى وغيره ، وهو الذى كان يصلى بالمتأخرين صلاة الصبح بالجامع فيطيل بهم اطالة مفرطة خارجة عن المعتاد بكثير الى أن تكاد تطلع الشمس وهو فى تطويله لا يتركه كل يوم رحمه الله . وفى سابع رجب توفى العالم المغربى

النحوى وكان معمراً مشتغلا بأنواع العلوم على خلل فى ذهنه ، واسمه : أبومحمد القاسم بن أحمدبن السداد اللورقى هكذا رأيت نسبه بخط مشايخه الذين قرأ عليهم بالمغرب بن الحصار وغيره ، وكان هو لايكتب ابن أبى السداد ويجعل مكانه الموفق وكان ابا السداد كنيته الموفق ولورقة بليدة بن أعمال مرسية ودفن من الغد فى مقابر باب توما قريباً من قبر الشيخ رسلان رحمه الله .

وفى سادس عشر رجب توفى العماد مظفر بن البهاء على بن الحسن من بنى سنى الدولة وهو ابن عم الصدر احمد بن يحيى القاضى وكان من عدوله رحمه الله . وفى السابع والعشرين من رجب توفى الشهاب ابن الضياء الكاتب للشروط بباب الجامع الشرقى ويعرف باجير البهاء لأنه كان يخرج فى كتابة الشروط بالشريف بهاء الدين عبد القادر بن عقيل العباسى كاتب الحكم للزكى الطاهر وبعده الى أن مات وكان فريد وقته فى ذلك فبرع هذا الأجير حتى كان الفقيه عز الدين بن عبد السلام يفضله على كتاب عصره فنفقت سوقه رحمه . وفى ثالث عشر شعبان توفى الشيخ الياس الأربلى الذى كان يكون مقيما بالجامع فى رواق الحنابلة ، ثم سكن جبل قاسيون وبه توفى ودفن رحمه الله . وفى تاسع عشرين شعبان توفى الأمير مجير الدين خوشترين الكردى وكان من أمراء مصر وحضر كسرة التاتار لعنهم الله بعين جالوت مع المظفر قطز رحمه الله وغزا يومئذ حتى فتح الله على المسلمين ودفن بالجبل وأبوه مات محبوسا مع عماد الدين بن المشطوب فى بلاد الأشرف الشرقية . وفى خامس عشر رمضان توفى العفيف الحنفى زوج الذهبية بنت الدميرى جارتنا رحمه الله وتزوجت بعده علاء الدين احمد بن القاضى محيى الدين بن الزكى وفىالسابع والعشرين منشهر رمضان ولد لى مولود ذكرسميته محمود، وكنيته أبا القاسم بكنية نور الدين ابن زنكى الملكالعـادل رحمه الله وباسمه ولقبه جعله الله مباركا صالحا عفيفـا تقيا كما كان سميه رحمه الله ، وكانت ولادته فى الساعة السادسة من يوم السبت السابع والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة بدار العطافية غربى المدرسة العادلية وذلك اليوم كان فى شهر آب نحو أربعة أيام وهو زمان البطيخ الاصفر ، وكسفت الشمس فى غد ذلك اليوم بعد العصر من يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان . وفى خامس شوال توفى الفخر أحمد بن ابراهيم الحنفى أحد مدرسى الحنفية من الشيوخ وكان أحد الشهود تحت الساعات ودفن من الغد رحمه الله . وفى سابع شوال توفى الشرف يحيى بن المغربى الحاج الدقاق فى الحنطة خال أخى محمد رحمه الله مات لجأة وكان قد عزم على وقف أملاكه على زاوية المغاربة ففاجأه الموت بغتة . ومن العجائب أن بعض معارفه مات قبـله لجأة لجاءنى وقال أريد تعجيل وقفى للملكى خوفا من أن أموت لجأة كما مات فلان ثم أخر فمات لجأة كما ظنه وبالله التوفيق وفى سادس عشر شوال نظمت هذه الأبيات :ـــ

ايا لائمى مالى سوى البيت موضع … أرى فيه عزاً أنه لى أنفع
فراشى ونطعى فروتى فرجيتى … لحافى وأكلى ما يسد ويشبع
ومركوبى الآن الآتان ونجلها … لأخلاق أهل الدين والعلم اتبع
وقد يسر الله الكريم بفضله … غنى النفس مع شىء به أقتنع

أوفره للأهـــل خوفا يراهم عدو بعيش ضيق فيشنع
واصبر فى نفسى على ما ينوبنى وأطلب عفو الله فالعفو أوسع
ومادمت أرضى باليسير فاننى غنى لغير الله ما كنت اخضع
وربى قد آتانى الصبر والغنى عن الناس فى هذا الى العز أجمع
وقد مر من عمرى ثلاث أعدها وستون فى روض من اللطف أرتع
ووجهى من ذل التبذل مقتر مقل ومن عز القناعة موسع
ومن حسن ظنى ان ذا يستمر لى إلى الموت ان الله يعطى ويمنع
وانى لا الجـــأ إلى غير بابه فأبقى كما قد قيل والقول يسمع
(نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع)
فطوبى لعبـــد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وفى ذى القعدة توفى الشيخ الصالح صلاح الدين أبو زيد الدينورى صاحب الشيخ عزالدينالدينورى وهوالذى بنى له زاوية بسفح جبـل قاسيون غربى الجامع المظفرى وصار لجماعـة يذكرون الله عقيب صلاة الصبح بأصوات حسنة. ثم مات عز الدين وبقى الشيخ الصلاح يقوم بهذه الوظيفة بت عنده ليلة فى الزاوية المذكورة رحمه الله. وكنت قد نظمت قبل ذلك أبياتا فى هذا المعنى وهى : ـــ

صان ربى عن التبـــذل على فله الحمد بكرة وأصيلا
لم يشن بالسوآل وجهى بل بارك فيما أعطى فكان جزيلا
وغنى النفس والقنـاعة كنـ ـزان فكانا لما ذكرت دليـلا
كم رأينا من عالم عز بالعلم واضحى بالحرص منه ذليلا
احفظ الله وابذل الفضـــل تغنم من غنى النفس عزة وقبـولا
وتعرف اليه يعرفك فى الشدة فاتبع فيما يقول الرسولا
يفعل الله ما يشاء فلا تسخط وكن راضيا زمنا قليلا
كل ما قد قضـــاه خير لمن آمن فاصبر عليه صبرا جميـــلا
وعد الصـــابرين خيرا فأيقن انه كان وعده مفعولا

وفيها : فى ثانى عشرين ذى الحجة توفى العز بن النشو الشاهد تحت الســاعات ، وفى الغد الثالث والعشرين توفى الشهاب تمام بن الحبوبى التاجر بالخواصين رحمهمـــا الله . وجاءنا الخبر من ديار مصر بأنه مات فى هذه السنة بهاء الدين الضرير صهر الشيخ الشاطبى رحمهما الله ، وشرف الدين بن السيسى يحيى بن فضل الله أمام المدرسة الصالحية رحمه الله وكان من أصحاب شيخنا أبى الحسن السخاوى رحمه

الله بدمشق . وهو أول من أم بدار الحديث الأشرفية فى زماننا ثم انتقل الى القاهرة فاقام بالمدرسة الصالحية النجمية وكان عنده تعصب وكرم وله قراءة حسنة .

سنة ٦٦٢ هـ :

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة ففى سابع المحرم توفى التقى أبو بكر البغدادى المقرىء الساكن بالمدرسة العادلية رحمه الله . وفى تاسع عشره توفى الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى من غلمان العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين ، وكان له أثر مذكور فى كسرة التاتار خذلهم الله تعالى على أرض حمص المقدم ذكرها . وفى عاشر صفر توفى بحمص الملك الأشرف بن المنصور ابن المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى وهم ملوك حمص وأعمالها كابراً عن كابر رحمه الله . وكان شابا عفيفا عما يقع فيه غيره من الشراب وله فى كسرة التاتار الثانية على حمص أثر جليل . وقبله بقليل توفى الزين خضر المعروف بالمسخرة كان من ندماء الأشرف موسى بن العادل وجاءنا الخبر بوفاة الكمال عريف الصاغة ، والضياء النابلسى بمصر . وكان مولد النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الأثنين ثانى عشر ربيع الأول على قول الاكثرين فاتفق فى هذه السنة أن كانت ليلة الثانى عشر من ربيع الأول هى ليلة الاثنين . وفى ذلك اليوم توفى النجم أحد القرائين بزى الجنائز وكان يؤذن بالمئذنة الغربية من جامع دمشق وهو شيخ كبير رحمه الله . وفى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر صلى بالجامع عقيب صلاة الجمعة صلاة الميت الغائب بالنية على ضياء الدين على بن محمد المعروف بابن البالسى أحد كتاب الحكم المعدلين تحت الساعات وكان له اشتغال باستماع الحديث وكتابته ، ثم سافر الى مصر متحملا لشهادة فتوفى بها رحمه الله تعالى ليلة السبت رابع صفر ودفن خارج باب النصر شرق القاهرة.

وفى هذه الأشهر توفى بصرخد سيف الدين الروسى (؟) الذى ملكه بقرية بقربه رحمه الله . وكان شابا حسنا شجاعا . وفى حادى عشر ربيع الآخر توفى الشريف بن الطيورى الملقب بالجمال الذى كان نقيب القاضى الخوبى ، وفى ثانى جمادى الأولى توفى بمصر الرشيد العطار المحدث رحمه الله . وفى عاشر جمادى الأولى توفى الحاج نصر بن بردس التاجر بقيسارية الفرش وكان رجلا موسراً ملازما للصلاة بالجامع من أهل الخير رحمه الله ودفن بالجبل . وفى ثالث عشر جمادى الأولى توفيت الشيخة الصالحة عابدة المقيمة برباط زهرا خاتون وكانت امرأة عذراء مقعدة عمياء مشهورة بالخير والصلاح رحمها الله . وفى خامس عشر توفى الحاج محمد بن الحاج مسعود الذهبى رحمه الله .

وفيها : بعد صلاة الصبح من يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى توفى القاضى الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضى جمال الدين عبد الصمد بن محمد المعروف بابن الحرستانى رحمه الله وكان من أهل بيت قضاء ، وعلم ، وصلاح تولى قاضى القضاة فى الأيام الأشرفية ، وناب فى القضاء عن أبيه فى الأيام العادلية ، وعن شمس الدين احمد بن الخليل الخوبى عام حجه ، ثم تولى الخطابة بجامع دمشق ، وتدريس الزاوية الغربية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، واستمر ذلك له من الأيام الصالحية النجمية وقبلها إلى أن توفى بدار الخطابة ودفن فى مقابر الجبل قريبا من أبيه وأهله وصلى عليه

بجامع دمشق قاضى القضاة بدمشق ابن خلكان وصليت أنا عليه إماما ظاهر البلد تحت القلعة خارج باب الفرج ، وكان يوما مشهودا حضر جنازته خلق كثير وانتشروا فى تلك الصحراء الواسعة رحمه الله . وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية وحضر عندى فيها أول يوم ذكرت الدرس فيها قاضى القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم . وذكرت من أول تصنيفى فى كتاب « المبعث » الخطبة والحديث ، والكلام على سنده وفنه مع زيادات على ذلك من مكان آخر . وكان بحمد الله تعالى وحوله وقوته مجلسا جليلا عليه سكون واخبات وجلالة وانصات من الحاضرين . ووقار من المستمعين . وعمل فى ذلك بعض الأدباء أبياتا منها :-

العلم والمعلوم قـد أدركته وسماعك البحر المحيط لمحدث

وبحثت فى دار الحديث بمعجز وابان له عنك افتتاح المبعث

مكثت به الألباب طائعة الندا والحسن من طرب به لم يمكث

وفى رجب توفى نور الدولة بن دحيرجان المنادى على الأشياء الضائعة ، وكان قصيراً ظريفاً هو وأبوه من قبله ودارهم بالمطرزين خارج حصن جيرون معروفة بهم رحمه الله . وفى ثانى عشر رجب توفى العفيف بن أبى الفوارس وكان شابا حسنا تولى عمالة الجامع ، وعمالة مخزن الإمام جمعا له لحذقه بهذه الصناعة كما قيل رحمه الله . ودفن بالتربة التى أنشأها والده جوار الخانقاه الشبلية بسفح جبل قاسيون وكان أبوه قد أعد القبر لنفسه فدفنه فيه وهو المذكور فى قصيدة الفلاحة الرائية . وقبله بيوم فى حادى عشر رجب توفى الأثير عبد الكريم بن ضياء الدين الحسين بن القاضى الأشرف احمد بن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على رحمه الله بقرية البلاط ملك جسـده وأهله وحمل منها فدفن بجبل قاسيون وصلى عليه بعد صلاة الجمعة بجامع العقيبة المعروف بجامع التوبة ، وهو أصغر أولاد الضياء وهم اربعة عريون عن الفضل خلاف ما كان عليه سلفهم . ثم توفى أخوه صدر الدين عبد الله فى سلخ ذى القعدة من سنة اثنتين وستين وستمائة .

وفى الخامس والعشرين من رجب توفى الحكيم شمس الدين المعروف بطراز الشام الطبيب رحمه الله وفى حادى عشر شعبان توفى الزين يحيى بن بكران الجزرى أحد المعدلين بدمشق وكان قبل ذلك تاجرا وتولى ديوان الحشر وغيره ، وكان طلق المحيا ، ظريف الحركات ودوداً رحمه الله ودفن بباب الصغير وعمه هو المعلم الجزرى وكان شيخاً يسكن برأس درب التمارين فى الصف الشامى من سوق العطارين الذى يلى قنطرة الحبالين . وكان يعلق الرماح وغيرها من آلات الحرب بعرقه فوق رأس الدرب المذكور وكان إذا قدمت العساكر مع السلطان فى زمن العادل أبى بكر بن أيوب ومن بعده ، أو قدمت الرسل من بغداد يتلقاهم مع الناس فوق رأسه مصحف كريم فى كيسه يحمله وهو راكب ومات سنة (١) وفى العشرين من شعبان توفى المحيى بن سراقة مغربى ، عالم ، دين ، متواضع ، كريم ، حسن المحاضرة ، كان نزل بحلب ثم عبر علينا بدمشق إلى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بالقاهرة مع الزكى عبد العظيم وماتا رحمهما الله بعد ابن دحية .

(١) بياض بالأصل

وفيها : فى التاسع والعشرين من شعبان توفى تاج الدين أيوب بن فخر الدين محمود بن عبد اللطيف ابن سيا وكان أحد الشيوخ المعدلين بدمشق من أهل البيوتات بها وأبوه كان محتسب دمشق مدة ودفن على والده بالجبل وكان موته ببستانه عند طاحونة مقرى رحمه الله . وفى ثانى شهر رمضان توفى بقرية كفر بطنا الشرف التيرى المقيم بتربة قاضى كفر بطنا وكان يلقب نفسه زعيم غير ، كان يكون عندنا بالمدرسة الأمينية ثم بالمدرسة الحسامية ، وكان ينظم الشعر على طريقة المغرب رحمه الله . وفى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان صلى خطيب لجامع دمشق بالناس عقيب صلاة الجمعة صلاة الجنازة على الشيخ محمد المعروف بالقبارى شيخ مشهور بالزهد والورع بالاسكندرية كان يكون فى غيط له وهو البستان وهو فلاحه يخدمه بنفسه ويأكل من ثماره وزرعه ويتورع فى تحصيل بذره حتى بلغنى أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه تحت أشجاره ولايشاهد سقوطها من شجره يتورع من أكلها خوفا من أن تكون من شجر غيره قد حملها طائر فسقطت منه فى غيطه رحمه الله . كنت اجتمعت به فى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة مع جماعة صادفناه وهو يسقى فى جرار ماء من الخليج على حمار له يسقى به غيطه ، وكان الماء فى الخليج حينئذ قليلا فاجلسنا إلى أن تم عمله ثم قدم لنا من ثمر غيطه وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم . وأخبرنى القاضى عبد المجيد بن الخليل أن موته كان فى سادس شعبان وأن الأثاث المخلف عنه لو كان لغيره قيمته نحو خمسين درهما فبيع بنحو عشرين الف درهم تزايد الناس فيه رجاء البركة حتى فى الابريق الذى كان يتوضؤ فيه .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق عقيب صلاة الجمعة صلاة الجنازة على الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن شيخ الشيوخ بحماة ومات بها رحمه الله . وكان شيخا فاضلا حسن الصورة والمحاضرة وله نظم حسن فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وغيره . وقرأ على الشيخ أبى اليمن الكندى وسمع عليه وعلى بن كليب سمع عليه جزء ابن عرفة مراراً وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله ، وفى الثامن والعشرين من شهر رمضان توفى محيي الدين عبد الله بن صفى الدين ابراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية رحمه الله وفى ثالث شوال توفى النظام النصيبي وكان من أهل القرآن والفقه ومن المعدلين بدمشق وهو ابن اخت الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة رحمهما الله . وفى أواخر رمضان ظهر فى الشرق كوكب ذو ذنب فى الأفق نحو الغرب فى منزلة الهنعة وكان الفجر يومئذ يطلع فى الدراع والنثرة وبقى يطلع كل يوم قبل الفجر خلف النجم المعروف بكوكب الصبح ثم صار يتقدم كل يوم قليلا إلى أن صار يبدوّ مرتفعا عن كوكب الصبح وبقى ضوء ذنبه ظاهرا ولم يتغير موضعه من منزلة الهنعة بعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل ويبقى ظاهراً ثم يرتفع بارتفاعها ، ويسرى لسيرها ثم يقرب من منزلة الهنعة ثم بقى فى أوائل ذى القعدة الى تغلب عليه ضوء الصباح فيغيب . وكان يظهر له قبل بروزه شعاع كثير فى جو السماء ، وظهر أيضا من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الآخرة من ليال عدة فى أواخر رمضان وأوائل شوال خطوط مضيئة كهيئة الأصابع مرتفعة فى جو السماء واحمرت الشمس فى آخر الرابع من شوال قريب مغيبها وذهب ضوءها بحيث توهم كثير من الناس انها كسفت وغربت وهى كذلك ، ولما كان عند العشاء

الآخرة أصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال بحيث توهم أنه كسف . وجاءنا الخبر من مصر بموت العز السركبى رحمه الله ، والفخر المصرى فى يوم واحد ، وتوفى فى الحادى والعشرين من شوال الشمس النابلسى جابى المدرسة الحسامية والشامية . وجاءنا الخبر من حلب بموت قاضيها كمال الدين أحمد بن القاضى زين الدين بن الأستاذ وكان تولى قضاءها بعد أبيه فبقى على ذلك إلى أن أخذ التاتار حلب فنكب مع من نكب وجاء بأهله إلى دمشق وخرج إلى مصر فبقى فيها إلى هذه السنة فرجع إلى حلب فتوفى بها رحمه الله فى خامس عشر شوال وكان فاضلا وابن فاضل وجده من الصالحين وجمع كتابا فى شرح الوسيط كان تعب فيه أبوه من قبل .

وجاءنا الخبر انه وصل إلى ديار مصر رسل الملك بركة يوم الأحد سادس ذى القعدة ومعهم الأشرف بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل صاحب ميافارقين بما يسر الإسلام وأهله . وفى رابع عشر ذى القعدة توفى بدمشق الشيخ أبو الخير صاحب الشيخ على رحمه الله . والشيخ شعيب الساكن بالجبل معرفة بنى سنى الدولة رحمه الله . وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الفخر المصرى عثمان المعروف بعين عين رحمنا الله واياه ، ثم توفى بدمشق الجمال بن بدر بن نحلة . وفى السابع والعشرين من ذى القعدة توفى الشيخ أبو عبد الله محمد بن على البكرى المراكشى والد على وعبد الرحمن جد حسن رحمه الله ودفن بالصوفية ، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين هلال بن حجاج وكان ينوب فى الحكم مدة سنين بالأعمال الحلبية وغيرها رحمه الله . وفى يوم السبت ثالث ذى الحجة توفى من أهل دار الحديث الاشرفية شيخان أحدهما : جمال الدين يوسف بن يعقوب الاربلى الذهبى ابن أخى العز الأربلى وكان له سماعات كثيرة من حنبل ، وابن طبرزد ، والكندى ، والقاضى الحرستانى وغيرهم : والآخر جمال الدين الغمارى المالكى رحمهما الله . وفى ثامن عشر ذى الحجة توفى الشمس الوتار الموصلى وكان قد حصل شيئاً من علم الأدب وخطب بجامع المزة مدة رحمه الله وأنشدنى لنفسه فى الشيب وخضابه :—

وكنت وإياها مذ اختط عارضى ... كزوجين فى جسم ومانقضت عهدا

فلما أتانى الشيب يقطع بيننا ... توهمته سيفا فانبته غمـدا

سـنة ٦٦٣ ه :

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة ففى العشرين من المحرم توفى علاء الدين قرابة صاحب حماة والعفيف بن السعردى ضمير التاج الاسكندرى . وفى سادس عشرين منه توفى الشيخ أبو العباس احمد بن (١) العراقى وكان صالحا دينا منقطعا بجامع دمشق يقرىء القرآن ويجتمع به أهل العلم قبالة اللازوردة على يمين باب دار الخطابة مستنداً إلى سارية الرواق الأوسط صليت عليه اماما خارج باب الفرج ومضى به إلى جبل قاسيون فدفن هناك رحمة الله عليه . وفى ثامن صفر توفى النظام عبد الله بن البانياسى ببستانه بكفر سوسة وحمل إلى الجبل رحمه الله وكان قد طال مرضه بالفالج وسمع ببغداد من جماعة . وفى ثامن شهر ربيع الأول توفى لجأة معين ابراهيم بن محمد الدين

القرشى ابن بنت القاضى محى الدين محمد بن على بن يحيى القرشى رحمه الله ، وكان له سماعات كثيرة وبخطه توجد أكثر الطباق فى زمانه وكان يكتبها كتابة حسنة صحيحة وهو أحد المعدلين بدمشق من أكبر البيوت الدمشقيين ودفن بالجبل صليت عليه اماما خارج باب الفراديس بمصلى ابن مرزوق وذهب به الى الجبل . وفى تاسع ربيع الأول توفى الشهاب محمد بن المغروف بالقسليجى بخدمة سيف الدين بن قليج . وفى الحادى والعشرين من شهر ربيع الاول توفى الشيخ محمد المعروف بابن امرأة الشيخ على القزوينى الزاهد الساكن بجبل قاسيون رحمه الله .

وفيها : خرجت العساكر من مصر وتوجه بعضها الى الفرات فانهزم من كان ثم من جموع التاتار لعنهم الله الذين كانوا قد حاصروا قلعة البيرة وأفسدوا فى تلك الديار وتعطلت السكنى بتلك البلاد لسببهم لخربت ، ثم خرج السلطان بيبرس من مصر بعساكره فنزل ببلاد الساحل ونازل قلاع الفرنج لعنهم الله واستدعى بالرجال والآلات من دمشق وغيرها .

وجاءنا الخبر لدمشق بانه دخل مدينة قيسارية ثالث ساعة من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى وهو يوم نزوله عليها ، ثم تسلم القلعة يوم الخميس خامس عشر وهدمها وانتقل الى غيرها . وبلغنا ان فى رابع جمادى الأولى توفى النجم المغربى القصرى الاكتع وكان متفننا فى علوم شتى وهو الذى كان نظم المفصل مات بأسيوط من أعمال مصر رحمه الله . وفى الثامن والعشرين من جمادى الأولى توفى الشيخ سعيد المغربى التلمسانى الذى كان مقيما بمسجد فى محلة طواحين الأشنان خارج باب توما وكان رجلا صالحا خيراً منقضاً زاهداً رحمه الله صلينا عليه بجامع التوبة الذى فى العقيبة وحمل الى الجبل فدفن به .

وفيها : يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى توفى الشيخ زين الدين خالد بن يوسف بن سعد النابلسى المحدث وكان حافظا لأسماء الرواة ولكثير من الألفاظ اللغوية رحمه الله صليت عليه إماما خارج باب الصغير قبالة مسجد جراح وكانت له جنازة حفلة ودفن فى مقابر الباب الصغير . وفى أول جمادى الآخرة توفى العز إيبك عتيق القاضى جمال الدين المصرى وكان وكيلا بمجالس الحكام من بعد وفاة معتقه الى الآن رحمه الله ، وفى تاسع جمادى الآخرة ونحن بدار الحديث الأشرفية والجماعة مجتمعون لسماع سنن النسائى على تقى الدين اسماعيل بن أبى اليسر أيده الله ، فاخذ بعض الجماعة النعاس ولج به فدافعه فلم يندفع فاشير عليه بأن يضع على جبهته ماء ففعل فمال رأسه الى ورائه فانشد ابن أبى اليسر متمثلا بقول سحيم وقد تمثل به الحجاج فى خطبته : —

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

فعاد ذاك الخجل منه تهللا واستحسنته أنا والحاضرون وذكرت لهم الحكاية المذكورة فى تاريخ دمشق فى ترجمة ابراهيم بن هشام المخزومى حين خطب على منبر المدينة وكان أميرها ومعه عصا فوقعت منه فاشتد ذلك عليه فاخذها بعض حرسه فناوله إياها وأنشد : —

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

فسرى عن ابراهيم ما كان فيه . وفى سادس عشر جمادى الآخرة توفى العز أبو العز بن صالح بن وهيب الحنفى المدرس بالمدرسة الشبلية بسفح قاسيون وهو ابن أخى الصدر سليمان بن وهيب نائب الحكم بمصر يومئذ ؛ وكان فقيها ، دينا ، مشكوراً رحمه الله . وفى سحر يوم الاثنين ثانى رجب ولد سبطى الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن على البكرى جعله الله مولوداً مباركا . وفى ذلك اليوم توفى النجم البغدادى المتصرف وكان قد صار فى آخره مستوفيا على جباة الأوقاف التى تحت يد القاضى ، كالترب وديوان السبع ؛ والمدارس ونحوها . وفى ثالث عشر رجب توفى التقى أخو التاج عبد الرحمن ببستانه بجور لجأة رحمه الله . وفيه جاءنا الخبر باستيلاء المسلمين على مدينة ارسوف عنوة وقتل من كان بها من الفرنج وأسرهم واغتنام أموالهم وضرب البشائر بذلك . وفى رابع عشر رجب توفى بالقاهرة قاضى سنجار بدر الدين الكردى الذى تولى قضاة القضاة بالديار المصرية مراراً ، وكانت له سيرة معروفة من أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود ، والمتحاكمين إلا أنه كان كريما جواداً وحصل له ولأتباعه بأخرة تشتت ومصادرات . وفى رجب أيضاً توفى بالقاهرة الشرف محاسن بن الصورى عريف سوق الكتب بها وعمره مائة واثنتا عشرة سنة وأنشدنى عنه سعد الدين بن مسعود بن شيخ الشيوخ بن حمويه قال : أنشدنى الحافظ السلفى :—

اذا عزل المرء وافيته وعند الولاية استكبر
لأن المولى له صولة ونفسى على الذل لاتصبر

ومولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . حكى لى عنه القاضى احمد بن خلكان قال : اجتمعت به فى الإيوان الكبير بدار الوزارة عند البادرائى رسول الديوان فقال لى : دخلت هذه الدار فى أيام شاور ورأيته جالساً فى صدر هذا الإيوان . قال : قلت ما كان عمرك يومئذ ؟ قال : اثنتى عشرة سنة .

وفى يوم الاثنين أول يوم فى شعبان توفى الأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وفى ثالث شهر شعبان توفى بدمشق شرف الدين عثمان بن السابق الكاتب بباب الجامع ، وكان أحد كتاب الحكم وله خط حلو وصدقات ومعروف ملازم للصلوات فى الجماعات بالجامع من العدول المبرزين رحمه الله تعالى صليت عليه اماماً بمصلى ابن مرزوق خارج باب الفراديس وحمل إلى الجبل ودفن فيه وكانت له جنازة حسنة حفلة . وفى ثامن عشر شعبان توفى جمال الدين المصرى الذى كان مشارفا بالبيمارستان النورى وهو صهر تقى الدين بن أبى اليسر على ابنته فاطمة بعد كمال الدين الزملكانى رحمه الله ، وكان رجلا خيراً منقطعا مقتنعاً صليت عليه اماما خارج باب النصر ثم شيعته مع الجماعة الى مقابر الصوفية فدفن بها وكان أبوه وزير الأمير الجناح (؟)

وفيها : ورد إلى دمشق كتاب يتضمن انه ورد الى القاهرة فى جمادى الآخرة من هذه السنة كتاب من المغرب يتضمن نصر المسلمين على النصارى فى بر الأندلس ومقدم المسلمين سلطانهم أبو عبد الله بن الأحمر أيده الله وكان الفنس ملك النصارى قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة ومارقة الى المرية فاجتمع المسلمون ولقوهم فكسروهم مراراً وأخذ أخو الفنس أسيراً ثم اجتمع العدو

فى جمع كثير ونزل على غرناطة فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة فجمع من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين الف رأس فعملوها كوماً وطلع المسلمون عليها وأذنوا وأخذوا منهم عشرة آلاف أسير وكان ذلك يوم الخميس رابع عشر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة وراح الفنس الى اشبيلية منهزماً وكان قد دفن أباه بجامع أشبيلية فأخرجه من قبره خوفا من استيلاء المسلمين عليها وحمله الى طليطلة ورجع الى المسلمين اثنان وثلاثون بلداً من جملتها اشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، والرقة وشريش وجمع عساكر المسلمين على شاطبة وبلنسية والله ينصرهم برحمته ،

وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان توفى الحاج احمد المعروف بالسلامى الزملكانى الخشاب ونجيب الدين فراس العسقلانى . وكان أحد العدول ذوى الثروة وله سماع حديث من الخشوعى وغيره ، ودفنا بباب الصغير رحمهما الله، وفى يوم الثلاثاء سلخ شعبان توفى النجم مظفر بن عبد الصمد رحمه الله . وفى يوم الجمعة ثالث رمضان صلى بالجامع صلاة الغائب على الامير جمال الدين موسى بن يغمور رحمه الله وكانت وفاته مستهل شعبان عند توجهه إلى ديار مصر من الساحل لما كان مع السلطان الظاهر بيبرس فى محاصرة الفرنج وفتح قيسارية وارسوف ثم عمل له العزاء بجامع دمشق يوم الجمعة عاشر شهر رمضان ، وفى سادس رمضان نعت حسبة الجبل لبدر الدين على بن عمر بن أحمد ابن عمر بن الشيخ أبى عمر بن محمد بن قدامة . وفى سابع عشر رمضان توفى الأمير عز الدين عثمان بن تميرك وكان ثقيل السمع كثير الوسواس فى أمر الطهارة رحمه الله . وفى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر توفى الفخر بن أبى الفوارس والد العفيف ودفن بمكانه بالجبل رحمه الله ، وفى أول جمادى الأولى توفى الناهض معالى بن أبى الزهر المعروف بابن الحبشى ودفن بالجبل رحمه الله . وفى ثالث جمادى الأولى توفى الحاج على المغسل المعروف بالقباقبى ودفن بباب الصغير رحمه الله وكان حج فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة معنا وكان مواظبا على الصلوات فى الجماعات كثير الصدقات والاحسان الى الفقراء واليتامى وكان إذا صلى الصبح مع الإمام بالجامع يخرج فيقف بالباب الأوسط من أبوابه بباب البريد فيكبر ويهلل بصوت عالى ويدعو بصلاح المسلمين ونحو ذلك لايكاد يقطع هذه العادة ، صليت عليه اماما عند مسجد جراح خارج باب الصغير . ودفن فى مقابره حذاء تربة ابن الشيرجى ، وكانت له جنازة حفلة جامعة لأصناف الخلق من الخاصة والعامة وكنت ترى اليتامى وغيرهم يقرءون ويترحمون ويبكون رحمه الله وذلك يوم الخميس ثالث جمادى الأولى . وفى عشية ذلك اليوم توفى الجمال احمد بن عبد الله بن شعيب الذهبى الكتبى رفيقنا فى القراءة على شيخنا علم الدين السخاوى رحمه الله . وكان تزوج ابنته فولدت له وماتت هى وولدها قديما ، ثم بقى عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة وثروة ووقف داره على فقهاء المالكية وأوصى لهم بثلث ماله وحرضته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل . صليت عليه اماما بمصلى ابن مرزوق ودفن بالجبل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى .

وفى سادس جمادى الأولى جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحى ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفى ، والزين عبد السلام بن الزواوى المالكى ، وشمس الدين عبد

الرحمن بن الشيخ أبى عمر الحنبلى وجعل كل واحد منهم قاضى القضاة من المذاهب الأربعة واكل منهم نائب وهذا شىء ما أظنه جرى فى زمان سابق فلما وصلت العهود الثلاثة لم يقبل المالكى فوافق الحنبلى واعتذر بالعجز ، وقبل الحنفى فانه كان نائبا للشافعيـــة فاستمر على الحكم والله يسدد الجميع بفضله ورحمته . ثم ورد كتاب من مصر بالزامهما بذلك وأخذ ما بأيديهما من الأوقاف ان لم يفعلا فأجابا ثم أصبح المالكى فأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء وعن الأوقاف فترك واستمر الحنبلى ثم ورد الأمر بالزامه فقبل واستمر الجميع لكن امتنع المالكى والحنبلى من أخذ الجامكية على القضاء وقالا : نحن فى كفاية . فاعفيا منها ، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء فى زمن واحد وكل منهم لقبه شمس الدين واتفق أن الشافعى منهـــم استناب من لقبه شمس الدين فقال بعض الظرفاء :ــ

أهــل دمشق استرابوا من كثرة الحـــكام
وهم جميعـاً شموس وحالهـــم فى ظـــلام

وقيل أيضاً :ــ

بدمشق آيـــة قد ظهرت للناس عاما
كلمـــا ولى شمس قاضـــياً زاد ظـــلاما

وقيل أيضاً :ــ

قضاتنـا كلهم شموس ونحن فى أكثف الظلام

وقيل أيضاً :ــ

أظـــلم الشـام وقد ولى الحـــكم شموس
ليس فيهـم من يبت الحكم عاماً أو يسوس

وفى سابع شعبان يوم الجمعة صلى بالجامع صلاة الغائب على الرضى بن الدهان الواسطى التـاجر . وفى حادى عشر شعبان توفى شرف الدين عبد الرحمن بن بهاء الدين سالم بن الحسن بن صصرى وكان من أكابر أهل دمشق جاها وثروة وبيتا. صليت عليه اماما خارج باب الفرج ودفن بالجبل بعد موت أخيه البهاء بستة أشهر وسبعة أيام . وفى ثالث عشر شعبان توفى الكمال بن الكمال أمام المدرسة الشامية ابن أخى الزين خالد رحمنا الله واياه بمنه وكرمه ورحمته وعفا عنا وعنه وعن جميع المسلمين والمسلمات وفى شهر رمضان من سنة ثلاث وستين وستمائة شرع فى تبليط ما بين باب الجامع الغربى الذى عنـد القناة المعروفة بباب البريد وجدد فى الصف القبلى من ذلك بركة وشادروان (١) وكان موضعهما

---

(١) قال شمس الدين بن الفخر رحمه الله ولم تزل تلك البركة والشادروان الى سنة اثنتين وسبعين

قناة جددت قبل ذلك يجرى اليها الماء من نهر القنوات وكان الناس ينتفعون به زمان انقطاع نهر بانياس الذى منه ماء الجامع بدمشق . وفى ذى القعدة سافر الأمير جمال الدين أقوش النجيبي نائب السلطنة بدمشق الى مصر لاستدعاء السلطان له ثم قدم دمشق

وفيها : توفى المجد بن حرب الحلبى كان شاهداً بباب الجامع . وفى ثامن ذى الحجة توفى تاج الدين ابن الحموى أخو الزين والعز وكان شيخاً متودداً وتولى ديوان الجامع والمواريث الحشرية . ودار الضرب وغير ذلك ودفن بباب الصغير رحمنا الله واياه . وتوفى قبله النجيب بن الوزان الذى كان ساكناً بالمدرسة العزيزية فى البيت الكبير الأسفل .

وفيها : يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجة أخبرنى أخى برهان الدين ابراهيم وفقه الله تعالى أنه رأى فى المنام بكرة ذلك اليوم كأنه جالس الى جانبى وأنا أكتب شيئا وأقرؤه فكان ماكتبته قوله تعالى : (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلايصلون اليكما باياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون) .

وفيها : فى رابع عشر ذى الحجة توفى الشمس بن السنى الحركاوى (؟) رحمه الله تعالى ، وجاءنا من زار بيت المقدس فى وقفة هذا العام وأخبر أنه صلى يوم عيد النحر ببيت المقدس على الشيخ أبى القاسم الذى كان بقرية حوارى وهو شيخ مشهور له أتباع وثروة ، ثم صلى عليه بدمشق يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة . وصلى يوم العيد أيضا ببيت المقدس على ضياء الدين على بن خطيب نابلس ، وكان شيخاً ، بهيا ، فقيها ، دينا وتولى قضاء الكرك مدة رحمه الله . وفى سابع عشر ذى الحجة توفى التاج الأسكندرى المعروف بالشحرور ودفن بالجبل صليت عليه إماما بمصلى ابن مرزوق بالعقيبة رحمه الله وايانا . وفى هذه السنة توفى شمس الدين بن الحباب رحمة الله .

سنة ٦٦٤ هـ :

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة ففى أوائلها يوم الثلاثاء جدد الحوض الذى هو فى شرق القناة الشامية بباب البريد يجرى اليه الماء من القناة المذكورة فى أنابيب وشادروان فى

وستمائة ثم ولى شهاب الدين بن السلعوس نظر الجامع فازال البركة والشادروان وعمل موضعهما حانوت سباع وهى الحانوت الخامس الغربى من الصف القبلى وكان الغرض بذلك محو الآثار التى جددت فى زمن الظاهر بيبرس رحمه الله تعالى فان الشادوران والبركة كانا فى غاية اللطافة والحسن وفوق الشادوران اسم الملك الظاهر ونائب السلطنة اقوش النجيبى والمتولى فخر الدين الحرانى فازيل ذلك جميعه مع حاجة الناس اليه زمن انقطاع الماء . وخرب الحمام الذى بناه الملك السعيد ولد الظاهر على باب السر تحت القلعة ولم يبن حمام مثله كل ذلك لمحو آثار الظاهر وكذلك أمر بمحو السباع التى كانت رنك الملك الظاهر على القلعة حتى عمل بعض الظرفاء فى ذلك أبياتا :ـــ

ما للسباع الظاهرية وقد مالت عليها دولة الأشرف
تروم محو الرسم من رنكه الظـ ـاهر والظاهر لا يختفى

حائط القناة . وفى سابع المحرم توفيت تاج خاتون ابنة الأمير فخر الدين ايازسركس صاحب قرية بيت سوا رحمهما الله . وفى ثامن عشر المحرم توفى عبد الله بن أيبك بن عبد الله عتيق ناصر بن القواص ويعرف بالقاضى رحمه الله . وفى العشرين من المحرم توفى العلاء على بن البدر عبد المولى الوكيل بمجلس الحكم رحمه الله . وفى الحادى والعشرين منه توفى الشرف بن الصيرفى الساكن بدرب الأسديين رحمه الله . وفى الخامس منه توفى عبد الله بن عثمان الوكيل بمجلس الحكم ويعرف بالمؤذن كان أبوه مؤذنا بالكلاسة رحمهما الله . وفى رابع صفر توفى بهاء الدين الحسن بن سالم بن الحسن بن صصرى أحد المعدلين بدمشق من بيت مشهور بالثروة وجده الحسن كان من أهل الحديث من أصحاب الحافظ أبى القاسم وله رحلة الى العراق رحمه الله ودفن بالجبل . وفى ذلك اليوم توفى الشمس محمد بن احمد الحنفى الأشقر خال ولد الصدر سليمان رحمه الله . وفى السادس والعشرين من شهر ربيع الأول توفى الصفى اسماعيل بن ابراهيم بن الزرعى الحنفى رحمه الله ودفن بباب الفراديس وعمره اثنتان وتسعون سنة ومولده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . سمع على الخرقى وغيره . وفى خامس ربيع الآخر توفى الشرف يعيش المقرىء وكان شيخا مسناً وعهدى به شيخا ونحن صبيان نقرأ عليه بالسبع الكبير ثم بقى الى هذه الغاية وقل مابيده فكان كل ليلة بعد العشاء يخرج ويدور فى الدروب والحارات وهو يتلو القرآن العزيز فمن وضع فى يده شيئا أخذه وكنت آنس بقراءته إذا عبر على باب مسكننا رحمه الله .

سنة ٦٦٥ هـ :

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة أولها يوم الأحد . ففى ثانى محرم الحرام خرج السلطان الظاهر من دمشق الى مصر رحمه الله تعالى .

وفيها : توفى بمصر الشرف محمد بن البكرى أخو الصدر بن البكرى رحمه الله فى رابع المحرم . وفى سادس صفر توفى شمس الدين ملكشاه الحنفى مدرس المدرسة المعينية بعد الرشيد النيسابورى وكان يعرف بقاضى بيسان . وتولى نيابة الحكم بدمشق فى أول ولاية الصدر احمد بن سنى الدولة ودفن فى مقابر باب الصغير رحمهما الله . وفى الثانى والعشرين من صفر توفى الشرف احمد بن رضوان ومولده سنة ستمائة ، وكان صحب شيخنا تقى الدين بن الصلاح فى صغره بالمدرسة الرواحية ثم صار يشهد بمسجد سوق القمح رحمه الله صليت عليه إماما خارج باب النصر ودفن بمقابر الصوفية قريباً من قبر ابن الصلاح رحمهما الله . وفى ذلك اليوم توفى الحاج عسكر بن طاهر شيخ كبير من فلاحى قرية بيت سوا ، وداعية . وخلف أولاداً كثيرة وملكا بداعية رحمه الله .

وفى سادس ربيع الأول توفى الضياء بن خواجا أمام والد الشريف وكان إماما بمسجد مثقال الجدار على حافة نهر يزيد بجبل قاسيون وكان رجلا صالحاً منقطعاً رحمه الله . وفى ليلة السابع توفيت جدة ابنى احمد ومحمود أم أمهما خالة ابراهيم رحمهما الله تعالى . وفى سابع ربيع الأول توفى الشيخ على الواسطى إمام المدرسة الفلكية وكان مقرئا عندنا بالتربة الاشرفية وكان كثير الذكر والصلاة رجلا صالحاً خيراً رحمه الله صليت عليه إماماً قبالة مسجد جراح ودفن فى أول مقابر الباب الصغير خلف مسجد جراح . وفى حادى عشر ربيع الاول توفى الشمس يوسف بن مكتوم وكان شيخاً كبيراً له

سماعات كثيرة على الخشوعى ، والدولعى وغيرهما رحمه الله . وجاءنا الخبر بموت الأمير ناصر الدين القيمرى بالساحل رحمه الله وعمل عزاؤه بالجامع يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الاول وهو الذى بنى مدرسة الشافعية بناحية مئذنة فيروز فى سوق الحرميين بدمشق وكان موته يوم الاحد ثالث ربيع الاول. وفى العشرين منه توفى الشيخ مؤمن الضرير الخلاطى المقرى، وكان أحد السبعة عندنا بدار الحديث الاشرفية رحمه الله . وأخبرنى الضياء عبد الرحمن بن الجمال عبد الكافى فى رابع عشر ربيع الآخر أنه رأى ليلة هذا اليوم كأن شخصاً معروفا يقرأ فى إيوان شيئاً من التصريف وحوله جماعة ، ثم جاء آخر فقعد يقرىء جماعة بحذائه وانصرف من عند الاول بعض جماعته الى الثانى فبينا هم كذلك إذ أشرفت عليهم من طاقة فى أعلا حائط الإيوان وعلى ثياب بيض من صوف والعمامة كذلك وفوقها شىء مسبل عليها وقاية لها كصورة مايفعله من يجعل على عمامته منديلاً أو نحوه لأجل مطر وحر فلما أشرفت عليهم بهيئة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك قلت قال رسول صلى الله عليه وسلم فذكرت حديثا فى السنة والرأى قال فبكى القوم وبكيت أنا — أعنى الذى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال قائل من الجماعة فى فضائل رجب أى أسمعنا فى فضائل رجب ثم انتبهت . قلت له : هو شىء يحدث من الخير ان شاء الله تعالى فى رجب هذه السنة بقرينة فضل رجب وذكر النبى صلى الله عليه وسلم واتعاظ الجماعة والبكاء بورك بالفرح والسرور من ذلك الأمر بتوفيق الله تعالى . ورأت امرأة كأن لنا داراً واسعة كبيرة مبيضة وزواياها ملاءى من الخبز المثلث الأبيض بعضه فوق بعض .ثم رأى أخى كأن لى بستانا كبيراً وبها عيناً فيه وفى وسطه بركة مد البصر وقال ليوسف افتح الماء ففتح لجرى فيها أنابيب .

وفى الحادى والعشرين توفى الجمال على بن عثمان الرسعنى أحد الشهود بمسجد سوق القمح رحمه الله وكان بينى وبينه معرفة واجتماع بالمدرسة العزيزية فى مجلس عز الدين بن عبد السلام أيام كان المدرس بها شيخنا السيف الآمدى رحمهم الله .أنشدنى شرف الدين المغربلى قال : أنشدنا قاضى حماة ابن البارزى لنفسه : —

دمشق لها منظر رائق وكل الى حسنها شائق
وأنى يقاس بها بلدة أبى الله والجامع الفارق

وفيها : فى الحادى والعشرين من شعبان توفى الفخر يحيى بن الجمال على بن التاج عبد الواحد بن الفخر ابن أبى الخوف رحمه الله ودفن بالجبل عند أبيه وجده وجد أبيه الفخر رحمهم الله . وفيها : آخر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان توفى الفقيه شرف الدين القزوينى الشافعى وكان رجلا صالحا فقيها متواضعاً خيراً وكان أبدا معيداً بحلب ثم بدمشق فى المدرسة العادلية والشامية المجاورة للبيمارستان وكان ساكنا باهله بالمدرسة وبها توفى ودفن يوم الأربعاء بكرة بمقابر الصوفية بالشرف القبلى رحمه الله . ولم أشهد جنازته كنت غائبا ببيت لهيا وخلف ولدين صغيرين عبد الرحيم وعبد المجيد جبرهم الله تعالى . وفى ثامن رمضان توفى ابن عمتى العز عبد الغفار بن على الكنانى ودفن بمقابر الصحابة بباب الصغير رحمه الله .

وفى هذا الشهر وصل السلطان الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره ونازل حصون الفرنج وبلادها وشن الغارة عليها من جميع نواحيها واستدعى بالمجانيق من دمشق . وجاءنا كتاب بعض أولاد

الملوك تاريخه يوم الجمعة خامس شهر رمضان من جهة المنازلين لهم من ساحل حمص وأعمالها من ناحية حصن الأكراد وأعمال طرابلس بأنهم قد أستولوا على ستمائة أسير من الرجال وما يقارب الألف من النساء والصبيان من ثلاثة حصون وستة عشر برجا والله تعالى يديم نصر الاسلام بمنه وفضله . وفى ثامن عشرى شهر رمضان وصل الى دمشق (على ولد) الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر (ينزل) بالمنازل وهو شاب كان التاتار أستولوا عليه لما قتلوا أباه المستعصم وملكوا البلاد وبقى عندهم إلى أن كسر بركاهولاكو فاتصل ولحق بعرب خفاجة فبقى عندهم إلى أن جاء جماعة معه منهم الى دمشق فى التاريخ المذكور فتلقى وأنزل على الدار الأسدية مقابل المدرسة العزيزية . وفى سابع جمادى الآخرة جرت لى محنة بدارى بطواحين الاشنان فالهم الله الصبر وفعل الله تعالى فيها من اللطف مالا نقـدر على التعبير عنه بوصف ، وكان قيل لى قم واجتمع بولاة الأمر فقلت : قد فوضت أمرى الى الله فلا أغير ما عقدته مع الله وهو يكفينا سبحانه ومن يتوكل على الله فهو حسبه ونظمت فى ذلك ثلاث أبيات :ـــ

قلت لمن قال أما تشتكى ماقد جرى فهو عظيم جليـل

يقيض الله تعـالى لنـا من يأخذ الحق ويشفى الغليـل

اذا توكلنا عليه كفى فحسبنا الله ونعم الوكيـل

وجاءنا الخبر بانه توفى بالقاهرة الضياء صالح بن الشيخ ابراهيم الفارقى ، والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى وكان رفيقنا فى الاجتماع عند الشيخ علم الدين السخاوى ، والشيخ عزالدين بن عبد السلام ثم ناب عنه بالقاهرة فى الحكم بها رحمه الله ومات فى تاسع رجب فى هـذه السنة . وفى العشرين من رجب توفى الكمال اسحاق بن خليل السقطى المعروف بقاضى رزا رحمه الله صليت عليـه إماما بمصلى ابن مرزوق ودفن بالجبل وكان ممن اشتغل على شيخنا فخر الدين بن عساكر . وفى شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقا لقلعة صفد وعمل فيه بنفسه وعسكره وفى بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى ظاهرها إلى ضحوة فسرى ليلة ببعض عسكره وكمن لهم فى تلك الأودية فلما أبعدوا عن عكا خرج عليهم من ورائهم فقتل وأسر وضربت البشائر بدمشق بذلك .

وجاء الخبر من مصر بموت قاضيها تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الاعز فى السابع والعشرين من رجب ومولده فى سنة أربع وستمائة مستهل رجب وهو : تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن خلف بن محمود بن بدر العلامى ومولده بالقاهرة ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى . وفى يوم الأحد ثامن عشر شعبان توفى الجمال محمد بن نعمة النابلسى وكان رجلا صالحا رحمه الله توفى ببستانه ودفن بمقابر باب كيسان عند أبيه .

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
كثيراً إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيـل

وافق الفراغ من نسخه بكرة يوم الثلاثاء رابع عشرى شهر جمادى الأولى من شهور سنة ٩٦٧ هـ
على يد الفقير المعترف بالذنب والتقصير الراجى عفو اللطيف الخبير
محمد بن محمد بن على عامله الله بلطفه الخفى بمنه وكرمه .

فهارس كـتاب

رجال القرنين السادس والسابع

فهرس الوقائع والحوادث الهامة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس الوفيات والتراجم

على ترتيب السنين

فهرس البلدان

« ك »

« ل »

« م »

فهرس الأعلام (١)

(١) لم نعتبر فى تركيب الأعلام كلمات (أبو) و (أم) و (ابن) ومجد الفارى . بازاء بعض الأعلام علامة ═══ وذلك بمعنى أنظر .

(غ)

(ف)